أميلي هنري

على قائمة الكتب الأكثر مبيعًا في نيويورك تايمز

مكتبة

عشّاق وكتب

رواية

ترجمة: آمال ن. الحلبي

التنوير

أميلي هنري

عشّاق وكتب

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط!

telegram @soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكتاب: **عشّاق وكتب**، رواية

تأليف: **أميلي هنري**

ترجمة: **أمال ن. الحلبي**

عدد الصفحات: 432 صفحة

الترقيم الدولي: 2 - 257 - 472 - 614 - 978

الطبعة الأولى: 2024

هذه ترجمة مرخصة لكتاب
Book Lovers
by Emily Henry
Copyright © 2022 by Emily Henry

الناشر

دار التنوير

لبنان: بيروت- الرملة البيضاء- بناية بنك لبنان والخليج- الطابق الثاني
هاتف: 009611797434
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

تونس: 16 الهادي خفشة - عمارة شهرزاد - المنزه 1 - تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com
موقع إلكتروني: www.daraltanweer.net
www.daraltanweer.com

أميلي هنري

مكتبة
t.me/soramnqraa

عشّاق وكتب

رواية

ترجمة

أمال ن. الحلبي

التنوير

مكتبة
t.me/soramnqraa

تمهيد

عندما تكون الكتب محور حياتك -أو حتى محور عملك كما في حالتي- تنمو لديك مهارة في تبيّن الوجهة التي ستتّخذها الحوادث في كل رواية. وما تلبث العناصر الأساسية مثل الأسلوب الروائي، ونماذج الشخصيات، والانعطافات الشائعة في الحبكة، أن تتّضح معالمها في ذهنك وتنتظم على أساس النوع الأدبي وتقنيّاته.

الزوج هو القاتل.

تخضع المرأة المهووسة بالعمل إلى تغيير في مظهرها، فتبدو مثيرة حقًّا بلا نظّارة.

يفوز الشاب بقلب الفتاة - أو تفوز فتاة أخرى بقلبها.

يجتهد أحدهم في شرح نظرية علمية معقّدة، ليفاجئه أحد المستمعين بالقول: «هلّا تتكلّم باللغة التي نفهمها من فضلك؟».

قد تتغيّر التفاصيل من كتاب إلى آخر، لكن ما من جديدٍ حقًّا تحت الشمس.

خذ على سبيل المثال قصص الحب التي تحدث عادةً في البلدات الصغيرة.

ذلك النمط من القصص حيث تقوم شركة تجارية كبرى في نيويورك، أو في لوس أنجلوس، بإرسال أحد موظفيها الانتهازيين بامتياز إلى بلدة في الريف (تُدعى سمولتاون على سبيل المثال) ، وذلك من أجل دفع مشروع عائلي متواضع يقوم على زراعة أشجار عيد الميلاد إلى الإفلاس، لتبني للشركة في مكانه لاحقًا بناء شاهقًا «لا روح فيه».

لكن الأمور لا تسير دائمًا بحسب الخطّة المرسومة، وذلك بالطبع لأن

المشروع الزراعي مثلًا، أو الفرن الذي كان ابن المدينة «البطل» الميمون قد ذهب من أجل دفعه إلى الإفلاس، تديره امرأة في منتهى الجاذبية، وتشاء المصادفة أن تكون على أتمّ الاستعداد لمواعدته، ولتعيش معه قصّة حبّ رائعة.

ولبطل القصة المذكور في المدينة حبيبة. وهي إنسانة قاسية تشجّعه لكي ينفّذ المهمّة التي ذهب من أجلها، ويهدم حياة بعض الناس بهدف نيل الترقية الكبيرة التي وُعد بها. إنها، من مقعد دراجتها الرياضية الحديثة من طراز بيلوتون[1]، لا تتوقّف عن تزويده بنصائحها الجائرة عبر الهاتف.

إنها تكره تقاليد الزينة في عيد الميلاد، أما شعرها بلونه الأشقر الزائف، والمشدود إلى الخلف على طراز تسريحة الممثلة شارون ستون في فيلم *Basic Instinct*، فيفشي بسهوله ميولها الشريرة.

وإذ يقضي بطل القصة مزيدًا من الوقت مع ابنة البلدة المتواضعة، الخيّاطة، أو صاحبة المزرعة أو الفرن...، تتغيّر الأمور بالنسبة إليه، ويكتشف معنى الحياة الحقيقية.

ثمّ يعود إلى مدينته، وقد تغيّرت أذواقه بفضل قصّة الحبّ التي يعيشها مع تلك الفتاة الطيّبة، فيطلب من حبيبته السابقة صاحبة القلب الجليدي الخروج معه في نزهة على الأقدام. فتجيبه بفمٍ فاغر، وتقول شيئًا مثل: *كيف تدعوني إلى نزهة سيرًا على الأقدام الآن، بحذائي العالي والثمين هذا؟*.

«*هيّا تعالي، سنتسلّى*»، يجيبها. وفيما هما سائران، ربّما يسألها النظر إلى السماء والتأمّل في النجوم.

فترفض بغضب، وتقول: "*تعلم أنّي لا أستطيع النظر إلى الأعلى الآن. تلقّيت حقنة البوتوكس منذ قليل*".

ثمّ يلاحظ أنه لا يستطيع العودة إلى حياته السابقة بعد الآن؛ حتى إنه لا

---

(1) Peloton: دراجة رياضية ثابتة تسمح باستخدام الحاسوب أثناء التمرين.

يرغب في ذلك. وهكذا ينهي علاقته الباردة وغير المرضية معها، ويعرض الزواج على حبيبته الجديدة التي استحوذت على قلبه (حتى ومن غير الدخول في روتين المواعدة المعروف).

عند هذه النقطة قد تجد نفسك تصرخ في الكتاب: «حتى إنك يا حقير لا تعرفها جيّدًا! هل تعرف اسم أبيها؟». ومن طرف الغرفة الآخر، قد تنبهك أختك الصغيرة ليبي إلى وجوب التزام الهدوء لأنكما في المكتبة، وقد ترميك ببعض حبّات الفوشار من دون أن ترفع رأسها عن الكتاب القديم ذي الغلاف المتداعي الذي بين يديها.

ولذلك تمامًا، تجدني وصلت الآن متأخرة إلى موعد غداء العمل.

هكذا هي حياتي. هذه هي المشاهد التي تسود أيامي؛ إنها الحبكات التي تنطبق تفاصيلها على حياتي.

ولكنّي ابنة المدينة. لست الشخصية التي تتعرّف إلى المُزارع الجذّاب، إنما *الشخصية الأخرى*.

إنّي الوكيلة الأدبية الجدّية والعصبية أحيانًا، والتي تهتمّ دائمًا بأناقة مظهرها وجمال أظافرها، والتي تقرأ مسوّدات الكتب من على مقعد درّاجتها الرياضية، وقد تعرض شاشة الكومبيوتر أمام عينيها مشهد شاطئ خلّاب من غير أن تعيره أدنى انتباهها.

أنا هي الشخصية التي يتخلّى عنها الحبيب. لقد عشت هذه القصة وقرأتها مرّات عدّة كافية لكي أعلم أنّي أعيشها مجدّدًا في هذه اللحظات؛ فيما أشقّ طريقي بين المارّة في زحمة المدينة، والهاتف متشبّث بأذني.

لم يتلفّظ بتلك الجملة بعد. ولكنّي أشعر بالوبر على ظاهر رقبتي ينتصب، وبفجوةٍ في معدتي تنفتح، فيما أراقب تحايله في جرّ الحديث بيننا إلى الهاوية، وإلى مشهد السقوط المرعب كما في أفلام الصوَر المتحرّكة.

كان من المتوقّع أن تستغرق رحلة صديقي غرانت إلى تكساس أسبوعين لا أكثر. تحديدًا، المدة الكافية لإتمام صفقة شراء ذلك الفندق الصغير القائم في جوار مدينة سان أنطونيو لصالح الشركة التي يعمل لديها. وحيث

إنّي سبق وقاسيت مرّتين من تجربة الانفصال عقب عودة صديقي من رحلة العمل، كان ردّ فعلي عندما أخبرني أنه ذاهب إلى تكساس، كما لو كان أخبرني بالتحاقه بالقوات البحرية وانطلاقه إلى البحر في الصباح التالي.

حاولت ليبي إقناعي بأنّي بالغت في ردّ فعلي؛ لكنّه لم يفاجئني عندما لم يلتزم بموعد مخابرتنا الهاتفية الليلية ثلاث مرّات متتالية، ولا عندما أنهى المخابرة بسرعة مرّتين. كنت أعلم أن علاقتنا أشرفت على نهايتها.

ثمّ، ومنذ ثلاثة أيام، وقبل بضع ساعات من موعد عودته، انتهى كل شيء.

كان السبب المهمّ الذي أدّى إلى بقائه في سان أنطونيو لمدّة أطول من المتوقّع هو انفجار زائدته الدودية.

لعلّه كان من المفترض أن أحجز لنفسي مقعدًا على الطائرة فورًا، وألاقيه إلى المستشفى. لكنّي كنت منشغلة بحملة مبيعات مهمّة وكان عليّ البقاء قريبة من هاتفي وحيث التواصل عبر الإنترنت ممكن في أيّ وقت. كان اعتماد الكاتبة عليّ كبيرًا، وتوقّعنا أن يكون لنجاح تلك المبيعات دور حيوي جدًّا في مسيرتها الأدبية. علاوةً على ذلك، كان غرانت قد أوضح لي أن جراحة استئصال الزائدة الدودية بسيطة وروتينية. وقال تحديدًا: «الأمر غير ذي أهمية».

وهكذا لم أبرح مكاني، على الرغم من معرفتي العميقة بأنّي كنت إذ ذاك أترك غرانت بين أيدي آلهة القصص الرومنسية لتفعل به ما تتقن فعله عادةً.

الآن، وبعد مرور ثلاثة أيام، وفيما أنا أسير بما يشبه القفز بحذائي العالي إلى موعد الغداء المهني، وقبضتي تتشبث بالهاتف الملتصق بأذني، أشعر وكأن طرق إدخال المسمار الأخير في نعش علاقتي مع غرانت يتردّد صداه في مفاصلي مع كل كلمة كان يتلفظ بها.

«أعِد ما قلته!»، كنت أريد أن تأخذ جملتي شكل السؤال، فإذا بها تخرج مني بنبرة الأمر.

يتنهّد غرانت ويجيب: «لن أعود يا نورا! لن أعود. فالأمور تغيّرت

بالنسبة لي في الأسبوع الماضي». ويضيف بصوت جافّ: «نعم لقد تغيّرت».

أحسست بلكمة تصيبني في قلبي، قلب ابنة المدينة البارد. «هل هي الفرّانة؟»، سألته.

لم أسمع ردًّا للحظات، ثم قال: «ماذا؟».

«هل هي صانعة الخبز؟». قلت، وكأنه السؤال العادي الطبيعي الذي يُطرح عندما يعلن حبيبك تخلّيه عنك عبر الهاتف. وأوضحت: «أعني المرأة التي تتركني من أجلها».

وبعد برهة وجيزة من الصمت، يقرّر الإفصاح: «إنها ابنة الزوجَين مالكَيّ الفندق. اتّخذا القرار بعدم بيعه. سوف أبقى هنا لكي أساعدهما في إدارته».

لم أتمكّن من فعل شيء سوى الضحك. هكذا يكون ردّ فعلي عادةً على الأخبار السيئة. وهذا قد يكون السبب وراء وصمة المرأة الشريرة التي تلاحقني في حياتي. ما الذي يمكنني فعله غير ذلك؟ هل أنفجر في نوبة بكاء على هذا الرصيف المزدحم بالناس؟ ما الفائدة من ذلك؟

وقفت أمام باب المطعم، وفركت عينيّ بلطفٍ، وقلت: «إذًا، هل يعني هذا أنك ستتخلّى عن وظيفتك الممتازة، وعن شقتك الممتازة، وعنّي، وتنتقل إلى تكساس. وكلّ ذلك من أجل فتاة أفضل ما يمكن وصف عملها به، هو أنها ابنة الزوجَين المالكين للفندق؟».

فيجيب على الفور: «هناك أمور في الحياة أشدّ أهمية من المال ومن مهنة لامعة يا نورا».

ضحكتُ مجدّدًا، وقلت: «أشكّ في أنك تصدّق حقًّا ما تتفوّه به. هل تدّعي أنك جادّ في ما تقول؟ أكاد لا أصدّق».

والد غرانت ملياردير، وهو أحد أكبر مالكي الفنادق في البلاد. «ترعرع غرانت وفي فمه ملعقة من ذهب»، حتى إنّه لا يحاول إخفاء ذلك. وربّما كان ورق الحمام في منزله العائلي من رقائق الذهب أيضًا.

بالنسبة إليه، لم تكن متابعة الدراسة الجامعية أكثر من سلوك شكلي، وكذلك كانت مرحلة التدرّب العملي. اللعنة! ربّما كان ارتداء *البنطال* بالنسبة إليه لا يتعدّى حدود الشكليّات أيضًا! أما حصوَله على وظيفته الحاضرة المرموقة، فما كان سوى بفضل المحاباة والمحسوبيات حصرًا.

وهذا بنظري ما يجعل من تعليقه الأخير تحديدًا، غنيًّا بالمعاني المجازية، وبالمعاني الحرفية أيضًا.

ولذلك كان يجب أن أسأله بصوتٍ عالٍ: «ما المعنى الذي تقصده بهذا الكلام؟».

استرقت النظر إلى داخل المطعم، ثمّ نظرت إلى الساعة على شاشة هاتفي. تأخرت عن الموعد. *ليس التأخّر من عادتي البتّة*، وليس الانطباع الأول الذي أريده في هذه المقابلة الأولى.

«إنك يا غرانت وريث ثروة كبيرة، وما زلت في الرابعة والثلاثين. أما بالنسبة إلى معظمنا فإن تأمين قوتنا يرتبط مباشرة بالوظيفة».

قال: «هكذا تمامًا! إنها تلك النظرة إلى العالم التي سئمت منها. إنكِ باردة جدًّا أحيانًا يا نورا. شاستيتي وأنا، نريد أن ــ».

لا أقصد أن أكون جارحة عندما ألفظ اسمها وأرفقه بالقهقهة. عندما تسوء الأمور إلى حدّ مضحك، أتخيّل أنّي أخرج من جسدي، وأراقب ما يحدث عن بعد، وأفكّر: «*هل هذا حقًا ما اختاره الكون لي؟ إنها لكمة موجعة على الأنف، أليس كذلك؟*».

يبدو أن الكون اختار أن يرمي حبيبي في حضن فتاةٍ تحمل اسمًا يوحي بالعذرية، أي بالامتناع عن فضّ غشاء البكارة. أجد ذلك مضحكًا بالفعل.

وفي الطرف الآخر، استمرّ غرانت يحاول نفث توتّره بالقول: «إنهم أناس طيّبون يا نورا. إنهم ملح الأرض. هكذا أريد أن أكون. اسمعي يا نورا! لا تدّعي الانزعاج ــ».

«تقول إنّي أدّعي ماذا؟».

«ما كنتِ يومًا بحاجة إليّ ــ».

«إنّي لا أحتاجك طبعًا!». عملتُ واجتهدت لبناء الحياة التي أريدها لنفسي، ولكي لا تكون مقاليد حياتي في يد أحد، وكي لا يتمكّن أحد أن يجرّدني منها ساعة يشاء، ويرميني بلا رحمة في فضاء الغبار الكوني.

«حتى إنكِ لم توافقي على قضاء ليلة واحدة في شقتي ــ»، قال.

«فراشي أفضل!»، أمضيت تسعة أشهر وأكثر في البحث قبل أن أختاره. ومن دون أدنى شكّ، إنها طريقتي بالمواعدة تحديدًا! ومع ذلك، أجدني أصل إلى هنا.

قال غرانت: «لذلك، لا تدّعي أنك مكسورة القلب، أشكّ حتى بقدرتك على أن تكوني مكسورة *القلب*». وهنا أيضًا وجدتني أضحك.

لأنّه مخطئ، وبالنسبة إلى هذا الأمر بالذات. بعد أن يكون القلب قد تحطّم بالفعل، فإن مكالمة هاتفية لا تؤذي بدرجة كبيرة، قد تتمكّن من إحداث وخزة في القلب، لكنها بالتأكيد لا تكسره.

وتابع غرانت في كَيْل اتهاماته واثقًا: «حتى إنّي لم أرَك يومًا تبكين».

أهلًا وسهلًا، كدت أجيبه. كم من مرّة أخبرتنا أمي وهي تضحك بين دموعها المنهمرة، أن صديقها الأخير عاب عليها أنها عاطفيّة جدًّا؟

إنه الواقع الذي يلاحق النساء. يَبقين عرضة للملامة مهما فعلن. إن أفرجتِ عن عواطفك وانفعالاتك من دون تردّد، تُتهمين بالهستيريا. وإن دفنتِها في أغوار نفسك حيث ليس لصديقك إليها سبيل، تُتهَمين بأنك قاسية ومن دون قلب.

«كفى الآن يا غرانت، يجب أن أنصرف إلى عملي»، قلت.

«طبعًا، تريدين الانصراف إلى عملك»، أجاب.

يبدو أن اهتمامي بمتابعة التزاماتي يشكّل مدخلًا آخر إلى وصفي بالبرود، وبأنّي أشبه بامرأة آليّة وشريرة، ترتاح إلى النوم على فراش من أوراق المئة دولار وفي سرير من أحجار الألماس الخام (لو وُجدَت).

أنهيت المكالمة من دون تحية وداع، وتقدّمت إلى تحت الخيمة التي

تظلّل مدخل المطعم الأمامي. توقّفت قليلًا ريثما تنتظم أنفاسي، ولأراقب دمعي، لكنه لم ينهمر. إنه لا ينهمر قطّ، ولا بأس بذلك.

إنّي هنا في مهمّة عمل، وعلى خلاف رأي غرانت، سألتزم بواجب إنجازها من أجلي، ومن أجل كل العاملين معي في مركز الوكالة الأدبية «نغوين\Nguyen».

رتّبتُ شعري بيدي وأجلست قامتي ودخلت، فاقشعرّ جلدي للتوّ من لفح هواء المكيّف.

كان الوقت قد تجاوز ساعة الغداء والمطعم غير مكتظ بالزبائن. أدرت نظري في أرجاء المطعم فوقعت عيناي على شارلي لاسترا جالسًا إلى طاولة في الجهة الخلفية، ولاحظت للتوّ هندامه الأسود، فقلت في نفسي «لعلّه مصّاص دماء متخصّص في التحرير».

لم أره وجهًا لوجه من قبل، لكنّي قرأت في المجلّة الأسبوعية *Publishers Weekly* التي تُعنى بأخبار عالم النشر، الإعلان الذي يفيد عن ترقيته إلى مركز محرّر تنفيذي في دار وارتن للنشر، واحتفظت بصورته في ذاكرتي: حاجبان داكنان مقطّبان، عينان ذات لون بنّي فاتح، وتغضّن على شكل خطّ خفيف تحت شفتيه الممتلئتين؛ إضافة إلى شامة داكنة على أعلى خدّه، لو كانت على خدّ امرأة لاعتُبرت حتمًا من سمات جمالها.

لا توحي ملامح وجهه، التي ربّما يميل الناظر إلى وصفها بالصبيانية، بأنه تجاوز الخامسة والثلاثين منذ زمن بعيد، لولا التعب البادي عليها، والشيب الذي توزّع بالتساوي بين شعره كأنه رشّة الملح في الفلفل الأسود.

لاحظت أيضًا تجهّمًا على وجهه. لعلّه كان مغتاظًا، أو هكذا أوحت لي شفتاه المزمومتان. تُرى ماذا أسمّي هذا المزيج من أمارات الاستياء والعبوس؟

نظر إلى ساعته.

الأمر ليس مطمئنًا. قبل انطلاقي من المكتب بلحظات، أنذرتني مديرتي

إيمي بأن شارلي معروف بقلّة صبره. ولكنّي لم أعبأ بالتنبيه، لأنّي تعوّدت الحرص على دقّة المواعيد.

إلّا عندما يتخلّى عني حبيبي عبر الهاتف؛ عندئذٍ، وعلى ما يبدو، أتأخر ستّ دقائق ونصفًا عن الموعد.

«سلام! أنا نورا ستيفنز»، قلت فيما كنت أقترب منه، ومددتُ يدي لأسلّم عليه. «أخيرًا. يسعدني أن أتعرّف إليك شخصيًا».

وقف، وسمعت جلبة أرجل الكرسي على الأرض. وسرعان ما لاحظت أنه في ثيابه السوداء، إضافةً إلى ملامحه الداكنة وشكله العام، يبدو وكأنه ثقب أسود يمتصّ من الغرفة ضوءها ويبتلعه كليًّا.

يذهب معظم الناس إلى ارتداء الأسود لأنه خيار سهل يضمن الاحتفاظ بمظهر جدّي في أجواء العمل. ولكنّ هندامه الأسود يوحي بأنه خيار خاصّ جدًّا. انسجام كنزته من صوف المورينو الناعم والمريح مع بنطاله وحذائه الجلدي الثمين من طراز «بروغ» الإيرلندي الشهير، يذكّر بالمشاهير الذين يتبعهم المصوّرون ليلتقطوا لهم صورًا هاربة بين شوارع المدينة. تنبّهت في لحظة خاطفة إلى أنّي كنت أقدّر مجموع الدولارات الأميركية التي كان يرتديها. إنها العادة التي تعيبها عليّ أختي ليبي وتسمّيها «الألعوبة المزعجة التي يتسلّى بها أبناء الطبقة المتوسطة في الحفلات»، ولكنّي في الحقيقة أحبّ الأشياء الجميلة، حتى إنّي غالبًا ما ألجأ إلى مجرّد استعراض الثياب والبضائع الجميلة على الانترنت من أجل تلطيف مزاجي بعد يوم عمل طويل.

أقدّر أن ثمن ملابس شارلي يتراوح ما بين ثمانمئة وألف دولار. تمامًا في حدود ثمن الملابس التي أرتديها. ولكنّي أعترف بصراحة، أنّي كنت قد اشتريت كل ما أرتديه مستعمَلًا، ما عدا حذائي.

تفحّص يدي الممدودة خلال ثانيتين طويلتين قبل أن يصافحها، ويقول: «تأخرتِ عن الموعد». وجلس حتى من غير النظر إلى وجهي.

هل هناك أسوأ من رجل لا يعبأ بأدنى قواعد التهذيب الاجتماعي لمجرّد

أنه وُلد بوجه مقبول ومحفظة سمينة؟ يبدو أن غرانت كان قد استنفد معدّل احتمالي في اليوم الواحد للأشخاص المغرورين بأنفسهم. ومع ذلك، لم أنسَ أن من واجبي الاستمرار في اللعبة من أجل المؤلّفين الذين أولوني ثقتهم.

قلت بأسلوبٍ يوحي برغبتي في الاعتذار، ولكنّي لم أعتذر مباشرةً: «أعلم ذلك. شكرًا لأنك انتظرتني. توقّف القطار الذي كنت أركبه لأمرٍ طارئ. تعلم كيف تحدث مثل هذه الأمور».

رفع عينيه إلى عينيّ، فلاحظت أنّهما أكثر اسودادًا ممّا توقّعت، إلى درجة أنّي لم أتيقّن من وجود القزحية حول البؤبؤ. أما تعابير وجهه فكأنها تقول إنه لا يعلم كيف تحدث مثل تلك الأمور - مثل توقّف القطار على السكة لأسباب مخيفة، أو حتى عادية.

ربّما لا يركب قطار الأنفاق.

وربّما يذهب إلى كلّ مكان في سيارة ليموزين سوداء لامعة أو في عربة من الطراز القوطي تجرّها خيول أصيلة من نوع كلايدستال. خلعت سترتي بحركة رشيقة، (وهي موديل هرّينغبون\herringbone، من دار أزياء إيزابيل مارانت)، وجلست في المقعد المقابل لمقعده. «هل طلبت الطعام؟»، سألته.

أجاب «كلّا»، ولم يضِف حرفًا.

وتراجعت آمالي.

كنّا قد خطّطنا للقاء التعارف هذا حول وجبة الغداء منذ أسبوعين. ولكنّي أرسلت إليه يوم الجمعة الماضي مسوّدة جديدة للكاتبة دَستي فيلدِنغ (Dusty Fielding)، وهي من أوائل المؤلّفين الذين يوكلون إليّ أمور أعمالهم. وأجدني الآن أعيد النظر في إمكان أن أوكل أمرعملائي إلى هذا الرجل.

التقطت قائمة الطعام، وقلت: «يقدّمون نوعًا من السلطة مع الجبن المصنوع من حليب الماعز. إنها رائعة!».

أغلق شارلي القائمة التي في يده، ونظر إليّ. «بدايةً...»، قال وقطّب حاجبَيْه الأسودَين الكثيفَين، ثمّ تابع بصوت منخفض وبحّة طبيعية: «أريد أن أعلمك أنّي وجدت كتاب فيلدِنغ الجديد غير جدير بالقراءة».

أصابتني المفاجأة في الصميم فارتخى حنكي. لم أعلم بماذا أجيب. بدايةً، لم أكن عازمة على طرح موضوع هذا الكتاب على بساط البحث. إن اتّخذ شارلي قراره برفض الكتاب، باستطاعته أن يبلّغني ذلك في رسالة إلكترونية، ومن دون استخدام عبارة «غير جدير بالقراءة».

عدا عن ذلك، كان حريّا به قبلَ أن يبدأ بقذف الإهانات، ومن من باب اللياقة المألوفة، الانتظار على الأقلّ ريثما نضع لقمة خبز على الطاولة.

أغلقت قائمة الطعام بدوري وعقدت يديّ فوق الطاولة، وقلت: «أرى أن هذا الكتاب هو أفضل نتاج دَستي فيلدنغ حتى الآن».

كانت دَستي قد نشرت ثلاثة كتب من قبل؛ كلّها رائعة ولكنها لم تسجّل أرقامًا عالية على لوائح المبيعات. لذلك، وإذ لم يبدِ ناشر تلك الكتب استعداده للمغامرة بنشر كتابها الجديد، عادت الكاتبة إلى المربّع الأوّل، لتفتّش عن ناشر جديد لأعمالها التالية.

حسنًا، ربّما القصة الجديدة ليست بنظري الأفضل بين كتبها، ولكنها تتمتّع بجاذبية تجارية عالية. ولعلّها لو حظيت بالناشر المناسب، فعلى الأرجح ستلاقي رواجًا كبيرًا.

استوى شارلي في كرسيّه، وشعرت بنظراته الفاحصة توخز عظامي. كأنه يخترق بعينيه قناع تهذيبي اللامع ويرى الخدوش وراءه. كانت عيناه تقولان: *امسحي هذه الابتسامة الجليدية عن وجهك، فلستِ بهذه الدماثة.*

أدار كأس الماء بين أصابعه من غير أن يزيحه من مكانه. ثمّ قال: «كتاب *The Glory of Small Things* (عظمة الأمور البسيطة) هو أفضل ما كتبَت دستي». وكأن ومضة لقاء خاطفة بين عينينا كانت كافية لكي يقرأ في عمق تفكيري، ويعلم أنه تكلّم بلسان حالي أيضًا.

بصراحة، الكتاب المذكور هو أحد أفضل الكتب التي استمتعت

بقرأتها في العقد الأخير، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن كتابها الحاضر فتاتٌ تافهٌ.

أجبت: «هذا الكتاب جيّد جدًّا أيضًا ولكنه من نوع آخر- ربّما أقل غموضًا، ولكن ذلك يعطيه ميزةً سينمائية».

«أقلّ غموضًا؟» قال، ورمقني بشزر. ولكن ذلك ساعد على الأقل في عودة اللون البني المائل إلى الذهبي إلى عينيه، وخفّف إحساسي بأن نظراته تكاد تثقب وجهي بوهج حدّتها. «إنكِ بما تقولينه أشبه بقائل إن شارلز مانسن[1] كان يعمل كمدرّب في فن الحياة. ربّما فعل ذلك، ولكن ذلك لم يكن الأبرز في سيرته. وهذا الكتاب يوحي بحكاية شخص شاهد الفيلم الدعائي الذي نشرته سارة ماكلاشلن Sarah McLachlan بهدف الامتناع عن تعذيب الحيوانات»، وفكّر في نفسه: *ماذا لو تموت جميع هذه الكلاب أمام الكاميرا؟*.

وخرجت مني ضحكة موتورة. «حسنًا، لا يناسب هذا الكتاب ذوقك». قلت وكأني نفثت شيئًا من دخان الغيظ الذي كاد يشعلني، وتابعت: «قد يكون مفيدًا أن تشير إلى التفاصيل التي أعجبتك في الكتاب، لكي أعلم في المستقبل أصناف الكتب التي تستسيغها».

قلت ذلك، وأحسست بصوت داخلي يؤنّبني: *كاذبة، لن ترسلي إليه أي كتابٍ بعد الآن.*

وإذا بعينيه العميقتين تردّان بصمت: *كاذبة، أعلم أنك لن ترسلي لي أي كتاب بعد الآن.*

يبدو وكأن هذه العلاقة المهنية التي كنت أتوقّع ولادتها بعد هذا اللقاء، ماتت قبل أن تبصر النور.

---

(1) Charles Manson 1934-2017

السفاح الذي ادّعى أنه المسيح. اتّخذ له عددًا من الأتباع ودفعهم إلى القيام بسلسلة جرائم أرعبت أميركا.

لا يرغب شارلي في العمل معي. وأنا لا أرغب في العمل معه. ولكن يبدو أنه لم يهمل جانب التهذيب الاجتماعي كلّيًا، لأنّه شرع بالإجابة عن سؤالي.

قال أخيرًا: «إني لا أميل إلى التركيز على الجانب العاطفي كما هو الأمر في هذا الكتاب، وأرى ملامح الشخصيات مضخّمة كما لو كانت كاريكاتورًا ـــ».

«هل تريد القول إنها نافرة؟ لا أوافقك الرأي، قد نتمكّن من تلطيفها إلى حدّ معيّن، ولكن عدد الشخصيات كبير، ومن شأن الصفات الناتئة مساعدة القارئ على التمييز بينها».

لكنه أضاف مكمّلًا جملته الأولى: «والإطار المكاني ـــ»

قلت على الفور: «ما الذي لم يعجبك في المكان؟»، الإطار المكاني في *مرّة في العمر*| *Once in a Lifetime* يكفي وحده لجذب القرّاء. «قرية صنشاين فولز Sunshine Falls ساحرة».

أدار شارلي عينيه مظهرًا استياءه، وقال بسخرية واضحة: «إنها شديدة البعد عن الواقع».

اعترضتُ على الفور: «بل إنه مكان حقيقي».

في الواقع، تضع الكاتبة تلك البلدة الجبلية في إطار يكاد يكون مثاليّ الأوصاف، ممّا دفعني إلى البحث عنها على صفحات غوغل. وإذا بي أجد أن بلدة صنشاين فولز موجودة بالفعل في شمال كارولاينا، وهي قريبة من مدينة آشفيل.

هزّ شارلي رأسه وبدا عليه التوتّر. ولعلّ كلينا كان متوتّرًا.

لا أستسيغ هذا الرجل. لو كنت أجسّد على أرض الواقع النموذج القصصي لفتاة المدينة، فسيجسّد هو بالتأكيد نموذج الرجل العنيد وربّما القاسي، والذي يصعب إرضاؤه، والمتزمّت الذي يرفض التغيير، وعدوّ البشرية، وشخصية أوسكار ذي غراوش المتشائم دائمًا في برنامج الأطفال *سيزامي ستريت*، وشخصية هيثكليف المتقلّب والمنتقم، كما في الجزء

الثاني من رواية *مرتفعات ويذرينغ*؛ وربّما يجسّد السّمات الأشدّ سوءًا في شخصية السيد نايتلي في رواية *إيمّا* للكاتبة جاين أوستن[1].

تملّكني الأسف إزاء كل ذلك؛ خصوصًا بالمقارنة مع ما هو معروف عنه في عالم الكتب، وهو أنه صاحب اللمسة السحرية حتى إن عددًا من زملائي يلقّبونه بالإله ميداس الذي يحوّل كل ما تقع عليه أنامله إلى ذهب؛ (بخلاف آخرين يشبّهونه بالسحاب التي يتقدّم العاصفة، كقولهم إنه «يمطر ذهبًا ولكن لقاء أثمان باهظة»).

محور الأمر هو أن شارلي لاسترا يختار الرابحين فحسب. وها هو لا يريد اختيار كتاب دَستي فيلدنغ مرّة في العمر. ولكنّي تمسّكت بإظهار ثقتي بالكتاب، لعلّني أدعم ثقته به، فعقدت ذراعيَّ فوق صدري، وقلت بعزم: «أؤكّد لك أنّ صنشاين فولز مكان حقيقيّ مهما بدا لك غير واقعي».

«قد يكون المكان موجودًا، ولكنّي أقول إن دَستي فيلدنغ لم تره بأم عينها قطّ». أجاب شارلي.

«وأين الأهمية في ذلك؟». سألته، وأقلعت عن التظاهر بالتهذيب المعتاد.

ارتجفت شفتاه أمام فَوْرتي، وقال: «هل تريدين معرفة الجوانب التي لم تعجبني في القصة ـ؟».

«بل أريد تلك التي أعجبتك»، قلت مصحّحة.

وتابع: «ـ لم يعجبني الإطار المكاني».

اخترقت وخزة الغضب مجرى تنفّسي واستقرّت في الرئتين. قلت: «ماذا لو تخبرني، أستاذ لاسترا، عن نوع الكتب التي تعجبك؟ هذا كل شيء».

استرخى وأسند ظهره إلى الخلف جيّدًا في كرسيّه، وبدا مرتاحًا وغير مكترث، فكأنه ذلك القطّ المفترس الذي يلهو بتعذيب فريسته. وأدار

---

(1) صدرت الرواية عن دار التنوير.

كوب الماء بين أصابعه مجدّدًا، فمرّ في بالي أنها ردّة فعل عصبية يقوم بها. ولكنها ربّما تكتيك تعذيب بطيء يعتمده. وإذا بي أشعر برغبة جامحة قد تحملني إلى قذف ذلك الكوب بعيدًا عن الطاولة.

«أريد باكورة نتاج فيلدنغ مثل *The Glory of Small Things*».

أجبت: «لم يسجّل هذا الكتاب أرقام مبيعات عالية».

قال لاسترا: «لأن الناشر لم يحسن تسويقه. باستطاعة دار النشر وارتن أن تفعل ذلك. باستطاعتي أنا أن أفعل ذلك».

تقوّس حاجباي، ورأيتني أبذل جهدًا لكي أعيدهما إلى وضعهما الطبيعي.

وفي هذه اللحظة، اقتربت النادلة من طاولتنا وسألت بدماثة: «هل أقدّم إليكما شيئًا، ريثما تنتهيان من استعراض القائمة؟».

«أريد سلطة مع جبنة الماعز». قال شارلي من دون أن ينظر إلى أيّ منّا. ربّما كان يخطّط إلى إصدار حكمه على السلطة المفضّلة لديّ بأنها لا تؤكل.

«ولك سيّدتي؟»، سألتني النادلة.

حاولت إخفاء الارتعاد الذي يصيب عمودي الفقري كلّما خاطبني أحدٌ تجاوز العشرين بهذه الطريقة. ربّما هكذا تشعر الأرواح عندما يتسكّع الأشخاص فوق قبورها.

أجبت: «أريد الطبق نفسه أيضًا». ثمّ، وعلى أثر ما كنت قد عانيته حتى تلك الساعة في ذلك النهار الصعب؛ ولأني لم أهتمّ للانطباع الذي قد أتركه لدى أيّ كان -ولأني سأكون مرغمة على تمضية أربعين دقيقة إضافية على الأقل بصحبة هذا الشخص الذي لا أنوي التعاون معه مهنيًا- أضفت: «وكأس من الجين مع المارتيني ورشّة ملح، من فضلك».

راقبَني شارلي من غير أن يتجاوز ردّ فعله حركة طفيفة من حاجبه. إنها الثالثة بعد ظهر الخميس. لم ينتهِ دوام العمل رسميًا بعد. ولكن، من حيث إن نشاط النشر يتوقّف تقريبًا في الصيف، ومعظم العاملين في القطاع لا

يأتون إلى مكاتبهم أيام الجمعة. لذلك كان يمكن القول إن عطِلة نهاية الأسبوع قد أذِنت.

«يا له من يوم سيّئ»! تمتمت لنفسي، فيما انطلقت النادلة لتلبّي طلباتنا.

«قد لا يكون أسوأ من يومي»، ردّ شارلي باقتضاب، فبقيت كلماته المحتملة التالية غير محكيّة: *قرأت ثمانين صفحة من كتاب مرّة في العمر، ثم جلست معك.*

وعدتُ إلى موضوع الكتاب بلكنة ساخرة: «هل أنت متأكّدٌ أنك لم تحبّ الإطار المكاني؟».

«من الصعب أن أتخيّل أمرًا أقلّ متعة من قراءة أربعمئة صفحة في مثل هذا الإطار».

فقلت: «هل تعلم أنك لطيف بالمقدار الذي توقّعته تمامًا على ضوء ما حدّثني به الآخرون».

«لا أستطيع التحكّم بمشاعري»، قال ببرود.

فأجبت بخشونة: «ما تقوله أشبه بأن يقول شارلز مانسن إنه ليس من ارتكب الجرائم. قد يكون قوله صحيحًا بالمعنى التقني، ولكن جوهر الموضوع يكمن في مكان آخر».

تعود النادلة بكأس المارتيني الذي طلبته. وإذا بشارلي يتمتم قائلًا: «هل يمكنك إحضار كأس مماثل لي أيضًا؟».

***

في ساعة لاحقة من تلك الليلة، وصلت إلى هاتفي رسالة إلكترونية.

نورا،

لا تتردّدي في إطلاعي على نتاج دَستي المقبل.

شارلي

يا للعجب! لم يكلّف نفسه طباعة بعض عبارات اللياقة المتّبعة عادةً، مثل: «سررت بالتعرّف إليكِ»، أو «أرجو أن تكوني بخير».

تخطّيت غيظي، وأجبته بالأسلوب عينه:

شارلي،
سوف تكون أوّل من يعلم، عندما تكتب دستي قصّةً عن المدرّب في فن الحياة، شارلي مانسن.

نورا

أسقطتُ الهاتف في جيب بنطالي، وفتحت باب الحمام لكي أبدأ في الروتين المسائي للعناية ببشرتي والذي يتألّف من عشر خطوات أحرص كل الحرص على تطبيقها من دون خلل (حتى إني أسميها أيضًا ´الدقائق الخمس والأربعين الفضلى في نشاطي اليومي´). ولكني شعرت بارتجاج الهاتف في جيبي، فأخرجته لأكتشف الرسالة التالية:

ن.
النكتة غير موفّقة لأني سأحبّ كثيرًا قراءة شيء من هذا القبيل.
- ش

ولأني أصرّ دائمًا على أن تكون الكلمة الأخيرة لي، كتبت:
ليلة سعيدة...
(ولكني لم أقصد بالطبع أن أتمنى له ليلة سعيدة).

أما ردّه فجاء في كلمة واحدة: «سعيدة» وكأنه كان يوقّع على رسالة غير موجودة.

إذا كان هنالك ما أمقته في الحياة أكثر من انتعالي حذاء بلا كعب عالٍ، فهو الخسارة. ولذلك أصرّيت على الإجابة ولو بحرف واحد، فأرسلت «X».

لا إجابة. فقلت: «كشّ ملك!». بعد هكذا يوم جهنمي، كان يكفيني مثل هذا النصر البسيط لكي أشعر وكأن كل شيء على ما يرام في هذا العالم.

انتهيت من روتين العناية ببشرتي، وقرأت خمسة فصول جيّدة من رواية غامضة، واستسلمت للنوم على فراشي الوثير، من دون أن أفكّر بغرانت، أو بحياته الجديدة في تكساس. وغرقت كطفلة في نومٍ هانئ.

أو كملكة الجليد.

الفصل الأول

بعد مرور عامين

كان لفح الهواء الساخن في المدينة أشبه بلفح النار في الفرن، فتخال الإسفلت على وشك الذوبان، أما الروائح المنبعثة من النفايات على الرصيف فكانت خانقة. كنّا نمرّ بعائلات يمسك كل من أفرادها بإحدى المثلجات التي كانت تسيل فوق أصابعه. أما أشعة الشمس فما برحت ترمقنا من وراء الأبنية العملاقة كأنها أجهزة مراقبة تعتمد تقنيّة الليزر كما في فيلم بوليسي قديم. من جهتي كنت أشعر وكأني قرص دونات مغطّى بالسكر الذائب، ومتروك منذ أربعة أيام في الخارج وسط القيظ.

لكن أختي ليبي، وهي الحامل في الشهر الخامس، فتبدو على الرغم من الجوّ الحارّ كأنها نجمة يسطع جمالها في إعلان لأحد أنواع الشامبو.

قالت ليبي بتعجّب: «ثلاث مرّات! كيف يمكن لأحد أن يخرج ثلاث مرّات من علاقة عاطفية كاملة؟».

«من شدّة حظي»، أجبتها. وفي الحقيقة فإن عدد المرّات أربعٌ. ولكني لم أتمكّن قطّ من إطلاعها على تتمّة قصتي مع جايكوب. مع أنه كان قد مضى عليها سنوات طويلة، فإنني لا أجرؤ حتى على سرد القصة أمام نفسي.

تنهّدت ليبي وعقدت ذراعها حول ذراعي. كانت ذراع أختي الأصغر ناعمة وحريرية بعكس ذراعي المتعرقة بسبب الرطوبة والحرارة في هذا اليوم من منتصف الصيف.

ربّما ورثت عن أمي طول القامة، فقد كانت في مثل طولي، أي خمس أقدام وإحدى عشرة بوصة، ولكن بقية أوصافها انتقلت كلّها إلى أختي. من

الشعر الأشقر المائل إلى حمرة الفراولة، إلى العينين الواسعتين الزرقاوين اللتين تذكّران بجمال عيون أهل حوض المتوسّط، إضافة إلى رشّة النمش فوق أنفها. أما قامة ليبي القصيرة وانحناءاتها، فربّما تعود إلى الجينات الموروثة من أبي. ولكن، من أين لي أن أتيقّن من ذلك، وقد تركنا أبي عندما كنت في الثالثة، وكانت ليبي على بعد أشهر من الخروج إلى الدنيا؟ لون شعري الطبيعي أشقر رمادي باهت، أما عيناي فزرقاوان، لكن لونهما ليس كزرقة مياه البحر اللازوردية في أيام الصيف، بل ذلك اللون الذي قد يكون آخر ما يراه الغارق تحت سطح الجليد.

إنها بالنسبة لي كما هي ماريان بالنسبة إلى إلينور في رواية جاين أوستن *العقل والعاطفة*، ومثل ميغ راين بالنسبة إلى باركر بوزي في فيلم *You have got Mail* (وصلتك رسالة).

وهي أيضًا أحبّ الناس إلى قلبي على وجه الأرض.

«أوه نورا!» قالت ليبي، وشدّتني إليها فيما كنا نقترب من التقاطع، وغمرتني السعادة عندما لامستني. مهما ازدادت مشاغلنا الحياتية والعملية، فإننا غالبًا ما شعرنا وكأنّ إيقاعات خفية تضعنا دائمًا على موجات متزامنة. أرفع هاتفي لكي أطلبها، فيسبقني ويرنّ، وتكون هي المتّصلة. أو تبعث إليّ برسالة لتقترح أن نتناول وجبة الغداء معًا، فنكتشف أننا في الجهة ذاتها من المدينة. غير أنّنا بتنا، في الأشهر القليلة الماضية، مثل سفينتين مبحرتين في الليل. أو بالأحرى مثل غوّاصة وقارب في بحيرتين منفصلتين.

لا أردّ على اتصالها عندما أكون وسط اجتماع، وتكون قد ذهبت إلى النوم عندما أحاول الردّ. دعتني إلى تناول العشاء مرّةً، وكنت في تلك الليلة مرتبطة بموعد خارج المكتب مع أحد العملاء. والأسوأ من ذلك، هو الشعور الخافت وغير المريح الذي يسود بيننا عندما نكون معًا، حيث أشعر كأنها نصف غائبة عنّي. كأن الإيقاع الخفيّ بيننا قد تعطّل، وبات يتعذّر عليه حفظ التناغم بيننا حتى عندما نكون معًا.

كنت أتقبّل بدايةً هذه الحالة وأعيد أسبابها إلى تأثير الحمل الجديد

عليها. غير أني وجدت أختي تزداد ابتعادًا عنّي مع مرور الوقت، والانسجام بات مفقودًا بيننا بطريقة لا أعرف كيف أصفها. فتجدني أسهر الليل أحيانًا، وأستعيد أحاديثنا علّني أقع على أسباب ما يحدث، ولكن من دون جدوى. لا فراشي الوثير، ولا عبق زيت الخزامى باتا قادرين على إراحتي وجلب النعاس إلى أجفاني.

أضاءت الإشارة الكهربائية الخاصّة بالمشاة، ولكن عددًا من السيارات غير المبالية كانت لا تتوقّف بل تسارع إلى المرور على الرغم من بروز الإشارة الحمراء الجديدة. ولكن عندما شرع رجل كان مرتديًا بدلة أنيقة بقطع الطريق، شدّت ليبي على يدي لكي نتبعه.

من المعروف عالميّا أن سائقي السيارات لا يغامرون بصدم رجل حسن الهندام مثله. لأن هندامه يقول لهم إن لديه محاميًا، أو إنه هو نفسه محامٍ.

«ظننت أن علاقتك بآندرو كانت على ما يرام»، قالت ليبي، محاولةً وسعها العودة إلى الحديث ذاته بأسلوب سلس. مع أن اسم حبيبي السابق المقصود هو آرون وليس آندرو. ثم سألت: «لا أفهم، هل المشكلة تتعلّق بالعمل؟».

وارتعشت نظراتها عندما لفظت كلمة «عمل»، وإذا بذاكرتي تعيدني إلى ما حدث في عيد ميلاد ابنتها بيا الرابع، حين اضطررت خلال الحفلة إلى الانسحاب فجأةً من بين الحاضرين. لاحظت ليبي ذلك ورمقتني بنظرة كأنها نظرة جروٍ جريح، وقالت: «اتصال عمل، أليس كذلك؟».

عندما اعتذرت منها، لم تصغِ إلى ما قلته. أجدني الآن أسائل نفسي: «تُرى هل كانت تلك هي اللحظةَ التي بدأت أخسرها فيها؟ هل في تلك الثانية تحديدًا بدأ الابتعاد ينمو بين مسارَينا، وبدأت الخيوط التي تشدّنا تتراخى؟».

قلت: «المشكلة... يبدو أني في حياةٍ سابقة خدعت إحدى الجنّيّات القاهرات، فلعنتني لكي لا أجد السعادة قط في حياتي العاطفية. كان يريد الانتقال للعيش في جزيرة برنس إدوارد Prince Edward Island».

توقّفنا برهةً أمام التقاطع التالي، ريثما يخفّ الازدحام. إنه يوم السبت في منتصف شهر يوليو، ويبدو وكأن الناس قاطبةً خرجوا من منازلهم في ثياب تراعي حدود العري الذي يسمح به القانون. أما أيديهم فمشغولة بالمثلّجات الذائبة، أو بأنواع البوظة الأخرى المحشوة بأصناف قد تكون بعيدة كل البعد عن الحلوى.

«هل تعلمين ماذا يوجد في جزيرة برنس إدوارد؟»، سألتها.

«هناك الفتاة *آن أوف غرين غايبلز*[1] *Anne of Green Gables*»، قالت ليبي.

«أتوقّع أن *آن أوف غرين غايبلز* ماتت منذ زمن».

«أنتِ على حقّ».

«كيف يمكن لشخص يعيش هنا، الانتقال للعيش في جزيرة حيث المكان الأكثر إثارة فيها هو المتحف الكندي للبطاطا؟ لو كنت مكانه فسأموت حتمًا من شدّة الضجر».

تنهّدت ليبي وقالت: «لا أعلم. في الواقع، أشعر بشيء من الضجر في هذه اللحظة».

التفتّ إليها، فإذا بقلبي يتعثّر في دقاّته. ما زال شعرها رائعًا، وبشرتها متورّدة وجميلة، لكنني لاحظت للتوّ تفاصيل جديدة أو إشارات لم أرَها من قبل.

لاحظت هبوطًا عند زوايا فمها، وتهدّلًا طفيفًا في خدَّيْها. التعب ظاهر عليها وتبدو أكبر سنًّا من العادة.

«أعتذر، ليس بودّي أن أبدو في مظهر الأم الحزينة، والضعيفة – ليس الأمر أكثر من أني... بحاجة حقًا إلى النوم».

كان تفكيري قد بدأ بالدوران لكي يجد مكان الضعف الذي يستدعي تدخّلي. المشكلة المزمنة التي ما انفكّت تقضّ مضجع براندن وليبي هي

(1) قصّة شهيرة نشرتها الكاتبة الكندية لوسي مونتغومري عام 1908.

المال. ولكنهما رفضا أيّ مساعدة منّي من هذا القبيل، وكان عليّ دائمًا اللجوء إلى طرائق مبتكرة لدعمهما.

في الواقع، ذلك الاتصال الهاتفي الذي قمت به وأغاظها (أو لم يغِظها) خلال حفلة عيد الميلاد، كان مجرّد «حصان طروادة»، أو كذبة اخترعتها لكي أقدّم إلى ليبي والفتاتين هديّتي. فقلت إن أحد الزبائن ألغى زيارته إلى المدينة فجأةً، وإنه لا يمكن استرداد المبلغ المالي المدفوع لقاء أجر الغرفة التي كنّا قد حجزناها له في فندق سان ريجي. ولذلك كان من المنطقي والمناسب أن أذهب مع ليبي وابنتيها للاحتفال والمرح وقضاء ليلة ممتعة في الفندق.

قلت لها فيما شددتّ على ذراعها مجدّدًا: «أنتِ لست أمًّا حزينة وضعيفة، بل أمًّا متفوّقة. إنك سوبر ماما! إنك تلك الأم المثالية والجذّابة التي تسير بثيابها العصرية المريحة في سوق البرغوث في بروكلين، وهي تحمل 'خمسمئة' طفل جميل على ذراعيها، إضافةً إلى باقة ضخمة من الزهور البرّية الرائعة، مع سلّة طافحة بالبندورة الشهيّة. لا عيب في أن تشعري بالتعب، حبيبتي ليبي».

نظرت إليّ بعينين مزمومتين، وقالت: «متى كانت المرّة الأخيرة الّتي قمتِ فيها بتعداد أطفالي، أختي الحبيبة؟ لأنهما بنتان فقط».

قلت: «لا أريدك أن تشعري كأنك أم سيئة، ولكن...»، ولمست بإصبعي بطنها، «ولكنّي متأكدة بنسبة 80٪ أنه يوجد طفل ثالث هنا».

قالت وهي ترمقني بحذر: «حسنًا، طفلتان ونصف طفل. ولكن، أخبريني كيف حالك أنت حقًّا، أعني بعد خروجك من العلاقة الأخيرة؟».

«استمرّت علاقتنا أربعة أشهر فقط. لم تكن علاقة جدّية بالمعنى الصحيح».

قالت: «أعلم أن الأسلوب الجدّي يحكم علاقاتك دائمًا، فإذا نجح أحدهم بتناول طعام العشاء معك للمرّة الثالثة، فهذا يعني أن مواصفاته تفي بأربعمئة وخمسين من الشروط المطلوبة لديك. لا تكون العلاقة عابرة بالطبع عندما تتعرّفين إلى فئة دمّ الشخص الآخر».

أجبت: «لا أتعرّف إلى فئة دم الأشخاص الذين أواعدهم، كل ما أطلبه هو تقرير يُظهر تصنيفه الائتماني، وآخر بشأن صحته النفسية، وقسَم ممهور بالدم».

أرجعت ليبي رأسها إلى الوراء مقهقهة. عندما أنجح في إضحاك أختي أشعر وكأن دفعة من هرمون السعادة سيروتونين ذهبت مباشرة إلى قلبي، أو إلى دماغي؟ من المحتمل أنها تذهب إلى دماغي، لأن السيروتونين قد يكون مؤذيًا للقلب. ما أريد قوله، هو أن ضحكة ليبي تجعلني أشعر وكأن العالم بأسره في قبضة يدي؛ أي إني في موقع السيطرة التامّة على الوضع.

قد ينعتني هذا الكلام بالنرجسية. أو يجعلني أبدو تلك المرأة التي بلغت الثانية والثلاثين، والتي لا تنسى ما عانته على امتداد أسابيع طويلة بعد وفاة والدتها من أجل إقناع أختها الغارقة في الحزن بجدوى النهوض من السرير.

«انتبهي، انظري» قالت ليبي، فيما أبطأت خطواتها عندما لاحظت المكان الذي كنا نسير نحوه من غير وعيٍ.

أتخيّل أننا لو عُصبت أعيننا، أو لو قفزنا من الفضاء، لوقعنا لا محالة هنا. توقّفنا لننظر بحزن إلى مكتبة فريمان، هذه المكتبة في منطقة ويست فيلدج، حيث كنّا نعيش في الشقة الصغيرة فوقها، وحيث كنّا نغنّي مع أمي في المطبخ، ونضع أفواهنا فوق الطناجر لنستمع إلى صدى أصواتنا، في أغنيات مثل *Baby Love* التي تغنيها فرقة الفتيات المعروفة باسم «سوبريمز Supremes». هذا المكان الذي ضمّنا ليالي لا تحصى مستلقيات حول بعضنا على تلك الأريكة المزهّرة باللونين البيج والوردي، لنستمتع بمشاهدة أفلام كاثرين هيبورن Catharine Hepburn، وأمامنا أنواع من المأكولات السريعة غير الصحّية وضعتها أمي على الطاولة التي كانت قد وجدتها مرمية في الشارع، وأحضرتها إلى البيت واستعاضت عن رجلها المكسورة بكدسة من الكتب المجلّدة.

الشخصيات التي تشبهني في الأفلام والقصص، تعيش في علّية ذات

أرضية إسمنتية، مزيّنة بتحف فنيّة حديثة داكنة الألوان، وبمزهريات طويلة قد يبلغ طولها أربعة أقدام، وعادة ما تكون ملأى بأغصان نحيلة سوداء لسببٍ أجهله.مكتبة سُر مَن قرأ

ولكنني اخترت شقتي الحالية في الواقع لأنها تشبه إلى حدّ كبير هذه الشقة: أرضيتها قديمة وخشبية، وألوان ورق جدرانها هادئة، وفي إحدى زواياها مدفأة تصدر أزيزًا ناعمًا، أما رفوف الكتب فهي فتزدحم بالكتب المستعملة. وهي مصمَّمة في أصل البناء، إلا أن الإفريز المصنوع من الجصّ الذي يجمّل محيطها، فقد أعيد دهنه مرارًا، وفقد بالتالي بعض رونقه. كما وحفر الزمن آثار مروره الطويل على أطر نوافذها الضيّقة والعالية حتى تلوّت زواياها قليلًا.

هذه المكتبة الصغيرة والشقة فوقها هما أحبّ الأماكن قاطبةً إلى قلبي.

«يا الله!»، أمسكت ليبي يدي ورفعتها نحو نافذة العرض في المكتبة، حيث ارتفع هرم عالٍ من النسخ المرصوفة من كتاب دستي فيلدنغ *مرّة في العمر* الذي أحدث ظهوره ضجةً، ويتصدّر قائمة المبيعات في كل مكان. إنه يُباع مع ملصق دعائي للفيلم المستوحى من القصة، والذي سيُعرض قريبًا في صالات السينما.

أخرجت ليبي هاتفها وقالت: «يجب أن ألتقط صورة!».

ليس هناك من يحبّ مؤلّفات دَستي كما تحبّها أختي. ولا غرابة في ذلك، خصوصًا وأن المبيعات منذ ستة أشهر حتى الآن سجّلت مليون نسخة. بات الناس يطلقون عليه لقب «كتاب العام». وفكّرت في سرّي بالقصة التي عنوانها *Man called Ovy* (الرجل الذي يدعى أوفي)، التي تتكلّم عن رجل صارم شديد التمسّك بالأصول والقوانين عندما يُفاجأ بواقع الحياة الذي لا يرضيه.

تلقّى هذا يا شارلي لاسترا، أقول في نفسي كلّما أتذكّر ذلك اللقاء المشؤوم في المطعم، أو عندما أمرّ من أمام باب مكتبه المقفل (ولسخرية القدر أنه انتقل إلى العمل مع دار النشر التي تبنّت نشر كتاب *مرّة في العمر*، حيث بات محاطًا دائمًا بما يذكّره بنجاحي).

حسنًا، *خذ هذا يا شارلي لاسترا* وبقوّة، فكّرت. ليس سهلًا على الشخص أن ينسى المناسبة حين دفعك زميل لك إلى الخروج عن سلوكك المهني لأوّل مرّة.

«سوف أشاهد هذا الفيلم خمسمئة مرّة متتالية»، قالت ليبي.

«ارتدي حفاضات»، نصحتها.

«لا لزوم لذلك. سوف أبكي كثيرًا ولن يبقى في جسمي سوائل لتخرج مني».

«لم أكن أعلم أنك محيطة بعلم البيولوجيا... إلى هذا الحدّ»، قلت لها.

«عندما قرأت القصة في المرّة الأخيرة، بكيت بشدّة حتى أصابني تمزّق عضلي في عنقي».

«عليك ممارسة الرياضة أكثر».

وأشارت إلى بطنها لتذكرني بحملها، ثم استدارت بنا نحو محل العصير المجاور، وهي تقول: «يا لقسوتك. على كل حال، وبالعودة إلى حياتك العاطفية. أنت بحاجة إلى الخروج إلى العالم مجددًا».

قلت: «ليبي، أنت تعرّفت إلى حبّ حياتك عندما كنتِ في العشرين، ولذلك لم تختبري المواعدة بالفعل. ولكن تخيّلي للحظة أن ثلاثين بالمئة من الأشخاص الذين تواعدينهم قد يخبرونك فجأة أنهم مهووسون حتى العبادة بقدم، أو بكوع، أو بركبة المرأة التي يمارسون معها الجنس».

كانت صدمة حياتي عندما وقعت أختي اللعوب والرومنطيقية في حب رجل يكبرها بتسع سنوات. يعمل براندن في المحاسبة، ومعظم قراءاته تدور حول القطارات. ولكنه الرجل الأشدّ صمودًا بين الرجال الذين عرفتهم في حياتي. ولعلّني تقبّلت منذ زمن، بطريقة أو بأخرى، وعلى الرغم من كل الأسباب التي قد توحي بغير ذلك، أنه وليبي وُجدا ليكونا معًا.

صرخت ليبي بتعجّب: «ثلاثون بالمئة!؟ نورا، أي تطبيقات مواعدة فاشلة تستخدمين؟».

«التطبيقات العادية»، قلت.

احترامًا لمبدأ اتخاذ القرار على ضوء المعطيات الصحيحة، اعتمدت أسلوب تقصّي وجود هذا النوع من الهوَس بطريقة سريعة ومباشرة. من الطبيعي ألّا يصرح أصحاب هذا النوع من الهوس عنه في بداية اللقاء الأول. ولذلك ألجأ إلى طرح السؤال مباشرة. حين ذهبت مديرتي إيمي في المرّة الأخيرة إلى بيت امرأة لم تكن قد عرفت حقيقتها، اكتشفت أنها تحتفظ بغرفة ملأى بالدمى. كانت الغرفة مرصوفة من الأرض إلى السقف «بالعرائس» السيراميك.

أيّ خيبة عندما تقعين في غرام أحد الناس لتكتشفي مثلًا أنه يحتفظ في بيته بغرفة ملأى بالدمى؟ والجواب أنها خيبة كبيرة.

«هل يمكننا الجلوس لحظة؟»، سألت ليبي، وكانت تلتقط أنفاسها بصعوبة. مشينا من أمام مجموعة من السياح الألمان، وجلسنا على حافّة شباك محل لبيع القهوة.

سألتها: «هل أنت بخير؟، هل أجلب لك بعض الماء؟».

هزّت برأسها نفيًا وأرجعت خصلات شعرها إلى وراء أذنيها، ثمّ أجابت: «كلا، إني متعبة ليس أكثر. أحتاج إلى الراحة».

اقترحت: «ربّما يجب أن نقضي يومًا كاملًا في منتجع للاسترخاء، لديّ بطاقة مجانيّة ــ».

أجابت: «أولًا، أنت تكذبين وهذا ظاهر. وثانيًا...»، وعضّت بأسنانها على شفتها السفلى المصبوغة بطلاء الشفاه الوردي الشفاف، «لديّ اقتراح آخر».

«يومان في منتجع الاسترخاء!؟»، قلت.

ابتسمت ليبي بتثاقل، وقالت: «غالبًا ما تتذمّرين من أن حركة النشر في شهر أغسطس تكون بطيئة جدًّا، وأنك لا تجدين ما يشغلك».

«أمامي *الكثير* لكي أنجزه».

«ولكن، ليس ما يتطلّب منك البقاء في المدينة؛ ولذلك، ما رأيك لو نذهب إلى مكانٍ ما؟ ماذا لو نقضي بضعة أسابيع بعيدًا من هنا، ونسترخي؟

من جهتي، لا بأس لو عشتُ يومين أو أكثر من دون أن تنساب على جسمي سوائل من جسم شخص آخر؛ ومن جهتك، ستنسين أمر علاقتك التي فشلت مع آرون، ويمكننا بالتالي أن نأخذ فرصة مؤقتة من كوني أنا الأم المتفوّقة المتعبة، وكونك أنتِ صاحبة السيرة المهنية المتميّزة، تلك المواصفات التي سيترتّب علينا الالتزام بها على امتداد الأشهر والأسابيع المتبقية من السنة. ربّما تتمكّنين من نزع صفحة من دفاتر عشّاقك السابقين، وتعيشين عوضًا عنها قصّة حبّ رومنسية مع شابّ من أبناء المنطقة... صائد كركند محلّي، مثلًا؟».

تأمّلت في وجهها باحثة عن درجة الجدّية في كلامها. فأكملت:

«صيّاد سمك؟ صيّاد كركند...؟».

«ولكننا نادرًا ما ذهبنا إلى أي مكان»، أوضحت.

« *بالضبط!*» قالت بصوتٍ يكاد يكون كئيبًا ومتهدّجًا. ومدّت يدها لتمسك بيدي، فلاحظت أظافرها القصيرة التي شوّهها القضم. حاولت أن أبتلع ريقي فأحسست بانسداد في مجرى تنفّسي. تأكّدت في تلك اللحظة أن المعاناة في حياة ليبي تتخطّى الأزمات الماديّة العابرة، أو قلّة النوم، أو انزعاجها من انشغالي الدائم بعملي.

منذ ستّة أشهر، لم أكن لأقع في الحيرة، أو لأحتاج إلى طرح السؤال بشأن الأمور التي تشغل ليبي، بل كنت سأعلم تمامًا ما يدور في حياتها. كانت ستأتي من غير استئذان إلى شقتي، وسترمي بنفسها على الأريكة، وتقول: «*أختي، أتعلمين ما الذي يقلقني في هذه الأيام؟*» وكنت سأضع رأسها في حضني وسأمرّر أصابعي بين خصلات شعرها، فيما تسكب همومها على مسمعي، ونحتسي كأسًا من النبيذ الأبيض المنعش. ولكن الأمور اختلفت الآن.

قالت بهدوء، وإنما بإلحاح: «إنها فرصتنا يا نورا، هيّا نسافر أنت وأنا وحدنا؛ لم نفعل ذلك منذ رحلتنا إلى كاليفورنيا».

أحسست بمعدتي كأنها انقبضت وانزلقت من مكانها. تلك الرحلة -كما علاقتي بجايكوب- تشكّل مرحلة من حياتي لا أرغب في تذكّرها.

في الواقع، معظم ما أفعله في هذه الأيام يهدف إلى تفادي أن نجد نفسينا، ليبي وأنا، مرّة ثانية في ذلك الوضع المظلم الذي عشناه بعد وفاة والدتنا. ولكن الحقيقة التي لا تحتمل الإنكار، هي أني لم أرها منذ ذلك الوقت في مثل هذه الحال، وعلى شفا السقوط.

ازدرت ريقي بصعوبة، وقلت: «أيمكنك المغادرة الآن؟».

«أهل برندان مستعدّون للاهتمام بالفتاتين». أجابت، وهي تشدّ على كفّي بين كفَّيها، وعيناها الزرقاوان كأنهما تشتعلان بحرارة الأمل. «عندما يخرج هذا الطفل إلى النور، سوف يأخذ منّي كل وقتي ويمنعني من الالتفات إلى نفسي لمدّة طويلة. ولهذا، وقبل أن يحدث كل ذلك، أريد حقًّا أن أعيش إلى جانبك بعض الوقت، مثلما كنّا سابقًا. أشعر كأن المسافة التي تفصل بيني وبين الانهيار التامّ لا تتعدّى ثلاث ليالٍ من الأرق. ثلاث ليالٍ فحسب تفصلني عن الحالة في قصة *Where'd You Go, Bernadette* (إلى أين ذهبتِ يا برناديت؟) هذا إذا لم أصبح الفتاة التي رحلت إلى غير رجعة كما في قصّة *Gone Girl* (الفتاة التي رحلت). إني بحاجة إلى ذلك يا نورا».

شعرت بقلبي ينعصر، ولمعت في بالي صورة قلبٍ مسجون في قفص معدني ضيّق يكاد يخنقه. لطالما وجدت نفسي عاجزة عن رفض طلباتها. لم أستطع ذلك عندما كانت في الخامسة، حين كانت تصرّ على أن يكون الجزء الأخير من قالب حلوى الجبن لها، أو عندما كانت في الخامسة عشرة وأرادت أن تستعير بنطالي الجينز المفضّل (الذي تغيّر شكله إلى الأبد بسبب تعرّجات جسمها البارزة)، أو عندما كانت في السادسة عشرة، وقالت لي عبر شلال من الدموع: «*كل ما أريده هو ألّا أكون هنا*»، فإذا بي أطير بها في اليوم التالي إلى لوس أنجلوس.

ولكنها في الواقع لم تطلب إذ ذاك مني كل ذلك بشكل مباشر. أما الآن،

فهي تجلس بجانبي وتطلب ذلك، وقد شدّت كفّيها إلى بعضهما، وتركت شفتها السفلى تتدلّى توسّلًا. انتابني فجأةً شعور مرعب، ووجدتني ألتقط أنفاسي بصعوبة، وأفقد شعوري المعتاد بالسيطرة على الموقف، حتى أكثر ممّا لو كنت إزاء فكرة مغادرة المدينة بالفعل. وتابعت ليبي: «*أرجوكِ*».

كانت حالة الوهن قد أخذت منها مأخذًا حتى بدت أمامي واهية إلى حدود الضآلة والانعدام. أحسست أني لو مددت يدي لكي أرفع خصلة الشعر المتدلية فوق حاجبها فإن أصابعي قد تخترق وجهها. لم أختبر من قبل إمكان أن تشتاق لشخصٍ إلى هذا الحدّ مع أنه ماثل أمامك. وشعرت بالألم يجتاح كل ما في كياني.

قلت لنفسي: *«إنها هنا يا نورا، وهي على ما يرام. مهما كان الوضع فستتمكنين من إصلاحه»*.

أخفيت كل عذر، وكل شكوى، وكل حجّة أوشكت أن تخرج منّي وقلت: «هيّا نسافر!».

افترّت شفتا ليبي عن ابتسامة عريضة. فهبطت لتوّها عن حافّة الشباك لكي تستخرج شيئًا من جيبها الخلفي.

«حسنًا إذًا، لأني اشتريت هذه...، ولا أعلم إن كانت قابلة للردّ». وألقت بطاقتيّ السفر في حضني. وبدا لي كأنّ ما حدث في اللحظات السابقة لم يحدث، وأني استطعت في غضون نصف ثانية أن أستعيد أختي الصغرى اللعوب، ولعلّني على استعداد لكي أبيع أيّ من أعضاء جسمي لقاء بقائنا في هذه اللحظة، حيث أراها تشعّ فرحًا. وما لبث التشنّج أن انفكّ عن صدري، وتنشّقت أنفاسي التالية بسهولة.

«ألا تريدين إلقاء نظرة لكي تعلمي إلى أين سنذهب؟»، سألتني ليبي بمرح.

انتزعت نظري عنها، وقرأت ما كتب على البطاقتين بصوت عالٍ: «آشفيل، نورث كارولاينا؟».

هزّت رأسها إيجابًا. «إنه المطار الأقرب إلى بلدة صنشاين فولز. ستكون هذه رحلة من العمر».

تأوّهتُ، فارتمت عليّ تعانقني ضاحكة. «سنمضي أوقاتًا سعيدة جدّا، يا أختي، وستقعين في حبّ قاطع أخشاب».

«إن كان هناك أمرٌ يستفزّني بالفعل، فهو قطع الغابات».

«حسنًا، ماذا لو كان قاطع أخشاب ملتزم بالأصول البيئية والأخلاقية، وبنظام غذائي بعيد عن الغلوتين؟»، استدركَت ضاحكة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثاني

في الطائرة، أصرّت ليبي أن نشرب كوكتيل *بلودي ماري*. ولكنّها حفّزتني على تناول بضع جرعات صغيرة وسريعة من الكحول الخالصة أوّلًا، حتى اتفّقنا أخيرًا على أن نطلب كأس *بلودي ماري لي*، وعصير بندورة خالٍ من الكحول لها. لا أهوى تناول المشروبات الروحية كثيرًا، وخصوصًا في الفترة الصباحية. إنّها عطلتي الأولى بعد مرور عشرة أعوام. كنت في حالة من القلق والتلهّف في آن، وذلك لم تمضِ الدقائق العشرون الأولى من الرحلة حتى كنت قد أفرغت محتوى كأسي الأول حتى الثمالة.

لا أحبّ السفر، ولا أحب الابتعاد عن عملي، ولا أحب أن أترك عملائي في أوضاع حرجة. وأقصد تحديدًا العميلة التي لا غنى لي عنها. كنت في الحقيقة قد أمضيت الساعات الثماني والأربعين الأخيرة قبل موعد السفر في التحدّث إلى دَستي. كنت أناقشها تارةً، وأشجّعها وأهدّئ من روعها تارةً أخرى.

كان قد تأخّر موعد صدور كتابها التالي ستّة أشهر؛ ولكنّها، إن لم تبدأ بتسليم أجزاء منه إلى قسم التحرير في هذا الأسبوع، فإن مواعيد النشر كلّها ستتأخّر.

تتوجّس دَستي من سوء الحظّ الذي قد يصيب عملها لو أطلعتنا على مسوَّداتها في مرحلة مبكرة، ولذلك فإننا نبقى على جهل بشأن ما تكتبه حتى تجد هي نفسها الوقت مناسبًا. ولكنني بعثت إليها برسالة سريعة تشجيعية أخرى من هاتفي على كل حال.

لاحظت ليبي ما فعلته، فرفعت حاجبيها ورمقتني بنظرة حادّة، فأسرعت إلى وضع هاتفي جانبًا، ورفعت يديّ معًا في إشارة تقول *إني حاضرة بكلّيتي معها*.

«حسنًا»، قالت راضية، وشدّت حقيبة يدها الكبيرة جدًّا ووضعتها فوق طاولة المقعد المفتوحة أمامها. «أعتقد أن الوقت الآن هو الأنسب لكي نراجع خطّتنا». والتقطت من الحقيبة ملفًّا كبيرًا وفتحته.

«ما هذا بربّك، هل تخطّطين لسرقة أحد البنوك؟».

«قولي عملية سلب كما في الأفلام، كلمة سرقة باتت من طراز قديم، وسوف نضطر إلى ارتداء بزّات خاصّة من ثلاث قطع بشكلٍ دائم»، كانت ليبي تستطرد في المزاح من غير أن تتمهّل لحظة في استخراج صفحتين كبيرتين متطابقتين ومحفوظتين في غلافين من البلاستيك الشفاف اللامع. أما العنوان المطبوع بالخط العريض على الرأس، فيقول: ***لائحة النشاطات في العطلة التي ستغيّر حياتنا.***

«من أنتِ، وأين دفنتِ أختي؟»، سألتها.

أجابت بذكاء: «أعلم كم تحبّين أسلوب قائمة التدقيق، ولذلك قمت بوضع قائمة ترسم خطّة مغامرتنا الميمونة».

أخذت إحدى الورقتين بيدي، وقلت: «أتأمّل أن النشاط الأوّل سيكون الرقص على الطاولة في أحد البارات كما في فيلم *Coyote Ugly* (الذئب القبيح). مع أني لا أعتقد أن أيّ مدير، أو مديرة جديرة بوظيفتها ستسمح بذلك في وضعك».

تتظاهر ليبي بالإهانة: «هل يبدو عليّ الحمل كثيرًا؟».

قلت مخادعة: «كلا...، أبدًا».

«كم أنت فاشلة في الكذبّ! تبدو عضلات وجهك وكأنها مشدودةٌ إلى خيوط تحريك الدمى. لنعود الآن إلى قائمة الدلو[1]».

«قائمة الدلو؟ من منّا ستموت؟»، سألت.

نظرت ليبي إلى أعلى ولمعت عيناها بوميض الشيطنة، ولكن من عادة

---

(1) Bucket List: تعبير بالإنكليزية للإشارة إلى الأمور التي يريد شخص معيّن القيام بها قبل موته.

عينيها أن تلمعا دائمًا. ثم قالت وهي تحكّ بطنها: «الولادة نوع من الموت، موت الذات، موت النوم، موت قدرتك على عدم التبوّل في ثيابك قليلًا عندما تضحكين. ولكن هذه القائمة هي أقرب إلى التجارب الرومنسية القروية التي تحدث في القصص منها إلى قائمة الدلو. إنها تسرد كيف ستتغيّر كلّ منّا وسط سحر القرية إلى نسخة جديدة أكثر استرخاءً عن ذاتها».

ألقيت نظرة أخرى على القائمة. قبل أن تصبح حاملًا بطفلتها الأولى، عملت ليبي لفترة قصيرة مع شركة معروفة في تنظيم الحفلات والمناسبات (كما عملت في مجالات عدّة أخرى). ولذلك، وعلى الرغم من ميلها الطبيعي إلى السلوك العفوي (أو حتى إلى الفوضى)، فقد برهنت أحيانًا عن قدرتها في التنظيم حتى قبل أن تصبح أمًّا. ولكن لفتني هذا المستوى من التخطيط الذي يشبهني كثيرًا...، ورأيتني متأثرة بطريقة غير عاديّة بالجهد الذي وضعته ليبي في هذا العمل.

ثمّ فوجئت بالبند الأول الذي يقول: *ارتدي قميصًا من قماش الفانيلا ذات المربعات*. «ليس لديّ قميصٌ من هذا النوع»، قلت.

هزّت ليبي كتفها وقالت: «لا أملك واحدة أنا أيضًا»، سوف نذهب إلى محل ألبسة مستعملة - ربّما نجد هناك أيضًا حذاء نسائيًا من طراز أحذية الكاوبوي».

عندما كنا في عمر المراهقة، كنّا نذهب إلى مخزن غودويل Goodwill المفضّل لدينا، ونمضي الساعات في تقليب الموجودات حتى نقع على ما يناسب ذوقنا وحاجتنا. كنت أختار دائمًا الثياب الأنيقة التي تحمل أسماء دور الأزياء المشهورة؛ فيما تذهب ليبي إلى اختيار كل ما هو ملوّن ومزيّن بالأحجار اللامعة.

وشعرت بغصّة في قلبي مجدّدًا، وكأني أشتاق إليها، أو أحنّ إلى كل تلك الأوقات الجميلة التي باتت وراءنا. وقلت في نفسي إن هذا الشعور العميق ربّما كان المحرّك الأوّل وراء موافقتي على القيام بهذه الرحلة. وفكّرت في

الوقت الذي سنمضيه معًا والذي سيتكفّل بإعادة اللحمة بيننا، فما إن يحين موعد عودتنا إلى المدينة حتى تكون الفجوة بيننا قد ردمت نهائيّا.

قلت: «قميص ذات المربّعات، حسنًا». البند الثاني على القائمة يقول إننا سنحضّر الخبز أو الكعك معًا. هذا ما أتوقّعه من ليبي بالطبع. ميولنا متناقضة إلى حدّ كبير، إنها تعشق الطبخ، لكنّها تتقيّد عادةً بمذاق طفلتيها البسيط، فتؤجّل وصفاتها الجريئة إلى حين وجودنا معًا.

وتفحّصت القائمة نزولًا فوجدت:

3- تغيير المظهر العام (ترك الشعر منسابًا من غير أن نعقصه، قصّ غرّة).

4- بناء شيء (بالمعنى الحقيقي لا المجازي).

البنود الأربعة الأولى تتصل مباشرةً بمقبرة المهن، تلك التي كانت أحبتها أختي سابقًا، وأهملتها. قبل وظيفتها في تنظيم الحفلات، عملت خلال وقت قصير في تجارة حرّة عبر الإنترنت حيث كانت تبيع أغراضًا كلاسيكية عتيقة كانت تختارها بعناية من محلات البضائع القديمة؛ وقبل ذلك، كانت تريد أن يكون لها مخبَزًا؛ وقبل ذلك أيضًا، أرادت أن تمتهن تزيين الشعر. وفي عطلة صيفية قصيرة، وكانت إذ ذاك في الثامنة، قرّرت أنها ستعمل في المستقبل في مهنة النجارة لأن «ليس هناك عدد كافٍ من النساء في هذا المجال».

كل شيء حتى الآن يبدو مفهومًا – بالقدر الذي تبدو به كل هذه الرحلة مفهومة (على الأقل في دماغ ليبي). ثمّ يذهب نظري إلى الرقم خمسة. فسألت «*أوه، ما هذا؟*».

«المواعدة مرّتين على الأقلّ مع شبّان من القرية». قرأت ليبي بحماسة ظاهرة، ثمّ أردفت: «وهذا ليس لي طبعًا»، ثمّ رفعت نسختها قبالتي لأرى أنها شطبت هذا البند منها.

«لا يبدو هذا عادلًا»، قلت.

«تذكّري أني متزوجة، وحامل منذ خمسة ملايين أسبوع!».

أجبت: «وأنا المرأة التي تسعى إلى تحقيق طموحها المهني، وتستعين بخدمة مدفوعة من أجل تنظيف شقّتها. وأنا التي خصّصت غرفة النوم الإضافية في بيتها لأحذيتها، ولديها بطاقة إئتمان من شركة مواد التجميل سيفورا. لا أتخيّل أن رجل أحلامي سيكون صياد كركند».

أضاء وجه ليبي فجأةً، وشدّت نفسها إلى الأمام في مقعدها، وقالت: «تمامًا، هذا ما أريد شرحه. انظري نورا، إني معجبة بدماغك المنظم والمبوّب كل الإعجاب، ولكنك تواعدين الشبّان كأنك تستعرضين سيارات لتختاري منها واحدة».

«شكرًا»، قلت.

«والأمور تنتهي دائمًا إلى الفشل»، أضافت.

وضعت يدي على صدري، وقلت: «أشكر الله؛ كنت أخاف ألّا تفصحي عمّا في بالك بهذه السرعة».

حاولت الاستدارة نحوي ثمّ التقطت يديّ من فوق المسند الفاصل بين المقعدين. وقالت: «كل ما أريد قوله هو أنك تتعرفين إلى أشخاص وتواعدينهم، ولكنهم يشابهونك تمامًا، ولديهم الأولويّات ذاتها».

«يمكنك الإيجاز، والقول ببساطة إني أواعد أشخاصًا قد ينسجمون معي أو 'من نوعي'».

«ولكن لا تنسي أمر الجاذبية بين الأضداد، تذكّري كل الرجال في علاقاتك السابقة. فكّري في جايكوب وزوجته التي اختارها من الريف، أو بالأحرى من منطقة 'رعاة البقر'!».

اخترقني إحساس جليدي عند ذكر اسمه؛ ولكن ليبي لم تلاحظ ذلك.

قالت بإصرار: «الهدف الأهم من هذه الرحلة هو أن نخرج من دائرة الراحة التي تعوّدناها، وأن نجد الفرصة لكي نتغيّر! عدا عن ذلك، من يعلم؟ ربّما إذا خرجت عن مسارك قليلًا، سوف تجدين بدورك قصة الحب التي ستغيّر حياتك، عوضًا عن حبيب يجسّد قائمة شروط أخرى تمشي على ساقين».

قلت: « أحبّ مواعدة قائمة شروط تسير على ساقين؛ شكرًا جزيلًا. قائمة الشروط تجعل الأمور أوضح وأبسط. تذكّري أمّنا يا ليبي!». كانت أمّي تقع دائمًا في الحبّ، ولكن ليس مع الذين يُرضون تفكيرها بالفعل. وغالبًا ما كانت النهايات مدمّرة لها، وتتركها عاجزة عن متابعة عملها، أو عن الذهاب إلى تجارب الأداء، أو تجعل أداءها في العمل أو التمثيل غير مرضٍ البتّة، إلى درجة أنها كانت تخسر الفرصة أو الوظيفة.

«لستِ البتّة مثل أمّنا»، أجابت ليبي بخفّة. ولكن هذه الحقيقة ما انفكّت تؤلمني. أعلم أني لم أرث الكثير من سمات أمي. كنت أشعر بذلك القصور في كل ثانية من كل يوم بعد رحيلها، عندما كنت أحاول انتشالنا، أنا وأختي، من الغرق.

ولكنّي أعلم أن ليبي لم تكن تعني ذلك. كما وأعلم أن نهاية تلك العلاقات لا تختلف كثيرًا عن نهاية كل علاقة عرفتها شخصيًا: مونولوج طويل ينتهي بشيء من التالي: ***كل ما أعرفه هو أنّي أفتقر حتى إلى المشاعر.***

قالت: «ما أقصد قوله، هو أنّكِ نادرًا ما تتعاملين مع الأمور باسترخاء وبساطة، ومن غير التمسّك بمعاييرك الدقيقة. تستحقّين أن تعيشي لحظات مرحة وسعيدة وخالية من الضغوط. وبصراحة، أستحقّ أنا أن أعيش عبرك هذا المرح. أعني أجواء المواعدات المرحة».

«والآن، هل سيكون مسموحًا أن أستخدم سمّاعة الموسيقى بعد العشاء، أو...؟»، سألتُها.

نفضت ليبي يديها، وقالت بانفعال: «حسنًا! تجاهلي البند رقم خمسة! مع أنه قد يكون مفيدًا لك. ومع أني صمّمت كل هذه الرحلة لكي تعيشي قصة رومنسية في بلدة صغيرة كما في القصص، أتوقّع أن...».

«لا بأس،لا بأس!» قاطعتها بنبرة عالية. «سوف أواعد قاطع الأخشاب، ولكن بشرط أن يشبه الممثل روبرت ريدفورد».

«روبرت ريدفورد الشابّ، أو المتقدّم في السنّ؟»، انطلقت ليبي بحماسة.

تأملت في وجهها ولم أجب.

قالت: «تمامًا، فهمت عليك. لنتقل الآن إلى الرقم ستة: *الغطس عراة في بركة ماء طبيعية*».

«ماذا لو كان هناك بكتيريا قد تلحق الأذى بالطفل، مثلًا؟»، سألتها.

دمدمت بعبوس: «اللعنة!، لم أحسن التفكير في كل الأمور، كما ظننت».

قلت: «غير صحيح، إنها قائمة عظيمة».

«لا بأس، ستذهبين إلى السباحة من دوني»، قالت بشرود.

«امرأة في الثانية والثلاثين تغطس عارية وحدها في قناة ماء طبيعية. يا لها من وصفة مفيدة لكي تعتقلني الشرطة».

وتقرأ ليبي: «رقم سبعة، *النوم في العراء تحت النجوم*. الرقم ثمانية، حضور مناسبة اجتماعية في البلدة - مثلًا، *حفل زفاف أو أيّ نوع من المهرجانات القروية*».

وجدت قلم رصاص في حقيبتي، فأضفت ممازحة: مأتم، *حفل طهور، المشاركة في نشاط تُقيمه جمعية نسائية في مركز التزلّج على الجليد في البلدة*.

«محاولة التعرّف إلى طبيب طوارئ وسيم الطلعة؟ ما رأيك؟»، سألت ليبي. أسرعت إلى شطب ما سبق أن كتبته بشأن مركز التزلّج. ثمّ لاحظت الرقم تسعة.

ركوب *حصان*.

«مجدّدًا»، قلت، وأشرت بإيماءة طفيفة إلى بطنها. ثم شطبت ركوب حصان، وكتبت *التربيت على ظهر حصان*.

رقم 10- إضرام النار في الهواء الطلق (بطريقة مسؤولة).

رقم 11- تسلّق الجبل؟؟؟ (هل نبذل مثل هذا العناء؟).

عندما بلغت ليبي السادسة عشرة، أعلنت أمامنا أنها ستلحق بصديقها الذي ذهب ليعمل خلال فصل الصيف في منطقة Yellowstone. ضحكت

أمّي وقهقهت أنا. إن كان من أمر مشترك آخر بين نساء عائلة ستيفنز، إلى جانب عشقهنّ للكتب، ولسائل *فيتامين ج* للبشرة، وللثياب الأنيقة - فهو تفادي الرحلات البريّة البعيدة.

ولعلّ أكثر ما حقّقناه في هذا المجال، لا يتعدّى التسكّع على الدروب المتعرّجة، وبين الأشجار السامقة في حديقة *سنترال بارك رامبل* Central Park Ramble. وحتى في ذلك المكان، كان بإمكاننا ابتياع الطعام في أكواب من الكرتون، ومثلّجات بالبسكويت المقرمش؛ وبالتالي لم نختبر الطبيعة الخشنة بالفعل.

غير أن ليبي، وكما كان متوقّعًا، انفصلت عن صديقها قبل أسبوعين من موعد انطلاقها المفترض في تلك الرحلة.

ثم وضعت إصبعي على البند الأخير من القائمة: *إنقاذ مشروع تجاري محلّي من الإفلاس*. قلت: «تذكّري أننا سنبقى في المكان شهرًا واحدًا فقط!». يقضي البرنامج بأن نمضي ثلاثة أسابيع وحدنا، ثم ينضمّ إلينا براندن وبيا وتالا. كنا قد استفدنا من حسم كبير على ثمن البطاقتين لقاء البقاء في البلدة طويلًا، ولكنني لا أعلم كيف سأجد الصبر بعد انقضاء الأسبوع الأول.

في سفرتي الأخيرة، عدت إلى نيويورك بعد يومين. ولكن، من الخطأ أن أعود بذاكرتي ولو للحظة إلى تلك الرحلة مع جايكوب. قفزت بفكري للتوّ إلى الحاضر. لن يحدث ذلك هذه المرّة، ولن أسمح بحدوثه قطّ من أجل ليبي.

قالت ليبي: «يقومون دائمًا بإنقاذ إحدى المشاريع الصغيرة في القصص الرومنسية. في الواقع، لا بدّ من القيام بشيء من هذا القبيل. أتأمّل أن نجد مزرعة ماعز تعيسة الحظّ».

«ربّما سننجح في استقطاب مجموعة من الذين يعارضون طقوس التضحية بالذبائح، لكي يتحرّكوا في البلدة بطريقة فاعلة من أجل إنقاذ

الماعز، آنيًا على الأقل. أعني أن قدَر تلك الماعز في النهاية يبقى الموت على المذبح».

«طبعًا، هذا ما عنيته بالضبط»؛ قالت ليبي وارتشفت قليلًا من عصير البندورة بلذّة ظاهرة.

***

بالنظر إليه، يبدو سائق التاكسي الذي يقلّنا كأنه سانتا كلوز، بقميصه القطني الأحمر والحمّالات التي تمنع بنطاله الجينز الباهت من السقوط، ولكن أسلوبه في القيادة يذكّر بسائق التاكسي الذي يدخّن السيجار في فيلم *Scrooged* والذي لعب دوره الممثّل بيل موريه Bill Murray.

كانت ليبي تصدر عنعنةً مكتومةً كلّما انعطفت السيارة بنا بسرعة، ثمّ رأيتها في إحدى اللحظات، تهامس طفلها لكي تطمئنه.

«إلى صنشاين فولز؟» سأل السائق. ولكن كان عليه أن يصرخ لكي نسمعه، لأنه اتخذ القرار منفردًا بفتح الشبابيك الأربعة. كان شعري يطير ويضرب بعنف على وجهي، حتى إني، عندما رفعت نظري عن الهاتف لأنظر إليه عبر المرآة، لم أستطع رؤية عينيه سوى بصعوبة.

كانت الرسائل التي وصلت إلى هاتفي قد تضاعف عددها خلال الوقت الذي استغرقه نزولنا من الطائرة واستلام حقائبنا -ساعة كاملة، مع أن رحلتنا كانت الوحيدة التي وصلت إلى ذلك المطار الصغير في تلك الساعة- تراني كأني عدتُ للتوّ من جزيرة صحراوية بعيدة، ومن فترة انقطاع عن العالم دامت ثمانية أسابيع أو أكثر.

ما من أمر يدفع جماعة المؤلّفين إلى المزيد من القلق المتعلق بمهنتهم، أكثر من فترة الركود السنوية في نشاط دور النشر. في كل مرّة تتأخر الإجابة عن رسائلهم يغرقون في سيل من التساؤلات، مثلًا: «*هل يشعر المحرّر بالنفور منّي؟؟؟؟؟ هل تشعرين أنتِ بالنفور منّي؟؟؟ هل يشعر الجميع بالنفور منّي؟*».

أجبت السائق بصوت مرتفع «نعم!». وكانت ليبي قد انحدرت برأسها وخبّأته بين ركبتيها.

«لا بدّ أن لديكما أقارب في هذه البلدة!؟»، تكلّم بما يشبه الصراخ لكي يعلو صوته على صوت الهواء.

ربّما لأني أعيش في نيويورك، أو لكوني امرأة، تنبّهت إلى لزوم عدم مصارحته بأننا لا نعرف أحدًا هنا، فأجبته: «ما الذي يدعوك إلى قول ذلك؟».

«ما الذي كان سيدفعكن إلى المجيء إلى هنا لولا وجود الأقارب؟»، أجاب ضاحكًا، فيما أدار السيارة بحدّة حول المنعطف.

وعندما توقّفت السيارة بعد دقائق قليلة؛ تماسكت ما أستطعت لكي لا أصفّق مهلّلة، كما قد يفعل ركّاب الطائرة التي تنجح بالهبوط في حالة طارئة.

رفعت ليبي رأسها وبدت كأنها مصابة بدوار. ثمّ رتّبت شعرها اللامع (والذي لم يزل بأعجوبة غير متشابك).

«أين... أين نحن؟»، سألته، وتفقّدت بنظري المكان حولنا.

لم أرَ على جانبَيّ الدرب الترابية الضيقة حيث كنّا، سوى عشب ذابل من شدّة الحرّ. وفي نهاية تلك الدرب، على بعد أمتار قليلة، ترتفع تلال خضراء تزيّنها حفنات من الأزهار الملوّنة البرّية الصفراء والليلكية المرشوشة هنا وهناك.

وطرأ في بالي سؤال مخيف: «هل ستحدث جريمة قتل نكون ضحيتها في هذا المكان البعيد؟».

أخرج السائق رأسه من النافذة ونظر باتجاه المنحدر، وقال: «فوق هذه التلة تمامًا يقع الكوخ المسمّى غودز *ليلي* Goode's Lily». أخرجت رأسي من النافذة وكذلك فعلت ليبي لنرى المكان بشكل أفضل. وإذا بسلم خشبيّ يظهر فجأة عند منتصف المنحدر وكأنه ولد من عدم. ولكن ربّما من المبالغة أن أسمّي ما رأيته سلّمًا؛ بل مجرّد قِدد خشبية تشقّ ممرّا

وسط التلة الخضراء، كأنها سلسلة من الألواح الصغيرة وضعت خصيصًا لكي تمنع التراب من الانزلاق.

ثمّ تضحك ليبي وتقول: «في الواقع، أشار الإعلان إلى عدم إمكان الوصول بكرسي متحرّك».

«هل أشار أيضًا إلى احتمال الحاجة إلى مصعد هوائي؟»، قلت.

كان سانتا كلوز قد هبط من السيارة لكي يُخرج حقائبنا الثقيلة من الصندوق. تبعته للتوّ وسط الفضاء المشمس، وشعرت في الحال كأن ثيابي السوداء التي اخترت ارتداءها في السفر باتت أكثر سماكة ممّا عهدتها بفعل الحرارة. وعلى صندوق بريد مدهون باللون الأسود مثبت على عامود عند نهاية الطريق الترابية، قرأت اسم الكوخ الريفي المكتوب بخط أبيض منحنٍ *Lily Cottage Goode's*.

قلت: «ألا توجد طريق أخرى؟ طريق توصلنا مباشرة إلى المكان، لأن أختي...؟».

ولكن ليبي، التي لا أشكّ أنها حاولت في تلك اللحظة امتصاص بطنها لإخفاء حملها قدر الإمكان...، أكّدت: «أنا على ما يرام».

كنت على وشك أن ألفت نظره إلى حذائي الجلدي بكعبه العالي الذي لا يقلّ ارتفاعه عن أربع بوصات، ولكني تراجعت على الفور تفاديًا للظهور بتلك الصورة النمطية المعروفة.

أجاب وهو يصعد إلى السيارة: «أعتذر، لا يوجد مكان أقرب. الطريق القريبة الأخرى هي طريق بيت سالي، ولكنّها على بعد مسافة غير قصيرة من هنا». ثمّ حمل بطاقة بيده، وقال: «إن أردتما الخروج إلى أيّ مكان بالسيارة، هذا هو رقمي».

أخذت ليبي قصاصة الورق من يده، وقرأت عليها: *هاردي ويذربي Hardy Weatherbee* – تاكسي ودليل غير رسمي للرحلات السياحية في بلدة *مرّة في العمر Once in a Lifetime*. انفجرت ليبي بضحكة عالية،

أخفَتها زمجرة المحرّك عندما رجعت السيارة بقوّة إلى الوراء باتجاه الطريق العام كأنها وطواط هارب من الجحيم.

«حسنًا»، قالت لي ليبي وهي تغمز بعينها وتهزّ كتفيها، «ربّما ستخلعين حذاءك؟».

عرفت أني سأحتاج للصعود أكثر من مرّة من أجل نقل كل تلك الحقائب، وأنه سيكون من الصعب على ليبي أن تحمل شيئًا أثقل من حذائي.

كان تسلّق المنحدر صعبًا، والقيظ حارقًا، لكن ما إن وصلنا إلى القمّة حتى اخترقنا شعور منعش: رأينا الدرب تتعرّج بين جنائن طبيعية قبل أن تصل إلى بيت صغير دُهنت جدرانه الخارجية بالأبيض، وسطحه المروَّس بلون *سيينا* القرميدي الجميل[1]. النوافذ قديمة، وزجاجها غير مزدوج، ولا تبدو مجهّزة بدرفات خارجية. أما التفصيل الوحيد الذي استطعنا رؤيته من مكاننا فوق تلك الدرب الصاعدة، فكان رسم دالية عنب باللون الأخضر الشاحب حول نافذة الطابق الأوّل. وباستطاعة الناظر أيضًا رؤية الأشجار الكثيفة ذات الجذوع الملتفة في الجانب الخلفي للكوخ، ومن ثمّ يطالعك مشهد الغابة على امتداد النظر. وإلى اليسار، وفي وسط المرج الأخضر، يمكن رؤية كوخ الحديقة الصغير «غاسيبو» المغطّى بالعرائش البرية، وحوله مجموعة أخرى إنما غير كبيرة من الأشجار. وبين الأغصان تترنّح أشكال من أجراس الرياح المزخرفة بشظايا زجاجية رقيقة، ومن أوعية صغيرة تحتوي الحبوب لاستقطاب العصافير. ويستمرّ الدرب في صعوده بين الشجيرات الغضّة المزهرة، لينحرف نحو جسر صغير للمشاة، وينساب من ثمّ نحو الجهة المقابلة حيث يختفي أخيرًا وسط الغابة.

كل شيء يبدو خيالي وخارج من القصص.

كلّا، بل يبدو وكأنه خارج من مرّة في *العمر*: خيالي، خلّاب، رائع.

---

(1) لون شائع على الأسطح خصوصًا في ايطاليا ويشبه لون القرميد الأحمر.

«يا إلهي!»، أشارت ليبي بذقنها نحو الدرجات الخشبية القليلة التالية، وقالت: «هل عليّ الاستمرار في الصعود؟».

حرّكت رأسي إيجابًا، ولمّا أزل ألتقط أنفاسي بصعوبة حين قلت: «يمكنني ربطك بغطاء سرير حول الكاحل، وجرّك صعودًا».

«ماذا ستكون مكافأتي إن استطعت الوصول إلى فوق؟».

«أن تعدّي لي العشاء»، قلت.

ضحكت، ثم شبكت ذراعها بذراعي وتابعنا تسلّق الدرجات الأخيرة، وعطر العشب الأخضر النديّ تحت أشعة الشمس يداعب أنفاسنا.

أحسست بقلبي يتّسع، وبالأمور تتحسّن، وأنها باتت أفضل ممّا كانت عليه منذ أشهر. أشعر أننا نعود لنكون نحن من جديد، قبل أن تزداد مشاغلي في نطاق العمل، وتزداد انشغالاتها العائلية، وتلعب كلّ منّا موسيقى حياتها على إيقاع مختلف.

في حقيبتي، أزّ هاتفي ليعلن وصول رسالة إلكترونية، ولكنّي قاومت مَيلي إلى تفحّصه.

«انظري إلى نفسك، كيف تتوقّفين لشم الأزهار البرية». قالت ليبي بتحدّ ومزاح.

«لست الآن نورا ابنة المدينة، أنا الآن نورا المسترخية، والتي تعيش في اللحظة الحاضرة».

أزّ هاتفي مجدّدًا، فاسترقت النظر إلى حقيبتي من غير أن أتمهّل في سيري. وإذا به يئزّ تواليًا مرتين متتاليتين وثلاث.

لم أحتمل المزيد، بل توقّفت وأنزلت الحقائب، ورحت أبحث في حقيبة يدي لأجد جوّالي الميمون.

إلّا أن ليبي رمقتني بنظرة توحي بعدم الرضى من غير أن تبوح بكلمة.

قلت لها: «غدًا، سأبدأ غدًا فيِ أن أكون نورا الجديدة».

***

قد يبدو الاختلاف كبيرًا بيننا، ولكن عندما فتحنا حقائبنا، وبدأنا بترتيب أغراضنا، تنبّهنا كم نحن من نسيج واحد: الكتب، ومواد العناية بالبشرة، والملابس الداخلية الفاخرة. إنهاً ثلاثية الترف لدى نساء عائلة ستيفنز، الإرث الذي تركته لنا أمّي.

«بعض الأمور لا تتغيّر أبدًا»، تنهّدت ليبي وقالت بنغمة سعيدة يخالطها الحنين، وشعرت بكلماتها تلفّني بدفءٍ أين منه دفء أشعة الشمس.

كانت لدى أمي نظرية ثابتة تقول إن البشرة الشابّة تُكسب المرأة مزيدًا من المال (وهذا صحيح في حال كانت ممثلة أو نادلة)، والملابس الداخلية الفاخرة تمنحها شعورًا بالثقة (تأكّدَت شخصيًا من حقيقة ذلك)، والكتب الجيّدة تمنحها شعورًا بالسعادة (حقيقة كونية)، وكان واضحًا أن كلًّا منّا وضّبت أغراضها على ضوء هذه النظرية.

لم تمر عشرون دقيقة حتى كنت قد رتّبت أغراضي، وغسلت وجهي وبدّلت ثيابي وشغّلت حاسوبي. في هذا الوقت، كانت ليبي قد أخرجت نصف أغراضها من الحقيبة، وغلبها النعاس فتمدّدت وغرقت في نوم عميق على السرير العريض الذي سننام عليه معًا، وكتاب *مرّة في العمر* بصفحاته المطوية زواياها مطروحًا إلى جانبها.

شعرت في تلك اللحظة بقرصة جوع مؤلمة، وكان عليّ تمضية ستّ دقائق في البحث على غوغل لكي أكتشف أن المكان الوحيد الذي يقدّم خدمة التوصيل في البلدة هو بيتزا *بارلور* (خدمة *واي فاي* على الانترنت كانت بطيئة فاضطررت إلى استخدام ميزة هوت سبوت على هاتفي لتسريع البحث).

لم يكن خيار الطبخ ممكنًا. في نيويورك، أتناول خمسين في المئة من وجباتي في المطعم. وأربعين في المئة منها تكون مزيجًا من وجبات تصلني عبر خدمة التوصيل، وأخرى أحملها معي في طريق عودتي إلى البيت.

كانت أمي تقول إن نيويورك هي أفضل مكان للعيش إن كنت لا تملك

المال؛ فإلى جانب الكثير من الجمال والفن الذي يمكنك الاستمتاع به بالمجان، يوجد الكثير من الطعام الرخيص. «ولكن أن تملك المال في نيويورك... فذلك هو *السحر* بعينه!»، أذكرها تقول ذلك في أحد أيام الشتاء، حيث ليبي وأنا كنّا نمسك بيديها من فوق القفازين ونتفقّد بعيوننا معها البضاعة المعروضة في نوافذ المحلات الفخمة.

لم تقل ذلك بمرارة، بل بانشداه وخيال. كأنها كانت تقول: *إذا كانت الأمور جيّدة كما هي الآن، فكيف تراها* ستكون *عندما* لا *نخاف من استحقاق فواتير الكهرباء*؟

لم تلِج عالم التمثيل من أجل المال (كانت متفائلة وإنما غير واهمة). معظم دخلها كان مصدره البقشيش الذي تتلقّاه في المطعم، أو رعاية الأولاد في البيوت أثناء غياب الأهل. كانت تعطينا أوراقًا وأقلام تلوين وتجعلنا نتلهّى بها ريثما تنتهي من نوبة عملها في المطعم؛ أو تصطحبنا معها عندما كانت تذهب إلى بيوت عائلات توافق على استقبالنا. عندما أصبحت في الحادية عشرة، بدأت أمي تثق بقدرتي على البقاء مع أختي وحدنا في البيت، أو في مكتبة فريمان تحت أنظار السيدة فريمان نفسها.

كنا نحن الثلاثة سعيدات للغاية في تلك الأيام على الرغم من افتقارنا للمال. كنّا ندور في شوارع المدينة وبيدنا سندويش فلافل نشتريه من البائع الجوّال، أو قطعة بيتزا كبيرة بحجم رأسنا، ونحلم بمستقبلنا الكبير.

وها أنا الآن، وبفضل النجاح الباهر لـ *قصّة مرّة في العمر*، أشعر أن حياتي بدأت تشبه ذلك المستقبل الذي كنت أتخيّله.

ولكن من الصعب في هذا المكان أن يصل إلى بابك، حتى طبق *بات ثاي التايلاندي* السريع. بل كان علينا السير بضعة كيلومترات إلى قلب المدينة.

شعرت ليبي بالانزعاج عندما حاولت إيقاظها، حتى كادت تشتمني.

قلت: «إني جائعة»، وهززت كتفها، ولكنها استدارت على جنبها الآخر ودفنت وجهها في الوسادة.

«احملي لي معك الطعام أيضًا»، دمدمت.

قلت في محاولة لجذبها: «ألا تريدين رؤية القرية الصغيرة التي تحبّين؟ ألا تريدين التعرّف إلى الصيدلية حيث كاد العجوز ويتاكر أن يتناول جرعة زائدة من المخدّر ويضيع صوابه؟».

دفعتني عنها من غير أن تنظر إلى وجهي.

قلت: «حسنًا، سوف أحمل لك شيئًا معي».

عقصت شعري إلى الوراء بطريقة بسيطة، وانتعلت حذائي الرياضي الخفيف، وانطلقت نزولًا على المنحدر تحت أشعة الشمس ثانيةً، ثم إلى الطريق الترابية التي تَحول بعض الأشجارالهزيلة المزروعة على حوافّها من انزلاق التربة.

وعندما انتهت الطريق الضيقة أخيرًا، ووصلت إلى الأخرى المعبّدة التي تتقاطع معها أفقيًّا في اتجاهين، سرت نحو اليسار ثم تبعت المنعطف نزولًا.

ومثلما ظهر الكوخ أمامنا فجأة عند قمّة التلّة، طالعني مشهد البلدة متكاملًا مرّةً واحدة.

وجدتني أنتقل في لحظة من طريق متقلقلة عند أقدام الجبل، إلى رؤية قرية صنشاين فولز منبسطة أمامي كما لو كانت قد أُعدّت خصيصًا لتصوير حوادث فيلم كاوبوي من ماضي الغرب الأميركي. لاحظت للتوّ حزام الأشجار الخضراء المحيطة بالبلدة والتي ترتفع لتلتقي مع السماء الزرقاء الصافية المخيّمة عليها.

المشهد أكثر رمادية بقليل، وأقلّ تنميقًا ممّا رأيته في الصور، ولكنّي استطعت رؤية الكنيسة المبنية بالحجر الصخري، وكذلك الخيمة المخطّطة بالأخضر والأصفر عند واجهة المخزن الكبير، والمظلات باللون الأصفر الليموني في الفسحة الخلفية للمقهى المسمّى في القصة صودا *فاونتن* ينبوع المشروبات الغازية.

وفيما تابعت سيري، التقيت بعدد قليل من المتنزّهين مع كلابهم. وكان

هناك رجلٌ مسنّ جالسٌ على مقعد معدني على الرصيف وبيده جريدة. ثمّ رأيت امرأة تسقي أزهارها المزروعة في صناديق أمام مخزن لبيع الخرضوات. نظرت عبر نوافذ المحلّ وبدا لي خاويًا تمامًا من الزبائن.

وبالنظر إلى الأمام، لاحظت وجود بناء قديم بالحجر الأبيض عند الزاوية، يتطابق وصفه مع المكتبة القديمة التي تديرها السيدة ويلدرز في القصّة والمتخصّصة في إعارة الكتب. إنه الإطار المفضّل لديّ في القصّة، لأنه يذكّرني بأيام السبت الممطرة عندما كانت أمّي تتركنا لقضاء بعض ساعات الصباح في زاوية الكتب المناسبة لتلامذة المرحلة الابتدائية في مكتبة فريمان، فيما تركض مهرولةً عبر شوارع المدينة لكي لا تتأخر عن موعد تجارب الأداء، لعلّه يجري اختيارها لتمثيل دورٍ معين في فيلم سينمائي.

ولدى عودتها، كانت تصطحبنا لتشتري لنا البوظة، أو المكسّرات المقرمشة المغلّفة بالسكر في حديقة واشنطن سكوير. كنا نمضي الوقت صعودًا ونزولًا بين الممرّات العديدة، ونتسلّى بقراءة اللوحات الصغيرة المثبتة على ظهر المقاعد المنشورة على الأرصفة ونذهب بعيدًا في اختراع الحكايات بشأن الذين تبرّعوا بها.

هل تتخيّلان العيش في غير هذه المدينة؟، كانت أمي تقول.

لم أتخيّل ذلك.

بعد سنوات من ذلك، كان عدد من رفاقي في الجامعة، الذين قدِموا من خارج نيويورك لمتابعة الدراسة الجامعية، يُجمعون على أنه «من المستحيل أن يرغبوا في تربية أطفالهم في المدينة»، وصدمني سماع مثل هذا الرأي. ليس فحسب لأني ترعرعت وشعرت بالسعادة في المدينة – بل لأني في كل مرّة أشاهد أفواجًا من الأولاد يتحرّكون ناعسين في أروقة متحف الفنون Metropolitan Museum of Art، أو أراهم يرقصون في القطارات رقصتهم المفضّلة عادةً (Break Dance) ويتلقّون النقود من

الركاب، أو يقفون بانشداه أمام لاعب الكمان ذي المستوى العالمي الذي يعزف تحت ساحة مركز روكفلر، أفكّر كم هو جميل أن أكون جزءًا من كلّ هذا، وأن أشارك هذا المكان مع كلّ هؤلاء الناس.

أحبّ اصطحاب بيا وتالا لكي تكتشفا المدينة أيضًا. وأحبّ أن أتعرّف إلى الأمور التي تستحوذ على اهتمام ابنة الأربعة أعوام ونصف، واهتمام أختها التي بلغت حديثًا الثالثة، وتلك الأمور التي لا تستوقفهما وتجدانها عادية.

انتقلت أمي إلى نيويورك وهي تحلم بالعيش في ما يشبه الإطار المكاني في أفلام نورا إفرون Nora Ephron (التي أحمل اسمها الأوّل)، ولكن نيويورك الحقيقية كانت في الواقع أجمل. والسبب يعود إلى أنها تضمّ كل أنواع الناس الذين يشتركون في المكان والحياة.

ومع ذلك، فإن حبّي لنيويورك لا يعيق إحساسي بجاذبية صنشاين فولز.

في الواقع، اتّقدتُ حماسةً عندما اقتربت من المكتبة، ولكن سرعان ما أصابني الفتور عندما حدّقت النظر إلى داخلها عبر النوافذ الداكنة. في الحقيقة، واجهة البناء المكسوة بالحجر الصخري الأبيض تبدو مطابقة لوصف دَستي في القصة، ولكن لم أرَ في الداخل سوى وميضًا صادرًا عن شاشة تلفاز، وإعلانات مضاءة لبعض أنواع البيرة.

هذا لا يعني أني كنت أتوقّع وجود الأرملة ويلدر على أرض الواقع، ولكن وصف دَستي الحيّ للمكتبة، جعلني أصدّق أنها مكان موجود بالفعل.

تضاءلت حماستي، وما لبثت أن اختفت عندما فكّرت بليبي. ليس هذا ما تتوقّعه أختي. وجدتني للتوّ أفكّر كيف سأتدبّر أمر آمالها العالية، وأفكّر في الأنشطة المرحة التي قد تخفف من وطأة خيبتها.

مررت من أمام عددٍ من المحلات الخاوية قبل أن أصل إلى الخيمة المخطّطة أمام المخزن الكبير. من النظرة الأولى إلى الداخل عرفت أنّ لا وجود لرفوف ملأى بأنواع الخبز الطازج، كما ولا لبراميل ملأى بأنواع السكريات التقليدية.

ألواح الباب الزجاجية مكسوّة بالغبار، وكل ما أستطيع رؤيته وراءها يوحي بأنه غير ذي قيمة. رفوف فوق رفوف ملأى بقطع خردة. حواسيب قديمة، مكانس ومراوح كهربائية مكسورة، دمى بشعر أشعث. إنه أشبه بمخزن لبقايا أغراض مرهونة.

وقبل أن تلتقي عيناي بعيني الرجل الذي يرتدي نظارة بعدسات مزدوجة، ويجلس وراء الطاولة بقرب الباب، أسرعت الخطى حتى صرت مقابل الفسحة حيث توجد المظلات الصفراء على الجانب الآخر من الشارع.

تبدو هناك على الأقل أمارات توحي بالحياة. أشخاص يدخلون أو يخرجون. ثنائي يشربان القهوة ويتحدّثان حول إحدى الطاولات. *أخيرًا، يوجد هنا بصيص أمل*، قلت في نفسي.

نظرت إلى جهتَي الطريق تحسّبًا للسيارات (لم يكن هناك أي سيارة) وقطعت الطريق بسرعة. أما الأحرف البارزة المطلية باللون الذهبي فوق مدخل المكان، فتقول: *Mug + Shot* (كوب + كأس) ورأيت في الداخل أشخاصًا يقفون أمام منضدة.

وضعت يدي على عينيّ بطريقة تجنّبني الانزعاج من انعكاس الضوء على الزجاج وتسمح لي بالرؤية، ولكني لم أرَ في تلك اللحظة أن رجلًا من الجهة الأخرى للباب كان قد شرع إلى دفعه لكي يفتحه ويخرج.

الفصل الثالث

عينا الشاب الخضراوان بلون الزمرّد اتسعتا بفعل المفاجأة. «أعتذر»! قال فيما استطعت القفز بسرعة بعيدًا عن الباب، فتفاديت الاصطدام به.

ليس من عادتي التلعثم في هكذا موقف.

ولكني تسمّرت في مكاني مبهوتة؛ كنت أنظر بصمت وفضول إلى أجمل رجلٍ رأيته في حياتي.

شعره أشقر ذهبي، فكّاه عريضان، ولحيته تنمو بطريقة طبيعية وإنما مرتّبة. إنه مفتول العضلات - حضر الوصف إلى ذهني تلقائيًا من القصص القديمة التي كانت تقرأها أمي من منشورات هارلوكان (Harlequin) وأقرأها بدوري بالخفية عنها. قميصه المخطّط بالمربعات ملاصق لجسمه، وأكمامه ملفوفة فوق ساعديه البرونزيّين.

بابتسامة خجولة وقف بمحاذاة الباب ممسكًا به لكي يسمح لي بالدخول.

كان عليّ أن أقول شيئًا.

أي شيء، مثل:

أوه، أنا المسؤولة لأني وقفت وراء الباب.

أو أن ألقي التحية على الأقلّ.

لسوء الحظّ، لم يحدث شيء من ذلك. ولكني نجحت أخيرًا في رسم ابتسامة على وجهي، ومررت من أمامه ودخلت، وبي أمل أن أبدو كأني أعلم حقًّا أين أنا، أو أني جئت إلى هنا لغرضٍ واضح.

لم أحب كثيرًا قصص الريف الرومنسية التي كانت تقرأها أمي كما

أحبّتها ليبي، ولكني استمتعت بها بقدر كافٍ بحيث لا يفاجئني أني تذكّرت في تلك اللحظة الوصف الذي يقول: عطره يذكّرك *بالأشجار دائمة الخضرة، وبرائحة المطر قبل هطوله.*

ولكن رائحة الرجال عادةً، سوى في الحالات الاستثنائية، تتّصل برائحة العرق، أو الصابون، أو برشّة زائدة من الكولونيا.

كأن هذا الرجل جاء من عالم الخيال، أو كأنه النجم الساطع في كوميديا رومنسية، الذي يحثّك على الصراخ بالقول: ***لا يمكن لصاحب مزرعة أبقار أن تكون عضلات معدته في مثل هذا التقسيم!***

وكان ينظر إليّ مبتسمًا.

هل هكذا تحدث الأمور؟ تذهب إلى إحدى القرى، وتخرج في نزهة على القدمين، ثم تقابل شخصًا غريبًا وإنما فائق الجمال؟ تُرى هل يجدر بي أن أعذر أصدقائي السابقين؟

ازدادت ابتسامته إشراقًا، (وواكبتها بالطبع الغمازتان)، فيما أحنى رأسه بحركة لطيفة، وترك الباب لينغلق.

راقبته عبر الزجاج فيما كان يبتعد، وفي قلبي رفّة كأنها ارتجاج حاسوب علَت سخونته.

عندما خفت البريق في عينيّ، اكتشفت أني لست على قمّة جبل أولمبوس، بل في مقهى جدرانه الداخلية من الطوب الأحمر الناتئ، وأرضيته قديمة وخشبية، ورائحة القهوة الإسبرسو تثقل هواءه. وعبر الباب الخلفي الذي ينفتح على السطيحة المزروعة بالطاولات والمظلات الصفراء، تنساب أشعة الشمس إلى الداخل وتضيء رفوفًا زجاجية وضعت عليها أنواع من المعجنات والحلويات والسندويشات الملفوفة بأغلفة من النايلون. ولعلّ أنغام معدتي الخاوية بدأت في تلك اللحظة تصدح في رأسي. وقفت في الطابور، واستعرضت بنظري الأشخاص من حولي. خليط من الناس تغلب على معظمهم مظاهر العيش في الطبيعة، فمنهم من انتعل حذاءً صيفيًّا مزوّدًا بالأربطة ومناسبًا للسير في الوعر، ومنهم من

ارتدى بنطال جينز مترهّل، وقبعة ظهرها من الشبك. وفيما كنت كذلك، لمحت في مقدّمة الطابور شابًّا وسيمًا آخر.

اثنان في الساعة الأولى من وجودي هنا. يا لها من نسبة عالية!

لم يكن بمستوى وسامة إله الجمال «أدونيس» الذي كان ممسكًا بالباب، ولكنّه وسيم الطلعة بمقاييس البشر. أناقة واضحة وبسيطة، وشعر داكن وكثيف. إنه بمثل طولي، أو ربّما أقصر أو أطول بمقدار شعرة، يرتدي كنزة رياضية سوداء، وقد رفع أكمامها قليلًا فوق ساعديه، وبنطالًا باللون الزيتي، وحذاء أسود. لا يمكنني وصفه سوى بأنه جذّاب ومثير. استطعت رؤية جانب وجهه فحسب، ووجدته جميلًا. لاحظت شفتيه المكتنزتين، وذقنه الناتئ بدرجة طفيفة إلى الأمام، وحاجبيه اللذين يقعان في منطقة متوسطة بين حواجب الممثلَيْن كاري غرانت، وغروتشو ماركس(Cary Grant & Groucho Marx).

كأنه يشبه شارلي لاسترا، فكّرت.

أو بالأحرى، يشبهه كثيرًا.

التفت الرجل مستعرضًا المأكولات على الرفوف الزجاجية، وانطلقت في رأسي على الفور، وبوتيرة ملحّة ومتتالية كما لو كانت طلقات من صاروخ ألعاب نارية مثبت في فوهة قنينة، الكلمات التالية: *إنه ذاته، إنه ذاته، إنه ذاته.*

شعرت وكأن معدتي رُبطت إلى حجر، وسقت في هوّة سحيقة.

مستحيل! يكفي غرابةً أن أكون *أنا* هنا - من المستحيل حتمًا أن يكون هو أيضًا هنا.

ومع ذلك...

كلّما أطلت النظر إليه، ساورني الشكّ. كانت حالتي تشبه حالة أيّ منّا عندما يظن أنه لمح أحد المشاهير شخصيًّا - كلّما أطال النظر إلى وجهه بنظرة بلهاء، تبيّن له مثلًا أنّه لم ينظر إلى أنف النجم ماثيو برودريك

Mathew Broderick من قبل...؛ أو بحسب ما يذكر، ربّما لم يكن لهذا الأخير أنف في الأساس.

أو عندما تحاول رسم سيارة أثناء لعبة التصوير Pictionary، حيث يطلب منك رسم شيء معيّن لكي يتمكّن المشاركون في اللعبة من معرفة اسمه، ولكنك ترتبك في الرسم وتفاجأ بأنك لا تتذكّر كيف هي السيارة في الحقيقة.

دفع الشخص الذي يقف في أوّل الطابور حسابه ومشى، وتقدّمنا نحن الواقفون وراءه خطوةً. ولكني انسحبت من الطابور، ووقفت وراء رفّ كانت قد وضعت عليه كومة عالية من علب الألعاب اللوحيّة (Board (Games.

لو كان هذا الشخص هو شارلي بالفعل، فسيكون مؤذيًا جدًّا له رؤيتي هنا -كأنّي أرى معلمتي الأشدّ تزمّتًا في نادٍ للمراهقين، وهي ترتدي قميصًا يُظهر بطنها، وحلقة مزيّفة في سرّتها (أقول هذا لأني مررت بمثل هذه التجربة بالفعل)- وإن لم يكن هذا الرجل هو شارلي، فعلى الأرجح أني سأتابع ما جئت بصدده بأسلوب عادي.

أخرجت هاتفي وفتحت البريد الإلكتروني وبحثت عن اسمه.

عدا عن الرسائل الساخنة التي تبادلناها بعد لقائنا الأول، هناك الرسالة التي بعث بها إلى معارفه، معلنًا عن عنوانه الجديد بعد أن انتقل منذ ستة أشهر من دار وارتن للنشر، ليصبح مدير قسم التحرير في مؤسّسة لوجيا.

طبعت رسالة إلكترونية سريعة ووجهتها إلى عنوانه الجديد. كتبت:

شارلي،

قصص جديدة قيد الإعداد. هل تذكّرني برأيك حول فكرة الحيوانات التي تتكلّم؟

نورا

أرسلتها، ليس لأني كنت أنتظر منه رسالة من خارج المكتب يطلعني فيها على تفاصيل تحرّكاته، أو تحديدًا على مكان وجوده في اللحظة، وإنما على أمل أن أعلم على الأقلّ إذا كان بعيدًا عن مركز عمله.

ولكن هاتفي لم يعطِ إشارةً بوصول إجابة مسجّلة مسبقًا.

استرقت النظر من مخبأي، ورأيت الرجل الذي قد يكون، أو لا يكون، غريمي المهني يسحب هاتفه من جيبه، وقد أحنى رأسه وشدّ شفتيه بأسلوب لا ينمّ عن الارتياح، ومع ذلك، فإنهما ما زالتا تبدوان منتفختين وتذكّران بذلك التعبير الخاص على وجه شارلي لاسترا. ثمّ رأيته يستخدم الهاتف كأنه يطبع كلمات قليلة، ثم يعيده إلى جيبه.

وعندما ارتجّ هاتفي في يدي، لم أصدّق، وشعرت بقشعريرة تهزّني، وتخترق عمودي الفقري.

قلت في نفسي: *يا لها من مصادفة!* لا بدّ أنها مجرّد مصادفة. وفتحت الرسالة، لأقرأ:

نورا،

هذا مرعب.

شارلي

تقدّم الطابور خطوةً جديدة، واقترب دور شارلي. علمت أنه لم يبقَ أمامي مزيدٌ من الوقت لكي أخرج من المكان من دون أن يلمحني. وليس أمامي الوقت الكافي حتى لأقرّر ما إذا كانت مخاوفي مبرَّرة أو لا.

وأرسلت له من جديد:

شارلي،

ما رأيك بقصص بيغ فوت *إروتيكا*[1]؟ معروض عليّ كومة منها.

هل تناسبك؟

نورا

وما إن ضغطت على زر الإرسال، حتى عدتُ إلى ذهني. لماذا اخترت

(1) مغامرات الرجل الوحشي المعروف باسم بيغ فوت أو «القدم الكبيرة» الجنسية.

هذه الكلمات من بين كل ما هو متوفّر لدي؟ قد يكون دماغي منظّمًا إلى أقصى الحدود، ولكنّه بدا الآن كما لو أضرمت النيران في محتوياته. موجة من الإحراج اخترقت عروقي فجأةً عندما تصوّرت شارلي يفتح هذه الرسالة، ويستعيد الشعور بتفوّقه المهني على الفور.

أخرج شارلي هاتفه من جيبه؛ وكان المراهق الذي أمامه قد انتهى للتوّ من المحاسبة. ابتسمت النادلة وربّما دعته للتقدّم، ولكنّه تمتم شيئًا وخرج من الصفّ.

إنه يواجهني الآن جزئيًا من مكان وقوفه. هزّ رأسه بطريقة واضحة، وتحرّكت زاوية فمه في تعبير غير مفهوم. إنه نفسه، بتّ متأكدة الآن، ولكني إذا ركضت باتجاه الباب فسأسترعي انتباهه.

ما الذي جاء به إلى هنا؟ نظرت إليه من رأسه إلى قدميه، وكعادتي قدّرت ثمن كل ما كان يرتديه: خمسمئة دولار ثمن الثياب ذات الألوان الخافتة التي يرتديها. ولكن إذا كان قصده من الخفوت التخفّي، فإن صورته واضحة، وأوضح ممّا لو كانت في إعلان مضيء فوق إحدى قاعات السينما، ومثلما لو كان تحتها كلمات بأحرف كبيرة تقول: ***هذا زائر من خارج البلدة***، ومزوّدة بسهم يشير إلى لون شعره الأسود الذي يخالطه البياض.

أدرت ظهري إليه، ووجهي إلى الرفّ، وتظاهرت باستعراض ألعاب التسلية لكي أختار إحداها.

وقياسًا لقصر رسالتي إن لم نقل لبلاهتها، فإن الوقت الذي صرفه قبل الإجابة كان طويلًا.

من المحتمل طبعًا أنه كان يقرأ عددًا من الرسائل الأخرى أيضًا.

ارتجّ هاتفي وكاد يسقط من يدي من شدّة سرعتي إلى فتح الرسالة التالية.

تقول الرسالة:

ما من رأي حاسمٍ حتى الآن؛ وإنما فضول كبير. لا بأس في أن ترسلي شيئًا منها.

نظرت ورائي، ووجدت أن شارلي عاد ليقف في الطابور.

وتساءلت بلذّة: كم من *المرّات سأنجح في إخراجه من الطابور*؟ أفهم أهميّة الالتصاق بالهاتف في حالة الأمور المهمّة المتعلّقة بالعمل، ولكني فوجئت بأن غريزة العمل المتجذّرة عميقًا في طبعه تدفعه إلى الإجابة فورًا حتى على رسالة تتّصل ببيغ فوت *إروتيكا*.

في الواقع، كان قد وصل إلى صندوق بريدي الإلكتروني منذ مدّة، طلب بالنظر في مخطوطة من نوع بيغ فوت *إروتيكا*. وإذا بي ألجأ إلى قراءتها بأسلوب درامي على مسامع مديرتي لأضحكها، وأخرجها من الأجواء المتلبّدة أحيانًا.

ليس من الأخلاق المهنيّة بالطبع أن أطلع أحدًا من خارج المكتب على هذه المخطوطة. ولكن الكاتب أرفق رابطًا لصفحته على الانترنت حيث توجد مجموعة من القصص القصيرة من النوع ذاته، والتي نشرها بنفسه، ويمكن شراؤها. نسخت الرابط لإحداها، وأرسلته إلى شارلي.

نظرت سريعًا إلى الوراء، فلمحته محدّقًا إلى هاتفه، وفي غضون ثوانٍ، أزّ هاتفي بالجواب:

ثمن القصّة 99 سنتًا....

أجبت: «يا له من عرض مغرٍ!». لو كانت معايير سلوكي المهني طلاء أظافر من نوع الجيلاتين اللاصق جدًّا (Gel)، لكان شارلي لاسترا، على ما يبدو، ذلك النوع من مزيل الطلاء القادر على إزالته في الحال.

وجدت اسمه على تطبيق فينمو [1](Venmo) وأرسلت إليه 99 سنتًا.

وبعد ثانية، وصلتني رسالة أخرى، حيث يعيد إليّ دولارًا واحدًا، مع ملاحظة: نورا، أنا إنسان بالغ ويمكنني أن أشتري أقصوصة بيغ فوت *إروتيكا* لنفسي. شكرًا جزيلًا.

ألقت النادلة عليه التحيّة مجدّدًا. ورأيته يُسقط الهاتف في جيبه وينشغل على الفور في اختيار ما يريد. وفيما هو كذلك، عرفت أن الفرصة أصبحت سانحة للهروب.

---

(1) تطبيق رقمي يسمح بتحويل المال.

إني جائعة.

ومتعطّشة لمعرفة السبب الذي جاء به إلى هنا.

ولكني أسرعت في خطواتي باتجاه الباب.

***

«مستحيل!»، صرخت ليبي بعد أن جلسنا في الكوخ حول الطاولة المصنوعة من الخشب الطبيعي غير المصقول، وانكببنا على التهام أنواع السلطة والخبز التي طلبناها بعد عودتي، ووصلتنا من محل بيتزا *أنطونيو*. كان عليّ النزول إلى حيث صندوق البريد مجدّدًا لاستلام الطعام، بعد أن قال الشابّ الذي حملها إنه لن يتسلّق الدرج لأسباب «تتعلّق بشروط التأمين».

لم أصدّق تمامًا عذره، وإنما قبلته على كل حال.

وتابعت ليبي مستوضحة: «... ذلك الشاب الذي رفض بوقاحة كتاب دَستي؟!».

أومأت برأسي إيجابًا، وغرست شوكتي في قطعة شهية من البندورة ورفعتها إلى فمي.

«ماذا يفعل هنا؟».

«لا أدري».

«يا إلهي! ماذا لو كان في الحقيقة عاشقًا لقصّة مرّةً في *العمر*؟».

أجبت بلا تردّد: «أظن أنها الفكرة الأكثر استحالة».

«ربّما كان مثل العجوز السيد ويتاكر في القصّة، أيّ إنه يخاف الإفصاح عن مشاعره الحقيقية. ربّما يعشق هذه البلدة في سرّه، ويعشق القصّة، ويعشق أيضًا الأرملة السيدة ويلدر».

ينتابني في الواقع فضول لا يطاق، ولكننا لن نتمكّن من حلّ هذه الأحجية بهذه الطريقة. «ماذا تودّين أن نفعل الليلة؟».

فردّت ليبي: «هل نلقي نظرة على القائمة؟». وأخرجت الورقة من عمق حقيبتها، ووضعتها بتأنّ على الطاولة غير أنها ما لبثت أن تراجعت: «لا بأس؛ أنا متعبة جدًّا الليلة ولا أستطيع القيام بأيّ من هذه الأمور».

قلت: «جدّ متعبة للتربيت على ظهر حصان، أو لنجدة مشروع محلّي، حتى بعد القيلولة؟».

«تظنّين أن قيلولة أربعين دقيقة تكفي للتعويض عن الأسابيع الثلاثة الطويلة الماضية، حيث تعوّدت بيا أن تدبّ في كل ليلة إلى سريرنا هربًا من الكوابيس؟».

أجفلني قولها، لأني أعلم أن الحرارة الداخلية في كل من هاتين الفتاتين ربّما تعلو إلى ثلاثمئة درجة مئوية. وأعلم جيّدًا أيضًا أنّه لا يمكنك النوم في سرير واحد معهما من غير أن تصحو مبلّلًا بالعرق، ومن غير أن تجد قدمًا صغيرة محبّبة مزروعة في قفصك الصدري.

قلت: «أنتما بحاجة إلى سرير أكبر»، والتقطت هاتفي فورًا لكي أبدأ في البحث.

اعترضت ليبي: «لا أرجوكِ، لا يمكننا وضع سرير أكبر في تلك الغرفة، إلا إذا قرّرنا الاستغناء عن فتح أدراج الخزانة».

شعرت بومضة من الارتياح في تلك اللحظة لأني أحسست بوجود سبب يفسّر التغيير الذي طرأ مؤخّرًا على سلوك ليبي، وأقصد شعورها بالوهن، وابتعادها غير المفهوم عنّي. عندما نعلم السبب، يصبح إيجاد الحلّ ممكنًا.

«أنتم بحاجة إلى شقّة أكبر». وجود عائلة من خمسة أشخاص، بعد ولادة الطفل الثالث، في شقة ليس فيها سوى حمام واحد، يعني بالنسبة لي العيش على قارعة الجحيم.

أجابت ليبي: «لا يمكننا استئجار شقة أكبر حتى لو كانت على سطح بارجة نفايات في أعماق جيرسي. عندما استعرضت الشقق المعروضة للإيجار في المرّة الأخيرة، كلّها كانت: غرفة نوم واحدة، وحمام ملاصق *للشقة المجاورة التي قد يسكنها قاتل تسلسلي*؛ مبلغ *الإيجار يتضمّن الخدمات، ولكن عليك تقديم الضحايا*! حتى *هذا النوع من الشقق يتخطّى* ميزانيتنا».

أشرت بيدي بما يعني: «لا تهتمّي لموضوع المال؛ بإمكاني المساعدة».

أدارت عينيها. «لست بحاجة لمساعدتك. إني امرأة بالغة وغير ناقصة. كل ما أحتاجه هو ليلة نوم كاملة، وبعدها شهر من الراحة والاسترخاء، هل هذا واضح؟».

كالعادة، تكره ليبي أن أعطيها مالًا. ولكن الغاية من وجود المال هي أن نكون على ما يرام. إن كانت ترفض قرضًا آخر منّي، فسأسعى لكي أجد لها شقّة ضمن حدود ميزانيتها. وهكذا نصل إلى حلّ نصف المشكلة.

فقلت: «حسنًا سنبقى هنا ونسهر سهرة هيبّورن، ما رأيك؟».

ابتسمت بسعادة، وقالت: «موافقة، سهرة هيبّورن».

في كلّ مرّة أحسّت أمي بالخيبة أو الاكتئاب، كانت تسمح لنفسها في المساء أن تعيش مع مشاعرها.

وكانت تسمّي مثل تلك السهرة، سهرة هيبّورن. كانت تحبّ الممثلة كاثرين هيبّورن (Katharine Hepburn)، وليس الأكثر شهرة أودري هيبّورن، وهذا لا يعني أنها كانت تكره أودري. وتيمّنًا بهذه الممثلة، أطلقت عليّ اسم «نورا كاثرين ستيفنز»؛ فيما استوحت اسم ليبي «إليزابيث بيبي ستيفنز»، من اسم الفهد (بيبي) في فيلم *Bringing Up Baby*.

في سهرات هيبّورن، تعوّدت كلّ منّا نحن الثلاثة، اختيار رداء واسع قديم الطراز من خزانة أمي، فتتجلبب به، وتتكوّر في زاويتها المفضلة أمام شاشة التلفزيون، وبيدها كوبٌ من خليط بيرة الجذور Root beer مع البوظة، وإلى جانبها قطعة كبيرة من البيتزا، أو كوبٌ من القهوة الخالية من الكافيين مع فطيرة الحلوى بالشوكولا. كنا نتسمّر هكذا لساعات أثناء مشاهدة أفلام سينمائية قديمة بالأبيض والأسود.

وكانت أمي تبكي أمام بعض المشاهد التي تحبّها، وعندما نتنبّه إلى دموعها، كانت تسارع إلى إطلاق ضحكة، ثم تمسح دموعها بظاهر يدها، وتقول: كم *أنا سريعة التأثر*.

أحببت تلك السهرات. تعلّمت من خلالها أن المشكلات التي تجرّ

مشاعر الحزن والخيبة هي مثل سواها من الأمور، أي إنها قابلة للحلّ؛ ويمكن لخطّة معيّنة المساعدة على تخطّي مشاعر الحزن والحداد. وإن هناك خطى عملية قادرة على مساعدة الناس على الاستمرار. أتقنت أمي هذا الأمر، ولكنها لم تتمكّن في الواقع من الانتقال إلى الخطوة التالية، وهي اقتلاع الأعشاب الضارة من حياتها. ألا وهم الرجال المتزوجون؛ أو الذين لا يريدون القيام بدور الأب البديل؛ أو أولئك المفلسون؛ أو الذين يمتلكون الكثير من المال، وأقارب على أتمّ الاستعداد للهمس من وراء ظهر أمّي بأنّ جلّ ما تسعى إليه هو الثروة.

إنهم هؤلاء الرجال الذين لم يفهموا معنى طموحها لأن تكون ممثلة. أو الذين كانوا يهابون الوقوف إلى جانبها في دائرة الضوء.

تحمّلت مسؤولية تربية الأطفال ولمّا تزل في عمر أقرب إلى الطفولة هي نفسها، ولكنّها حافظت على قلبٍ منفتح على الرغم من كل المعاناة. كانت متفائلة ورومنطيقية تمامًا مثل ليبي. كنت أتصوّر أن أختي ستقع في الحبّ مرّات ومرّات طيلة عقود، وستعيش قصص غرام لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد. ولكنها وقعت في حبّ براندن عندما كانت في العشرين، واستقرّت.

من ناحيتي لم أرث من تلك الرومنطيقية سوى ضلع واحد في كياني، وعندما انكسر قمت بترميم نفسي مجدّدًا واعتمدت شروطًا محكمة قبل الإقبال على مواعدة أي شخص. وبالتالي فإن ليبي وأنا، لسنا في أدنى حاجة إلى سهرات هيبّورن العتيقة. ولكننا نلجأ إليها أحيانًا للاسترخاء، أو لأنها تقرّبنا من أمّي.

مع أنّ الساعة لم تكن قد جاوزت السادسة، ارتدينا ثياب النوم، ولم تنسَ كلّ منّا العباءة الحريرية الواسعة. نزعنا أغطية السرير وسحبناها فوق سلالم الحديد الحلزونية نزولًا من غرفة النوم العلوية إلى الأريكة أمام التلفاز في الطابق الأرضي، وأخرجنا الأسطوانة المدمجة (DVD) الأولى من العلبة التي حملتها ليبي معها، وأدخلناها في جهاز التشغيل.

وجدت في المطبخ كوبَيْن لونهما أزرق، فباشرت في تحضير الشاي، ثم استرخينا على الأريكة استعدادًا لمشاهدة الفيلم الذي يحمل عنوان قصّة فيلادلفيا *Philadelphia Story*، وعلى وجه كلّ منّا قناع أسود مصنوع من مستحضر الفحم للعناية بالبشرة. أرخت أختي رأسها على كتفي، وتنهّدت بسعادة وتمتمت: «حسنًا فعلنا».

انقبض قلبي عندما فكّرت بالأرق الذي قد يصيبني عندما أذهب بعد ساعات قليلة إلى النوم في سرير غريب -وكذلك عندما تصوّرت ردّ فعل ليبي غدًا عندما ستشاهد ساحة البلدة الخالية من البريق الذي تتوقّعه- عرفت أنّ مشاعري قد تتغيّر لاحقًا، أما في تلك اللحظة فكان كل ما في العالم يسير على ما يرام بالنسبة لي.

كل ما يُكسر يمكن جبره، ولكل مشكلة حلّها.

وعندما غلب النعاس أجفان ليبي؛ أخرجت هاتفي من جيبي، وبعثت برسالة إلى كل معارفي من الوكلاء العقاريين وأصحاب الشقق ومدراء الأبنية.

وقلت لنفسي: *إنكِ في موقع القوّة، ولن تسمحي بأن تُصاب أختك ثانية بأيّ مكروه قطّ.*

***

عند العاشرة تقريبًا، أزّ هاتفي معلنًا وصول رسالة جديدة.

منذ أن جرّت ليبي نفسها إلى السرير منذ حوالى الساعة، خرجت إلى السطيحة الخشبية وراء الكوخ وبيدي كوب من قنينة النبيذ من نوع بينو ذات الطعم المخملي الخاص، التي كانت قد تركتها لنا مالكة الكوخ سالي غودي، وفي نفسي رغبة حقيقية للشعور بالنعاس والذهاب إلى النوم.

في مدينتي وفي بيتي، قد تصحّ عليّ تسمية «بومة الليل» لأني أسهر طويلًا، أما في السفر فيصيبني أرق تامّ، ويهجرني النعاس كما لو كنت أتناول حفنة من الكوكايين في كأس من مشروب ريدبول Red Bull، أو

كما لو دار بي ثورٌ آلي في مسابقة روديو rodeo. حاولت العمل، لكن الإرسال عبر نظام واي فاي على شبكة الإنترنت ضعيف جدًّا حتى كاد حاسوبي يتحوّل إلى مجرّد ثقالة ورق جميلة. ولذلك تركت لعينيّ العنان ليسبحا إلى البعيد في عتمة الغابة الممتدّة أمامي، ورحت أتسلّى بحركة الحباحب المضيئة التي تخترق الظلمة فجأة لتعود وتختفي.

وددتّ أن تطالعني إجابة من الوكلاء العقاريين الذين تواصلت معهم. ولكن اسم شارلي لاسترا كان في أعلى قائمة الرسائل التي وصلتني. فتحت الرسالة، وضحكت حتى كدت أبصق النبيذ الذي في فمي.

تقول الرسالة:

«ستيفنز، أصارحكِ بأني كنت أفضّل لو أمضيت حياتي كلّها من غير أن أعلم بوجود مثل هذا الكتاب».

أطلقت ضحكة عالية حتى رنّ ضحكي في أذنيّ كأنه قهقهة زوجة أبٍ شريرة. وكتبت:

«هل اشتريت حقًّا أقصوصة بيغفوت *إروتيكا*؟».

أجاب شارلي: «كجزء من مصاريف العمل».

أجبت: «هل بالفعل حمّلت ثمنها على بطاقة ائتمان دار النشر لوجيا؟».

قال: «كلّا، لأن تلك البطاقة تعطى فحسب كهديّة في أيّام عيد الميلاد. هناك بطاقة واحدة لموسم الأعياد».

شربت جرعة من النبيذ، وفكّرت في كيفية الإجابة. هل أقول له مثلًا: *تُرى هل شربت نوعًا غريبًا من القهوة في الفترة الأخيرة؟*

قد تكون ليبي على حقّ؛ ربّما كان شارلي لاسترا في سرّه شديد الإعجاب بالصورة التي رسمَتها الكاتبة دَستي لصنشاين فولز مثل بقيّة الأميركيّين، وخطّط لزيارة البلدة في هذا الوقت من الصيف الذي يتطابق مع فترة الركود السنوي في أعمال النشر. لكنني تردّدت في التطرّق إلى مثل هذا الموضوع معه.

وعوضًا عن كل ذلك، كتبت:

«إلى أي صفحة وصلت؟».

أجاب: «إلى الصفحة الثالثة فقط. وأجدني أحتاج إلى مشعوذ يخرج الشياطين من رأسي».

«حسنًا، ولكن لا علاقة للكتاب بهذا البتة».

ومن جديد، وما إن أرسلت هذه الإجابة حتى أصابني العجب، أو حتى الرّعب جرّاء أسلوبي البعيد عن الأصول المهنيّة. على مرور الأعوام، التزمت بما يشبه جهاز الغربلة في التواصل مع معظم الناس (باستثناء ليبي)، ولكن شارلي لاسترا ينجح دائما في تعطيله؛ وكأنه ينجح في الضغط على الزرّ المناسب لفتح بوابة تفكيري فتخرج أفكاري إلى الملأ وكأنها ديناصورات *فيلوسيرابتورز* الطائرة والمتوحشة.

عندما كتب شارلي مثلًا: «أقرّ أن الكتاب ممتاز من حيث وتيرة الحوادث؛ في ما عدا ذلك فهو لا يعجبني». فإن ردّ فعلي الفوري دفعني لأجيبه: «´في ما عدا ذلك، فهو لا يعجبني´. أتوقّع أنها العبارة التي ستُكتب على قطعة الرخام فوق قبرك».

ولم أتنبّه إلى خطأ إرسال هذه الإجابة، إلا بعد إرسالها.

وسرعان ما أجاب: «أما على قبرك، فسيُكتب: هنا ترقد نورا ستيفنز التي كان ذوقها الأدبي في معظم الأحيان استثنائيّا، وفي بعضها مزعجًا».

فأجبت: «لا تحكم عليّ بناءً على هذه الأقصوصة الخاصة بمنشورات عيد الميلاد، لأني لم أقرأها».

«لن أحكم عليك بناءً على قصّة إباحية من بيغ فوت، ولكني أحكم عليك كلّيًا بناءً على تفضيلك قصّة مرّة في *العمر* على *عظمة الأمور الصغيرة*».

وكان النبيذ على ما يبدو قد تسبّب بانزلاق جهة كبيرة من دماغي إلى خارج مكانها، فأجبت: «**ليس كتابًا سيئًا!**».

«´**ليس كتابًا سيئًا**´- نورا ستيفنز، أعتقد أني قرأت هذا الرأي على غلاف الكتاب».

«يجب أن تعترف بأنه ليس كتابًا سيئًا بنظرك!»، قلت.

«أفعل ذلك بشرط اعترافك في المقابل بأنك تعتقدين أنه ليس أفضل ما كتبت دستي».

كنت أحدّق بالشاشة المضيئة، والحشرات الطائرة الصغيرة على أنواعها ما برحت تنجذب إليها وتصطدم بها. ومن الغابة القريبة ما انفكّ حفيف زيز الحصاد ونعيق البوم يملأ أذنيّ، فيما الهواء كان رطبًا وحارًا حتى في تلك الساعة الليلية المتأخرة.

«موهبة دَستي الاستثنائية تمنعها من تأليف كتاب سيّئ». وتابعتُ بعد أن فكّرت قليلًا: «أعمل معها منذ أعوام، وأجد أنها تعطي أفضل عطاءاتها في أجواء الدّعم الإيجابي. لا أهتمّ بالجوانب المتعثرة في كتاباتها، بل أركّز على تلك التي تشهد على براعتها. هكذا تمامًا استطاع الناشر أن يرفع كتاب مرّة في *العمر* من مصافِّ الجيّد إلى مصافِّ الكتاب الذي يأسرك حتمًا من التوطئة إلى النهاية. هنا يكمن السرّ الذي يحوّل العمل على كتاب معيّن إلى مهمّة مثيرة: أن تجد مكمن القوّة الخام في الكتاب؛ وتكتشف آفاق طموحه».

«هكذا تقول المرأة التي يدعونها ´سمكة القرش´»، أجاب شارلي.

سخرت من قوله. لا أحد يدعوني بهذا الاسم. لا أظنّ!

وأجبت: «هكذا يقول الرجل الذي يدعونه ´الغيمة العاصفة´».

«هل يفعلون ذلك حقًّا»؟ سألني.

«أحيانًا، ولكنّي لا أفعل ذلك بالطبع، فتهذيبي يمنعني».

«قطعًا، لأن أسماك القرش معروفة بسلوكها اللائق»، كتب.

ولكني شديدة الفضول إلى معرفة الحقيقة. فكتبت: «هل يدعونني بهذا الاسم حقًّا؟».

«المحرّرون ينتابهم الرّعب منكِ».

«ليس لهذه الدرجة العالية من الرّعب؛ لو كان الأمر كذلك لما أقدموا على شراء كتب المؤلفين الذين أعمل لصالحهم». رددتّ.

«بل لهذه الدرجة العالية من الرّعب؛ ولو لم تكن الكتب التي تقترحينها خارقة الجودة، لما فعلوا».

شعرت بالسخونة في وجنتيّ من شدّة الفخر. لست بالطبع من كتب تلك الكتب التي يتحدّث عنها، ولكني كنت التي تعرّفت إلى جودتها؛ وقدّمت اقتراحاتها إلى المحرّر؛ والتي اختارت المحرّر المناسب لكل منها. وكنت التي ناقشَت الاتفاقية بين المحرّر والكاتب، لكي يحصل هذا الأخير على الثمن الأفضل لنتاجه. وأنا التي أواكب المؤلّفين في التعاطي مع قوائم الملاحظات التي قد تنافس أحيانًا قصص تولستوي من حيث طولها. وأنا التي أهدّئ من روعهم عندما يتصلون بي شاكين وباكين. وإلخ...

وكتبت: «أتعتقد أنّ لهذا علاقة بعينيّ الصغيرتين، ورأسي الرمادي الكبير؟».

ثمّ ما لبثت أن أتبعت الرسالة بإيضاح: «أعني اللقب».

«إني على يقين بأن السبب يعود لشهيتك إلى سفك الدماء».

تنفّست غضبًا وأجبته: «لا أرى في ما أفعله سفكًا للدماء، فإراقة الدماء لا تستهويني. أفعل ما أفعله من أجل عملائي».

«هناك من بين عملائي، بلا شكّ، من هم أنفسهم أسماك قرش -فتجدهم لا يتردّدون في إطلاق الرسائل الاتهامية عندما يشعرون بالإهمال من جانب الناشر- ولكن معظمهم يميل إلى تحمّل الضغوط، أو إلى عدم الإفصاح عن شكاواهم، إلى أن يطفح الكيل ويصلوا إلى مرحلة من تدمير الذات بطريقة مخيفة».

لم أسمع أنهم يطلقون عليّ هذا اللقب بل هذه المرة. ولكن الصدمة في الواقع لم تكن كبيرة جدّا، لأن مديرتي إيمي تعودت أن تشبّه مقاربتي في الوكالة الأدبية إلى الابتسام الذي يخترقه وميض السكاكين.

«إنهم محظوظون بك، خصوصًا دَستي. الوكيلة التي تحارب من أجل كتاب ´ليس سيئًا´، تستحقّ لقب قدّيسة»، كتب شارلي.

«أستنكر هذا الكلام بشدّة. كلّ من لا يرى القيمة الأكيدة الكامنة في هذا الكتاب، قد يكون غير كفء»، كتبت محتجة.

لأوّل مرّة تأخّر في الإجابة. أرخيت رأسي إلى الوراء، وتأوّهت ناظرةً إلى السماء المضاءة بالنجوم إلى حدّ ملفت، وتساءلت هل هي المرّة الأولى التي أرفع فيها نظري إلى السماء؟ وفيما أنا كذلك، رحت أفكر هل أتراجع عمّا قلته؟ وكيف؟

وإذ ذاك شعرت بقرصة في أعلى ساقي، وما إن نظرت حتى رأيت بعوضة قد حطّت هناك، فصفعتها، لأكتشف اثنتين تحومان بوقاحة حول ذراعي، فما كان مني إلا أن طويت حاسوبي، وحملته إلى الداخل مع كتبي، وهاتفي، وكوب النبيذ الذي كان قد فرغ تقريبًا.

وفيما رتّبت الأغراض في الأمكنة المناسبة، أزّ هاتفي ليعلن وصول الإجابة من شارلي.

«أرجو عدم فهم كلامي من منطلق شخصي». ثمّ وصلت رسالة أخرى: «يُعرف عني أني صريح جدًّا وربّما فظّ. من الواضح أني لا أترك انطباعًا أوليًا جيّدًا».

أجبت: «أنا في الواقع معروفة بشدّة التزامي بالمواعيد، ولكنك تعرّفت إليّ في يوم غير ملائم».

«ماذا تعنين؟»، سألني.

«ذلك اللقاء الأول حول وجبة الغداء».

كانت البداية في الواقع بسبب ذلك اللقاء. وصلت متأخرة وكان فظًّا في ردّ فعله. وقابلت ردّ فعله بفظاظة مماثلة فشعر بالنفور منّي. وشعرت بالنفور منه. وهكذا دواليك.

لم يكن بحاجة إلى معرفة أني كنت للتوّ قد تلقّيت مكالمة من حبيبي لم تدم أكثر من أربع دقائق كافية لكي يعلن لي عن قراره بالانفصال عني. ولكن بدا لي أن من المهمّ أن أشير إلى وجود ظرف صعب من أجل

التخفيف من وقع الخطأ. فقلت: «كنت لتوّي قد تلقّيت خبرًا مزعجًا، ولذلك وصلت متأخرة».

مرّت خمس دقائق قبل أن أتلقى إجابته. أزعجني الأمر، لأني لم أتعوّد تبادل الحديث الفوري عبر البريد الإلكتروني، إضافةً إلى أنه قد يتوقّف عن الإجابة في أي لحظة ويذهب إلى النوم، فيما أجلس هنا في قمّة اليقظة أتأمل في لون الجدران.

لو كانت دراجتي الرياضية في متناولي الآن لاستطعت استهلاك بعض هذه الطاقة في الحال.

«لم يزعجني أنك وصلتِ متأخرة»، أجاب أخيرًا.

«أذكر تحديدًا أنكَ نظرتَ إلى ساعتك؛ وقلت ´تأخرتِ´».

«نظرت إلى الساعة لأني كنت سأسافر لاحقًا».

«هل استطعتَ الوصول إلى المطار في الوقت المناسب؟»، سألته.

«كلا، بل صرفت النظر عن السفر بسبب كأسين من كوكتيل جين مارتيني، وسمكة قرش شقراء كانت تجلس قبالتي وتريدني ميتًا».

«ليس ميتًا، بل ربّما مصابًا بجرح طفيف. ولكن كان بإمكاني الغروب عن وجهك».

«لم أكن أعلم أنكِ معجبة».

سرَت قشعريرة في عمودي الفقري من الأعلى إلى الأسفل، وعادت لتخترقه صعودًا، فشعرت وكأن تيّارًا كهربائيًا لمس فقرتي العليا. *هل يقصد مغازلتي؟هل أقصد مغازلته؟* نعم، أشعر بالضجر، ولكن ليس إلى *هذا الحدّ*. لا يصيبني الضجر إلى هذه الدرجة أبدًا.

حاولت تغيير وجهة الحديث فقلت: «كنت أراقب حاجبيك. لو طرأ تغيير على شكلهما، لتغيّر مشهد تجهّمك، واحتجت بالتالي إلى لقبٍ جديد».

«لو خسرت حاجبيّ، لن يكون هناك أزمة في إيجاد ألقاب جديدة لي. أتوقّع أن يكون لديك ما تقترحينه».

«أحتاج للتفكير في ذلك، لا أريد الإسراع في اتخاذ القرار». أجبت.

«كلّا، بالطبع»، أجاب. ثمّ كتب بعد ثوانٍ: «سوف أتركك الآن لكي تنامي».

كتبت: «وسأتركك مع أقصوصة بيغ فوت». ولكني مسحت هذه الكلمات، وأجبرت نفسي على عدم الردّ.

نفضت رأسي محاولة أن أنزع منه صورة شارلي لاسترا العبوس وهو يتابع القراءة على شاشة كتابه الإلكتروني في أحد الفنادق القريبة، وتخيّلته يزداد تجهّمًا كلّما ازدادت المعاني شبقًا.

ولكن يبدو أن دماغي رفض التخلّي عن هذه الصورة. لم أشعر بالنعاس، ولكني تمدّدت في السرير وحاولت إقناع نفسي بأن الكون لن ينتهي لو أطبقت أجفاني عنه واستسلمت لبعض النوم. غير أن صورة شارلي تلك لم تفارقني، كما لو كانت المفضّلة في مخيّلتي.

الفصل الرابع

استيقظت على وقع ضربات قلبي. أحسست بجلدي باردًا ودبقًا. أدرت عينيّ في عتمة الغرفة من الباب غير المألوف، إلى محيط النافذة، ثمّ إلى الكتلة التي تغطّ في النوم إلى جانبي.

هذه هي ليبي. شعرت بارتياح عميق وفوري، كأن دفقًا من المياه الباردة وقع عليّ مرّةً واحدة وأثلج كياني. ثمّ تباطأ نبض قلبي تدريجًا كما يحدث لي عادةً بعد انتهاء الكابوس.

ليبي موجودة هنا؛ الأمور إذًا على ما يرام.

ثمّ استعدت الرّبط مع الواقع المحيط بي.

إنّي في كوخ غوديز ليلي، وفي قرية صانشاين فولز في نورث كارولاينا.

سبب اضطرابي هو الكابوس.

ربّما كلمة *كابوس* غير ملائمة. لأن الحلم كان جميلًا في البداية.

بدأ الحلم بوصولي مع ليبي إلى الشقة القديمة؛ وضعنا مفاتيحنا وحقائبنا المدرسية في مكانها قرب الباب. كنت ألمح أحيانًا بيا وتالا وبراندن معنا؛ والجميع يبتسم بطريقة طبيعية، ويثرثر بحماسة.

ولكني كنت مع ليبي وحدنا في ذلك المشهد بالذات.

كنّا نضحك على أمرٍ ما - مسرحية شاهدناها للتوّ، أو ربّما فيلم *Newsies* المعروف. ومن حلم إلى آخر، كانت هذه التفاصيل تتغيّر، وما إن رفعت رأسي عن الوسادة والتقطتّ أنفاسي في عتمة هذه الغرفة الغريبة، حتى تطايرت الصور من رأسي كما تتطاير وريقات الزهور في الهواء.

ويبقى الوجع في عمق القلب؛ تلك الفجوة الفاغرة التي تتوسّل الالتئام.

كان الحلم كالتالي:

ترمي ليبي مفاتيحها في الصحن القريب من الباب، وترفع أمّي رأسها وتنظر إليها. كانت تجلس بقرب الطاولة في المطبخ الصغير؛ وتغطّي ساقيها المطويتين تحتها بقميص نومها الطويل.

«هاي ماما»، قالت ليبي ومشت من أمام المطبخ باتجاه غرفتنا.

«بناتي الحلوات!»، قالت بصوتٍ مرتفع، وانحنيت لأطبع قبلة سريعة على خدّها، وتوجّهت نحو البرّاد. تابعت خطواتي ثمّ اعترتني قشعريرة؛ إنه الشعور بوجود خطأ في مكانٍ ما.

استدرت ونظرت إليها. إنها أمي الجميلة. كانت قد عادت إلى القراءة، ولكن عندما تنبّهتلنظراتي إليها، قابلتني بابتسامة حائرة، وقالت: «ماذا؟».

امتلأت عيناي بالدموع. إنها العلامة الأولى لوجودي في حلم -أنا لا أبكي في اليقظة- ولكني لم أتنبّه إلى هذا التناقض.

كانت تبدو تمامًا كما في العادة، لم تتقدّم في العمر ولا يومًا واحدًا. تبدو بجمال الربيع أو هي الربيع ذاته. إنها ذلك الدفء الذي يتلهّف إليه كيانك بعد شتاءٍ طويل.

لا يبدو أنها فوجئت برؤيتنا، بل استمتعت؛ وبعد ذلك بدا عليها القلق. فقالت: «نورا؟».

سرت نحوها، ضممتها بذراعي بشدّة، فضمّتني إليها أيضًا، ولفّني عطرها بغطاء دافئ من عطر الليمون والخزامى. وشعرت بخصلات شعرها اللامع المائل إلى حمرة الفراولة تنحدر فوق كتفيّ عندما مدّت يدها لتداعب رأسي من الخلف.

«هيّا يا ابنتي الصغيرة، تحدّثي عمّا يزعجك، لا تحتفظي به في داخلك».

لم تتذكّر أنها غادرت الحياة.

كنت وحدي أعلم بأنها لم تعد موجودة. عندما دخلت مع أختي إلى الشقة، ورأيناها، كان كل شيء يبدو طبيعيًا، إلى درجة أن أيًّا منّا لم تلاحظ أي خطأ في ذلك على الفور.

«سوف أحضّر الشاي»، قالت ومسحت دموعي. ثمّ وقفت، ومشت من أمامي. وعرفت أني عندما سأدير وجهي لن أجدها.

تركتها تغيب عن نظري، وإذا بها غير موجودة. ولكني لم أستطع التوقّف عن النظر. عن التحديق في تلك الغرفة الهادئة والساكنة، وبي ألمٌ كبير، فكأنها سُلخت عني قسرًا وجرح الفراغ يؤلمني.

وإذا بي أستيقظ في تلك اللحظة ذاتها؛ كما لو حدّثتني نفسي قائلةً: *ما نفع الحلم إن لم تكن أمّي موجودة فيه؟*

نظرت إلى ساعة المنبّه إلى جانب السرير. ليست السادسة صباحًا بعد، ولم أغفُ حتى ما بعد الثالثة. كان البيت شديد الهدوء على الرغم من غطيط أختي الذي كان يهزّ السرير. ومع أن موسيقى صراصير الليل، وزيزان الحصاد لم تنقطع بوتيرتها الإيقاعية، افتقدت سماع بوق سيارة التاكسي الذي يطلقه سائق غاضب من دون توقّف، أو صفارة إنذار سيارة الإطفاء التي تقطع الشارع بسرعة البرق إلى مهمّتها المستعجلة. حتى إني افتقدت أصوات السكارى التي تنطلق من جانبيّ الشارع في طريق عودتهم إلى بيوتهم بعد ليلة من التسكّع بين البارات.

لكني ومن أجل أن أتمكّن من النوم، لجأت أخيرًا إلى تحميل هاتفي تطبيقًا يبث تسجيلًا لأصوات المدينة، ووضعت الهاتف على حافّة النافذة ورحت أرفع الصوت تدريجًا لكي لا تجفل ليبي وتستيقظ من نومها. ولم أنم إلّا بعد أن علت الأصوات إلى حدّها الأقصى.

لكنّي في تمام اليقظة الآن.

وسرعان ما تحوّل اشتياقي إلى أمي، إلى شكل آخر من الاشتياق الموجّه إلى آلتي الرياضية المحبّبة بلوتون.

إني في الواقع أختبئ وراء صورة مجازية مغايرة لنفسي.

أخرجت من الدرج صدريتي الرياضية القصيرة وبنطالي الخفيف والضيّق، وقفزت نزولًا على الدرج، ثم انتعلت حذائي الرياضي، وانطلقت من الباب لأخترق أجواء الصباح الرقيقة ونسائمه النديّة.

كان الضباب مخيّمًا على المرج، وفي المدى عند خطّ الأفق، لمعت خيوط الضوء تمزّق العتمة بشعاعات بنفسجية تتبختر عبر أغصان الشجر. وفيما كنت أسير فوق العشب الرّطب باتجاه الجسر الخشبي الصغير، كنت أرفع ذراعيّ إلى ما فوق رأسي وأتمغّط بالاتجاهين، قبل أن أعود وأسرع في خطواتي.

ينفتح الجسر الصغير من الجهة المقابلة على درب يتلوّى بين الأشجار. تبعت الدرب وتحوّلت من المشي إلى الركض الهادئ، وشعرت وكأن قطرات الرطوبة في الهواء كانت تتسابق لتختبئ في حنايا جسمي. أما الإحساس الثقيل الذي استيقظت به جرّاء الكابوس، فشرع يغادرني تدريجيًا.

على الرغم من مرور السنوات، ينتابني أحيانًا الشعور باليتم مجدّدًا في كل صباح.

قد لا نكون أختي وأنا يتيمتين بالمعنى الدقيق للعبارة. عندما أصبحت ليبي حاملًا بطفلتها الأولى، قامت مع زوجها براندن بتكليف مفتّش خاصّ بقصد إيجاد والدنا. عندما وجده المفتّش، أرسلت ليبي لوالدنا العزيز دعوة لحضور الحفلة الخاصة قبل ولادة الطفلة. وبالطبع لم تتلقَّ منه أي إجابة. لا أعلم ماذا توقعت ليبي من رجل لم يبدِ اهتمامًا لولادة طفلته هو.

هجر أمّنا وكانت حاملًا بأختي من غير سابق إنذار يذكر.

ترك لنا شيك بعشرة آلاف دولار. ولكنّه، بحسب قول أمي، ابن عائلة غنية ومثل هذا المبلغ بنظره ليس سوى مبلغ تافه للمصاريف النثرية.

وقعا في الحبّ عندما كانا في الصفوف الثانوية. كانت فتاة فقيرة، تلقّت دروس المرحلة الابتدائية في البيت، وكانت تحلم بالسفر إلى نيويورك لتصبح ممثلة. أما هو فابن عائلة ثرية تلقّى علومه الأولى في مدرسة خاصّة. تطوّرت العلاقة بينهما وأصبحت حاملًا في السابعة عشرة. أرادت عائلته من أمي أن تضع حدًّا لحملها؛ فيما أرادت عائلتها أن يتزوّجا. ولكنهما اتّفقا على ألا ينفّذا طلب أي من الجهتين. وعندما انتقلا للعيش معًا، قرّرت كل من العائلتين قطع الصلة بهما. ولكن عائلته أعطته فيما بعد حصّته من

الميراث كهديّة بمناسبة انفصاله عنها؛ ومنها ذلك المبلغ الضئيل الذي تركه لنا قبل خروجه من الباب.

استخدمت أمّي هذه «الخميرة» لكي تدفع تكاليف انتقالنا من فيلادلفيا إلى نيويورك، ولم تنظر إلى الوراء بعد ذلك البتة.

أزحت أفكاري جانبًا، وغرقت في لذّة الحرارة المنبعثة من نشاطي العضلي، وفي متعة الاستماع إلى خشخشة أوراق الصنوبر اليابسة تحت قدميّ. لطالما اتّخذت القراءة أو الرياضة الجدّية أسلوبًا لأجل التخلّص من ضغوط أفكاري. ولولا الرياضة لما استطعت الآن الخروج من نفسي والإبحار في هذا الفضاء غير المحدود.

يلتفّ الدرب حول التلّة الحرجية وينعطف ليسلك اتجاهًا متوازيًا مع سورٍ خشبي يمتدّ وراءه مرج شاسع تألّقت خضرته في استقبال الشمس الطالعة. وفوق المرج الذي كان ينعم بنوع من الإضاءة الليلية، انتشرت هنا وهناك بعض الأحصنة التي كانت تضرب أجسامها بأذنابها لتطرد عنها الحشرات الطائرة التي لمعت في الهواء كأنها غبار ذهبي.

لاحظت أيضًا وجود رجلٍ هناك، ما إن رآني حتى رفع يده مسلّمًا.

نظرت إليه بصعوبة عبر خيوط الشمس التي كانت تسطع في عينيّ، فتبيّنت وجهه، وإذا به الشاب الوسيم الذي يحاكي أدونيس بجماله والذي رأيته في المقهى. إنه على ما يبدو الرجل البارز في هذه البلدة الصغيرة.

هل أتمهّل في عدوي؟

هل سيسير نحوي؟

هل أناديه، وأعرّفه إلى نفسي؟

إنّما، وعوضًا عن ذلك، سرعان ما فُرض عليّ خيار رابع مع الأسف: ارتطمت قدمي بجذر قاسٍ، فتعثّرت ووقعت في بؤرة من الوحل، ورست كفّاي وسط شيءٍ كان على الأرجح روث حيوان. لاحظت وجود الكثير منه، فكأن عائلة بأكملها من الغزلان كانت قد اختارت تلك النقطة بالذات لتكون محطّ روثها المجيد.

نهضت على قدمي، واسترقت النظر إلى «بطل القصص الرومنسية» لأجد أنه لم يشهد على حادثتي الدراماتيكية؛ بل كان ينظر إلى أحد الأحصنة (أو ربّما يكلِّمه).

فكّرت لثانية بمناداته. ولكني تخيّلت ماذا سيحدث بعد ذلك. سوف يقترب هذا الشاب الوسيم جدًّا لكي يسلّم عليّ، وسيمدّ يده ليكتشف أن يدي ملأى بروث الغزلان.

تقزّزت من الفكرة، واستدرت لأتابع دربي، واستعدتُ على الفور وتيرة عدوي.

إن حالفني الحظ في ما بعد، والتقيت بهذا الهامس في أذن الحصان وفائق الجمال، فربّما سأتمكّن من التقدّم على القائمة، وأشطب الرقم (5). أما لو لم يحدث ذلك، فسأكون على الأقلّ قد حافظت على كرامتي.

أزعجتني خصلة من شعري كانت تتدلّى أمام عينيّ، وعندما رفعت يدي لأزيحها اكتشفت متأخرة أنّي استخدمت اليد المتّسخة.

فقرّرت عدم التفكير بالكرامة، تحديدًا في تلك الساعة.

***

تنهّدت ليبي بسعادة وقالت: «نسيت الهدوء الذي يمكن الاستمتاع به أثناء التسوّق من دون اصطحاب طفلة في الرابعة ترتمي على الأرض وتكاد تلعق البلاط بلسانها». كانت ليبي تتنقّل في جناح المواد التجميلية في المخزن، وتجول بناظريها على المعروضات، وكأنها سيدة أرستقراطية تتمشى في ممرّات حديقتها أيّام عهد الوصاية في إنكلترا.

«والمساحة الواسعة - *المساحة*»، قلت بحماسة أكبر من التي كنت أشعر بها في الواقع. نجحتُ في الحؤول دون أن ترى ليبي وسط بلدة صانشاين الكئيب عبر الإصرار على أن نذهب مع السائق هاردي إلى بلدة بابليكس الواقعة على مسافة ربع ساعة من صانشاين. ولكني لمّا أزل في حذرة من أن تصاب ليبي بالخيبة، ولعل ذلك كان واضحًا عندما أمضيت

الوقت في الطريق محاولةً شدّ انتباه ليبي إلى كل أنواع الأشجار التي مررنا بها.

توقّفت ليبي أمام الرفّ الذي يحمل علب صبغات الشعر، وابتسامة عريضة تضيء وجهها. «هيّا، يترتّب على كلّ منّا الآن اختيار المظهر الجديد للأخرى! وأعني لون الشعر وشكل القَصّة».

«لن أقصّ شعري»، قلت.

«طبعًا، لن تقصّي شعرك. أنا سأقصّه لكِ».

«أقول كلّا لن تفعلي»، أجبت.

قطّبت جبينها، وقالت: «هذا مذكور على القائمة، أختاه. ثم كيف سنتمكّن إذًا من التحوّل عبر لمسات في المظهر إلى ذاتنا الجديدة؟ لا تخافي، فإني أقصّ شعر الفتيات دائمًا».

«هذا يفسّر لماذا كان شعر ابنتك تالا مثل شعر دوروثي هاميل[1]».

ضربتني ليبي على ثديي. وشعرت بالغبن، لأني لن أستطيع أن أردّ بالمثل، فمن المعروف أنك لا تستطيع أن تضرب امرأةً حاملًا على ثدييها، حتى لو كانت أختك الصغيرة.

«هل تحتملين حقّا أن تتركي بندًا من بنود قائمة الشروط خارج *التنفيذ*؟».

شعرتُ باختلاجة في داخلي.

إني في الحقيقة أعشق كل ما يسمّى بقائمة الشروط.

لكزتني ليبي بلطفٍ على كتفي، وقالت: «هيّا، استمتعي قليلًا! سيكون الأمر مسلّيًا، ألم نأتِ إلى هنا لنتسلى ونمرح؟».

فكّرت أنّي بالتأكيد لست *هنا لهذه الغاية*. الغاية من وجودي هنا تقف أمامي في هذه اللحظة بشفتها السفلى المقلوبة بأسلوب ميلودرامي. كل

---

(1) Dorothy Hamill: بطلة أميركية في رياضة التزلج على الجليد - نالت الكأس الأولمبية في العام 1976.

ما أفكّر به الآن هو كيف سنمضي شهرًا كاملًا في ما يشبه الإقامة الجبرية داخل بلدة لا تحتوي على شيء مما تتوقّعه ليبي.

عدا عن ذلك، مرّ في بالي أن تاريخ ليبي يتميّز بعادتها في اللجوء إلى تغيير كبير في المظهر عند كلّ أزمة. لم تغيّر ليبي قطّ لون شعرها عندما كانت صغيرة -كانت أمي تتغنّى كثيرًا بنُدرة وجمال لون شعر أختي الأشقر المائل إلى حمرة الفراولة- ولكن ليبي ظهرت في يوم زفافها بقصّة شعر قصيرة جدًّا كانت مفاجئة لنا جميعًا. وبعد ذلك بيومين، صارحتني بأنها كانت تمرّ بحالة من التردّد والخوف -أو حتى من الرعب- قبيل حفل الزفاف، فقرّرت أن تشغل نفسها بقرار كبير أيضًا (مع أنه أقلّ استدامة) لكي تتمكّن من تخطّي تلك الأزمة.

لو كنت في مكانها، كنت سألجأ إلى قائمة ترمز بلونين مختلفين إلى الحسنات والسيئات، وأتّخذ قراري بناءً على ذلك. ولكن لكلّ منّا أسلوبها.

يبدو أن ليبي تمرّ بمرحلة من الترقّب والقلق قبيل ولادة طفلها الثالث على ضوء ما ينتظر العائلة في المرحلة المقبلة من صعوبات مادّية، وبسبب ضيق المسكن. لكنّي، إن حاولت الآن الضغط عليها لكي تكلّمني في هذا الشأن فسوف تنغلق دون ذلك. إنما لو رافقتها في أسلوب تخطّي الأزمة الذي تعتمده عادةً، فقد تفشي لي بما يثقل صدرها عندما تكون جاهزة في وقت قريب. وبالتالي، تختفي تلك المسافة المؤلمة بيننا، ويستقيم الانحراف الذي نتوهّم وجوده في علاقتنا.

هنا يكمن سبب وجودي في هذا المكان. *هذا ما* أريده. هذا ما أريده إلى درجة أني مستعدّة حتى إلى حلق شعري كليًّا في المقابل لو اقتضى الأمر (ولكني سأسرع إلى شراء باروكة من أغلى الأنواع).

قلت بليونة: «حسنًا، هيّا نغيّر مظهرنا».

تنفّست ليبي بسعادة كبيرة، وشدّت بجسمها صعودًا حتى وقفت على

رؤوس أصابعها لكي تطبع قبلةً على جبيني. وقالت لي: «أعلم جيّدًا اللون الذي سأختاره لكِ. أديري ظهرك الآن ولا تسترقي النظر إليّ بدًا».

فكّرت فورًا بضرورة حجز موعد في صالون التزيين ليوم عودتي إلى نيويورك.

عندما عدنا إلى الكوخ بعد ظهر ذلك اليوم، كانت الشمس تلمع وسط السماء الصافية، وفيما تسلّقنا التلّة وتصبّبنا عرقًا، لم يظهر على ليبي أيّ انزعاج البتّة، بل لم تتوقّف عن الثرثرة طيلة الطريق.

«يتآكلني الفضول لأعرف اللون الذي اخترتِه لي» قالت.

فقلت: «لا حاجة لتعرفي اللون، سوف نحلق شعرك كلّه».

حدّقت بي وقد تجعّد أنفها المغطّى بالنمش لتقول: «متى ستتعلّمين أنك لا تتقنين الكذب إطلاقًا، ولا جدوى حتى من المحاولة؟».

بعد أن وصلنا، أجلستني على كرسيّ في المطبخ وضمّخت شعري بالصباغ. ثمّ فعلت بدوري الأمر ذاته لها. ولكن أيًا منا لم تسمح للأخرى برؤية المزيج الذي في يدها.

بدايةً كنت واثقة من حسن اختياري. ولكني عندما رأيت اللون الفاقع الذي يكاد يخترق العين بعد أن تجمّد المزيج على شعرها، ساورتني الريبة. وعندما حدّدنا على المنبّه مدّة الانتظار المطلوبة، بدأت ليبي بإعداد وجبة الطعام.

اتّبعت ليبي نظامًا غذائيًا نباتيًا منذ طفولتها. وبعد وفاة أمّي، اتّبعت أنا النظام عينه بحكم الضرورة. فمن الناحية المالية، لم يكن من المنطق شراء النوع النباتي وغير النباتي من كل وجبة طعام. وكذلك، فإن اللحم غالي الثمن. وهكذا كان خيار النظام النباتي أكثر إقناعًا بالنسبة إلى فتاتين في السادسة عشرة وفي العشرين، فقدتا أمّهما منذ وقت يسير.

حتى عندما انتقلت ليبي للعيش مع براندن، تابعت النظام الغذائي عينه. وفي أثناء مرورها بمرحلة الطموح لتصبح طبّاخة محترفة، نجحت في

إقناعه باعتماد النظام النباتي أيضًا. ولذلك، عندما انبعثت رائحة *التمبي*[1] التي وضعتها في المقلاة إلى جانب البيض الذي كانت تعدّه لنا، خلتُها رائحة *بايكون*. كانت على الأقلّ مشابهة لرائحة *البايكون*، وبقدر يكفي لجذب من كان مثلي ولم يذق طعمه منذ عشرة أعوام.

وعندما انطلق جرس المنبّه، حثتني ليبي على غسل شعري بسرعة، منبّهة إيّاي إلى عدم النظر إلى المرآة «وإلّا...».

ومن حيث إني فاشلة في الكذب، لم أخالف أوامرها، ثم حللت مكانها في المطبخ، ووضعت الوجبة في الفرن للمحافظة على سخونتها، فيما ذهبت لغسل شعرها.

كانت تلفّ المنشفة حول شعرها عندما أخذتني إلى السطيحة في الخارج لكي تقصّ شعري. وكنت أصغي إليها بين الثانية والأخرى تقول شيئًا يشبه «هه»، فأتوجّس شرًّا.

«أراكِ متردّدة ولا توحين لي بثقة عالية، ليبي»، قلت.

ولكنها تابعت في القص. «ستكون النتيجة جيّدة». أجابت.

كانت تؤيّد نفسها بألفاظ تشجيعية، وكدت أفقد قدرتي على الاحتمال. وبعد أن قصصتُ شعرها بحسب التسريحة المسماة « *لونغ بوب*»، وكان قد جفّ معظمه في الهواء (على عكس المطلوب لتكون القصّة جيّدة)، عدنا إلى الداخل لنكتشف المفاجأة.

أخذت كلّ واحدة منا نفسًا عميقًا، وحضّرت كبرياءها للقبول بالنتيجة التي قد تكون مهينة، ثمّ وقفنا معًا أمام المرآة في الحمام ونظرنا.

اكتشفت أنها قصّت لي خصلة شعر أمامية فوق جبيني، فبدت في مكان وسطي بين الغرّة والستارة، وبدا لون شعري البنّي الرمادي أكثر ميولًا إلى لون المشروب الكحولي الذي يحمل إسم لوريل كانيون، منه إلى لون الماء القذر الذي يخرج من ماكينة جلي الصحون.

---

(1) نوع من الطعام النباتي المستخرج من فول الصويا.

«هل تعلمين أنك ´خارقة´ في كل ما تفعلينه يا ليبي؟».

لم تجب ليبي بكلمة، وعندما نظرتُ إلى عينيها في المرآة، شعرت بثقل يشدّني إلى الأسفل. كانت تنظر في المرآة إلى خصلات شعرها التي أصبحت بلون دواء المعدة الوردي الفاقع Pepto-Bismol، والدمع يملأ مقلتيها.

اللعنة! يا لها حتمًا من ضربة غير صائبة. أعلم أن ليبي تميل إلى الجرأة في اختيار الألوان والموضة، ولكن فاتني أن آخذ في الحسبان تأثير الحمل على نظرتها إلى نفسها.

قلت: «سوف تخفّ حدّة اللون كلّما غسلت شعرك»!. وأضفت بسرعة: «ما رأيك أن نعود إلى المخزن ونشتري لونًا آخر؛ أو نجد صالون تزيين في آشفيل؟ - وعلى حسابي. صدّقي، يمكن إصلاح الوضع بسهولة تامّة، ليبي».

كانت دموعها قد وصلت إلى حدّ الانهمار عندما استدركت الوضع وشرحت لها سبب اختياري: «تذكّرتُ فجأةً كم رجوتِ أمّنا عندما كنتِ في الصف التاسع لكي توافق على أن تصبغي شعرك بهذا اللون، ولم تفعل. ألا تذكرين أنك أضربت عن الطعام حتى سمحت لك أخيرًا بتلوين أطراف شعرك فحسب بهذا اللون؟».

استدارت ليبي نحوي ولاحظتُ ارتجاف شفتها. كان أمامي أقلّ من ثانية لأكتشف ما إذا كانت تنوي الانقضاض عليّ، ولكنها ما لبثت أن رمت ذراعيها حول عنقي، ودفنت رأسها عند أسفل رأسي. ثم قالت وأنا أشعر بعطرها من روائح الخزامى والليمون تلفّني: «أحببت اللون كثيرًا».

«هذا يفرحني»، قلت بعد أن غمرتها بدوري، وبعد أن هدأت عاصفة الرّعب التي اجتاحتني، وانزاح التشنّج عن كتفيّ. «وأنتِ أيضًا نجحتِ حقًا في ما فعلته بشعري. أعني أني لا أعلم ما الذي قد يدفع أحد الناس إلى اختيار مثل هذا اللون، ولكنك حقّقت نتيجة جيّدة».

أرخت ذراعيها عني ونظرت بعبوس: «إنه اللون الأقرب إلى لون شعرك الطبيعي. كنت أُعجب دائمًا بلون شعرك عندما كنّا صغارًا».

انعصر قلبي، وشعرت بوخز في أعلى أنفي، فكأنّ الكثير من ذلك الشيء المحتقن في جمجمتي بات حاضرًا للتسرّب.

«يا إلهي»! انطلقت ليبي بالقول فجأةً وهي تحدّق في المرآة، «أتساءل في هذه اللحظة كيف سأستجيب لو طلبت مني بيا وتالا تلوين شعريهما بألوان ذيل يونيكورن؟ أو لو أرادتا حلق رأسيهما كلّيًا؟».

أجبت: «تقولين كلّا، وعندما تطلبين مني المكوث معهما، أعطيهما الصباغ ومقصّ الشعر. وبعد ذلك، ولأنني الخالة المتساهلة والمثيرة والمرحة، أدرّبهما على لفّ سيجارة حشيش».

شخرت ليبي وقالت: «كنت تتمنّين أن تتعلّمي طريقة لفّ السيجارة. يا إلهي اشتقت لتدخين الحشيش. لا تعلّمك كتب ´الاستعداد للحمل والأمومة´ كيف تتعاملين مع شوقك إلى تدخين الحشيش».

قلت: «يبدو من كلامك وجود نقص في السوق، سوف أتحرّى هذا الأمر».

«مثلًا، كتاب يكون عنوان: *دليل مدخّنة الحشيش الحامل*»، اقترحت ليبي ضاحكة.

أجبت: «أو كتاب عنوانه: *الأمومة مع الماريجوانا*».

«والآخر المرافق له: *الآباء والحشيش*»، أضافت ليبي.

«تعلمين أنك لو احتجت في أي وقت للشكوى بشأن اشتياقك للحشيش، أو بشأن الحمل، أو أي أمرٍ آخر، فإني دائمًا حاضرة للاستماع».

قالت: «نعم، أعلم ذلك». فيما عادت عيناها إلى صورتها في المرآة، وأصابعها إلى شعرها.

الفصل الخامس

سمعت أزيز هاتفي معلنًا وصول رسالة إلكترونية، وإذا باسم شارلي يحتلّ عرض الشاشة. ولمعت في ذاكرتي كلماته «*صرفت نظري عن السفر بسبب كأسين من كوكتيل جين مارتيني*، *وسمكة قرش شقراء*»، كأنها إعلان مضيء في الكازينو، مثيرة حينًا، وتوحي بوجوب أخذ الحذر حينًا آخر.

تقول الرسالة:

> لا أرغب بأن يلحق ببريدي الإلكتروني المهني أيّ وصمة. ولكن هناك مقاطع كثيرة من هذا الكتاب لا أستطيع نزعها من ذهني. أعيش في ما يشبه فيلم الرّعب، ولن أتحرّر من هذه اللعنة قبل أن أرميها على شخص آخر.

تقنيًّا، يمكن لشارلي معرفة رقم هاتفي من خلال توقيعي على بريدي الإلكتروني؛ ولكن، هل أدعوه إلى استخدامه؟

الحسنات: ربّما يوفّر ذلك المناسبة لأقول له إني في صنشاين فولز، عوضًا عن خطر اللقاء به فجأة بطريقة غير مرضية.

السيئات: هل أرغب بالفعل في إتاحة الفرصة لذلك الذي يتسبّب في إخلالي بالأصول المهنيّة، لكي يرسل لي مقاطع من بيغ فوت *إروتيكا*؟

الحسنات: نعم أرغب في ذلك، لأني فضولية بطبيعتي، وبهذه الطريقة على الأقلّ، سنتمكن من نتبادل المعلومات على قناة تواصل خاصّة، وليست مهنيّة.

طبعت رقم هاتفي، وضغطت على أمر الإرسال.

وبذلك كان قد حان وقت تواصلي مع دَستي، أتوقّع أن تستغرق المكالمة نحو عشرين دقيقة، قد أقضيها أنا بالعزف على أوتارها الحسّاسة تارةً، وبالمزاح تارة أخرى، وبالتغنّي بقدراتها. وقد ألفظ كلمة «عبقرية» على

مسامعها مرّات عدّة، وقد أتمكّن قبل انتهاء المكالمة من إقناعها بأن ترسل الجزء الأول من كتابها -حتى ولو لم يزل غير منقّح إلى المحرّرة شارون التي تهتمّ بمراجعة كتبها، حتى تباشر شارون عملها فيما تتابع دَستي الكتابة.

بعد المكالمة مع دَستي، تبعتُ ليبي إلى الحمام حيث كانت منشغلة بترتيب شعرها الوردي الجديد، وبلفّ بعض خصلاته على شكل دوائر لولبية منسدلة. «هيّا نذهب سيرًا على الأقدام لتناول طعام العشاء. ما زلت أشعر بألمٍ في عنقي نتيجة ركوبنا السيارة مع ذلك السائق، إضافةً إلى أنه جعلني أتبوّل على نفسي».

«كيف أنسى وقد جعلك تتبوّلين عليّ أيضًا!؟».

ثمّ نظرَت إلى هندامي: «هل أنت متأكدة أنك ستنتعلين هذا الحذاء؟».

كنت أرتدي فستانًا أسود ضيّق مفتوح الظهر مع حذاء عالٍ أسود عريض الكعب. أما أختي فارتدت فستانًا صيفيّا ناعمًا من طراز التسعينيات طبع قماشه بما يشبه أزهار الربيع، وانتعلت حذاء صيفيّا أبيض.

قلت: «إن اقترحتِ إعارتي حذاءك *الكروكس* Crocs فسوف أتّهمك بمحاولة إيذائي نفسيًّا».

أجابت بغيظ: «بعد هذا الكلام، فإنك لا تستحقّين حذائي الكروكس».

حاولت أن أخفي معاناتي أثناء انحدارنا على سفح التلّة، ولكنّي عرفت من خلال ابتساماتها الماكرة أنها لاحظت مؤكّدًا أن كعبَي حذائي كانا ينغرسان في العشب، ويمنعانني من التقدّم بسهولة.

مالت الشمس إلى المغيب، وما زال الهواء حارًّا بدرجة عالية، أما البعوض فكان يتكاثر بسرعة. لا أخاف الفئران - أكثرها يلوذ بالفرار عندما يلمح الإنسان، والبقية لا تتوانى عن الانتظار بخفر لعلّها تحظى بفتات من طعام. البعوض أسوأ من الفئران، بدليل أنه استطاع أن يزرع على ذراعي ستّ بقع حمراء جديدة متورّمة حتى قبل وصولنا إلى وسط البلدة.

لم يقرص البعوض ليبي ولا مرّة واحدة. نظرت إليّ، ورفّت بأجفانها لتقول: «لا بدّ أن دمي شديد الحلاوة بالنسبة إلى البعوض».

«أو ربّما تحملين في أحشائك المسيح الدجّال، والبعوض يتعرّف إليك ويرى فيك ملكته»، أجبتها.

هزّت رأسها وفكّرت في ما قلته، ثم أجابت: «أعتقد أنها فكرة مسلية». توقّفت أختي عند تقاطع الطرق الخالي تمامًا من المارّة، ونظرت إلى وسط البلدة الذي بدا خاليًا أيضًا، ثمّ زمّت شفتيها فيما أدارت عينيها حول المشهد، وقالت أخيرًا: «هه... تبدو البلدة ناعسة وأكثر نعاسًا ممّا توقّعت».

«أن تكون البلدة ناعسة ليس أمرًا سيئًا. أليس كذلك؟ ناعسة يعني أيضًا أنها مريحة وتساعد على الاسترخاء»، شرحت بحماسة.

«صحيح»، قالت، ونفضت عنها الانطباع الذي عبّرت عنه في البداية، وعادت الابتسامة إلى وجهها. ثم أردفت: «أنتِ على حقّ. إنه تمامًا السبب الذي حملنا إلى هنا». ولدى مرورنا أمام المخزن العام الذي يبدو وكأنه تحوّل إلى محطّة للأغراض المرهونة، بدت على وجهها أمارات الحيرة والتساؤل وليس الخيبة، ورحت أتكلّم بحماسة عن المقهى الذي يدعى كوب + كأس، لكي أشغلها.

قلت بإصرار: «تنبعث منه رائحة شهيّة، سنعود إليه غدًا».

رأيت وجهها يضيء بالابتسام، فكأنه كان يضيء بفعل زرّ تحكّم يزداد تأثيره الإيجابي مع ازدياد تفاؤلي.

ثمّ مررنا بمحاذاة صالون تزيين. «ربّما كان يجب أن نقصّ شعرنا هنا»، قالت ليبي. ولكني لم أوافقها الرأي في سرّي، وذلك بسبب شكل الأحرف التي استخدمت في كتابة اسم الصالون، وهي تبدو كأنها تنزف دمًا، وانطلاقًا من الاسم الذي يقول *Curl Up N Dye*(1). وبعد مرورنا ببضع نوافذ محلّات فارغة، مررنا بمطعم رخيص، وبحانة صغيرة، وبمكتبة تواعدنا

---

(1) لهذه الجملة تفسير حقيقي مبني على معاني الكلمات المتصلة بتسريح الشعر وتلوينه؛ وقد يفهم المعنى بناء على اللفظ فحسب كالتالي: التفّ حول نفسك ومت.

بالعودة إليها على الرغم من نافذتها المتّسخة بالغبار ورتابة معروضاتها من الكتب، وقبل أن نصل إلى المنعطف التالي، وقفنا أمام مبنى خشبي كبير، وقرأت على بابه اسمًا غريبًا كتب بأحرف معدنية يعتريها الصدأ تقول: *بوبا سكوات* *Poppa Squat*[1]. كانت ليبي في هذه الأثناء تسير إلى جانبي، ولكنها منشغلة بهاتفها. كانت تتبادل الرسائل النصّية مع براندن. ومع أن الابتسامة لم تفارق وجهها، إلا أن بريقها خفت فجأةً وبدت كأنها مشرفة على البكاء. كانت معدتها تقرقر، وبشرتها تفور حمرةً بسبب الحرارة. تخيّلت أن الرسائل المتبادلة مع براندن كانت تقول ما معناه *ربّما فكرة هذا المشروع كانت خطأً في الأساس*. اجتاحني شعور باليأس فجأةً. يجب أن أغيّر وجهة هذا الانطباع في الحال؛ ولعلّ البداية في أن أجد مكانًا يقدّم الطعام.

توقّفت لتوّي أمام المبنى الخشبي، وصوّبت نظري إلى الداخل عبر نوافذه الزجاجية الداكنة. ومن غير أن ترفع رأسها عن الهاتف، بادرت ليبي: «هل تتجسّسين على أحد؟».

«إني أنظر عبر نافذة *بوبا سكوات*».

وإذا بها ترفع عينيها ببطء نحوي قائلةً: « *اللعنة*؛ ما هو هذا الذي يُدعى *بوبا سكوات*؟ ».

أجبت وأنا أشير إلى الاسم: «حسنًا...، قد يكون حمامًا ضخمًا للعامّة، أو مطعم مشاوي وحانة».

«لماذا؟»، صرخت ليبي بمزيج من الارتياح والاستغراب؛ ولاحظتُ اختفاء كل آثار الخيبة عن وجهها. «لماذا يوجد مثل هذا المكان؟»، قالت، واقتربت بوجهها من الزجاج لتسترق النظر.

قلت، قبل أن أشدّ بواحد من الأبواب الخشبية الثقيلة وأفتحه: «لا

---

(1) الكلمة الأولى من الاسم (بوبا) قد تعني إحدى تسميات الأب. أما الكلمة الثانية (سكوات) فتعني الجلوس في وضعية القرفصاء.

أملك الأجوبة، ليبي. يتحوّل العالم أحيانًا إلى مكان غامض وظالم؛ فنجد الناس يتصرّفون بأسلوب ملتوٍ ومشوّه، وكثيرًا ما يدلّ ذلك على حالة نفسية مرضيّة قد تدفعهم حتى إلى تسمية مطعم كبير بهذا الاسم ــ».

«أهلًا بكم في *بوبا سكوات*»، بادرتنا مضيفة ذات مظهرٍ شاحب ثم سألتنا: «كم العدد؟».

«نحن اثنتان، ولكننا سنأكل مثل خمسة»، أجابت ليبي.

«أوه، تهانيّ!»، قالت المضيفة بحماسة، فيما مرّت بنظرها على بطن كلّ منّا، وبدا على وجهها الشرود كأنها كانت تحاول في رأسها حلّ عمليّة حسابية معقّدة.

«أنا لا أعرف هذه المرأة»، قلت، فيما أشرت برأسي إلى ليبي، وتابعت: «إنها تتبعني من أوّل الشارع».

قالت أختي: «حسنًا، أيتها الفظّة، أتبعك من مسافة أطول بكثير من ذلك، ولكن يبدو أنك لا ترينني».

بدا على ملامح المضيفة الارتباك.

فاستدركتُ: «شخصان من فضلك».

تردّدت الفتاة قليلًا وأشارت نحو البار. «يمكن أن نقدّم كل شيء على البار، وإن كنتما تفضّلان الطاولة...»

«لا بأس بالجلوس إلى البار»، أكّدت لها ليبي. أعطتنا المضيفة قائمة طعام طويلة جدًّا، تبدو وكأنها أربعون صفحة. اعتلينا كرسيين يغطّي سطحيهما نوع من الجلد الصناعي، ووضعنا حقيبتينا على سطح البار الدّبق، وسرحت أعيننا تتفحّص التفاصيل المحيطة بنا بصمت ربّما كان نابعًا من شعورنا بالصدمة، أو بالإعجاب.

يبدو هذا المكان وكأنه ثمرة زواج أحد مطاعم سلسلة *كراكر باريل* Cracker Barrel، بملهى رخيص من نوع *هونكي تونك* *Honky Tonk*. وكأنّ هذا الطفل، بعد أن بلغ سنّ المراهقة، لم يعد يهتمّ بأصول النظافة والاستحمام، ويتسلّى بعلك أطراف أكمامه.

أرض المكان وجدرانه تشترك بألوانها الداكنة، وبالألواح الخشبية غير المتناسقة. أما السقيفة فمصنوعة من صفائح معدنية مطعّجة. وزّعت على بعض الجدران صور للفرق الرياضية المحليّة إلى جانب إعلانات مضيئة للبيرة من نوع كورز *Coors*، ولوحات مطرّزة بالخط العريض تقول: **بيتك هو حيث تجد طعامك**. يمتدّ البار في موازاة الجهة اليسرى من المطعم، وفي إحدى الزوايا وضعت طاولتا بلياردو، وفي زاوية أخرى، يمكن رؤية صندوق الموسيقى جوكبوكس، وإلى جانبه توجد خشبة مسرح غير مرتفعة كثيرًا عن الأرض. عدد الناس في هذا المكان يفوق مجموع الذين التقيت بهم في صانشاين فولز حتى الآن، ومع ذلك كان المكان يبدو وكأنه مقفرٌ.

فتحت قائمة الطعام وبدأت باستعراض الأصناف. لاحظت للتوّ أن نحو ثلاثين في المئة من الأصناف كانت مقلية.

اطلب ما تشاء وتتمنّى، وبوبا سكوات يقليه لك.

ثمّ تقدّمت الساقية من خلف البار، وهي جميلة جدًّا بشعرها الأسود الكثيف والمتموّج، وعلى ذراعيها تتألق مجرّات النجوم في وشم هنا ووشم هناك. عقدت الفتاة ذراعيها فوق البار، وسألت عمّا نريد.

وعلى غرار الشاب الذي رأيته في المقهى، ثم في مزرعة الخيول؛ فإنها أشبه بممثلة تلعب دور الساقية في مسلسل تلفزيوني مثير، منها بساقية حقيقية.

قالت: «ماذا بشأن المشروب؟».

أجبت: «كوكتيل ديرتي *مارتيني* مع جين».

«صودا مع الحامض»، قالت ليبي.

تبتعد الساقية، وأعود إلى الصفحة الخامسة من القائمة. ها إني أخيرًا أمام أنواع السلطة، أو بالأحرى ما يسمّونه في هذا المكان ´سلطة´. لأنك عندما تسكب نوعًا من الصلصات الجاهزة (صلصة *رانش* مثلًا) على الخس المقطّع وتنثر فوقه حفنة من المقرمشات (دوريتوز مثلًا)، فإنك تتعدّى الحدود المقبولة لو سمّيت هذا الطبق ´سلطة´.

عندما عادت الساقية، حاولت أن أطلب طبقًا من السلطة اليونانية.

انقبضت معالم وجهها، وسألتني: «هل أنت متأكّدة؟».

«لم أعد كذلك»، قلت.

«ليست السلطات أفضل ما نُعرف به»، شرحت لي.

«ما هو أفضل ما تعرفون به؟»، سألتها.

أومأت بيدها إلى الوراء وتحديدًا إلى إعلان البيرة المضيء *Light Coors*.

«ما الذي تُعرفون به من أنواع الطعام؟»، سألت بوضوح.

أجابت: «أن نُعرف لا يعني بالضرورة أن نكسب الإعجاب».

«ما الذي تنصحيننا به... غير البيرة؟»، تدخّلت ليبي وطرحت السؤال بأسلوب مختلف.

«البطاطا المقلية جيّدة، *والبرغر* لا بأس».

« برغر نباتي؟»، سألتها.

زمّت شفتيها وأجابت: «ليس قاتلًا».

قلت: «عظيم، أريد طبقًا من هذا البرغر مع البطاطا المقلية».

«وأنا كذلك»، قالت ليبي.

على الرغم من قولها بأن البرغر لن يقتلنا، فإن تعابير وجهها كانت تقول: «نهايتكما قريبة أيتها المغفّلتان!».

بدت ليبي على ما يرام، حتى إنها كانت تبدو سعيدة، ولكن نواة القلق لم تغادر أحشائي. وإذا بي، ومن غير تفكيرٍ بالعواقب، أشرب كل محتوى كأسي في دقائق قليلة قبل وصول الطعام. سرى تأثير الكحول في دمي، وأصابني البطء في كلّ شيء. في المقابل، التهمت ليبي طعامها بسرعة وقفزت عن الكرسي لتذهب إلى الحمام، حتى قبل أن أتناول لقمة من طعامي.

ارتجّ هاتفي على سطح البار الدّبق، فتوقّعت مئة في المئة تقريبًا أن المتّصل هو شارلي.

ولكن الاتصال كان أهمّ بمليون مرّة.

ها إن دَستي ترسل جزءًا من مسوّدة كتابها الجديد. كانت المهلة أمامها قد أصبحت ضيّقة، خصوصًا وأن محرّرة أعمالها شارون كانت قد بلغت أشهر حملها الأخيرة، وستذهب في إجازة الأمومة في غضون شهر واحد.

تقول الرسالة:

> أشكركم جميعًا - أعلم أن التوقيت ليس مثاليًا بالنسبة لكم، ولكنّي أقدّر كثيرًا ثقتكم بي من حيث إنكم تركتم لي حريّة العمل بالسرعة التي تخدم جودة عملي على أفضل وجه. أصبحت المسوَّدة الأولى من الكتاب حاضرة بكاملها، ولكني استطعت تنقيح هذا الجزء الأول فحسب. أتطلّع إلى إرسال بضعة فصول إضافية في الأسبوع المقبل، على أمل أن تمنحكم الصفحات المرفقة ربطًا فكرة وافية عمّا سيتبعها.

فتحت الملفّ المرفق بالرسالة. العنوان: فريدجد - *الفصل الأول* *Frigid 1 ,0*[1].

أن يبدأ النص مباشرة بالفصل الأول، يعطي انطباعًا جيّدًا بأن الكاتب لم يغرق طويلًا في كتابة المقدّمة على طريقة جاك تورّانس Jack Torrance الغريبة والمملّة في كتاب *The Shining*. قاومت مَيلي الملحّ لأطير بنظري سريعًا فوق السطور ونزولًا حتى النهاية، وهي العادة التي اكتسبتها منذ صغري، إذ ألجأ إلى اختبار فوري للكتاب قبل أن أقرّر إن كنت سأقرأه أم لا. كنت أعي دائمًا أن عدد الكتب المتوفّر في العالم كبير، والوقت لا يسمح بقراءتها كلّها. ولكن، ومن حيث إن النصّ الذي أمامي يعود إلى عميلتي، فسوف أقرأه كلّه مهما كلّف الأمر.

ولكن ما إن تبيّنت الكلمات في السطر الأول حتى أحسست وكأني تلقّيت لكمة مفاجئة على معدتي. يقول السطر الأوّل:

يطلقون عليها لقب سمكة القرش.

---

(1) يوحي العنوان بمعنى البرودة أو بالشخصية الجليدية.

«اللعنة!»، قلت. وإذا برجل متقدّم في السن عند طرف البار يرفع رأسه فجأة من فوق صحن الحساء الذي أمامه مدمدمًا باستياء. «أعتذر»، تمتمت، وحوّلت نظري نحو شاشة الجوّال ثانيةً لأتابع القراءة:

يطلقون عليها لقب سمكة القرش، ولم تحفل بذلك. كان الاسم مناسبًا. أوّلًا، لأن أسماك القرش تسبح دائمًا نحو الأمام. والقاعدة في حياة نادين وينترز هي عدم النظر إلى الوراء. حياتها مبنيّة على قائمة من القواعد التي تخفّف الأعباء عن ضميرها. لو نظرت إلى الوراء، لرأت بركة من الدماء. وبالنظر إلى الأمام، فإن كلّ ما تراه هو الجوع.

ونادين وينترز كانت جائعة.

تمنّيت خلال دقيقة أن تكون نادين وينترز سمكة قرش بالفعل. تأمّلت في أن تكون دَستي قد كتبت قصّة عن الحيوانات المتكلّمة، والتي يمقتها شارلي لاسترا. ولكن، ومن على مسافة أسطر أربعة لا غير، قفزت إلى نظري كلمة ´وكيلة´، فخلتها كتبت ليس بالبنط العادي، بل بأحرف دموية نازفة كما في عنوان صالون التزيين *Curl UP & Dye*.

إنها وكيلة

كانت الشخصية الرئيسية الملقبة بسمكة القرش في كتاب دَستي تعمل كوكيلة.

نظرت إلى الكلمة التي تتبعها، فوجدت أن العبارة تقول: وكيلة سينمائية.

وكيلة سينمائية وليس وكيلة أدبية. لم يساعد الفرق بين العبارتين في حلّ العقدة في صدري، ولا في تهدئة صعود الدم إلى أذنيّ.

ولكن نادين وينترز لا تشبهني لأن شعرها أسود وعلى جبينها غرّة كثيفة. إنها مثلي لا تتخلّى عن الأحذية العالية سوى أثناء ممارسة الرياضة.

ولكنّها، وعلى خلافي، تتمرّس على فنون القتال Kray Maga في كل صباح، فيما أتابع دروسًا افتراضيّة على آلتي *البلوتون*.

وهي مثلي، تطلب طبقًا من السلطة مع جبنة الماعز في كل مرّة تتناول طعامها بصحبة عملائها في المطعم، وتشرب كوكتيل جين *مارتيني* ملغومًا بنوع آخر من الكحول. ولكنّها تصرّ دائمًا على كأس واحدةٍ فحسب؛ لأنها تكره الشعور بفقدان السيطرة في أي مناسبة.

إنها مثلي، لا تغادر بيتها من دون ماكياج كامل أبدًا؛ وتقصد الصالون للاعتناء بأظافرها مرّتين في الشهر.

وهي مثلي، تنام والهاتف إلى جانب رأسها، وترفع حجم صوته إلى أعلى مستوى.

وهي مثلي، غالبًا ما تنسى أن تلقي التحية في بداية المكالمة، وعادةً ما لا تقول وداعًا في نهايتها.

وهي مثلي تملك المال، ولكنها لا تتمتّع في إنفاقه. وهي تتسوّق عبر الإنترنت وتملأ السلة طيلة ساعات، ولكنها لا تعود إليها قبل أن تكون البضائع قد بيعت ولم تعد متوفّرة.

نادين لا تستمتع بمعظم الأمور، كتبت دَستي. *المتعة بالنسبة إليها ليست هدفًا في الحياة. بالنسبة إليها، وبحسب تجربتها، الهدف هو البقاء على قيد الحياة، وهذا يتطلّب المال إلى جانب غريزة حبّ البقاء.*

كانت حرارة وجهي ترتفع من صفحة إلى أخرى.

ينتهي الفصل مع مشهد نادين تدخل إلى المكتب في الوقت المناسب لترى مساعدتَيْها تحتفلان بهدوء بمناسبة معيّنة. فتقطع جوّ المرح بالسؤال: «ماذا يجري؟».

فتخبرها مساعدتها ستايسي بأنها حامل.

تبتسم نادين ابتسامة القرش، وتهنئها، ثم تذهب إلى مكتبها وتبدأ باستعراض الأسباب التي قد تبرّر لها اتخاذ القرار بفصل ستايسي عن العمل. إنها لا تتقبّل المشاغل التي تشتّت انتباه الموظفين، وتعتبر الحمل واحدًا منها.

لا تبتعد نادين عن خطّةٍ رسمتها، ولا تسمح بالخروج عن القواعد. إنها تتمسّك بمعايير ثابتة في الحياة، ولا تتقبّل من يخالفها.

وباختصار، إنها تنغلق على الأصدقاء، وتكره القطط، فكأنها امرأة آلية تسعى إلى كسب المال فحسب. (معنى الانغلاق يبقى ضمنيًّا في هذا الفصل، وتوقّعت أن يصبح واضحًا كعين الشمس في الفصول القادمة).

ما إن انتهيت من القراءة، حتى عدت من جديد إلى إقناع نفسي بأن نادين - المرأة التي قد تبدو ميراندا بريستلي[1] إزاءها بريئة مثل شخصية بياض الثلج.

أما القراءة الثالثة لهذا الفصل، فكانت الأشدّ سوءًا، لأني اقتنعت بعدها بأن ما كتبته دَستي كان *جيّدًا*.

فصلٍ واحد من عشر صفحات، ولكنّه مقنع.

وقفتُ، وبي ما يشبه الدوار. سرت نحو زاوية مظلمة حيث توجد الحمّامات. لم أرفع نظري عن الهاتف، بل كنت أعيد القراءة. شعرت أني بحاجة إلى ليبي *في الحال*. كنت بحاجة إلى من يعرفني جيّدًا، ويحبّني، ليقول لي إن كل ما كُتب كان غير صحيح.

كان يجب أن أنظر أمامي.

ما كان يجب أن أنتعل حذاءً عالي الكعب لهذه الدرجة؛ أو أن أشرب كوكتيل مارتيني على معدة فارغة، أو أن أقرأ كتابًا يجعلني أشعر وكأنّي أعيش خارج جسدي.

لأن اجتماع كل هذه العوامل البائسة جعلني أصطدم بأحد الناس. لا أتحدّث هنا عن ملامسة بسيطة على مستوى الأكتاف، تبعها اعتذار لطيف مع ابتسامة مرحة؛ إنما اصطدام جعل الشخص الآخر يصرخ: *يا إلهي! أنفي!*

هذا ما سمعته في اللحظة التي شعرت فيها بارتجاف في كاحليّ، وباختلال في توازني. إنها اللحظة التي وقع فيها نظري على وجهٍ ليس سوى وجه شارلي لاسترا.

كانت تلك اللحظة التي هويت فيها إلى الأرض مثل شوال البطاطا.

---

(1) الشخصية الرئيسية في رواية «The Devil wears Prada» (الشيطان يرتدي من تصميم برادا)، وهي امرأة قاسية ومتسلّطة.

الفصل السادس

التقط شارلي ساعديَّ بقوّة قبل سقوطي التامّ أرضًا، وساعدني على استعادة توازني، وتطايرت من فمه كلمات مثل: «بحقّ الجحيم، ماذا حدث؟».

بعد الألم، والصدمة، تأتي عبارات الشكر، ثم التعرّف إلى الوجه مع الارتباك.

«نورا ستيفنز!». سمعت اسمي وكأنه شتيمة.

فغر فاهه ناظرًا إليّ، ونظرت إليه بفم فاغر أيضًا.

سارعت إلى القول: «إني في إجازة!».

ولكنّه ازداد ارتباكًا.

«أنا... لا أطاردكَ»، أضفت.

قطّب حاجبيه، وقال بنبرة السؤال: «حسنًا؟».

«لا أقصد ذلك أبدًا»، أجبت.

أرخى يديه عن ساعديّ، وقال: «اقتنعت بكلامك».

«أرادت أختي زيارة هذا المكان، لأنها أحبّت كتاب مرّة *في العمر*».

رأيت في عينيه كلامًا، ولكنّه شخر ولم يقل شيئًا.

عقدتُ ذراعيَّ، وسألته: «ما يدعو إلى التساؤل بالفعل هو سبب وجودِكَ أنت هنا؟».

قال بلهجة جافة: «أوه، إني أطاردك». وإزاء جحوظ عينيّ، أضاف «إني من *هنا*، يا ستيفنز».

أصابتني الصدمة جرّاء ما سمعته، ولم أزِح نظري عن وجهه لثوانٍ، حتى مرّ بيده أمام عينيّ قائلًا: «ماذا جرى، هل أصابك مكروه؟».

«أنت...من...هنا؟ يعني من *هنا*، هنا؟»، قلت.

«لم أولد على سطح البار في هذه المؤسسة الفاشلة، إن كان هذا ما تقصدينه بسؤالك. ولكن نعم إني من مكان قريب».

كان في الأمر ما يصعب فهمه. من ناحية، بسبب أناقته التي توحي وكأنه خارج للتوّ من دار أزياء توم فورد، ومن ناحية أخرى لأني غير مصدّقة بأني لست في مكان تصوير فيلم سينمائي هجره فريق الإنتاج قبل الانتهاء من إعداده. «شارلي لاسترا من صانشاين فولز».

تفرّس بي بعينين ضيّقتين، وقال: «هل أصاب أنفي رأسك في الصميم؟».

«إنّك من صانشاين فولز في نورث كارولاينا؟، من مكانٍ ليس فيه سوى محطّة وقود واحدة، ومطعم يُدعى *بوبا سكوات*؟».

«نعم».

مرّت في بالي مجموعة من الأسئلة المهمّة، ولكن دماغي قرّر الذهاب مباشرة إلى السؤال: «هل يوجد شخص يُدعى بوبا سكوات؟».

بدت على وجهه أمارات التعجّب، ثمّ أصدر قهقهةً خشنة خدشت أصداؤها قفصي الصدري. وأجاب: «كلا».

«ما هو إذًا بوبا سكوات؟».

تمغّطت زاويتا فمه، وأجاب: «لا أعلم ربّما يعبّر الاسم عن قناعة معيّنة!».

«وما هي مشكلة السلطة اليونانية هنا؟».

قال: «هل حاولتِ أن تطلبي نوعًا من السلطة؟ هل خاف منك سكّان البلدة واحتشدوا حولك بالمذرّات والفؤوس؟».

«لم تعطِني جوابًا».

أجاب: «إنها حفنة من أوراق الخس المقطّعة ولا شيء آخر فوقها، إلّا إذا كان الطبّاخ ثملًا، وغطّاها بمكعبّات من الجامبون».

فسألته: «لماذا؟».

أجاب باقتضاب وشرود: «أتصوّر لأنه غير سعيد في بيته. وقد يرتبط ذلك بالأحلام المحبطة التي تدفع بالأشخاص إلى العمل في هذا المكان».

لم أسأل عن السبب في وجود الطبّاخ ثملًا، بل سألت: «لماذا قد يذهب أحدهم إلى تغطية وجه الخسّ بمكعبّات الجامبون؟».

«لو كنت أعلم الإجابة عن هذا السؤال، ستيفنز، لكنتُ في مكانٍ أرفع».

في تلك اللحظة، لاحظ شارلي وجود شيء على الأرض، وانحنى لالتقاطه. «هل هذا هاتفك؟»، وأعطاني الهاتف. وما إن شاهد ردّ فعلي، حتى قال مستغربًا: «أيّ دور كان لهذا الهاتف في ما حدث؟».

«لم يكن للهاتف دور، بقدر ما كان للكلبة المعتلّة اجتماعيًّا التي تعيش في داخله».

«معظم الناس يدعونها ´سيري´». قال شارلي.

أعدت الهاتف إليه، وما زالت صفحات دَستي مفتوحة على الشاشة. تغيّر شكل حاجبيه، وإذا بي أسائل نفسي فورًا... *ماذا فعلتِ*؟

حاولت استعادة الهاتف، ولكنّه استدار وابتعد عنّي. رأيت الخطّ المتغضّن تحت شفته السفلى يتعمّق كلّما تقدّم في القراءة. كان يتصفّح الشاشة نزولًا بسرعة فائقة، فإذا بالتعبير عن عدم الرّضى يتحوّل على وجهه تدريجًا إلى ابتسامة ماكرة.

لماذا تسرّعت *وأعطيته الهاتف*؟ *هل هو تأثير كوكتيل المارتيني، أو اصطدامي به، أو لأني يائسة*؟

«هذا جيّد»، قال شارلي أخيرًا، ووضع الهاتف في راحة كفّي.

«أهذا كل ما لديك؟ أليس هناك ما ترغب في التعليق عليه؟».

«حسنًا، النصّ ممتاز»، أجاب.

«بل مهين»، قلت متصدّية.

جال بنظره نحو البار، ثم عادت عيناه لتلتقي بعينيّ، وقال: «انظري يا ستيفنز، إنها نهاية يوم عصيب في هذا المكان المزري. إن كنّا سنتحدّث بهذا الشأن، دعيني على الأقلّ أشرب كوبًا من البيرة».

«لم أتوقّع أن تكون من محبّي بيرة كورز»، قلت.

«لست كذلك. ولكنّ ردّ فعل الساقية الساحر سيعكّر متعتي لو طلبت كوبًا من كوكتيل مانهاتن الذي أحبّه»، أجاب.

نظرت إلى الساقية الجميلة، وقلت: «هل هي مثلي عدوّتكَ؟».

خَفَت بريق عينيه، وارتسم على شفتيه ذلك التعبير الذي ينمّ عن مزيج من الاستياء والابتسام الساخر: «هل هكذا ترييننا؟ هل ترسلين إلى كل أعدائك بيغ فوت *إروتيكا*، أو ربّما إلى المميَّزين بينهم فحسب؟».

قلت: «كلّا»، وتظاهرت بالشفقة، «هل تسبّبت بإيذاء شعورك، شارلي؟».

«تبدين شديدة الرّضى عن نفسك. وهذا ملفت بالنسبة لامرأة اكتشفت للتوّ أنها أوحت بشخصية تشبه كرويلا دو فيل *Cruella de Vil*».

قابلت كلامه بعبوس، فأدار عينيه. ولكنّه عاد وقال: «هيّا، سوف أقدّم لك كوكتيل *مارتيني* أو *بوبي كوت*».

كوكتيل *مارتيني* هو بالضبط الشراب المفضّل لدى نادين وينترز كلّما كانت دماء العذارى بعيدة عن متناولها.

ولسبب أجهله مرّت في مخيّلتي صورة تمثّل حبيبي السابق جايكوب جالسًا في حديقة بيته الخلفية وبيده علبة بيرة، وزوجته تتكوّم على ذراعه وتحتسي البيرة أيضًا.

تخيّلتها مسترخية وفائقة الجمال، مع أنها أم لأربعة أطفال، تتعاطى مع المحيطين بها، ومن الرجال خصوصًا، برحابة صدر وعفوية «كأنها أحدهم one of the guys».

إنها النسخة المعكوسة عن نورا.

هنّ دائمًا كذلك، النساء اللّاتي يفزن بقلب مَنْ أحب، ويتسبّبن بفشل علاقاتي العاطفية. من الصعب أن أكون مثلهنّ وأتصرّف بارتياح تامّ مع الرجال عندما يكون معظم الذين تعرّفت إليهم في صغري، من بين هؤلاء الذين أحزنوا قلب أمي وأبكوها، أو أصدقاؤها من الراقصين الذين حاولوا

عبثًا تعليمي بعض الرقصات المعقّدة. يمكنني أن أكون بين الرجال «كأني أحدهم»، عندما تكون الأغنية المفضلة لدى هؤلاء مستخرجة من فيلم *البؤساء*. وعدا ذلك، فحالتي ميؤوس منها.

سرت من أمام شارلي نحو البار، وقلت: «يمكنني أن أتناول كوبًا من البيرة... على حسابك».

«هذا... ما قلته؟»، تمتم بنغمة السؤال، وتبعني إلى البار المزروع سطحه بقشور الفستق السوداني.

تبادل المزاح مع الساقية (لم يبدُ لي أنهما عدوّان قطعًا؛ بل شعرت بوجود حرارة في الكلمات المتبادلة بينهما. أعني أن شارلي بدا أقلّ فظاظةً بنسبة 15٪ من المعتاد). نظرت مجدّدًا باتجاه الحمامات، ولكن ليبي لم تخرج بعد.

لم أتنبّه إلى أني كنت قد عدت إلى قراءة سطور دَستي مجدّدًا، حتى سحب شارلي الهاتف من يدي، وقال: «كفى توجّسًا».

«لا أتوجّس».

تفحّصني بحدقتَيْه الداكنتَيْن فخلتهما الثقب الأسود الذي يكاد يبتلعني، وخلتني بحاجة إلى حبل النجاة. وقال: «يفاجئني أن لديك مشكلة مع ذلك إلى هذا الحدّ».

«ويفاجئني أن شريحة الذكاء الاصطناعي التي في داخلك تتيح لك الشعور بالمفاجأة»، أجبت.

« سلام»! أجفلني صوت ليبي، والتفتّ بسرعة نحو مصدر الصوت، لأجد أختي تقف مبتسمة كأنها قطّة من فيلم صور متحرّكة، وفمها محشو بعدد من طيور الكنار.

قلت: «ليبي، هذا ــ»

قبل أن أتمكّن من تعريفها إلى شارلي، قاطعتني: «جئت لأخبرك بأني طلبت تاكسي. أنا لست على ما يرام».

«ماذا حدث؟». وهممت بالنهوض عن الكرسي، لكنها ضغطت بقوّة على كتفي نزولاً.

«أشعر بالإرهاق، لا غير». لكن صوتها لم يشِر إلى ذلك البتّة. «يجب عليكِ البقاء، لم تنتهي من تناول طعامك بعد».

«ليبي، لن أسمح لك بالمغادرة وحدك ــ».

ألقت نظرة سريعة على هاتفها، وقالت: «أوه! التاكسي بانتظاري. لن يزعجك دفع الفاتورة، أليس كذلك يا نورا؟».

من غير عادتي أن تتورّد وجنتاي. ولكني، وإذ لاحظت للتوّ ما قصدته ليبي بسلوكها المفاجئ، شعرت كأن النيران تلتهم وجهي. وهذا يعني أن شارلي لاحظ ذلك على الأرجح أيضًا. وهكذاانسحبت أختي من المشهد، وتركتني مع نصف قرص من البرغر، وفاتورة غير مدفوعة، ورغبة عميقة في أن تنشقّ الأرض وتبتلعني.

وفيما أسرعت باتجاه الباب الخارجي، التفتت إلى الوراء بسرعة، وصرخت: «حظًّا سعيدًا في تنفيذ الرقم 5، سيسي[1]!».

«الرقم 5؟»، سأل شارلي، فيما كان الباب ينغلق وراء ليبي التي ما لبثت أن اختفت في ظلمة المساء.

كنت غير مرتاحة البتّة إزاء فكرة أن تتسلّق الدرج إلى الكوخ بمفردها. التقطت هاتفي بسرعة وكتبت: «أخبريني لدى وصولك إلى الكوخ في الحال. وإلّا!!!».

أجابت ليبي: «أخبريني في الحال عندما تصلين إلى المرحلة الثالثة مع البطل المثير».

شخر شارلي من ورائي؛ فأزحت الهاتف عن مرمى نظره، وسوّيت كتفيّ.

ثمّ قلت: «إنها أختي ليبي. لا تهتمّ لكل كلمة تقولها. تزداد هواجسها الجنسية في أثناء الحمل. هي كذلك دائمًا».

---

(1) أسلوب التحبّب في مناداة الأخت بالإنكليزية

ارتفع حاجباه (العجيبان بالفعل)، وبدا التركيز في نظراته. «أجد الكثير ممّا يدعو إلى الاكتشاف في تلك الجملة».

قلت: «لكن الوقت لا يسمح». وتابعت أكل البرغر، لا لسبب سوى حاجتي إلى التركيز على شيء آخر غير وجهه. فأكملت: «عليّ الذهاب وراءها».

«إذًا لا وقت للبيرة التي أردتِها؟»، قال الجملة بنوع من التحدّي، كأنه يقول: كنت *أعلم ذلك*.

تقوّس حاجبه، وظلّت تلك الابتسامة المتكلّفة على وجهه. لكنّه لم يستطع طرد عبوسه كلّيًا. وصارت تعابير وجهه مزيج فريد من الابتسام والعبوس.

عادت الساقية بزجاجتين مثلجتين من البيرة، وعبّر شارلي عن شكره. ولأوّل مرّة، رأيت ابتسامتها المضيئة المذهلة عندما أجابت: «بالطبع؛ إذا أردتَ أي شيء يكفي أن تتلفّظ باسمه».

وعندما انصرفَت، جلس شارلي قبالتي تمامًا، وأدار الزجاجة طويلًا إلى فمه.

«لماذا ابتسمت الساقية لك تحديدًا؟ مع أنني لم أتغاضَ أنا عن دفع البقشيش، وبما لا يقلّ عن ثلاثين بالمئة من قيمة الفاتورة».

«حقّا؟ ربّما كان عليك أن تكوني على وشك الزواج بها، لتعلمي السبب»؛ قال، وتركني في حالة من التعجّب والذهول.

قلت: «كنت تتحدّث عن العبارات التي تحتاج إلى الكثير من الاكتشاف؟».

أجاب: «أعلم أنك امرأة ذات انشغالات كثيرة، سأتركك لكي تتابعي سنّ سكاكينك، وترتيب قوارير السمّ في خزانتك، يا نادين وينترز».

يتفوّه بكلماته كلّها بنغمة واحدة؛ ممّا لا يسمح بالتعرّف إلى النكتة لو حدث وقال شيئًا على سبيل المزاح. ولكن كان من السهل عليّ هذه المرّة التعرّف إلى نغمة التملّق والتي جعلتني أتوتّر تدريجيًا، حتى استيقظ

جهازي الدفاعي، وبتّ متأهّبة للمواجهة، كما الكلب الغاضب الذي يستنفر فجأة عندما تبالغ في مداعبة شعر عنقه.

قلت: «أولًا، إنها ليست خزانة بل مخزن. وثانيًا، زجاجة البيرة أمامي ونحن خارج ساعات العمل، ويمكنني أن أشرب».

ولأني لست نادين وينترز، التقطت الزجاجة وشربت جرعة كبيرة، فيما انصبّت عينا شارلي الداكنتين تراقبانني.

قال: «لذيذة، أليس كذلك؟». ولأول مرّة، لاحظت بصيصًا من الحماسة في صوته. والتمعت عيناه كأنَّ إشعاعة برق اتّقدت فجأة في جمجمته.

«إن كنت من محبّي بول القطط والمازوت».

«تذكّري *النصّ*، نورا».

هززت رأسي، وانقبضت عضلات فكّي.

يمكنني حتى الآن القول بأن حاجبَي شارلي يتحرّكان في أنماط ثلاثة: التركيز في التفكير، والعبوس، ونمط ثالث قد يعكس حالة من القلق أو الارتباك. وها إنهما الآن في مثل النمط الأخير. «ولكنك لا زلت غاضبة لذلك السبب»، قال.

أجبت بصوت عالٍ: « غاضبة؟ نعم غاضبة. كيف لا، وعميلتي الأولى والأقدم تظنّ أني قد أطرد موظّفة من عملها لمجرّد أنها حامل. هل هذا معقول؟».

رفع شارلي قدمه ووضعها على العارضة بين رجليّ كرسيّه، فاصطدمت ركبته بركبتي. «إنها لا تفكّر بهذه الطريقة»، قال، ومال برأسه إلى الخلف ليبتلع جرعة أخرى من البيرة. تدحرجت قطرة بيرة فوق عنقه، فتابعت عيناي انحدارها صوب ياقة قميصه وكأني في حالة انجذاب مغناطيسي. وأضاف: «حتى لو فكّرَت كذلك، فهذا لا يجعل الأمر حقيقة».

«أن تؤلّف كتابًا كاملًا حول هذا المنحى في السلوك يكفي ليصدّق الناس أنه واقع».

«ومن يهتمّ لذلك؟».

«أنا»، قلت مشيرة إلى صدري. «أنا التي تهتمّ لأن يستمرّ الناس في العمل معها، لكي تستمرّ في وظيفتها».

«منذ متى وأنت وكيلة دَستي؟»، سألني.

قلت: «منذ سبعة أعوام».

«لو لم تكوني وكيلة ممتازة، لما عملت معك طيلة سبعة أعوام».

« أعلم أني وكيلة ممتازة!». لكن المشكلة ليست هنا، بل في أني أشعر بالإحراج، والخجل، وبوخزة مؤلمة أيضًا. يبدو أنّي أملك مشاعر وأحاسيس. «لا بأس؛ أنا بخير».

تفحّص شارلي تعابير وجهي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

كرّرت: «أنا بخير».

«هذا واضح».

«إنك تضحك الآن، ولكن ــ».

قاطعني: «أنا لا أضحك، متى رأيتِني أضحك؟».

«أنت على حقّ. إني على يقين بأنّ ذلك لم يحدث أبدًا. ولكن انتظر ريثما يصلك كتاب من عميل، يتحدّث فيه عن محرّر لئيم ذي عينين بلون العنبر».

«عينين بلون العنبر؟».

«أراك لم تعترض على الجزء الذي يتحدث عن ´اللئيم´ في الجملة»، قلت له قبل أن أبتلع جرعة أخرى من البيرة. تنبّهت إلى أن الحاجز أو الغربال المهني لديّ كان قد اختفى مجدّدًا. ولكن هذا أقلّه يدلّ على أني لست المرأة التي في تلك الصفحات.

«تعوّدتُ على أن يظنّ الناس أني لئيم». قال بشيء من التشنّج، «ولكنّي لم أتعوّد أن يشبّهوا لون عينيّ بالعنبر».

«إنه لون عينيك، وأقول هذا بتجرّد، ولا أقصد به المديح إطلاقًا».

«في هذه الحال، سأمتنع إذًا عن الشعور بالإطراء. ما هو لون عينيكِ؟»، سألني. ثمّ اقترب مني أكثر ليتفرّس في عيني من غير أدنى حرج، وإنما

بفضول، فداعبت أنفاسه الدافئة خدّي. في هذه اللحظة تمامًا، تنبّهت إلى أني أجده مثيرًا.

أعلم أني وجدته مثيرًا عندما لمحته في المقهى المسمّى ´كوب + كأس´، وعندما كنت أظن أنه شخص آخر. ولكني *الآن*، أتنبّه إلى أني أجده هو، شارلي لاسترا، وليس أيّ شابّ آخر يشبهه، *مثيرًا*.

ابتلعت جرعة أخرى، وقلت: «أحمر».

«حقّا، إنه يعزّز ألوان ذيلك المشقوق وقرونك».

«إنك لطيف جدًا»، قلت.

«لم توجَّه لي مثل هذه التهمة من قبل».

«لا أصدّق. لمَ لا؟».

رفع واحدًا من حاجبيه، فلمع بريق الدائرة المحيطة بحدقتيه الداكنتين بلونَيْها الذهبي والعسلي، وقال: «لا أشكّ بأن الناس يقفون في الطوابير لكي ينشدوا القصائد تغنيًا بحلاوة طباعك».

رددت بسخرية: «أختي هي الحلوة. لو تبوّلت في الخارج، لنبتت الأزهار في مكان تبوّلها».

«أخبري أختك أن صانشاين فولز قد لا تكون مدينة كبيرة، ولكن *لدينا* تمديدات صحّية؛ وقد تكون تلك هي الحسنة الوحيدة التي أصابت دَستي بشأنها».

«تبًّا لي!»، تذكّرت أن دَستي قد تحتاج إلى الدعم؛ هي التي تعوّدت أن تجدني دائمًا حاضرة لدعمها. لا فرق إن جعلني هذا الكتاب أبدو مثل الكونتيسا باثوري[1]، أم لا؛ فواجبي نحوها يحتّم عليّ القيام بعملي. ورحت أخطّ إليها إجابةً تزدحم فيها نقاط التعجّب بنمط غير مألوف بالنسبة إلى أسلوبي في الكتابة.

---

(1) Elizabeth Bathory: سيدة من طبقة النبلاء في هنغاريا، اتّهمت بالإجرام، وبأنها قاتلة بالتسلسل.

نظر شارلي إلى ساعته، وقال: «أنت في إجازة وتجلسين في حانة والساعة تخطّت التاسعة ليلًا، ومع ذلك أنتِ مستمرّة في العمل. لا شكّ أن نادين وينترز ستفخر بك».

أجبته: «لستَ من يحقّ له الحكم في ذلك. صادف واطلعت على بريد شركة لوجيا للنشر الإلكتروني، ولاحظت وفرة النشاط في حسابك هذا الأسبوع».

«نعم، ولكن نادين وينترز لا تزعجني، بل أجدها مذهلة»، قال.

توقّفت عند كلمة كنت أطبعها، وقلت بصوتٍ عالٍ: «أين يوجد التشويق في شخصية المعتلّ اجتماعيًّا؟».

أجاب: «قد يكون لباتريسيا هايسميث[1] رأي في ذلك. لكن ألا تظنين يا نورا بأنك تحكمين على هذه الشخصية بقسوة كبيرة؟ لم تقرأي من القصّة بعد سوى عشر صفحات».

وقّعت الرسالة، وأرسلتها. وأدرت الكرسي لأجلس ثانيةً قبالته، وإذا بركبتيَّ تصبحان بين ركبتيه. «كلّنا يعلم أن تعليقات القراء غالبًا ما تكون متعاطفة مع الإناث قي القصّة».

«حسنًا، أنا أحبّها. مَن في الكون يكترث إذا كان الآخرون يحبّونها أو لا؛ يكفي أن يرغبوا في قراءة القصّة التي تدور حولها».

قلت: «يتوقّف الناس أيضًا ليتأمّلوا في حطام سيارة. فهل تشبّهني إلى حطام سيارة يا شارلي؟».

فقال: «لست أتكلّم عنك، أتكلّم عن نادين وينترز، الشخصية الخيالية التي وقعتُ في حبّها».

اخترقني شعور حادّ وحارق. «معجبٌ إذًا بمن لديها شعر أسود كالليل، وتمارس الفنون القتالية *كراف ماغا*؟».

---

(1) Patricia Highsmith: كاتبة أميركية عرفت بالقصص القصيرة التي تتحدّث عن شخصيات ذات علل نفسية.

انحنى شارلي نحوي، وبدا جدّيًا، وقال بصوتٍ منخفض: «أكثر ما يجذبني، هو الدماء التي تقطر من أنيابها».

لم أعلم بماذا أجيب. ليس لأن الكلام فظّ، بل لأني تيقّنت من قصده، وهو الإشارة إلى لقب «سمكة القرش». وهذا يقترب إلى حدّ مقلق من حدود المغازلة.

وعليَّ بالتأكيد عدم مغازلته، لأني لا أعلم إذا كانت له حبيبة -أو لديه غرفة ملأى بالدمى- إضافة إلى أن مجتمع الناشرين ضيقٌ، وأدنى حركة خاطئة قد تنتشر.

يا إلهي، حتى الحوار الذي يدور في داخلي يبدو وكأنه خارجٌ من فم نادين. تنحنحت قليلًا، وشربت جرعة من البيرة، وحاولت جاهدة عدم الاكتراث لكوني أجلس وركبتاي بين ركبتيه؛ ولكون عيناي لا تتوقّفان عن التدقيق في التغضّن تحت شفته السفلى. يجب عدم المبالغة في التفكير. لست بحاجة لأكون في موقع السيطرة التامّة.

قلت: «حدّثني إذًا عن هذا المكان، ما هي المعالم الجذابة هنا؟».

«هل تحبين العشب الأخضر؟».

«كثيرًا».

«لدينا الكثير منه».

«وماذا أيضًا؟».

نتميّز بفوزنا بلائحة «المطاعم العشرة التي تحمل أكثر الأسماء المنفّرة في البلاد».

وبإيماءة إلى المكان المحيط بنا، قلت: «هذا واضح».

شدّ ذقنه باتجاهي ليوجّه إليّ السؤال: «قولي يا نورا، هل تجدين هذه البلدة جذّابة؟».

أجبت: «إنها بالتأكيد...». توقفت أبحث عن الكلمة، وعندما وجدتها، تابعت: «هادئة».

أطلق قهقهة عالية بصوتٍ أجشّ، كالتي قد تسمعها في حانة مزدحمة في

بروكلين. كانت الإضاءة المنبعثة من قناديل الشارع تخترق زجاج النوافذ الممشّح بخطوط المطر، وتنعكس على بشرته الذهبية فتلوّنها بالأحمر.

«هل ما قلتِه سؤال؟».

«إنها بلدة هادئة». قلت بنبرة واثقة.

«يبدو أنكِ لا تحبّين هذا النوع من الهدوء. وتفضلين العيش في مكان مزدحم، حيث يتنافس الناس حتى على الاستمرار في الحياة». كانت ابتسامته الساخرة تختبئ وراء عبوسه.

لطالما اعتبرت نفسي انطوائية، ولكني تعوّدت في الواقع أن أكون محاطة بالناس من كل جانب. إنك تتعوّد على العيش دائمًا وسط الجمهور، ويصبح هذا الواقع مطمئنًا.

كانت أمّي تقول إنها أصبحت ´نيويوركيّة´ منذ ذلك اليوم حين أجهشت في البكاء في إحدى عربات قطار الأنفاق. بكت لأنها كانت قد رُفضت في التجربة النهائية للفوز بدور تمثيلي، فقامت امرأة مسنّة من مقعدها وأعطتها فوطة ورقية لكي تمسح بها دموعها، من غير أن ترفع عينيها عن الكتاب الذي كانت تقرأه.

كان فكري لا يتوانى عن القفز عائدًا إلى نيويورك في كل مناسبة، ولذلك وجدت شارلي محقًّا في ما قاله. ولكنّي توتّرت مجدّدًا إزاء الشعور بأن شارلي لاسترا قادر على رؤية ما في داخلي، على الرغم من الغلافات الواقية العديدة التي أحيط نفسي بها.

«إني سعيدة تمامًا في أجواء الهدوء والطمأنينة»، قلت بإصرار.

«ربّما». أجاب شارلي، واستدار ليلتقط زجاجة البيرة، فتحرّكت ركبته وضغطت على ركبتي طيلة اللحظة التي صرفها في الشرب، قبل أن يستعيد وضعه قبالتي. وتابع: «أو ربّما أستطيع أن أقرأك، نورا ستيفنز، كما لو كنت أقرأ في كتاب».

أجبت بسخرية: «لأنك تتمتّع بذكاء اجتماعي حادّ».

قال: «لأنك مثلي».

وإذا بوخز يخترقني كالمسلّة من النقطة حيث تتلامس ركبتانا إلى رأسي. فقلت: «ما من تشابه بيننا قطّ».

أجاب: «هل تقولين لي إنك منذ لحظة نزولك من الطائرة لم يطاردك الشعور بوجوب العودة إلى نيويورك؟ وأنك لم تشعري كما لو كنت رائدة فضاء تسبح خارج الأرض، فيما العالم لم يزل يدور بسرعته المعتادة؛ وأنك عندما تعودين، ستجدين أن سنوات عمرك قد ذهبت هباء؟ وأن نيويورك ليست بحاجة إليك، بقدر ما أنت بحاجة إليها؟».

تمامًا، قلت في نفسي، وبي عجب يصيبني للمرّة الخامسة والأربعين بقدر عدد الدقائق التي مرّت منذ جلوسي معه.

رفعت يدي إلى رأسي ورتّبت شعري، بحركة توحي كأني كنت أحاول إعادة ما تبعثر وانفضح من أسراري إلى مكانه. «في الواقع، كانت الأيام الأخيرة القليلة فسحةً منعشة بعيدة عن الأنماط الأدبية المتشابهة في نيويورك».

مال شارلي برأسه، وأخفض جفنيه، وقال: «هل تعلمين بما يحدث لديك؟».

«أعلم ماذا؟».

مدّ يده ولمس زاوية فمي اليمنى، وقال: «هل تعلمين أن لديك غمّازة تبرز في هذا المكان عندما تكذبين؟».

أزحت يده بعيدًا عن وجهي، ولكن ليس قبل أن تتسارع كل الدماء التي في عروقي إلى ملاقاة رؤوس أصابعه.

«هذه ليست غمّازة الكذب، إنما غمّازة الاغتياظ»، قلت كاذبة.

«إذًا، هل تراهني؟».

وبعد أن ابتلعت جرعة جديدة من البيرة، قلت: «حسنًا، إنها غمازة الكذب، هل تريد مقاضاتي. أشتاق إلى نيويورك، وشدّة الهدوء في هذا المكان تمنعني من النوم. وخاب أملي بشكل كبير عندما اكتشفت أن المخزن الكبير مجرّد مستودع للأغراض المرهونة. هل هذا ما ترغب في سماعه يا شارلي؟ هل تريد سماعي أقول إن بداية إجازتي لا تبدو واعدة؟».

«أؤيّد دائمًا قول الحقيقة»، أجاب.

قلت: «لا يمكن لأحدٍ أن يؤيّد *دائمًا* قول الحقيقة. الحقيقة عقيمة أحيانًا».

«من الأفضل *دائمًا* مواجهة الحقيقة بصراحة عوضًا عن الوقوع ضحيّة الغشّ».

«هناك دائمًا ما يمكن قوله من باب اللياقة الاجتماعية».

هزّ برأسه، ولمعت عيناه لمعة المتيقّظ. وقال: «الانتظار مثلًا إلى ما بعد وجبة الغداء كي تقول لأحد الناس إنك تكره كتاب عميله».

«ما كان الأمر مميتًا، لو فعلت»، أجبت.

قال: «ربّما كان كذلك. قد تسمّم الأسرار صاحبها، بحسب ما أخبرنا به العجوز ويتاكر».

استقمت في جلوسي لألتقط فكرة جديدة خطرت فجأة في بالي، فقلت: «هل لأنكَ من هذه البلدة لم تحب هذا الكتاب؟».

رأيته يتململ على كرسيّه بانزعاج. ها إنّي وجدت نقطة ضعف لديه. اخترقت أولى غلافات شارلي لاسترا الخارجية، ودفّة الميزان باتت تميل قليلًا لصالحي. *يا لك من مؤيد عظيم لقول الحقيقة!* قلت له في نفسي.

و تحرّكت شفتي السفلى إلى الأمام، وكأنها تتلهّف إلى التحدّي، وقلت: «دعني أحزر. ذكريات مؤلمة؟».

ولكنّه انحنى باتجاهي، وتابع بتثاقل: «أو ربّما لأن دَستي فيلدنغ، كما يبدو واضحًا، لم تتعرف إلى حقيقة صنشاين فولز في الأعوام العشرين الماضية حتى عبر غوغل، فما بالك أنها قامت بزيارتها؟».

إنه على حقّ من ناحية معيّنة. ولكني، وفيما كنت أراقب توتّر فكّه وتشنّجه وعدم الرضى البادي على شفتيه المثيرتين في مطلق الأحوال، كانت ابتسامتي تزداد إشراقًا، لأني اكتشفت الحقيقة المجتزأة في أقواله. عرفت للتوّ أن باستطاعتي أن *أقرأه* أيضًا. و لأهمّ هو أني اكتشفت في نفسي قوّة ربّما كانت نائمة حتى تلك اللحظة.

انطلقت قائلة: «هيّا شارلي، ظننت أنك تؤيّد *قول الحقيقة دائمًا*. هيّا، دع الحقيقة تخرج إلى النور».

ولكنّه أجاب بمزيج من عدم الرضى والسخرية: «لست من المعجبين جدًّا بهذا المكان».

«أووووووه»، قلت بنغمة طويلة؛ «وأنا التي لطالما اعتقدت أن الكتاب لم ينل إعجابك. ولكن يبدو أن لديك في الواقع سرًّا عميقًا وغامضًا يجعلك تنغلق على الحبّ والفرح والضحك. إنك... يا إلهي، *إنك* العجوز ويتاكر!».

«حسنًا يا مايسترو». قال، وأخذ من يدي زجاجة البيرة التي كنت أشير بها وأحرّكها (مثل عصا المايسترو) ووضعها بطريقة آمنة فوق البار. «إهدأي، الحقيقة هو أني لم أحبّ في حياتي السرديّات التي تزعم أن كل الأمور أجمل في القرى الصغيرة. لعلّ ´السرّ الأسوأ´ الذي أخفيه، هو أني صدّقت بوجود سانتا كلوز حتى الثانية عشرة».

«تتكلّم وكأن تلك الكذبة *ليست* عمليّة ابتزاز فظيعة»، قلت.

«إننا نتبادل عمليّات التحطيم المؤكّد». قال، وطرقَ بإصبعه على هاتفي في إشارة إلى النصّ من الرواية الجديدة: «كل ما أقصده بعد قراءة تلك الصفحات، هو أن تنطلق المنافسة بيننا على قاعدة متكافئة».

«يا للنبل! أخبرني الآن لماذا كان نهارك سيئًا».

تفحّص وجهي، ثم هزّ برأسه: «كلّا...، لا أظن أني سأفعل، قبل أن تخبريني أنتِ عن السبب الحقيقي لوجودك هنا».

«سبق وأخبرتك، إنها العطلة».

ينحني صوبي من جديد، ويمسك بيده ذقني، ويلمس بباطن إبهامه الغمّازة عند زاوية شفتيّ. حبست أنفاسي، فقال بصوتٍ منخفض وأجشّ: «*كاذبة*».

أزال يده عن وجهي، وطلب من الساقية زجاجتين إضافيّتين من البيرة.

لم أعترض.

لأني لست نادين وينترز.

الفصل السابع

قال شارلي: «ما رأيك بلعبة بلياردو؟ إن ربحتُ، تخبرينني عن السبب الذي حدا بك إلى المجيء، وإن ربحتِ أنتِ، فسأخبرك عن حوادث نهاري».

تنحنحت، والتفتّ جانبًا لكي أخفي عن نظره غمّازتي الفاضحة. أدخلت هاتفي إلى حقيبتي، بعد أن تأكّدت من وصول ليبي بخير إلى الكوخ، وقلت: «لا ألعب بلياردو. أو بالأحرى، لم ألعب منذ أيام الجامعة، منذ كنت وشريكتي في الغرفة نقضي على اللاعبين الشباب أسبوعيًّا».

«إذًا، ما رأيك في رماية السهام؟».

رفعت حاجبي مصطنعة التعجّب، وقلت: «تريد أن تسلّمني سلاحًا، بعد كل ما حدث لي في هذه الليلة؟».

انحنى مقتربًا مني إلى حدّ كبير، وعيناه تلمعان وسط الإضاءة الخافتة، وهمس: «سأرمي بيدي اليسرى».

«ربّما *أنا* لا أريد أن أضع في يدكَ سلاحًا أيضًا».

«إذًا سألعب معك بلياردو بيدي اليسرى».

تفرّست في وجهه، من غير أن يرفّ لي جفن، ولا أن يرفّ جفنه. كنّا نتصرّف وكأننا وسط تحدّ بين تلامذة في الصف السادس. والملفت أن الحماسة تولّدت في الجوّ، وازدادت سخونةً مع تسارع وتيرة النقاش بيننا.

انزلقت عن كرسي البار بخفّة، وسكبت ما تبقّى من زجاجة البيرة الثانية في حلقي، وقلت: «أنا جاهزة».

مشينا إلى عمق المطعم حيث طاولة البلياردو الوحيدة. الإضاءة أكثر خفوتًا في هذا الجزء من المطعم، والأرضية دبقة جرّاء حوادث انسكاب

المشروبات عليها، ورائحة البيرة تنبعث حتى من الجدران. التقط شارلي عصا البلياردو، وجمع الطابات في داخل المثلث. «تعرفين قوانين اللعبة؟»، سألني فيما كان يرمقني وهو منبطح على بطنه فوق الطاولة الخضراء لكي يتمكّن من دفع المثلث إلى وسط الطاولة.

«أحدنا سيأخذ الطابات غير المخطّطة، والآخر سيأخذ الأخرى»، قلت.

أخذ شارلي مكعب الطبشور الأزرق وحفّه على رأس العصا، وسألني: «هل تلعبين أوّلًا؟».

«سوف تعلّمني؟ أليس كذلك؟». وحاولت التظاهر بالبراءة كأني ليبي عندما ترفّ أهدابها.

حدّق بي شارلي، وقال: «أتساءل حقًّا إن كنت تدركين ما الذي يظهر على وجهك الآن، ستيفنز».

زممت عيني، فقابلني بعينين مزمومتين أكثر.

«لماذا تهتمّ بمعرفة سبب وجودي هنا؟» سألته.

«مجرّد فضول سقيم. لماذا تهتمّين بمعرفة أسباب نهاري السيئ؟» سأل.

«من المفيد دائمًا التعرف إلى نقاط الضعف لدى غريمك»، أجبت.

أعطاني العصا، قائلًا: «ابدئي».

أمسكت بالعصا وأدرتها بيدي فوق الطاولة، ونظرت بطرف عيني إلى الوراء: «ألم يحن الآن ذلك الجزء حيث ستلفّ ذراعيك حولي وتعلّمني ماذا أفعل؟».

لوى شفتيه، وقال: «هذا يتوقّف... هل تحملين سلاحًا؟».

«أكثر الأسلحة الجارحة التي أحملها هي أسناني». وانحنيت فوق العصا ممسكةً به كأني لم ألعب البلياردو في حياتي، أو كأني اكتشفت للتوّ يديّ.

فاحت رائحة شارلي -دافئة، ومألوفة لديّ لسبب أجهله- واخترقت

أنفي عندما وقف ورائي من غير أن يلمسني سوى لمسًا خفيفًا. شعرت بنسيج كنزته يلامس بنعومة سلسلة ظهري العاري، وبتنمّل طفيف نتيجة الاحتكاك. لفّ ذراعيه حول ذراعيّ فيما انخفض فمه إلى جانب أذني.

«ارخي قبضتك»، وتردّدت ذبذبات صوته في جسدي، وأنفاسه الدافئة لامست خدّي، فيما كان يحرّك أصابعي حول العصا ويعيد وضعها بطريقة أفضل. «مهمّة اليد الأولى هي التصويب، ويجب عدم تحريكها. أما الزخم...» قال، -وأنزل باطن يده من فوق كوعي، حتى التقط معصمي وجرّه إلى الوراء باتجاه وركي- «أما الزخم فيأتي من هنا. عليك أن تحتفظي بالعصا مستقيمة في البداية، وأن تصوّبي بإبقاء جسمك على خطّ متراصّ واحد مع الطابة التي تريدين إنزالها في الثقب».

«فهمتُ»، قلت له.

انزاحت ذراعاه ببطء عنّي؛ وانتظرت حتى زالت القشعريرة عن جلدي، قبل أن أبدأ بالتصويب. «نسيت أن أذكر لك أمرًا»، قلت، ودفعت بالعصا الطابة التي تدحرجت بقوّة ودفعت برفيقتها الزرقاء إلى الثقب، «وهو أني متمرّسة في اللعب».

مررت من أمامه استعدادًا للضربة التالية.

« تعترفين، بعد أن ظننت للحظة أني مدرّب عبقري»، أجاب.

أنزلت الطابة الخضراء تاليًا، لكنني لم أنجح في إنزال الثالثة النبيذية. وعندما استرقت النظر إلى وجهه، لم أجد أنه لم يفاجأ فحسب، بل بدا فخورًا، كأنه يقول: كنت أعلم ذلك.

سحب العصا من يدي، ودار حول الطاولة يراقب وضع الطابات ليقرّر بشأن ضربته الأولى، قبل أن يختار الطابة الخضراء المخطّطة، ويتّخذ نقطة التصويب المناسبة. «أعتقد أنه كان من واجبي أن ألفت نظرك ــ»، ووكز الطابة الأولى بالعصا، فاندفعت لترسل رفيقتها المخطّطة الخضراء إلى الثقب، وسقطت الطابة المخطّطة البنفسجية وراءها. وتابع كلامه: «ــ أني أعسر».

نظر إليّ عندما مرّ من أمامي، فزممت شفتيّ وتابعت حركته فيما كان يستعدّ للضربة الثانية. نجح هذه المرّة في إنزال الطابة المخطّطة البرتقالية، ثم النبيذية، قبل أن يفشل أخيرًا في الضربة التالية.

شدّ شفته السفلية إلى الأمام نحوي، تمامًا كما فعلت عندما سألته عن ´الذكريات المؤلمة´ لأغيظه. «هل زجاجة بيرة أخرى ستخفّف عنك ألم الخسارة؟».

خطفت العصا من يده، وأجبت: «من الأفضل كأس مارتيني، واطلب لنفسك مثله، لأنك ستحتاجه».

***

ربح شارلي اللعبة الأولى، وقرّرنا الاستمرار. ربحت الثانية، إلّا أنه رفض التوقّف والقبول بالتعادل، وأصرّ على لعبة ثالثة. وعندما ربح، سارع إلى إبعاد العصا عن متناولي، لكي لا أطالب بالرابعة.

« *نورا*، تذكّري الاتّفاق بيننا».

«لم أوافق على الاقتراح».

«ولكنكِ لعبتِ».

أرجعت رأسي إلى الوراء، وخرجَتْ من حلقي أنّة.

قال بنبرته الجافّة المعروفة: «إذا اقتضى الأمر فإني مستعدّ لتوقيع تعهّد بعدم الإفصاح، قبل أن تقولي لي عن السبب الخيالي الغامض والعميق الذي حملكما إلى هنا».

نظرت إليه بعينين ضيّقتين.

أزال الفوطة الورقية المحيطة بكأسي، وراح يفتّش في جيوبه إلى أن وجد قلم حبر ناشف من نوع بيلوت ج2، وهو في الواقع النوع المفضّل لديّ، ولكنّي أفضّل استخدام اللون الأسود، فيما الحبر في قلمه أحمر، أي اللون التقليدي الذي يستخدمه المحرّرون. انحنى فوق حافّة الطاولة وبدأ بالكتابة على الفوطة:

أنا الموقّع أدناه شارلي لاسترا في كامل قواي العقلية، أتعهّد بعدم الإفصاح عن سرّ نورا ستيفنز الغامض والعميق والمريب، تحت طائلة المقاضاة القانونية، أو التعويض لها بمبلغ خمسة ملايين دولار.

قلت: «حسنًا، يبدو أنك لم ترَ اتفاقية في حياتك، أو حتى إنك لم تتواجد مع نصّ اتفاقية في غرفة واحدة».

انتهى من التوقيع ورمى القلم من يده، وقال: «إنها اتفاقية جيّدة إلى أبعد الحدود».

«أنتم جماعة المحرّرين، يا لكم من مساكين؛ لا تفقهون شيئًا في كيفية نصّ الاتفاقيات»، قلت له وربّتّ على رأسه.

دفع ذراعي عنه. «ما هو ذلك السر الخطير الذي تخفينه يا نورا؟ هل أنتِ هاربة من العدالة؟ هل سطوتِ على بنك؟». رأيت اللون الذهبي في عينيه يسطع حول حدقتيه المتّسعتين في العتمة. «هل طردتِ مساعدتك الحامل؟»، قال بصوتٍ منخفض ليغيظني. ولكن مجرّد التلميح كان كافيًا ليولّد صدمةً في كياني، فشعرت وكأن تيارًا كهربائيًا اخترقني من رأسي إلى قدميّ.

كانت صفحات دَستي قد غابت بأعجوبة عن ذهني. ولكن ها إن شبح نادين يعود مجدّدًا ليطاردني.

«على كل حال، أين الخطأ في أن أكون في موقع السيطرة؟»، إني مستعدة لطرح هذا السؤال على الكون بأسره.

«لا أعلم»، أجاب شارلي.

«وماذا أيضًا؟ هل لأنّي لا أرغب بإنجاب الأطفال، قد أذهب إلى معاقبة امرأة حامل لأن قرارها مختلف عن قراري؟ المرأة الأقرب إلى قلبي حامل! وأحبّ بنات أختي إلى حدّ الهوس. عندما تتّخذ إحدى النساء قرارًا، فمن غير الضروري أن يصبح ملزمًا لغيرها».

«نورا، إنها مجرّد قصّة؛ إنها من اختراع الخيال»

«أنت لا تفهم قصدي لأنك... *أنت*». وأومأت بيدي إليه.

«أنا؟».

«يمكنك أن تتّصف بما شئت من حدّة الطبع وحتى من الشراسة، وتحصد إعجاب الناس في المقابل. غير أن الأحكام تختلف بالنسبة إلى النساء. على المرأة أن تبقى متيقظة في المحافظة على التوازن التام بين الليونة والقسوة لكي تؤخذ على محمل الجدّية، ولا تُتّهم بأنها شريرة. إنها عملية اجتهاد مستمرّة. لا يرغب الناس في التعامل مع المرأة القويّة وسرعان ما يشبّهونها بسمكة القرش».

«ولكنّي أرغب في ذلك».

«حتى الرجال الذين يشبهوننا كثيرًا، لا يريدون البقاء *معنا*. أقصد أن بعضهم يعتقدون بالطبع أنهم يريدون ذلك، ولكنك لا تلبث أن تجدهم يتخلّون عنك عبر مكالمة هاتفية لا تتعدّى أربع دقائق. وذلك لأنهم لم يروك أبدًا تبكي، أو لأنك لا تنتقل من شرق البلاد إلى غربها لكي تتزوّج من فتاة سترث بستانًا مزروعًا بأشجار عيد الميلاد».

ضمّ شارلي شفتيه المكتنزتين، وتأمّلني بعينين ضيّقتين وقال: «ماذا؟».

أجبت مدمدمة: «لا شيء».

«قولك ´لا شيء´ يعني الكثير».

«لا تأبه!».

«لا أظنّ أني سأقضي الليل في رسم الخرائط والخطوط البيانية لأفهم ما قلتِه الآن».

«أنا منحوسة! هذا كل شيء».

«أوه...، فهمت بالتأكيد».

«إني كذلك»، قلت بإصرار.

«تذكّري أني محرّر، ستيفنز. أحتاج إلى تفاصيل إضافية لكي أصدّق هذه السردية».

قلت: «يرونني مثالًا عن تلك الشخصية النمطية المعروفة في الكتب. المرأة الجليدية ابنة المدينة التي تسعى إلى تحقيق طموحات ضخمة، أي

الصورة المعاكسة تمامًا لصورة المرأة الصالحة. إنني التي يتخلّى عنها الرجال لصالح فتاة تفوقها جمالًا حتى بلا ماكياجٍ، وتعشق شيَّ اللحم، وأحيانًا ترى أن تخريب إيقاع أغاني *الكارَأوكي* مسلٍّ للغاية».

ولسبب معيّن، قد يكون ضعف قدرتي على تحمّل الكحول، لم أتوقّف عند هذا الحدّ. بل وجدتني أستخرج كل ما في داخلي؛ كأني أتقيّأ تاريخي المحرج على تلك الأرضية القذرة، المغطاة بقشور الفستق، أمام أنظار الناس. مكتبة سُر مَن قرأ

أخبرت شارلي أن آرون تخلّى عنّي من أجل تلك الفتاة في مقاطعة برنس *إدوارد آيلاند* في كندا (تأكّدت عبر تتبّع بسيط على قنوات التواصل الاجتماعي، أنها تدعى آلين وشعرها أحمر)؛ وأن غرانت انفصل عني من أجل الفتاة التي تدعى تشاستيتي ومن أجل الفندق الحقير، أو بستان الكرز الذي يملكه والداها، لوكا وزوجته، في ميتشيغن.

عندما وصلت إلى جايكوب، المريض الأوّل[1]، وهو الكاتب الذي تحوّل إلى مربّي أبقار وخيول، توقّفت عن السّرد. لا ينتمي الذي حدث بيننا إلى أسفل القائمة؛ بل إلى حيث تركته، أيْ عند فوهة البركان الذي لم يزل ينفث دخانه، والذي غيّر حياتي إلى الأبد. «هل وصلتك الفكرة؟»، سألته.

نظر بعينين نصف مغمضتين، ولاح على أطراف شفتيه شبح ابتسامة، وقال: «... لست متأكّدًا».

قلت: «لا بدّ أن تأتي الصور النمطية من مكان معيّن، أليس كذلك؟ هناك دائمًا في الوجود نساء مثلي. فإما نحن نمارس نوعًا محدّدًا من التدمير الذاتي، أو أن لعنة قديمة تلاحقنا. فكّر في الأمر، ربّما بدأت هذه اللعنة مع زوجة آدم الأولى ليليث الشيطانية (التي تحدّثت عنها الأسطورة اليهودية). من الغريب جدًّا أن يحدث كل ذلك بمحض المصادفة».

---

(1) من وحي فيلم ´Patient Zero´ الذي يتحدث عن انتشار فيروس سامّ كان سببًا في تحوّل الطبيعة البشرية إلى الإجرام التامّ.

«انظري يا نورا، أن تكتب دَستي كتابًا تافهًا حول بلدتي الأمّ، وأن أصطدم بوكيلتها الأدبية في البلدة ذاتها، قد يبدو غريبًا جدًّا ليكون مصادفة. ولكن تأكيدك بأنّك لا تلاحقينني عن قصد، يعني أن المصادفات تحدث أحيانًا بالفعل».

«إلى هذا الحدّ وبهذه الطريقة؟ أربع علاقات عاطفية تفشل لأنّ شريكي يقرّر فجأة الهروب إلى الطبيعة وعدم العودة أبدًا؟».

كان شارلي يحارب ظهور ابتسامة خبيثة على وجهه، ولكنّه ما لبث أن خسر المعركة.

«لست غريبة الأطوار!». وضحكت على الرغم منّي. حسنًا، ضحكت على نفسي.

«ما تقولينه يدلّ بالضبط على أنك لست غريبة الأطوار»، قال وهزّ برأسه تأكيدًا. واستطرد «ولكنّي أتساءل حول دور أصدقائك السابقين الأربعة، الطامحين إلى التشبّه بجاك لندن، في مجيئك إلى هنا».

قلت: «أختي...»، ولكني تردّدت وفكّرت قليلًا، ثمّ عدت إلى الكلام: «لم تكن الأمور بيننا على ما يرام في الأشهر الأخيرة؛ فأبدت رغبتها بالابتعاد عن نيويورك لفترة وجيزة. إضافةً إلى أنها تقرأ الكثير من القصص الرومنسية التي تقع حوادثها في البلدات الصغيرة، وتولّدت لديها قناعة أننا سنجد الحلول لمشكلاتنا لو خضنا بدورنا، في مثل هذا المكان، تجارب تحويلية كما فعل أصدقائي السابقون».

قال بنبرة فجّة: «أصدقاؤك السابقون الذين تنازلوا عن طموحهم المهني وانتقلوا إلى وسط الطبيعة المتوحّشة».

«نعم، هؤلاء».

«إذًا ماذا؟ هل تريدين البحث عن السعادة في هذا المكان والتخلّي عن نيويورك، وعن مهنتك في عالم النشر؟»، سألني بأسلوب جافّ.

«كلا، بالطبع؛ كل ما تريده أختي هو تمضية أوقات مرحة قبل قدوم

المولود الجديد. تريد أن نأخذ فرصة من حياتنا العادية، وأن نقوم بنشاطات مختلفة وجديدة. لدينا قائمة بأنواع النشاطات».

«قائمة؟»، سأل بتعجّب.

«بعض الأمور التي استخرجتها ليبي من القصص»، أوضحت. تعوّدت ألّا أشرب أكثر من كأس مارتيني واحدة لأني، على الرغم من طول قامتي التي تتخطّى خمس أقدام وأحد عشر إنشًا (أكثر من متر وثمانين سم)، فإن جسمي لا يحسن التغلّب على تأثير الكحول. والبرهان على ذلك هو أني انطلقت فورًا إلى العدّ على مسامع شارلي: «ارتداء قميص من قماش الفانيلا ذات المربّعات؛ تحضير نوع من الطعام على الطريقة التقليدية؛ تغيير مظهرنا بما يتناسب مع محيط البلدة الصغيرة؛ بناء شيء معيّن؛ مواعدة شبّان من أهل البلدة ــ».

ضحك شارلي بقوّة. «إنها تحاول تزويجك من مربّي خنازير، يا ستيفنز».

«ليس الأمر كذلك».

قال بسخرية: «ذكرتِ أنها تريد أن تكون لديك قصّتك الرومنسية الخاصّة؛ تعلمين بالطبع نهايات تلك القصص، نورا؟ إنها تنتهي عادةً بحفلة زفاف كبيرة داخل مخزن الحبوب، أو بفصل نهائي يتحدّث عن الأطفال».

شخرتُ مدمدمة. أعلم بالتأكيد كيف تنتهي. ليس لأني شاهدت أصدقائي السابقين يعيشونها *فحسب*. بل لأني عندما كنت أسكن مع ليبي في شقّة واحدة، كنت أقرأ بنفور نهايات القصص التي كانت تقرأها؛ حتى إن تلك القصص لم تشدّني يومًا إلى معرفة بداياتها.

قلت: «انظر يا لاسترا، جئنا، أختي وأنا، إلى هنا من أجل الاستمتاع بتمضية بعض الوقت معًا. الأرجح أنك لم تتعلّم ذلك في المختبر الذي أنتجك، ولكنّ العطلة هي الطريقة المعروفة لكي يتمكّن الأحبّة من الاسترخاء وإعادة ربط اللُّحمة بينهم».

أجاب: «نعم، لو كان ثمة أمر يجلب لإنسانة مثلك الاسترخاء، فسيكون تمضية العطلة في بلدة تقع على مسافة قريبة ومتساوية من مركزين كبيرين للموضة مثل مركزين لمؤسّسة DressBarn».

«هل تعلم أني لست تلك الشخصية المتصلّبة التي تعشق السيطرة بقدر ما تخالانني، أنتَ ودَستي. يمكنني مواعدة مربّي خنازير والاستمتاع بالخروج معه. وربّما تكون فكرة ممتازة. لمَ لا، فلم أوفّق البتة في علاقاتي مع النيويوركيّين. ربّما كنت أتصيّد السمك في بركة غير مناسبة. أو ربّما في مجرى النفايات النووية غير الملائم».

«إنكِ أغرب ممّا توقّعت».

أجبت: «حسنًا، قد يجدر بي القول إني قبل هذه الليلة، عندما كنت لا أراك في محيط العمل، كنت أتصوّر أنك تختبئ في خزانة المكانس الضيّقة، وتدخل في نمط الجمود أو لنقل في نمط توفير الطاقة. يبدو أن كلينا أصيب بالمفاجأة».

«ما تقولينه مضحك للغاية، عندما لا أكون في العمل، أكون في ما يشبه التابوت في الطابق السفلي من بيت قديم من الطراز الفيكتوري».

شهقت، فانفرجت أساريره وافترّ فمه عن ابتسامة إنسانية حقيقية. *إنه حيّ*، قلت في نفسي.

قال بنبرة جافّة من جديد: «ستيفنز، إن كنت تمثّلين الشخصية الوغدة في قصص حبّ الآخرين، فإني أمثّل الشيطان».

«أنت من قلتها؛ ليس أنا»، عقّبت.

رفع حاجبه، وقال: «أنتِ متشائمة الليلة».

«إني دائمًا متشائمة؛ أما الفرق فهو أني لا أهتمّ الليلة بإخفاء ذلك».

«لا بأس»، وانحنى نحوي فأحسست بتيار كهربائي يخترقني، وقال بصوت منخفض: «لطالما فضّلت الكلام بصراحة وإخراج الحقائق إلى العلن، مع أن مربّي الخنازير في صنشاين فولز قد لا يميلون إلى ذلك».

طاف بنظره فوق وجهي فالتقت نظراتنا، ولمستني سحابة عابرة من

عطره الحارّ والمألوف. شعرت بثقل غير مرغوب به بين فخذيَّ. وتمنّيت حقًّا أن لا تكشف الغمّازة القريبة من فمي، بأسلوب أو بآخر، أمر الشهوة التي كانت تستيقظ في كياني.

«أخبرتك بصراحة أني هنا من أجل أختي».

مع أن القلق الذي أشعر به بسبب ابتعادي عن مدينتي ليس قليلًا؛ فإني عادة ما أعيش طيلة فترات حمل ليبي في حالة من الرّعب المكبوت؛ أما الآن فإنها على الأقلّ تحت ناظري.

لم أحلم قطّ بإنجاب الأولاد، ولكن ما شعرت به أثناء حمل ليبي بطفلتها الأولى، قطع الشكّ باليقين. أمور عدّة قد تتعسّر خلال الحمل، واحتمال فشل الحمل يبقى حاضرًا.

قفزت لأجلس على كرسي عالٍ عند زاوية البار، وكدتُ أقع.

التقط شارلي ذراعي، وساعدني على التوازن. «ما رأيك بكوب ماء؟»، قال، فيما اعتلى الكرسي الفارغ إلى جانبي. تُرى هل يختبئ السرّ في ابتسامته الماكرة المكتومة، أو في عبوسه؟ أو في ذلك الأمر الذي يشدّ شفتيه المكتنزتين قليلًا إلى جهة واحدة فيما أومأ إلى النادل بطلب الماء؟

قوّمت كتفيّ لكي أستعيد مظهري الواثق، وقلت: «لن تشغلني».

رفع حاجبه، وقال: «عن ماذا؟».

«كنت الرابحة في لعبة واحدة، ولي عليك الحقّ في أن تمدّني على الأقلّ ببعض المعلومات. خصوصًا بعد الكميّة المرعبة التي أفشيت لك بها».

مال برأسه وأخفض نظره ثم رفعه إلى وجهي: «ماذا تريدين أن تعرفي؟».

حضر إلى بالي لقاؤنا الأول منذ عامين، وتذكّرت نظرته الموتورة إلى الساعة. «سبق وقلتَ لي إنك كنت تريد السفر في ذلك اليوم عندما تعارفنا. لماذا؟».

لمس ياقة قميصه وقطّب حاجبيه، وظهر التشنّج في محيط فكّيه، وأجاب: «للسبب عينه الذي دفعني لأكون هنا الآن».

«هل هي أحجية؟».

«صدّقيني إنها ليست كذلك». وضع النادل كوبين من الماء على سطح البار. أمسك شارلي بكوبه وأداره بين أصابعه، وانقبضت عضلات فكّيه، وقال: «أصيب والدي بجلطة دموية في ذلك الوقت؛ وأصيب بأخرى منذ بضعة أشهر... وأنا هنا لأساعد العائلة».

انقشعت الغشاوة عن نظري وحدّقت في وجهه، وقلت: «تبًّا لي - كنتَ في تلك الحالة عندما قابلتك، وأنا... أوه!».

«كنت قد التزمت باللقاء؛ ولم أرَ إذ ذاك كيف يمكن للتطرّق إلى هذا الموضوع أن يكون مفيدًا». قال بنبرة دفاعية خفيفة.

«لم أكن أعني ــ انظر، عندما قابلتني كنت قد تلقّيت، قبل ستّ وعشرين ثانية تقريبًا، قرار صديقي بالانفصال عنّي. وعلى الرغم من ذلك، جلست لأتناول طبقًا من السلطة، وكأس مارتيني بصحبة رجل غريب كلّيًا. لذلك فإني أفهم ما تقوله».

تعلّقت عينا شارلي بعينيّ، فشعرت بثقل نظراته إلى درجة جعلتني أدير وجهي عنه.

«هل... هل والدك بخير الآن؟».

لاعب الكوب بين أصابعه مجدّدًا، وقال: «كان الخطر قد زال عنه، وعرفت ذلك قبل لقائنا. كانت أختي قد أخبرتني للتوّ بشأن إصابته بالجلطة، ولكن ذلك كان قد حدث في الواقع قبل أسابيع عدّة». تصلّب وجهه، وتابع: «كانت العائلة قد اتّخذت القرار بعدم لزوم إطلاعي على ما جرى، وهذا ما حدث». تحرّك على كرسيّه، وبدت عليه أمارات انزعاج من يشعر فجأةً أنه بالغَ في الإفصاح عن أمور خاصّة.

لا شكّ أني كنت في تلك الساعة تحت تأثير تفشّي الكحول في جسمي، ومع ذلك، فوجئت ببوح الكلمات التي خرجت من فمي: «لا أتذكّر والدي. فقد غادر البيت عندما كانت أمي حاملًا بأختي. وبعد ذلك كنت أراقب استعراضًا لأصدقاء أمّي الفاشلين، ولذلك أنا لست خبيرة حقًّا بشؤون الآباء».

عقد شارلي حاجبيه، وتوقّفت حركة أصابعه حول محيط الكوب المتعرّق. وقال: «يبدو الأمر مرعبًا حقًّا».

أجبت: «ليس إلى حدّ كبير، لم تسمح لمعظمهم بالتعرّف إلينا. كانت حكيمة من هذه الناحية». ثمّ التقطت كوبي، وحاولت أن أجعله يدور حول نفسه في مستنقع الرطوبة الذي يلفّه. وتابعت: «كنتَ تجدها يومًا في منتهى السعادة، تردّد أغنياتها المفضّلة من فيلم *Hello Dolly!*، وهي تربّت على المساند المطرَّزة التي اشترتها من معرض البضائع المستعملة، لكي تعيد لها انتفاخها، وكأنها شخصية بياض الثلج في نيويورك، وفي اليوم التالي ـــ».

لم أسترسل طويلًا، بل تنبّهت لأن أضع حدًّا لثرثرتي.

لا أخجل بطفولتي. ولكن كلّما أخبرتَ الآخرين عن نفسك، أعطيتهم مزيدًا من القوّة. وإني بنوعٍ خاص، لا أحبّ أن أشارك الغرباء تفاصيل من حياة أمي؛ فكأن ذكرياتي عنها، قصاصة من جريدة قديمة أحتفظ بها - كلمّا أخرجتها من مخبئها إلى العلن، شحب لونها وتغضّنت.

لامس شارلي بإصبعه معصمي بحركة تلقائية، وقال: «ستيفنز؟».

«لست بحاجة لأن تشعر بالأسف من أجلي».

اتّسعت حدقتا عينيه، وأجاب: «لن أجرؤ على ذلك». ولكن الجرأة كانت تمامًا ما باحت به حنجرته.

كنّا قد اقتربنا أكثر في جلوسنا، وأصبحت ركبتي بين ركبتيه من جديد؛ وعند كل حادثة تلامس، ينطلق تيار نابض من الحرارة بيننا لا ينتهي. انسكبت نظراته بثقل عليّ؛ والبؤبؤ في عينيه بارزٌ وكأنه على وشك الخروج من الحدقة؛ إطار لامع من العسل يحيط بثقب مظلم وعميق.

ازدادت السخونة بين ساقيّ، ورحت أضع إحدى ركبتيّ فوق الأخرى تارةً، وأنزلها تارةً أخرى. وكانت عينا شارلي تنخفضان وتتابعان الحركة. أما كوب الماء فاستقرّ لثوانٍ على شفته السفلى، وكأنه نسي فجأة ما الذي كان يفعله. في تلك اللحظة، أصبح شارلي كتابًا مفتوحًا أمامي.

وكان يكفي أيضًا أن أنظر في المرآة.

كان بإمكاني الاتكاء على صدره. كان بإمكاني أن أدع ركبتيّ تنزلقان أكثر في الفجوة بين ركبتيه؛ أو ملامسة ذراعه، أو دفع ذقني بحركة طفيفة إلى الأعلى. وفي أيّ من تلك السيناريوات الفرضية، قد نصل إلى التقبيل. ربّما لا أحبّه بهذا القدر، ولكن جزءًا كبيرًا منّي يذوب اشتياقًا إلى معرفة ملمس شفته السفلى، وكيف سيكون ملمس يده، التي أمسك بها معصمي، على جسمي.

في تلك اللحظات أيضًا، انهمر المطر فجأةً - وبغزارة، واحتدمت ضجّة طرق المطر على الألواح المعدنية المطعّجة التي تؤلّف سقف المكان. سحبت يدي من تحت يده، وانتصبت واقفة، وقلت: «يجب أن أعود إلى البيت».

«نذهب في سيارة تاكسي واحدة» اقترح باهتمام.

احتمال إيجاد سيارتي تاكسي في هذه البلدة وفي هذه الساعة ليس عاليًا. واحتمال أن نجد واحدة لا يقودها هاردي منخفض جدًا.

«أفضّل العودة سيرًا على الأقدام».

«تحت هذا المطر؟ وبهذا *الحذاء*؟».

التقطتّ حقيبتي، وقلت: «على الأرجح أني لن أذوب».

انحدر شارلي عن كرسيه، ووقف أمامي قائلًا: «يمكننا استخدام مظلّتي معًا».

الفصل الثامن

خرجنا من مطعم بوبا سكوات معًا تحت مظلة شارلي. (كان بإمكاني أن أسمّي وجود المظلّة في تلك الساعة مصادفة سعيدة، لولا أني عرفت أنه يتفقّد أحوال الطقس على هاتفه باستمرار وإلى حدود الهوس. ولذلك، بدا لي أني وجدت للمرّة الأولى شخصًا يهتمّ بدراسة خطواته المقبلة أكثر منّي). كانت رائحة العشب والأزهار البرّية تزداد كثافة وسط الجوّ الرّطب، وانخفضت درجة الحرارة بشكل ملحوظ.

سألني: «أين تمكثين؟».

«يُدعى المكان ´كوخ غودز ليلي´».

فأجاب وكأنه يتكلّم إلى نفسه: «غريب!».

ثمّ أضاف، وقد شعرت بدبيب الحرارة في عنقي حيث لامستني أنفاسه.

قلت: «هل تعني أنه لا يمكنني الشعور بالسعادة إلّا في الطابق الأعلى من بناء عصري مرصوف بالرخام الأسود، ومُضاء بثريّا من الكريستال».

أجاب: «هذا ما عنيته»، ونظر إليّ عندما مررنا تحت مصباح إنارة مستطيل تناثرت حوله قطرات المطر كأنها قصاصات كونفتي[1] فضيّة. «إضافةً إلى أن مالكي المكان هم أهلي».

احتدمت الدماء في وجنتيّ. «إذًا سالي غودز هي أمّك!؟ هل ترعرعتَ بجوار مزرعة للخيول؟».

«ماذا؟ هل من المعقول أن أكون تربّيت في مكانٍ آخر غير الطابق الأعلى في بناء عصري مرصوف بالرخام الأسود ومزيّن بثريا من الكريستال؟».

---

(1) قصاصات ورقية لامعة تنثر في الهواء في الاحتفالات.

«من الصعب عليّ مجرّد التصوّر أنك تنتمي إلى هذه البلدة، فكيف أنك ترعرعت إلى جانب هرم من زبل الخيول؟».

«قد يكون تعبير ´الانتماء´ مبالغًا به في هذا الوضع». قال بشيء من المرارة.

قلت: «أين تمكث إذًا؟».

«حسنًا، أمكث عادةً في الكوخ»، قال ورمقني بنظرة جانبية وسط الظلمة، وأضاف: «ولكن ذلك لم يكن خيارًا متاحًا».

كانت رائحته مألوفة لديّ إلى حدّ الغرابة، ولكني لم أستطع تفسير ذلك بعد. إنها دافئة مع لمسة من حرارة الأفاويه. ولكنها خفيفة إلى درجة أني أحاول دائمًا أن أعبّ منها بقدرٍ أكبر. «أين هي إذًا غرفة نومك في طفولتك؟»، سألته.

توقّفنا لبرهة عند الطريق المسدود المؤدّي إلى الكوخ، وتنهّد شارلي قبل أن يجيب: «أنام في سرير على شكل سيارة سباق. هل فرحتِ الآن يا نورا؟».

لفظة «فرحت» لم تكن كافية البتّة. صورة شارلي بجدّية مظهره، وعقدة حاجبيه، وشخصيته الشامخة المصقولة، في سرير بلاستيكي على شكل سيارة كورفيت، وبيده كتاب من أدب الأطفال، جعلتني أنفجر في نوبة من الضحك، حتى كان من الصعب عليّ البقاء في وضع مستقيم. ربّما يكون شارلي، وأنا، آخر من أستطيع تخيّلهما في سرير أطفال مشابه لسيارة سباق.

لفّ شارلي ذراعه حول خصري بإحكام كي لا أهوي من شدّة الضحك. وقال ونحن نتابع سيرنا على الطريق الترابية: «للتذكير فحسب، هذا أقلّ إحراجًا بكثير من بعض الأمور التي باح بها كلّ منا للآخر الليلة».

استرحت قليلًا من الضحك، وسألته: «هل كنت من هواة سباق السيارات وتتابع أخبار سباقات NASCAR؟».

قال: «كلّا، ولكن والدي لم يتوقّف عن محاولة أن أكون كذلك».

وانزلقت في نوبة ضحك جديدة كادت تفقدني توازني. شدّني شارلي، وقال: «هيّا ستيفنز... انتبهي، لا تتعثري».

«إنها عمليّة التحطيم المتبادلة بالتأكيد»، صرخت.

مشى معي صعودًا فوق الربوة، وما لبث كعب حذائي أن غرق في الوحل، وثبّتني في مكاني. ثمّ حاولت القيام بالخطوة التالية فاستقرّت قدمي الأخرى في مكانها أيضًا. وإذا بصرخة استنكار نصف مكتومة تنطلق من حنجرتي.

توقّف شارلي وتنهّد بقوّة عندما نظر إلى حذائي. «هل سأضطر إلى حملك؟».

«لا لن أدعك تحملني على ظهرك، لاسترا».

«ومن جهتي، لن أسمح لك بتخريب هذا الحذاء المسكين والبريء؛ لست هذا النوع من الرجال».

نظرت إلى حذائي العالي، وخرج مني صوت مشاكس ويائس في آن: «حسنًا».

« لا تأبهي»، وأحنى ظهره، فيما رفعت ذيول ثوبي، ولفظت كلمات الوداع الأخيرة لما تبقّى من كرامتي. ثمّ أمسكت بكتفيه وقفزت إلى ظهره.

«هل كل شيء على ما يرام؟».

«أنا الآن محمولة كطفلة، هل أجبت عن سؤالك؟»، قلت وأنا أحاول الاحتفاظ بوضع جيّد للمظلّة فوقنا.

«مسكينة نورا»، قال ليغيظني، وأحكم وضع يديه فوق ساقيَّ عندما بدأنا صعود الدرج. «يمكنني أن أتخيّل معاناتك الآن».

وإذا باكتشاف يخترق رأسي ويتردّد في بالي، كما يتردّد قرع أجراس الكنائس بفوضى وإصرار: السبب وراء إحساسي بأن عطره مألوف لديّ، هو أنّه يستخدم نوع الكولونيا المناسب للجنسين الذي أستخدمه تمامًا. إنها الكولونيا المصنوعة من مزيج روائح خشب الأرز والعنبر وهي تُدعى 'Book' (كتاب). عندما علمت أن أعمال الشركة المنتجة كانت إلى تراجع، أسرعت إلى طلب كمية كبيرة من القوارير لكي تبقى في متناولي لوقتٍ أطول.

كان من الممكن أن أتعرّف إليها سابقًا، ولكن العطر يبدو مختلفًا على شارلي. كما يبدو عطر والدتي بمزيج الخزامى والليمون مختلفًا على ليبي، وأجدني الآن ألتقط منه لمسة من الفانيلا لم تكن ظاهرة لأنفي سابقًا. ولعلّ انبعاث عطر Book من على جلد شارلي يحمل مزيدًا من الدفء، ومن لذعة الأفاويه.

«المكان شديد الهدوء هنا يا ستيفنز، هل هناك ما يمكن أن أفعله لأجعل رحلتك أكثر استرخاء؟ وسادة للرقبة مثلًا؟ علبة من البسكويت اللذيذ من نوع دلتا؟».

«سيكون مفيدًا لو أعطيتني مهمازًا وسوطًا صغيرًا».

«كان يجب أن أتوقّع ذلك منكِ»، قال مدمدمًا.

«كما يفيدني أن نتعهّد تحت القسَم بأن لا نأتي لاحقًا على ذكر ما يحدث الآن قطعًا»، قلت.

«بعد سخريتكِ من الاتفاقية التي كتبت نصّها، لن يحدث ذلك».

عندما وصلنا إلى الباب، انزلقت عن ظهر شارلي وحاولت شدّ ذيول ثوبي نزولًا، وإعادة ترتيب مظهري، ولكن لم يكن الأمر سهلًا البتّة لأني على ما يبدو لم أحكم وضع المظلة جيّدًا، وكانت النتيجة أنّ البلل أصابنا نحن الاثنين بشكل كبير، وبقي الثوب ملتصقًا بأعلى ساقيّ، والغرّة ملتصقة بجبيني.

مدّ شارلي يده إلى غرّتي ليعيدها إلى وضعها الطبيعي، وقال: «قصّة شعر مناسبة!».

«عادة ما يحب الرجل ´المستقيم´ وجود الغرّة على جبين المرأة. ربما توحي بسهولة التقرب منها».

«ما من شيء أكثر إثارة للرهبة من الجبين؛ مع أني أفتقد إلى لون شعرك الأشقر».

ها إن سحابة الشوق الدافئة في أسفل بطني تتحرّك، وأشعر بقرصةٍ ناعمة في حوضي. «لم يكن ذلك اللون طبيعيًّا»، قلت بصراحة.

«كنت أتوقّع ذلك؛ ولكنه كان مناسبًا لكِ».

«هل لأنه يبدو شيطانيًّا نوعًا ما؟»، سألته بريبة.

انشقّت شفتاه عن ابتسامة عريضة ونادرة لم تدم أكثر من ثانية، ولكنها كانت كافية لأن تجعل معدتي تنقلب على ذاتها. ثم قال: «كنت أفكّر في الأمر...».

قاطعته ممازحةً: «سوف أدعو فريقًا من الصحافيّين فورًا ليسجّلوا ــ».

«كنت أفكّر أن عليكِ إلغاء الرقم خمسة».

«الرقم خمسة؟».

«نعم، حذفه من القائمة»، أجاب.

وضعت كفّيَّ حول وجهي، وقلت: «أتساءل لماذا أخبرتك بذلك؟».

«لأنك بحاجة إلى من يوقفك عن المتابعة. أكثر ما عليك تفادي حدوثه، هو الاختلاط بشخص يعيش هنا».

تركت يديّ تهبطان عن وجهي، ورمقته بعينين ضيّقتين. «هل يفترسون الأغراب؟»، سألته.

«بل أسوأ من ذلك. إنهم يقنعونهم بالبقاء هنا إلى الأبد».

«التزام طويل الأمد. أمرٌ مرعب»، قلت ساخرةً.

قال بنبرة خافتة فيها شيء من التأنيب: «نورا، أنت وأنا، نعلم أنك ترفضين تلك النهايات. فتاة مثلك -بحذاءٍ *كهذا*- لن تجد السعادة في العيش هنا. لا تعلّقي آمالًا كبيرة على مزارعي الخنازير».

«حسنًا، أيها الفظّ».

«فظّ؟»، قال، واقترب منّي أكثر، فأظهر ضوء مصباح النيون الساطع المثبت فوق الباب بروز عظام خدّيه وضمور البشرة تحتهما، وانعكس بريقه على العينين فتألّقتا. «الفظاظة هي في إعلان أنّ كل من في نيويورك من الشبّان غير ملائم، ليس لسبب سوى لأنك أسأت الاختيار أربع مرّات متتالية».

ازدادت الحرارة في حنجرتي، فكأن كتلة بركانية كانت تنزلق منها إلى أحشائي. «هل خدشتُ مشاعرك؟»، تمتمت.

أجاب وعيناه تنصبّان على فمي: «أنت، دون جميع الناس، يجب أن تعلمي أنّ ´الشخصيات القصصية الفظّة والأحادية الطباع´ غير موجودة على أرض الواقع».

كانت نادين وينترز تصرخ في رأسي، *لا تصغي إليه، لا تصغي...، إنه لا يتلاءم مع خطّتك*. ولكن اندفاع الدماء في عروقي، والارتعاش الذي كان يجتاح جلدي كانا أقوى من أن أستمع إليها.

لا أتذكر أني فعلت ذلك، لكن أصابعي كانت تضغط على معدته، وعضلاته تنقبض تحتها.

يجب *ألّا أفعل ذلك*، قلت في نفسي، وفي أقلّ من ثانية، كان شارلي يشدّ حوضي إلى حوضه. تبعثرت الكلمات في ذهني كما تتبعثر أحرف الأبجدية المصنوعة من العجين في الحساء، وفقدت الجملة معناها. وانبرت شفتاه تفتّشان عن شفتيّ فيما سار بي عبر الباب إلى الداخل، وجسمه يحيط بجسمي من كل جانب.

صدرت منّي أنّة خفيفة تحت ضغط الأحاسيس. يداه تشدّان خصري. وشفتاي اختلطتا بلسانه، وآثارٌ من طعم البيرة ومن كوكتيل *الجين* داعبت لساني.

شعرت وكأنّ محيط جسمي يذوب، فكأني كنت أتحوّل إلى حالةٍ من السيولة. زحف فمه على خدّي وانخفض إلى عنقي. وانزلقت أصابعي في لجّة شعره الخشن والمبلّل بالمطر، فصدرت عنه أنّة خفيفة، فيما انحدرت كفّ يده إلى صدري ولامست أصابعه الحلمة.

وفي لحظة معيّنة سقطت المظلّة إلى الأرض وأصدر سقوطها قرقعة عالية. كان قميصه ملتصقًا بجسمه؛ ويداه تتحسّساني من فوق ثوبي الرطّب، حتى تقوّست قامتي؛ ولم تغادر شفتاه فمي.

كلّ ما حدث بيننا كان جليًّا بالنسبة لي خصوصًا وأن تأثير الكحول كان قد زال كلّيًا من جسمي. رفعت بيدي القميص عن ظهره، وأغرقت أظافري في جلده الناعم والدافئ، وحفّزته على الاقتراب أكثر، فيما انزلقت يده

إلى طرف ثوبي لترفعه إلى أعلى فخذي. ثمّ سبحت أصابعه إلى الأعلى لترسل قشعريرة لذيذة على مساحة جلدي. وإذا بلفظة متردّدة تقول *انتظر* تخرج ببطءٍ منّي.

لا أعلم حتى كيف استطاع شارلي سماعها، ولكنه انتفض إلى الوراء، وبدا كأنه خرج للتوّ من حالة انجذاب أو غيبوبة؛ شعره منفوش، وشفتاه منتفختان، وعيناه الداكنتان في ومض متسارع. «تبًّا لي»، قال بصوتٍ أجشّ، وتراجع إلى الوراء، «لم أكن أقصد أن...».

وإذا بالرؤية تتّضح فجأة في ذهني، كما لو لفّتني موجة من المياه الباردة فجأةً.

خطأ ذريع بالطبع! ردّدت.

كما أني لا أتغوّط في مكان طعامي؛ ولا أقبّل في مكان عملي؛ وكفاني شرًّا أن في غضون عام ونصف، كل من أعمل معه سوف يرى بي نادين وينترز- لا أريد أن أضيف زيتًا على النار التي ستلتهم سمعتي، أو وقودًا إلى محرقتها.

قال: «لا يمكنني حقًّا الدخول في علاقة ــ».

«لا أنتظر أيّ تفسير!»، قلت مقاطعة، وشددت أطراف ثوبي نزولًا، «كانت غلطة!».

«أعلم»، قال شارلي، وتبيّنت في نبرته شعورًا غامضًا بالمهانة.

«أعلم أيضًا!»، قلت.

«حسنًا، اتفقنا إذًا».

«حسنًا!»، صرخت، بما قد يكون أكثر الاتفاقات غرابة وعبثية في التاريخ.

لم يتحرّك شارلي من مكانه ولم أفعل أيضًا، وما برحت عيناه داكنتين وجائعتين؛ وبفضل الضوء الساطع فوق الباب، ظهر انتصاب عضوه مثل تحفة صالحة للعرض في أكثر المتاحف المتخصّصة بالإثارة.

تنشّقت نفسًا طويلًا وقلت: «هيّا نتصرّف وكأن ــ»، وفي اللحظة عينها قال: «هيّا نتصرّف وكأن شيئًا لم يحدث بيننا».

أومأت برأسي.

أومأ برأسه.

انتهى الأمر.

التقط مظِلّته عن الأرض، ولم يكترث أحدنا بقول شيءٍ مثل «ليلة سعيدة». اكتفى بأن أومأ برأسه مجدّدًا بتعبير مكبوح، واستدار ومشى إلى الخارج.

لم يحدث ذلك قطّ، ردّدت في رأسي بقوّة.

حسنًا فعلنا، لأن القرارات الاعتباطية تجرّني *دائمًا* إلى نتائج وخيمة.

الفصل التاسع

عندما كنت في الثانية عشرة، اختيرت أمي للتمثيل في مسلسل بوليسي. ثمّ نمَت علاقة جيّدة بينها وبين مدير الفيلم؛ وما لبثت العلاقة أن تطوّرت بينهما، وراحت أمّي تخرج إلى ملاقاته في كلّ ليلة.

بعد الانتهاء من تصوير أربع حلقات، أصلح المدير علاقته بزوجته التي كان منفصلًا عنها. وإذا بالشخصية التي تمثّلها أمي، وهي المرأة الشابّة الشجاعة في مباحث الشرطة، تُقتل فجأةً وتُكتشف جثتها في برّاد لحوم.

لم أكن قد رأيت أمي من قبل في مثل حالة اليأس والذهول التي اكتنفتها في تلك الفترة. كنّا نتفادى المرور في جهات عدّة من المدينة بعد ذلك من أجل تحاشي اللقاء به، أو تذكّره، أو تذكّر الدور التمثيلي المهمّ الذي خسرته.

بعد ذلك، كان اتّخاذ القرار بعدم الوقوع في الحبّ سهلًا بالنسبة لي.

تمسّكت بقراري طيلة سنوات؛ إلى أن تعرّفت إلى جايكوب.

شعرت مع جايكوب وكأن العالم اتّسع من حولي، واكتشفت فيه ألوانًا لم أرَها من قبل، وعشت معه أشكالًا من السعادة لم أحلم بمثلها من قبل.

كادت أمي تطير فرحًا عندما أخبرتها بنيّتي في الانتقال إلى العيش مع جايكوب. على الرغم من كل ما عانته، لم تجافي أمّي رومنسيتها.

سوف يهتم بك كثيرًا يا ابنتي الحلوة، قالت. كان يكبرني بعامين، ويكسب مرتّبًا جيّدًا من عمله كساقٍ في إحدى الحانات، ويمتلك شقة صغيرة في إحدى ضواحي المدينة.

بعد ذلك بأسبوع، ودّعت أمي وليبي وانتقلت مع أغراضي إلى بيته. وبعد انتقالي بأسبوعين، أسلمت أمي الروح.

استحقّت الفواتير كلّها معًا. الإيجار، الماء والكهرباء، حساب الائتمان الذي كنّا قد فتحناه باسمي عندما وصلت أمورنا الماليّة إلى درجة كبيرة من الصعوبة. كانت تسهيلات الاستدانة قد مُنعت عن أمّي، وأردت المشاركة بما يترتّب عليّ من مساعدة.

بدأت العمل في مكتبة فريمان في السادسة عشرة. ولكنني كنت أتقاضى مرتّبًا لا يزيد عن الحدّ الأدنى المتاح؛ ولم أتمكّن من العمل سوى بدوام جزئي بعد انتسابي إلى الجامعة، وكان بانتظاري أن أعيد لاحقًا القروض التي استعنت بها لدفع الأقساط.

قامت مجموعة من رفيقات أمي من الممثلات بجمع مبلغ خمسة عشر ألف دولارٍ لمساعدتنا، وقمن بالإعلان عنه بعد انتهاء شعائر الدفن. بكت ليبي من الفرح حينها لأنها لم تعلم كم كان ضئيلًا ما يمكن لذلك المبلغ تغطيته من حجم الديون والمصاريف.

كانت تراودها رغبة بدراسة تصميم الأزياء وتريد الالتحاق بمدرسة بارسونز Parsons المتخصّصة في هذا المجال. فكّرت في التخلّي عن دراستي في آداب اللغة الإنكليزية لكي أموّل دراستها، ولكنّي كنت قد صرفت آلاف الدولارات على دراستي، ولم يكن من الحكمة أن أهدرها.

غادرت بيت جايكوب وعدت للسكن مع ليبي.

اقتصدت في المصروف.

كنت أبحث على شبكة الإنترنت لأكتشف وجبات الطعام الأقل كلفةً والأكثر إشباعًا.

ومارست أعمالًا عدّة مثل التدريس الخصوصي، والخدمة في المطاعم، وحتى كتابة فروض رفاقي في الجامعة.

تلقّى جايكوب خبر قبوله في مركز وايومينغ للتدريب على الكتابة Wyoming writing residency، وغادر نيويورك. وبعد ذلك حدث الانفصال بيننا، وعشت الحزن واليأس، وتذكّرت أهميّة الوعد الذي كنت قد قطعته على نفسي سابقًا.

توقّفت عن المواعدة إلى حدّ كبير. كنت أسمح لنفسي بالخروج مرّة واحدة (لتناول العشاء حصرًا). والسبب الذي لم أفصح عنه لأحد، كان أني كنت أطمع بوجبة مجانية، أو وجبتين، في حال طلبت ما يكفي لأحمل معي إلى ليبي ما يتبقى.

لم أواعد قطّ الشخص ذاته مرّة ثانية لسبب من اثنين. إما لتفادي الشعور بالذنب؛ أو خوفًا من تحرّك مشاعري.

كانت ليبي تضايقني بمزاحها حول السبب الذي يجعل كل من أواعده غير ملائم لمواعدة ثانية.

كنت أدعها تفعل. لأني لم أكن لأتحمّل الألم الذي قد ينتابها لو عرفت الحقيقة.

كانت ليبي تعمل أيضًا لأننا بعد وفاة أمي وتوقّف دخلها، ترتّب علينا أن نشدّ الحزام، مع أنّ ليبي لم تكن تسرف في الإنفاق على نفسها.

كنت أحيانًا أشكو إلى ليبي خيبتي إثر مواعدة سيئة بنوع خاص، وإذا بي بعد عودتي من الجامعة، أو من إعطاء الدروس الخصوصية، أجدها وقد خلدت إلى النوم في غرفتها (بعد أن انتقلت أنا للنوم في غرفة الجلوس حيث كانت أمي تنام، لكي تصبح الغرفة الأخرى خاصّة بليبي وحدها)، وأجد باقةً من أزهار دوّار الشمس التي وضعتها في المزهرية إلى جانب المقعد الذي يتحوّل إلى سرير.

لو كنت في حالة طبيعية لبكيت تأثّرًا. ولكني، عوضًا عن ذلك، كنت أمسك بالمزهرية وأرتجف. كأن العواطف التي في أعماقي كانت قد دُفنت تحت طبقات وطبقات من الرّماد الذي أطفأها، وحوّلها إلى مصدر ارتجاج أشبه بارتجاج صفائح الأرض التكتونية العميقة.

مشيت مرّة على كسرة من الزجاج وجُرحت قدمي وتقطّعت الأعصاب، وفقدتُ الإحساس في تلك النقطة منها. على الرغم من قول الطبيب إن الأعصاب ستنمو مجدّدًا، مرّت سنوات وما زلت أشعر بالخدر في ذلك المكان.

هكذا أصبح قلبي مخدّرًا طيلة أعوام؛ كأن قشرة قاسية استقرت حوله وطمست جراحه.

أتاح لي هذا الأمر التركيز على الأمور المهمّة. بنيت لنفسي ولأختي حياةً، لا يمكن لبنك، أو لأي صديق سابق، حرماننا منها.

كنت أراقب صديقاتي في علاقاتهنّ العاطفية، يقمن بتنازل تلوَ تنازل، حتى ينكمشن على أنفسهن، ويصبحن مجرّد جزءٍ من كلّ، وتصبح حكاياتهن قديمة، وفي مكان تطلعاتهنّ المهنية، وأصدقائهن وبيوتهنّ، تبرز *تطلّعاتنا*، و*أصدقاؤنا* و*بيتنا*. تؤخذ منهنّ نصف حياتهنّ من غير إنذار.

آنذاك، كان قد أصبح لديّ خبرة عالية في المواعدات لمرّة واحدة. أصبحت على معرفة تامّة بالأمارات التي تنذر بالخطر والتي يجب ملاحظاتها، وبالأسئلة التي يجب أن تُطرح. كنت أرى صديقاتي وزميلاتي في العمل يقعن في فخّ اختفاء الصديق فجأةً، أو الخيانة، أو العلاقة المضجرة، أو يستيقظن ليجدن أنه متزوج، أو مدمن على ألعاب الميسر، أو عاطل عن العمل منذ زمن بعيد. شاهدت تعارفًا سطحيًّا يتحوّل بطريقة غير سليمة إلى علاقة معقّدة وغير مكتملة.

كانت لديّ المعايير التي أتمسّك بها، وحياتي الخاصّة، ولم أكن لأسمح لرجل بتحطيمها كأنها مجرّد شريط ورقي يقتحمه ويمزّقه عند دخول الملعب.

ولذلك، لم أبدأ في المواعدة من جديد سوى بعد أن وضعت حياتي المهنية على السكّة الصحيحة. فعلت ذلك بتأنٍ هذه المرّة، وباعتماد لوائح الشروط، وبالتروّي الشديد في اتخاذ القرارات.

وضعت لنفسي خطوطًا حمراء واضحة: لا أقبّل الزملاء؛ ولا أقبّل شخصًا لا أعرف عنه سوى اليسير؛ لا أقبّل رجالًا لا أرغب بمواعدتهم؛ ولا رجالًا غير مناسبين لتفكيري وميولي. كنت لا أسمح أن تلعب المصادفات العشوائية المغرية دورًا في وجهة سير حياتي.

لم يحدث شيءٌ من هذا القبيل.

إلى أن جاء شارلي لاسترا.

***

توقّعت أن تطير ليبي فرحًا بزلّتي في الليلة الماضية. عوضًا عن ذلك، كان موقفها متعارضًا مع ما حدث مثل موقفي.

«لا يمكن لهذا الرجل القادم من نيويورك والذي يثنيك عن مهنيّتك أن يُحسب على البند الخامس من القائمة. أما كان بإمكانك أن تعيشي مثل هذه المغامرة مع مهرّج كاوبوي في روديو الثيران، مثلًا، والذي عادةً ما يكون له قلب من ذهب؟».

«لم يكن حذائي ملائمًا لمثل ذلك أبدًا»، قلت.

«بإمكانك أن تقبّلي مليون شابّ مثل شارلي في المدينة. المطلوب أن تعيشي تجارب جديدة هنا. وهذا مطلوب من كلينا»، قالت وهي تحضر وجبة البيض وتحرّك الملعقة الخشبية باتجاهي. كان طعام الفطور أثناء نشأتنا يقتصر على قرص مصنّع باللبن الرائب، أو قرص *غرانولا* بالحبوب، أما الآن فإن ليبي تهوى تحضير وجبة فطور متكاملة على الطريقة الإنكليزية، وكانت هناك إلى جانب مقلاة البيض باكيت من النقانق النباتية في الانتظار.

كنت قد غادرت السرير عند التاسعة بعد ليلة غير مريحة؛ وخرجت لرياضتي الصباحية (الركض) ثمّ اغتسلت سريعًا، وحضرت لتناول الفطور. وجدت ليبي قد استيقظت منذ ساعات. إنها تحبّ النهوض مبكرًا الآن أكثر حتى ممّا كانت تحبّ النوم إلى ساعة متأخرة في سنّ المراهقة. من النادر الآن أن تنام إلى ما بعد السابعة صباحًا حتى في عطلة نهاية الأسبوع، وذلك يعود بجزء كبير منه، بالتأكيد، إلى أنها تسمع صراخ بيا، أو وقع قدميّ تالا الصغيرتين على بعد ثلاثة أميال، أو حتى لو كانت (من باب الافتراض فحسب) قد حقنت نفسها بجرعة من المورفين.

تُردّد ليبي دائمًا أن ابنتيها تشكّلان نسخة عنّا نحن الاثنتين، لو تبادلتا الأجسام.

طفلتها الأولى بيا، دمثة الطباع مثل ليبي، ولكنها مثلي من حيث طول قامتها ونحولها وشعرها البنّي المائل إلى الرمادي. أما تالا، فشعرها بلون شعر ليبي الذهبي المائل إلى حمرة الفراولة؛ وقد لا يصل طولها عند سنّ

البلوغ إلى أكثر من خمسة أقدام وأربع بوصات؛ ولكنها مثل خالتها نورا: حادّة الطباع، عنيدة، وترفض الموافقة على أيّ موضوع إن لم تتلقَّ الشرح الوافي والمقنع بشأنه.

«أنتِ التي تصرّفت فجأةً كأنك أمي عندما قرّرتِ مغادرة المطعم لكي أبقى معه بمفردي». أوضحت لها، وأخذتُ الملعقة من يدها وأشرت إليها بالجلوس؛ «ما كان ذلك ليحدث لو لم تتخلّي عني».

«انظري يا نورا، حتى الأمهات يحتجن أحيانًا إلى البقاء بمفردهن»، أجابت ببطء. «على كل حال، اعتقدت أنك تكرهين هذا الشابّ».

«لا أكرهه. ولكنّنا مثل قطعتين من المغناطيس بشحن متعاكس، أو...».

«ولكن قطع المغناطيس المتعاكسة تنجذب إلى بعضها».

«حسنًا نحن مثل قطعتين بشحن مغناطيسي متطابق».

«قطعتان من المغناطيس المتطابق لا تتبادلان القبل الحارة عند الباب».

«على خلاف ذلك، ثمة نوع منها قد يفعل ذلك بالتأكيد»، قلت. ثمّ حملت صحنينا المعرّمين، وجلست مقابل ليبي. كانت النوافذ كلّها مفتوحة والمراوح في حالة التشغيل؛ غير أن الطقس كان شديد الحرارة حتى في تلك الساعة الصباحية، والهواء مشبع بالرطوبة كما لو كنا في حمام بخاري رخيص.

«كانت لحظة ضعف»، قلت. لكن ما لبث أن عاد إليّ الإحساس بيديّ شارلي حول خصري، وبصدره الملتصق بصدري على الباب، فاخترقتني شهب من حرارة حارقة.

نظرت إليّ ليبي، ورفعت واحدًا من حاجبيها، فبدت بشعرها المصبوغ باللون الوردي كأنها أقرب إلى إتقان تلك النظرة الخبيثة التي أُتْقنها أنا. ولكن وجنتيها البضّتين الطريّتين لا تساعدانها البتّة في رسم هذا المظهر. ثمّ قالت: «أخشى أن تنسي يا أختي أن *هذا النوع* من الرجال لم يكن مناسبًا لك في الماضي».

من جهتي، لا أحشر شارلي مع كومة أصدقائي السابقين. وذلك لسبب

واحد، هو أن أيًا من هؤلاء لم يلتهب شوقًا إلى مضاجعتي خارج البيت. كما لم ينتفض شوقًا بعد تقبيلي وكأن قبلتي أشعلت النار في ثيابه الداخلية.

«أنا فخورة بكِ لكونك خرجت عن القواعد التي وضعتها لنفسك - ولكني ما كنت لأختار لك مثل تلك المداعبة الإباحية على طريقة الكونت لاسترا، كخطوة أولى».

خبّأت وجهي وراء ساعدي، وقلت: «إنه ذنب نادين وينترز تحديدًا».

عقدت ليبي حاجبيها، وسألت: «من؟».

«نعم، هذا صحيح»، قلت. ثم رفعت رأسي، وتابعت: «لشدّة رغبتك في أن تريني حاملًا، وحافية القدمين، أسرعتِ بالخروج من المطعم قبل أن أخبرك». ثم فتحت رسالة دَستي الأخيرة ووضعت شاشة الهاتف في متناول عينيّ ليبي التي انحنت فوق الهاتف فيما استرسلت في القراءة. ورحت أسرع في التهام فطوري لكي أبدأ في العمل.

ليست ليبي قارئة سريعة بنوع خاص. إنها تستمتع بالكتب كأنها تستمتع بحمام دافئ في مغطس من فقاعات الصابون المعطّرة؛ بينما علّمتني مهنتي أن أتعاطى مع الكتب كأنها بالأحرى حمّامات ساخنة سريعة تحت المرشّة.

رأيت فمها يضيق، وشفتيها تنقبضان أثناء القراءة، حتى انطلقت أخيرًا بقهقهة مدوّية، وقالت: «يا إلهي! إنها الشخصية الخيالية التي تمخّضت عن الإعجاب بشخصية نورا ستيفنز على أرض الواقع! (fan fiction)».

«ولكن الكاتبة لا تبدو معجبة بهذه الشخصية»، قلت.

«هل أرسلت إليكِ المزيد؟ هل يتحوّل النصّ إلى التهتّك الجنسي؟ قد يلامس هذا النوع من الكتابة حدود البذاءة أحيانًا».

«أقول لك مجدّدًا إن النصّ لا يوحي بإعجاب الكاتبة بهذه الشخصية».

قهقهت ليبي من جديد وهي تقول: «ربّما دَستي غارقة في حبّك».

«أو ربّما تسعى لإرسال قاتل مأجور في هذه اللحظة».

«أرجو أن يتحوّل الكتاب إلى قصة ولع جنسي»، قالت.

«ليبي، لو سارت الأمور بحسب ذوقك، لانتهت كل قصّة برعشة تهتزّ لها الأرض قاطبةً»، قلت بسخرية.

«لمَ الانتظار حتى نهاية الكتاب؟»، سألت وأجابت نفسها مباشرة: «آه، ربّما لأنه المكان حيث تبدأين *أنتِ* القراءة كما هو معروف عنك». وترسم ليبي بوجهها مشهد التقيؤ من الفكرة.

نهضت لأغسل صحني، وقلت: «حسنًا، ها قد ضحكنا ولهَونا، وحان الوقت لكي أجد مكانًا حيث أستطيع استخدام الإنترنت من غير أن أشعر باليأس إلى حدّ يدفعني إلى أن ´أرطم رأسي بالحائط´».

قالت: «سأتبعكِ لاحقًا. لكني أولًا سوف أمضي بضع ساعات في الكوخ عارية أدور وأطلق الشتائم بملء صوتي. وبعد ذلك قد أتّصل بالبيت - هل أقول لبراندن إنك تسلّمين عليه؟».

«من؟»، قلت.

فإذا بها تجيبني برفع إصبعها الوسطى في وجهي. ولكنّي طبعت قبلة مدوية على رأسها فيما سرت إلى الباب والحاسوب بيدي. «لا تذهبي إلى أي مكان مذكور في قصة مرّةً في العمر من دوني!». صرخَت.

تنبّهت لكي لا يزلّ لساني بعبارة مثل: *لست على يقين إذا كانت تلك الأماكن موجودة حقًا*. لأوّل مرّة منذ أشهر عدّة، شعرنا بأننا عدنا لنكون نحن كما في السابق -في تواصل تامّ، وحضور تامّ- وآخر ما كنت أريده أن يدخل أمر طارئ، وخارج عن سيطرتنا، ويغيّر حسن سير الأمور.

«أعدك!»، أجبت.

الفصل العاشر

بعد أن دفعت ثمن قهوتي الأمريكانو المثلجة في مقهى كوب + كأس، سألت النادلة المرحة التي تضع قرطًا في ثقب في أنفها عن كلمة السر من أجل استخدام الإنترنت في المقهى.

«أوه!»، تأوّهت، وأشارت إلى اللوحة وراءها، والتي تعلن عدم توفّر الشبكة في المكان. «لا يوجد واي فاي هنا، أعتذر».

«تمهّلي، هل هذا صحيح حقّا؟»، قلت.

«بالتأكيد»، أجابت.

جلت بنظري على المكان، ولم أرَ أي حاسوب. كل من كان هناك يبدو وكأنه عاد للتوّ من تسلّق جبل إفرست؛ أو كأنه عائد من حلقة لتعاطي المخدرات تحت خيمة في منطقة كواشيلا Coachella yurt.

سألتها: «هل توجد مكتبة عامّة في البلدة أو في مكان آخر...؟».

هزّت رأسها إيجابًا، وقالت: «توجد مكتبة عامّة على بعد كيلومترات قليلة من هنا؛ ولكن هناك أيضًا لا توجد خدمة واي فاي. وليس قبل الخريف بحسب قولهم. لديهم الآن حواسيب يمكن استخدامها».

سألتها: «هل توجد خدمة واي فاي في أي مكان في المدينة؟».

«أصبح لدى مكتبة غوديبوكس من فترة غير بعيدة خدمة واي فاي»، قالت بصوتٍ منخفض، وكأنها تخاف من أن يزحف زبائن المقهى إلى تلك المكتبة لو عرفوا الخبر.

شكرتها وخرجت للتوّ وسط الجوّ الحار والرّطب، وما لبث العرق أن تجمّع تحت إبطيّ وعلى صدري، فيما كنت أحثّ الخطى باتجاه المكتبة المذكورة. وما إن وضعت قدمي داخل المكان حتى شعرت وكأني دخلت

إلى متاهة حقيقية. غابت نسائم الهواء، وأصوات الطيور، وكذلك أنغام ´أجراس الرياح´ التي اهتزّت لحظة مروري فوق عتبة الباب، ولفّتني سحابة دافئة من مزيج رائحة الورق وخشب الأرز في يوم مشمس.

ابتلعت رشفةً من قهوتي المثلجة، وملأني هرمون ´السيروتونين´ بنشوة مزدوجة. هل في الدنيا أفضل من المكتبة ومن القهوة المثلجة في يوم مشمس؟ طبعًا كلّا، ما عدا المكتبة والقهوة الحارّة في يوم ممطر.

رفوف الكتب كانت مبنية وفق زوايا منفرجة جعلتني أشعر وكأني أنزلق عن أطراف الكوكب الأرضي. لو أني ما زلت طفلة لأحببت طابعها اللعوب - كأنّك في بيت ألعاب جدرانه من كتب. أما الآن فاهتمامي الأكبر ينحصر في قدرتي على الثبات في وقوفي.

إلى اليسار ووسط جدار الرفوف، ينفتح مدخل مستدير منخفض الارتفاع على غرفة أخرى، وعلى حاجبه الخشبي حفرت كلمات تقول: *كتب الأطفال*.

انحنيت لأسترق النظر عبره فرأيت في المقابل جدارًا لطيفًا ملوّنًا بالأخضر المائل إلى الزرقة، وكأنه يخرج من قصص *مادلين Madeline* الكرتونية للأطفال، وتتأرجح عبره كلمات كتبت بخطّ مائل جميل: *اكتشف عالمًا جديدًا!* ومن الجانب الآخر من المكتبة الرئيسية ينفتح أيضًا باب بحجم عادي على غرفة تحتوي بحسب ما تقول اللوحة المثبتة إلى جانب الباب: *الكتب المستعملة، والكتب النادرة*.

لم تكن الغرفة الرئيسية مخصّصة للكتب الجديدة اللامعة حصرًا. تبعًا لما لاحظته، لا توحي هذه المكتبة باعتماد طريقة دقيقة في العرض والتبويب. لمحت على الرفوف كتبًا جديدة إلى جانب أخرى قديمة؛ وكتب مجلّدة إلى جانب أخرى ذات غلاف ورقي؛ وكتب الأدب الخيالي إلى جانب كتب الأدب الواقعي؛ وطبقة غير لائقة من الغبار تغطّي معظم الموجودات.

تخيّلت أن هذه المكتبة كانت في أحد الأيام جوهرة البلدة، حيث يأتي

الناس لاختيار الهدايا في الأعياد، وحيث يجتمع الأولاد المقبلين على سنّ المراهقة للثرثرة وشرب *الفرابوشينو* Frappuccino. ولكنها تبدو الآن مقبرة أخرى للمشاريع الصغيرة.

توغّلت إلى عمق المكتبة بين رفوف الكتب المتعرّجة، فمررت بباب ينفتح على قاعة لتناول القهوة لعلّه أكثر أماكن شرب القهوة كآبة في العالم (طاولتان معدّتان للعب ورق الشدّة، وعدد من الكراسي القابلة للطي). وعندما نظرت في الاتجاه المقابل، تجمدتُ في مكاني قبل أن أكمل خطوتي، وبقيت إحدى قدميّ لحظةً كأنها معلّقة في الهواء.

هكذا كان ردّ فعلي عندما وقع نظري على الرجل المنحني فوق حاسوبه المحمول وراء صندوق المحاسبة. رأيت عبوسًا على حاجبيه الكثيفين ينمّ عن عدم الرضا؛ وشعرت مثل الذي أفاق من كابوس حيث رأى نفسه متدحرجًا إلى الهاوية، ليجد أن زوبعة اقتلعت بالفعل منزله في أثناء نومه.

هنا تكمن مشكلة العيش في بلدة صغيرة: يكفي أن تقع في هفوة صغيرة حتى تطالعك ذيولها كيفما اتجهت.

كل ما أردته في تلك اللحظة هو أن أقفل عائدة من حيث أتيت، ولكني لم أسمح لنفسي بذلك. أرفض أن أعطي زلّةً في السلوك، أو رجلًا معيّنًا، فرصة التحكّم في قراري. كلّ المقصود من تفادي العلاقات المعقّدة في مكان العمل هو الحماية من موقف مثل هذا. ولكننا نجحنا على الأرجح في تفادي مثل هذا التعقيد.

شددتُ كتفيَّ ورفعت ذقني. ولأول مرّة في حياتي، تساءلت في تلك اللحظة إذا كان بجانبي ملاك حارس بالفعل. لأني لاحظت على الفور وجود نسخات عدّة من كتاب *مرّةً في العمر* على الرفّ المقابل المخصّص لأكثر الكتب المحلّية مبيعًا.

التقطتّ نسخةً وسرت نحو صندوق المحاسبة.

لم يرفع شارلي عينيه عن الحاسوب حتى ألقيت الكتاب بجلبة على المنضدة المحفّرة المصنوعة من خشب الماهوغوني.

ارتفعت عيناه بلونهما البنيّ الذهبي ببطء. وقال: «حسنًا، من هي هذه المرأة إن لم تكن تلك التي ′لا تطاردني′؟».

أجبت بتكلّف: «من هو هذا الرجل، إن لم يكن ذلك الذي حاول ممارسة الحبّ معي وسط الإعصار؟».

ارتدّت رشفة القهوة من بين شفتيه إلى داخل الكوب، وألقى نظرة باتجاه قاعة القهوة البائسة، وقال: «أرجو أن مديرة مدرستي الثانوية لم تكن جاهزة لسماع ما قلتِ».

حاولت أن أنظر إلى داخل تلك الغرفة أيضًا. عند إحدى الطاولات، كانت تجلس امرأة محدودبة الظهر وشعرها أبيض أمام شاشة حاسوب صغير. لاحظت أنها كانت تشاهد المسلسل التلفزيوني المعروف *The Sopranos* وسمّاعة صغيرة في إحدى أذنيها من دون الأخرى. «هل هي واحدة من حبيباتك السابقات؟»سألته.

تدلّت زاوية فمه بتلك الحركة التلقائية، وقال: «أجدك تستمتعين عندما ترمين نظراتك المفترسة».

أجبت: «وأجد أنك تستمتع عندما تلوي شفتيك بهذه الطريقة».

«هذه تسمّى ابتسامة يا ستيفنز، وهي كثيرة الانتشار هنا».

«لا بدّ أنك تشير بكلمة ′هنا′ إلى صنشاين فولز، وليس بالطبع إلى المساحة التي نصف قطرها خمس أقدام، داخل السور الكهربائي المحيط بها؟».

قال: «كان علينا منع التعدّيات بطريقة أو بأخرى»، ثم انحدرت عيناه إلى الكتاب وأضاف بنبرة جافّة: «ها إنكِ أخيرًا، تعضّين على الجرح، وتقرأين الكتاب من بدايته إلى النهاية».

أجبت وقد حملت الكتاب قريبًا إلى صدري: «تعلم بالطبع أني وجدت هذا الكتاب على رفّ الكتب الأكثر مبيعًا».

«أعلم أنه وُضع إلى جانب *دليل دروب الدراجات الهوائية في كارولينا الشمالية*، الذي ألّفه طبيب أسناني السابق، ونشره بنفسه في العام الماضي. هل ترغبين بنسخةٍ أيضًا؟».

«تذكّر أنه بيع من هذا الكتاب أكثر من مليون نسخة»، قلت.

التقط الكتاب بيده، وأجاب للتوّ: «أعلم ذلك؛ ولكني أتساءل كم عدد النسخات التي اشتريتها أنتِ؟».

عبَستُ، فقابلني بما يشبه الابتسام (الجارح). عرفت إذ ذاك تمامًا ماذا تعني مديرتي عندما تقول إن ابتسامتي تلمع بومض السكاكين.

أزحت نظري عن وجهه، وهذا لا يعني سوى أن عينيّ انزلقتا إلى عنقه الذهبي، وإلى قميصه القطني الأبيض الناصع، وإلى ذراعيه. عضلاته ليست مفتولة إنما معتدلة الحجم وجذابة.

تمهّلي يا نورا، إنها مجرّد ذراعين، قلت في نفسي. كل رجل مستقيم من حيث ميله الجنسي يمتلك مثلها بسهولة. والمرأة التي تنجذب إلى الرجال، ترى في البيولوجيا، وفي المواصفات الطبيعية المتميّزة، حتى غير الجنسية، ما قد يقول لها: *بعد أربعة آلاف سنة من التطوّر؛ حان الوقت كي تلعبي دورك في استمرار الجنس البشري*.

أغلق حاسوبه ووضعه جانبًا، وراح يرتّب كل ما كان على المنضدة من أقلام، وأوراق، وغير ذلك من القرطاسية. ربّما لست مثيرة بالنسبة إليه بقدر ما هي ثيابه ومهاراته التنظيميّة. «كنت في الواقع في صدد مراسلتكِ»، قال.

أجفلني صوته وعدت إلى متابعة الحديث موتورة، كأني خيط من المطاط جرى شدّه، ثم تُرك فجأة ليعود إلى حاله الأولى. «أوه؟».

هزّ رأسه، واسترخت عضلات وجهه ونظر إليّ بعينيه الداكنتين قائلًا: «هل وصلتك أخبار شارون؟».

«المسؤولة عن تحرير أعمال دَستي؟».

هزّ رأسه مجدّدًا وقال: «إنها في إجازة الأمومة... وُلد طفلها».

وفجأة أمسى كل ما هو حولي، من ذراعيه الجذابتين، إلى أنامله الجميلة، وإلى كل ما في العالم من قرطاسية وأقلام مرتّبة، غير قادر على الفوز بانتباهي.

اجتاحتني موجة من الخوف، فقلت: «ولكن كن من المتوقّع ألّا يحين

موعد ولادتها سوى بعد شهر من الآن؟ من المفترض أن يكون أمامنا شهر إضافي كافٍ لتحرير كتاب دَستي الجديدة».

سأل: «هل تريدين منّي الاتصال بها؟ ربّما هناك حلّ معيّن... هل من شخص تعرفينه في مستشفى ماونت ساناي Mount Sinai؟».

ولاحظت ظلّ تلك الابتسامة المريبة على زاوية فمه.

«هل هذا كل شيء أم هناك ملحق لهذه النكتة الرائعة؟».

أمسك شارلي بأطراف المنضدة ومال بقامته قليلًا إلى الأمام، وقال بصوت أجشّ، وعينين تلمعان بذلك البريق الداخلي الغريب: «أريد ذلك».

شعرت وكأني أفقت من غفلة: «ماذا؟».

«أريد العمل على فريجيد، كتاب دَستي الجديد».

الحمدلله. كنت لا أعلم ماذا سيكون مصير تحرير هذا الكتاب. ولكني أقول كلّا، وقطعًا كلا.

وتابع شارلي: «إن كنا سنحافظ على موعد إطلاق الكتاب. لن يكون لدى شارون بعد عودتها الوقت الكافي لإتمام التحرير. دار لوجيا تحتاج إلى محرّر من أجل القيام بالمهمّة، وتقدّمت بطلب ذلك».

شعرت برأسي يدور ولكن ليس بطريقة عادية، إنما كأنه يدير خمسة عشر طبقًا وضعت على نار حامية. فقلت: «تلك التي نتحدّث عنها هي دَستي. إنها دَستي الخجولة والمرهَفة، والتي تعوّدت على أسلوب شارون المطَمْئن والمتفائل. وأنت -المعذرة منك- قد تقاس درجات رقّتك برقّة معولٍ قديم».

شدّ فكّيه واثقًا، وقال: «أعلم أني لست أفضل من يهدئ روع الخائف. ولكنني جيّد في عملي. يمكنني إتمام هذا العمل، ويمكنك إقناع دَستي بالتعاون. لا يريد الناشر تأخير موعد صدور هذا الكتاب. علينا العمل على دفع الأمور إلى الأمام ومن دون تأخير».

«القرار ليس بيدي».

فأكد: «ستقتنع دَستي برأيك، يمكنك بيع زيت الثعابين إلى بائعها نفسه».

«هل هذا هو المقصود بالقول الشائع؟ أشكّ في ذلك».

«كان عليّ تعديله، لكي أتمكّن من دقّة وصف المهارة التي تتمتّعين بها في عملك».

سخنت وجنتاي، ليس بسبب المديح، بل لأن طعم شفتي شارلي عاد ليستيقظ في ذاكرتي، تلك اللحظة بالذات التي سبقت ابتعاده عني فجأةً وكأني أصبته بطلق ناري.

بلعت ريقي، وقلت: «سوف أتكلّم إليها. هذا كل ما أستطيعه». ومن باب العادة، قلّبت صفحات كتاب مرّة في *العمر* من غير تفكير وفتحت الصفحة الأخيرة. ثمّ وضعت إصبعي على السطور التي تحمل عبارات الامتنان من المؤلفة إلى من ساهموا في نجاح العمل، واسترخيت عندما قرأت اسمي. هنا يبرز الدليل على *أني* جيّدة حقًّا في ما أقوم به، حتى لو أني لا أستطيع السيطرة على كل الأمور، هناك الكثير ممّا يمكنني تقويمه.

تنحنحت، وقلت: «على كلّ حال، ماذا تفعل هنا، وكم من الوقت ستحتاج لكي تحرقك أشعة الشمس وتحوّلك إلى شظايا؟».

عقد شارلي ساعديه فوق المنضدة، وقال: «ستيفنز، هل يمكنك حفظ السرّ؟».

«اسألني من قتل جون كنيدي؟» قلت معتمدة أسلوبه الجدّي والبارد في الكلام.

أجاب بعينين ضيّقتين قائلًا: «يهمّني أكثر معرفة كيف وصلتك تلك المعلومة».

أجبت: «تلك المعلومة تحديدًا، هي من كتاب ستيفن كينغ Stephen King. ولكن عمّن تريد أن نحجب السرّ؟».

فكّر قليلًا، وأسنانه تداعب شفته السفلى المكتنزة. كان سلوكه يلامس حدود الإثارة، ولكنّه لا يقاس بما كان يحدث في جسمي في تلك اللحظة.

«عن دار النشر لوجيا».

«حسنًا، يمكنني حجب السرّ عن لوجيا، بشرط أن يكون دسمًا».

انحنى نحوي أكثر، وفعلت مثله. كان همسه خفيضًا حتى كادت أذني تلامس فمه حين تمتم: «*إني أعمل هنا*».

«إنك... تعمل... هنا؟». استقمت من انحنائي، وخرجت من سحابة عطره الدافئة.

«إني أعمل هنا» قال ثانيةً، وأدار شاشة الحاسوب نحوي، لأشاهد مسوّدة مرسلة إليه في ملفّ PDF، وتابع: «وفي الواقع، أعمل *هناك* أيضًا».

«هل هذا الوضع قانوني؟»، سألته. وظيفتان بدوام كامل في وقتٍ واحد، قد تعادلان في النهاية وظيفتين بدوام جزئي.

جرّ شارلي يده على طول خدّه، وقال بتنهيدة متعبة: «كلا، ليس تصرّفًا مثاليًا. لكن والديّ يملكان هذه المكتبة، ويحتاجان إلى المساعدة. لذلك تسلّمت الإدارة هنا منذ بضعة أشهر، فيما أتابع عملي في التحرير من بعيد».

سحب الكتاب عن المنضدة، وقال: «هل تريدين حقًّا شراء هذا الكتاب؟».

«أرغب في دعم المشاريع المحليّة»، قلت.

«غودي بوكس Goode Books، ليس مشروعًا محلّيًا بقدر ما هو بالوعة مالية، ولكني متيقّن أن المجرى الذي في باطن الأرض سيقدّر قيمة أموالك».

«عذرًا، هل قلت الآن إن هذه المكتبة تُدعى غودي بوكس؟ أي كما هو اسم عائلة أمّك، أو غود بوك (الكتاب الجيّد)؟»، سألته.

«أهل المدينة، لا يتوقّفون لكي يتنشّقوا رائحة الأزهار، *أو* لا يتكبّدون عناء النظر إلى أعلى لكي يقرأوا أسماء المشاريع المحلّية الصغيرة، مع أنها تُكتب بأحرف كبيرة».

أومأت بيدي مقاطعة. «أوه، أملك الوقت الكافي، ولكن حقنة البوتوكس في عنقي تصعّب عليَّ رفع ذقني كثيرًا إلى الأعلى».

«لم ألتقِ في حياتي بشخص عملي إلى هذا الحدّ، ويهتمّ بالمظاهر أيضًا، مثلكِ». قال من غير أن تظهر عليه أدنى أمارأت الإعجاب.

«هذا في الواقع ما سوف يُكتب على قبري».

«يا لها من خسارة! أن يُهدر كل *هذا* على مزارع يعمل في تربية الخنازير».

«إنك لا تتراجع عن التعليق على مربّي الخنازير، بينما ليبي لن ترضى أن أواعد غير رجل فقد زوجته وبات يربّي أولاده وحيدًا، بعد أن تخلّى عن مهنته الموسيقية، ليدير نزلًا في الريف».

«يبدو أنك تعرّفت على راندي».

عندئذٍ، انفجرتُ ضاحكة، واهتزّت زاوية فمه بالطريقة المعهودة.

تبًّا لي! إنها ابتسامته. فرح لأنه استطاع إضحاكي. أحسست وكأن الدماء تباطأت في عروقي، أو كأنها أصبحت بكثافة شراب القيقب. وإني أكره شراب القيقب.

تراجعت خطوةً إلى الوراء، لكي أحتفظ بحدود ماديّة بيننا تواكب الحدود الذهنية التي أحاول استعادتها. «على كل حال، وصلتني الأخبار بأنك تحتكر خدمة الإنترنت في هذا المكان من دون سائر البلدة».

فقال منبّهًا: «يجب ألّا تصدّقي الشائعات التي تدور في البلدات الصغيرة يا نورا».

«وبالتالي... ».

فأضاف: «كلمة السرّ هي غوديبوكس، كلمة متّصلة واحدة بخطّ منحنٍ».

رفع حاجبه وأشار بذقنه إلى قاعة القهوة، وقال: «بلّغي مديرتي السابقة، السيدة شرويدر سلامي».

بدا الامتعاض على وجهي، وسرعان ما نظرت ورائي فلاحظت وجود كرسيّ في نهاية الرّواق وسط رفوف الكتب. فقلت: «بل قد أفضّل الجلوس هناك».

انحنى صوبي من جديد، ولفظ بصوت هامس: «*جبانة*».

صوته والتحدّي الذي يثيره، أيقظا في جسمي قشعريرة سرَت إلى عمودي الفقري.

استنفرت للتوّ أمام التحدّي، فاستدرت مجدّدًا واتّجهت بخطى ثابتة نحو غرفة القهوة، ثمّ توقّفت أمام الطاولة التي كانت مشغولة.

قلت: «إنك لا شكّ المديرة شرودر». وأضفت بنغمة توحي بالاهتمام والتقدير: «أخبرني شارلي الكثير عنك».

ظهر عليها الارتباك الفوري، وكادت ترتطم يدها بكوب القهوة في تأهبها لمصافحتي. وقالت: «يبدو أنك حبيبته؟».

لا بدّ أنها سمعت كلماتي حول 'ممارسة الحبّ وسط الإعصار'.

«كلّا، أبدًا. تعارفنا البارحة. ولكنّه *غالبًا* ما يذكرك في أحاديثه».

رميت نظرةً إلى الخلف لكي ألتقط التعبير البادي على وجه شارلي، وعرفت أني ربحت التحدّي.

***

«لا يمكنني اعتبار وجودك أمام الحاسوب طيلة النهار، وعلى بعد أمتار قليلة من الزميل الذي يخرجك عن قواعدك المهنيّة، من ضمن ´التجارب الجديدة´»، قالت ليبي وبدت فِرحة باكتشاف هذه المكتبة القديمة المكسوّة بالغبار، مع أنها لم تكن كذلك بالنسبة إلى الشخص الجالس وراء الصندوق. ثم أضافت: «آخر ما تريدينه لنفسك هو تمضية العطلة غارقة في أجواء العمل».

ألقيت نظرة خاطفة باتجاه الباب إلى خارج غرفة القهوة (التي تقدّم نوعين من القهوة فحسب، النوع الخالي من الكافيين، والقهوة العادية)، لكي أتأكّد من عدم وجود شارلي على مرمى السمع. وقلت لها: «لا يمكنني الابتعاد عن العمل طيلة شهر كامل. أعدك بأن أكون معك يوميًّا بعد الخامسة».

«من الأفضل لكِ أن تفعلي، لدينا قائمة تنتظر التنفيذ». ثم مالت برأسها باتجاه مكان شارلي، وتابعت: «أما الذي هناك، فهو عنصر لهو».

همستُ: «منذ متى أسمح للرجال بإلهائي؟ كأنك لا تعرفينني. إني هنا من أجل استخدام الإنترنت وليس من أجل الرقص في أحضان الرجال».

«سنرى»، قالت بنبرة مشكّكة، بما قد يعني (أني في غضون أقل من عشرين دقيقة، سوف أرقص في أحضان الرجال في هذه المكتبة المحلية المستقلّة).

دارت بناظريها حول المكان وتنهدت بحزن: «أكره أن أرى مكتبة خالية من الناس». مرّ في بالي أن تأثرها ربما يعود إلى هرمونات الحمل. لكن الدموع كانت تترقرق في عينيها بالفعل.

قلت لها: «كلفة تشغيل مثل هذه المكتبة عالية، خصوصًا مع سهولة التسوّق عبر آمازون وغيرها من المكتبات الافتراضية التي يمكنها بيع الكتب بأسعار تنافسية. هذا النوع من المشاريع، يتوّلد عادة من حلم أحد الأشخاص. ولكنّه، مثل معظم الأحلام، غالبًا ما ينتهي إلى موت مؤلم وبطيء».

«هيّا تذكّري الرقم 12 على القائمة»، قالت ليبي بحماسة والتمعت عيناها. لكنها ما لبثت، إزاء نظرتي التائهة، أن أوضحت: «'نجدة مشروع محلّي من خطر الإغلاق'، يجب أن نساعد هذا المكان!».

«ونترك الأضاحي (من الماعز) تدافع عن نفسها وحيدة؟».

ضربتني على يدي، وقالت: «كفّي عن المزاح. إني جدّية في كلامي».

غامرت بنظرة ثانية باتجاه شارلي، وقلت: «قد لا يكونون بحاجة إلى مساعدتنا، أو ربما لا يريدونها».

زفرت قائلة: «رأيت نسخة من كتاب *Everyone Poops* (*كل الناس تتغوّط*) معروضًا في محاذاة كتاب الطبخ *1001 Chocolate Desserts Cookbook* (*1001 وصفة لإعداد الحلوى بالشوكولاتة*)».

«هذا مرعب بلا شكّ»، قلت واعترتني ارتجافة اشمئزاز.

«سيكون الأمر مسلّيًا، لديّ أفكار حاضرة الآن»، وأخرجت ليبي من حقيبتها دفترًا وأخذت تخربش عليه خطوطًا وكلمات، وأسنانها تعضّ على شفتها السفلى.

لم أكن متشوّقة إلى تمضية المزيد من الوقت في حيّز ضيّق مشترك مع شارلي، بعد الزلّة المخجلة التي حدثت الليلة الماضية. ولكن إذا كانت

هذه رغبة ليبي بالفعل، فإني لن أدع قبلة واحدة -وقد اعتبرنا على كل حال أنها لم تحدث- تخيفني وتبعدني. مثلما أنها لن تمنعني من إنجاز عملي اليوم. فكثيرًا ما نسمع الناس يتحدّثون عن فصل الأمورعن بعضها كأنه أمر سيىء، ولكني أعشق هذه الطريقة. ففي أثناء العمل، أشعر وكأن كل انشغالاتي الأخرى قد توضّبت بترتيب داخل أدراجها الخاصّة؛ لكي ينشغل اهتمامي كلّيًا بالكتب التي أعمل عليها في اللحظة الحاضرة؛ فأنغمس في داخلها كما كنت أفعل أثناء قراءة القصص المدرسية أيّام كنت صغيرة. كأنما لا شيء في الكون يقلقني أو يستدعي التخطيط، أو يستدعي حزني، أو تفكيري.

وجدتني مستغرقة في العمل كالعادة إلى درجة أني لم ألحظ أن ليبي توقّفت عن عمليّة استحضار الأفكار ووضعها على الدفتر وأنها خرجت، إلّا عندما عادت وبيدها كوب من القهوة المثلجة جاءت به من محل القهوة المقابل للمكتبة، إضافةً إلى كدسة من القصص الرومنسية التي تدور حوادثها في البلدات الصغيرة جمعتها بعناية عن رفوف مكتبة غودي بوكس.

قالت بخفّة: «منذ أشهر لم أقرأ أكثر من خمس صفحات في جلسة واحدة». على خلافي، لا تقرأ ليبي الصفحة الأخيرة من الكتاب أولًا. حتى أنها لا تقرأ ما يُكتب على الغلاف، بل تفضّل الغوص في القصة مباشرةً وبلا توقّعات مسبقة. ولعلّه السبب في ما عُرف عنها بأنها ترمي بالكتب من يدها لتطير في أجواء الغرفة أحيانًا.

أخبرتني: «حاولت ذات مرّة أن أقفل على نفسي في الحمام لكي أقرأ قصة من تأليف ربيكا ويثرسبون Rebekah Weatherspoon، لكن لم تمضِ دقائق، حتى تبوّلت بيا في ثيابها».

«تحتاجين إلى حمام ثانٍ»، قلت.

«أحتاج إلى ليبي ثانية»، قالت.

فتحت كتابها، وفتحت بدوري صفحة بحث جديدة على الإنترنت

علّني أقع على شقة جديدة مناسبه لها. ما من شقة معروضة ضمن حدود ميزانية ليبي وبراندن، من غير أن تكون أشبه بالأمكنة المظلمة التي تحدث فيها الجرائم التسلسلية. وإذا برسالة تصل إلى بَريدي من شارون في تلك اللحظة، فأسرعت إلى فتحها.

إنها بصحة جيدة مع طفلها، ولكنها ستبقى في المستشفى لوقت أطول لأن الطفل ولد قبل موعده. أرسلت لي بضع صور له بوجهه الصغير المتورّد وقبعته اللطيفة. أقول الحقّ إن كل الأطفال حديثي الولادة يتشابهون في نظري؛ ولكن قلبي امتلأ بالحب لهذا الطفل بالذات لكونه ابن امرأة أحبّها.

غير أن قلبي عاد إلى الانقباض، عندما وصلت إلى الجزء من الرسالة الذي خصّصته شارون لإبداء إعجابها بقصّة دَستي الجديدة فريدجد. أوشَكَ أن يغيب عن بالي للحظات أن كل من عرفتهم في نطاق العمل سوف يقرأون بعد عام وبضعة أشهر أو أسابيع عن نادين وينترز. إنه كابوس أسوأ بمئات الأضعاف من ذلك الذي ترى فيه نفسك تتمشّى عاريًا سوى من لباسك الداخلي في أروقة المدرسة.

ومع ذلك أحسست بالافتخار عندما قرأت تأكيد شارون على الأمر الذي عرفته من قبل: إنه الكتاب الذي يصيب *الهدف*. هناك شرارة لا يمكن وصفها أو تحديدها في هذا الكتاب، إضافة إلى وضوح الرؤية والهدف.

تتميّز بعض الكتب منذ صفحاتها الأولى بالحتمية في تسلسل الحوادث، حتى إنّه ينتابك الوهم المسمّى *ديجا فو* (déjà vu) أي الإحساس بأنك راقبتها شخصيّا أو عشتها من قبل. قد لا تعلم ما سيحدث لاحقًا، ولكنك متأكد من استحالة تفادي حدوثه.

وهذا يشبه كثيرًا بقيّة ما جاء في رسالة شارون:

إننا نرغب في دعوة زميلنا الجديد، المحرّر العام الموهوب جدّا شارلي لاسترا إلى القيام بالجولة الأولى الرئيسية في تحرير عمل دَستي الأخير. وسوف أبعث برسالة أخرى لكي أسهّل التعارف بينهما. ولكني وددتُ إطلاعك على الأمر أوّلًا لكي تعدّي الجوّ الملائم لذلك.

شارلي متفوّق في أسلوب عمله؛ وستكون دَستي في أيدٍ أمينة وبارعة.

تسارعت صور *أيدي شارلي البارعة* إلى مخيّلتي. أغلقت بريد شارون بعصبية أين منها عصبية المراهق الذي يضرب الباب وراءه صارخًا: *أنتَ لست أبي الحقيقي!*

إن كان هناك ما هو أكثر إحراجًا من أن تُنشر قصة عنكِ لا تستتر سوى وراء حجاب رقيق، فهو أن يراجعها ويحرّرها رجل تحسّس خبايا جسدكِ المبلّل وسط الإعصار.

وهنا تمامًا يكمن السبب في وجود القوانين؛ من أجل تفادي حدوث (ولو أنه لم يحدث كلّيًا) مثل هذا السيناريو.

ما من طريقة متاحة للتعامل مع هذا المأزق سوى... *أن تتحوّلي إلى سمكة القرش يا نورا!*

نهضت، وشددت كتفيّ إلى الوراء، وسرت نحو الصندوق.

«هل ستشتري أختك أيًّا من هذه الكتب»، تمتم شارلي مشيرًا بذقنه إلى الطاولة في الغرفة المقابلة حيث كدسة الكتب العالية التي جمعتها ليبي، «أم ستكتفي بتلويثها بالقهوة؟».

«هل أخبرك أحدهم أن وظيفة خدمة الزبائن تلائمك؟»، سألته.

«كلا»، أجاب.

«جيّد؛ لأني أعلم كم تكره الكذب».

انشقت شفتاه ليتكلّم، ولكن قبل أن يردّ بكلمة، قلت: «سوف أقنع دَستي بالاقتراح الجديد - ولكن قبل ذلك، لديّ شرط».

أطبق فمه على الفور، ورمقني بنظرة مشتعلة. وقال: «لنسمعه!».

«يجب أن تصل ملاحظاتك إلى دَستي عبري أنا. الناشر الأول الذي تعامل مع دَستي تسبّب بأذيتها نفسيًّا، وما زلت في طور استعادة ثقتها بنفسها. ولعلّ آخر ما تحتاج إليه الآن هو أن يتعامل معها أحد الناس بفظاظة، ويزعزع هذه الثقة».

فتح شفتيه ليعترض، ولكني أضفت: «صدّقني، إنها الطريقة الوحيدة لتسيير الأمور. هذا إذا افترضنا أنها ستوافق على هذا الاقتراح».

بقي صامتًا لعدة دقائق يفكّر بما قلته، ثم مدّ يده ليصافحني، وقال: «حسنًا ستيفنز، موافق».

اكتفيت بهزة رأس. لن أقع في خطأ ملامسة شارلي لاسترا من جديد. وأردفت بتشدّد: «القرار ليس نهائيًا قبل أن أتكلّم إليها».

هزّ رأسه، وأجاب: «ستكون فوَط الكوكتيل الورقية جاهزة مع القلم بانتظار توقيعك».

«كم من المسلّي أن تظنّ أنّي قد أوقّع اتفاقيّة بقلم غير قلمي».

ارتعشت زاوية فمه، وقال: «أنتِ على حقّ؛ كان يجب أن أعرف ذلك مسبقًا».

الفصل الحادي عشر

«لكن ولادتها لم تكن متوقّعة قبل الشهر القادم»، قالت دَستي.

«صدّقيني، حاولت أن أذكّرها بذلك». كنت أتكلّم إلى دَستي عبر الهاتف، وأتسلّى بنزع قشرة الدهان المتهالكة عن العمود في *الغاسيبو*[1] بإصبعي، وأراقب نحلةً تطير كالسكرانة بين أحواض الزهور. كان صرير زيزان الحصاد يتصاعد كثيفًا من الغابة، وسط الجو الصيفي الحار جدًا، وتحت السماء التي احتشدت باللونين البنفسجي والأحمر. «ولكن شارلي شديد الحماسة بشأن هذا الكتاب، ويقولون إنه بارع في عمله»، تابعت.

«ألم نعرض عليه تحرير مرّةً في *العمر*، ولم يوافق؟»، قالت دَستي.

وضعت الهاتف بين أذني وكتفي، فيما انشغلت أصابعي بترتيب خصلات غرّتي التي تبعثرت بفعل الجوّ الرطب. «هذا صحيح. ولكنّه أكّد بقوّة على رغبته في الاطّلاع على نتاجك المقبل».

سكتت دَستي برهة طويلة، ثم قالت: «ولكنك لم تعملي معه من قبل. أعني أنك لا تعلمين أذواقه وأسلوبه في التحرير».

«دَستي، أحبّ شارلي الصفحات التي أرسلتِها كثيرًا. وأعني ما أقول. وبالنظر إلى الكتب السابقة التي حرّرها... يمكن القول إن فريدجد تسير في خطّ منسجم معها».

تنهّدَت، وقالت: «في الواقع، لن أقول كلّا؛ لأني لو فعلت سأُتّهم بعدم المرونة».

«انظري دَستي، أجّلنا موعد صدور الكتاب مرّةً؛ وقد نعيد الكرّة ثانية إن

---

(1) غرفة صغيرة مفتوحة، أو خيمة وسط الحديقة.

لزِم الأمر. ولكنّي، بالتزامن مع موعد خروج فيلم مرّةً في *العمر* إلى السينما، أجد أن التوقيت الذي سبق تحديده لصدور كتابك الجديد مناسب للغاية. سوف أواكب كل خطوة، وأتدخّل، وأقوم بكل ما أستطيعه لكي تكوني أنتِ راضية وسعيدة بكل ما سينتهي إليه النصّ. وهذا هو الأهمّ».

قالت: «هناك أمر آخر بالنسبة إلى مرّةً في *العمر*، كان لدينا متّسع من الوقت، واستقبلت ملاحظاتك قبل بيع الكتاب إلى الناشر. غير أن الأمور تحدث بسرعة هذه المرّة. كنت مطمئنة إلى أن الأمور ستسير على ما يرام بفضل وجود شارون، ولكن يغلب عليّ الآن ما يشبه الرّعب».

«إن كنت ترغبين بملاحظاتي، فسأقدّمها لك. سوف أضعها مع ملاحظات شارلي. وهكذا ستنعمين برأي شخصين بدلًا من واحد. كل ما تحتاجين إليه يا دَستي سيكون في متناولك. فما رأيك؟».

أخرجت دَستي نفسًا طويلًا، ثم قالت: «هل يمكنني التفكير بالأمر خلال يوم واحد أو اثنين ليس أكثر؟».

«بالطبع، خذي وقتك».

إذا أصيب شارلي لاسترا بالقلق جرّاء الانتظار، فلا بأس بالنسبة لي.

***

يتواصل معي في هذه الآونة أربعة من عملائي، وكلّهم مصابون بالانهيار لأسباب عدّة: من الاعتراض على التغيير الكبير الذي يجريه المحرّر على نصوصهم، إلى الشكوى من رتابة الخطّة الإعلانية التي تواكب ظهور نتاجهم. كما أرسل اثنان آخران مسوّدتين جديدتين، بعد أسابيع قليلة فحسب من قراءتي لكتابَيْهما الأخيرَين.

أقوم بكل ما أستطيعه لكي أفي بوعدي لليبي -أن أكون معها بكلّيتي بعد الخامسة يوميًّا- وهذا يعني حتمًا أني لن أرفع رأسي عن حاسوبي طيلة اليوم.

على الرغم من الاختلاف بيننا، فإن أختي وأنا نجيد اكتساب العادات، ومن السهل علينا الالتزام بوتيرة معيّنة في نشاطنا وتوقيتنا.

إنها تستيقظ أوّلًا. تستحم، ثمّ تجلس في الخارج لتقرأ في كتابها، وتشرب قهوتها الخالية من الكافيين. ومن جهتي، فإني أستيقظ وأخرج للركض حتى ألهث من التعب. ثمّ أعود فأستحمّ وأهبط إلى المطبخ لألتقي بليبي وقد وضعت في طبقين ما أعدّته للفطور من البطاطا المبروشة والمحمّصة في المقلاة، أو الأرغفة المخبوزة سريعًا والمحشوة بالجبنة من نوع ريكوتا، أو الفطائر المحشوة بالخضار.

في ربع الساعة التالية تصف ليبي الأحلام التي رأتها أثناء الليل بشكل مفصَّل (وغالبًا ما تكون مروّعة، أو عصيبة، أو مثيرة جنسيًّا، أو الثلاثة معًا). بعد ذلك، نتكلّم عبر *فايستايم* FaceTime مع بيا وتالا وهما في منزل والدة براندن، حيث تخبرنا بيا بدورها عن الأحلام التي رأتها، وتركض تالا في عرض البيت وطوله موشكةً على الاصطدام بكل ما يقع في طريقها، وتصرخ قائلة: *انظري خالتي نونو! أنا ديناصور!*

بعدئذٍ أنطلق إلى مكتبة غودي بوكس، وأترك ليبي لتهاتف براندن، ولتقوم بكل ما ترغب به في هذا الوقت الذي تريده لنفسها.

في المكتبة، أتبادل مع شارلي بعض الجمل المضحكة والحادّة في آن، ثمّ أدفع ثمن قهوتي وأستقرّ في المكان الذي اخترته في غرفة القهوة، حيث ألتزم بعدم إرضائه بالالتفات إليه مهما شعرت بنظراته الحائمة حولي.

في الصباح الثالث، وجدت قهوتي حاضرة على المنضدة بقرب الصندوق. قال: «يا لها من مفاجأة! إنك هنا في الثامنة واثنتين وخمسين دقيقة؛ مثل البارحة، ومثل اليوم الذي سبقه».

التقطت كوب القهوة، وتجاهلت ملاحظته الساخرة. «ستبلغني دَستي جوابها الليلة، وكوب مجاني من القهوة لن يؤثر في النتيجة بشيء».

أخفض صوته وانحنى إلى الأمام فوق المنضدة، ليقول: «هل قصدك أنك تطمحين إلى شيك ضخم؟».

فأجبت: «كلا، يمكنه أن يكون شيكًا عادي الحجم، إنما كثير الأصفار».

«عندما أريد شيئًا يا نورا، فإني لا أتراجع عنه بسهولة».

من الخارج لم يطرأ على مظهري أي تغيير. أما من الداخل، فكأن قلبي قفز وارتطم بالترقوة. هل بسبب قربه مني، أو بسبب صوته، أو ربّما بسبب ما قاله الآن؟ أزّ هاتفي معلنًا وصول رسالة، فرحّبت بفرصة الخروج من هذه الحالة، لأجد أنها رسالة من دَستي تقول: «إني موافقة!».

قاومت رغبتي في التنحنح ببرود أمامه، ولكني نظرت إلى عينيه، وقلت: «يبدو أن باستطاعتك عدم التفكير بالشيك. ستصلك الفصول ابتداءً من آخر الأسبوع».

لمعت عينا شارلي بحماسة تلامس حدود الشراسة.

فقلت: «تمهّل، لا ترمقني بنظرة المنتصر، طلبت مني دَستي مواكبتك خطوة بخطوة. سوف تمرّ ملاحظاتك عبري».

«هل تتوقّعين أن يخيفني هذا الأمر؟».

«بالطبع. فأنا مخيفة».

شدّ بجذعه نحوي من فوق المنضدة، واشتدّت عضلات ذراعيه، وهمس بشفتين مضمومتين ومحمومتين: «ليس مع هذه الغرّة على جبينك التي تجعل مقاربتك مريحة للغاية».

***

في ذلك الأسبوع، كنت لا أرى ليبي قبل موعد انتهائي من العمل. حتى إني كنت أعود أحيانًا إلى الكوخ قبلها. وكانت تخفي عني ما تقوم به في الوقت الذي تمضيه وحدها، وإن سألتها مثلًا كيف أمضت الساعات التسع الماضية، فإنها غالبًا ما تجيب هازئة (في تعاطي المخدّرات؛ أو في علاقة غرامية مثيرة مع البائع الذي يطرق الأبواب لتسويق المكانس الكهربائية؛ أو في إعداد طلب الانتساب إلى جماعة دينية). غير أنها جاءتني يوم الجمعة عند موعد الغداء محمّلة بسندويشات نباتية من مقهى كوب + كأس، محشوة بنسبة 80٪ بأوراق نبات *الكايل*، وقالت لي بفمٍ ممتلئ: «طعم هذا السندويش طبيعي بدرجة استثنائية».

فقلت: «أحسّ بطعم التراب على لساني».

«أنت محظوظة! لا أحسّ بأي طعم غير طعم *الكايل*».

بعد انتهائنا من قضم تلك السندويشات، عدت إلى عملي، فيما تابعت ليبي قراءة رواية للكاتبة مهايري ماكفارلين Mhairi MacFarlane، وكانت تشهق أحيانًا وتقهقه أخرى بصوت عالٍ، حتى ارتفع صوت شارلي فجأة من الغرفة المقابلة: «هل من الممكن خفض هذه الأصوات؟ في كل مرّة تشهقين بهذه الطريقة أكاد أصاب بنوبة قلبية».

«حسنًا، الكراسي في هذا المكان تتسبّب بإصابتي بالبواسير، ولهذا يمكن القول إن النتيجة متعادلة». تردّدت ليبي.

غير أن شارلي ما لبث أن ظهر بعبوسه المعهود ورمانا بمخدّتين مخمليّتين، قائلًا: «إلى جلالتكما»، وانبرى عائدًا إلى مكانه.

لمعت عينا ليبي، وانحنت نحوي لتهمس بأسلوب الهمس المسرحي المسموع: «هل جاءنا حقًا بمخدّات لمؤخرتينا؟».

«أعتقد ذلك»، أجبت.

«يبدو أن الكونت فون لاسترا يمتلك قلبًا نابضًا»، قالت.

«أستطيع سماعكن»، نادى.

«الأحياء يمتلكون حواس حادّة»، قلت لليبي.

اختفت الدوائر الداكنة التي كانت تحيط بعيني ليبي بعد الأسبوع الأول في صانشاين فولز، وعاد إليها لونها الطبيعي بسرعة وانتفخت وجنتاها من جديد، فكأن الأشهر السابقة الصعبة التي مرّت بها لم تكن سوى مجرّد كابوس مزعج.

وفي مقابل ذلك، وبعكسه تمامًا، كانت الدوائر المحيطة بعيني شارلي تزداد حدّة. توقّعت أنه كان يعاني من الأرق مثلي - في ذلك الكوخ الهادئ جدًا، ووسط العتمة التامّة، كنت لا أغفو في كل ليلة قبل الثالثة صباحًا. ثم أستيقظ في معظم الليالي فجأة، على الأقل مرّة في الليلة الواحدة، على ضربات قلبي المتسارعة وبرودة جلدي المتعرّق.

ما إن حلّت الساعة الخامسة حتى أغلقت حاسوبي، ووضعت ليبي الكتاب من يدها، وخرجنا.

كل الهموم التي انتابتني خوفًا من أن تُصاب أختي بخيبة الأمل لدى اكتشاف واقع صانشاين فولز كانت واهية. بدت ليبي راضية وسعيدة إلى حدّ معيّن بالتسكّع في أحياء البلدة واكتشاف مخازنها الغامضة التي لا تخلو من الأغراض القديمة الملفتة؛ أو بالتوقف في ساحة البلدة لمشاهدة حلقات تدريب المسنّين على تمارين في رياضة كيك بوكسينغ Kickboxing.

سرنا في الطرقات، وكنا نتوقّف بين الفينة والأخرى لنتأمل في مكان معيّن، ونقول إنه قد يكون الإطار الحقيقي لذلك المشهد، أو ذاك من رواية مرّة في *العمر*. باستثناء ثلاثة أبنية منفصلة كانت تعلن أنها مكان العطارة (الصيدلية) التي تحدّثت عنها الكاتبة، بما فيها مخزن كبير شاغر، اكتست نوافذه بملصقات كبيرة تقول: ***للإيجار - مكان العطارة المذكورة في رواية مرّة في العمر! موقع بريمو!***

«لم أسمع أحدًا يستخدم كلمة بريمو[1] منذ الثمانينيّات»، قالت ليبي.

«لم تكوني موجودة في الثمانينيّات»، أوضحت.

«أنت على حقّ»، أجابت.

بعد وصولنا إلى الكوخ، أعدّت ليبي عشاء غنيًّا: عرانيس من ذرة سكرية صيفية، وسلطة البطاطا بالكريما وأوراق الثوم الأخضر، وطبق آخر من سلطة البطيخ مع السمسم المحمّص، إضافةً إلى أقراص البرغر النباتية المصنوعة من حبوب الصويا المخمّرة، وأرغفة من الخبز الحلو الطعم وشرحات من البندورة والبصل الأحمر مع شرحات من الأفوكادو.

قمت بتقطيع كل ما طلبَته مني، ثم راقبتها تعيد تقطيعه وفق الحجم الذي تريده. يا لها من مفارقة أن أكتشف مهارات لدى أختي الصغيرة لم أكن على معرفة بها. مع أن ذلك جعلني أشعر بالفخر، إلّا أنه أحزنني إلى حدّ

---

(1) Primo: كلمة شائعة بين لغات عدة، ويراد بها معنى التميّز (صنف أوّل).

ما أيضًا. ربّما هذا ما يشعر به الأهل عندما يكبر أولادهم. كأنهم يجدون صعوبةً في التعرّف إلى شخص كان في الأمس القريب قطعة منهم.

«هل تذكرين عندما كنتِ تريدين أن تصبحي طبّاخة محترفة؟»، سألتها ذات مساء فيما كنت أقطّع البندورة والحبق للبيتزا التي كانت تعدّها.

أجابتني باقتضاب وإبهام، بما لا يشير إلى أنها تذكّرت، ولا إلى أنها لا تذكر شيئًا من ذلك مطلقًا.

لطالما بدت ليبي ذكية ومبدعة، وقادرة على العمل في أي مهنة تختارها. أعلم أنها تعشق دورها كأم، ولكني أفهم أيضًا أسباب حاجتها الماسّة لتكون بمفردها لفترة وجيزة، قبل أن يتمسّك بأذيالها طفل جديد.

وكما في كل مساء منذ مجيئنا، نتناول وجبة العشاء في الفسحة الخارجية الخلفية، وبعد أن أكون قد انتهيت من غسل الصحون وإعادة توضيبها، نفرغ الصندوق المليء بالألعاب، ونلعب الدومينو تحت خيوط الضوء المنبعثة من المصباح الخارجي لا غير.

بعد العاشرة بقليل ذهبت ليبي كعادتها إلى النوم، وعدتُ إلى الطاولة في المطبخ مع حاسوبي في محاولة جديدة لاستكشاف الشقق المعروضة للإيجار. وسرعان ما توقّفتُ كما في كل ليلة جرّاء شبكة الإنترنت المتعثرة. ولأني لم أكن أشعر بالنعاس البتّة، أدخلت قدميّ في حذاء ليبي المريح وخرجت لأتمشى فوق المرج الأخضر أمام الكوخ. كان ضوء القمر والنجوم يسطع على العشب ويكسبه لمعانًا فضيًّا جميلًا، غير أن الرطوبة احتبست حرارة النهار في الهواء المحمّل أيضًا بعطر الأرض والنبات.

في مثل هذه الوحدة التامّة يشعر الإنسان بالرهبة وربّما بالخوف. إنه الشعور الذي قد تشعر به لو جلست بمفردك ليلًا على الشاطئ قبالة المحيط؛ أو لو تأملت في الغيوم في ليلة حالكة. في نيويورك لا يمكن للشخص ألا يشعر بأنه واحد بين مليون شخص آخر. كأنه مع من حوله مجرّد أطراف عصبية تنتمي إلى كائن واحد ضخم. وفي المقابل، من السهل أن تشعر في هذا المكان، كأنك الإنسان الأخير على سطح الكرة الأرضية.

في حوالى الواحدة بعد منتصف الليل، صعدت إلى السرير، وأمضيت قرابة ساعة من الوقت أو أكثر قبل أن يغلبني النعاس وأغرق في النوم.

في صباح السبت، استيقظنا وتناولنا الفطور وتابعنا نهارنا بالوتيرة عينها، ولكني عندما دخلت إلى مكتبة غودي بوكس، قوبلت بمفاجأة.

«أهلا وسهلا»! قالت المرأة فيما وقفت مبتسمة وراء صندوق المحاسبة، وفاح منها مزيج من عطر الياسمين ورائحة الحشيش، «كيف أستطيع خدمتك؟».

تبدو مثل امرأة أمضت حياتها في الهواء الطلق. بشرتها سمراء ومغشّاة بالنمش الذي لا يبدو وجوده عارضًا على وجهها بل مزمنٌ. وذراعاها تبدوان من تحت كميها المرفوعتين نحيلتين، أما شعرها الذي يهبط فوق كتفيها فداكن وكثيف. لها وجه جميل ومستدير، وعينان داكنتان تتغضّن بشرتها حولهما كلّما ابتسمت. أما الخطّ تحت شفتها السفلى فكان كافيًا ليخبرني من هي.

إنها سالي غودي مالكة الكوخ الذي نمكث فيه. إنها والدة شارلي.

«شكرًا»، قلت، وتمنّيت أن تبدو ابتسامتي طبيعية. لا أحبّ التفكير في ما يحدث على وجهي، خصوصًا أني لا أصدّق أنه يعكس حقيقة ما يدور في رأسي. لم أكن أنوي البقاء طويلًا في المكتبة، بل لساعة واحدة تقريبًا من أجل الإجابة على بضع رسائل جديدة في بريدي الإلكتروني، قبل الخروج لملاقاة ليبي لكي نتناول وجبة الغداء معًا. ولكني وجدت نفسي أشعر بالذنب إزاء استخدام خدمة الواي فاي مجّانًا.

التقطت الكتاب الذي وقعت عليه عيناي أوّلًا، وعنوانه *The Great Family Marcony*. لحسن المصادفة، كان الكتاب أحد تلك الكتب التي لم تنل إعجاب أختي، فرمتها في فضاء الغرفة والتقطتها يداي. أحببت الصفحة الأخيرة إلى حدّ كبير، وأعدت قراءتها مرارًا، ثمّ اتّخذت القرار بقراءة الكتاب كلّه. «هذا الكتاب فقط»، قلت.

«إنه ابني من قام بتحرير هذا الكتاب»، قالت سالي غودي بفخر. «هذه مهنته».

«أوه!» قلت. وتلعثم لساني عن التعليق ولو بكلمة أخرى. شعرت باحتراق في حنجرتي. لعلّ التحدّث إلى ليبي وشارلي حصرًا طيلة الأسبوع، كان قد أضعف قدرتي على الانتقال إلى أسلوب نورا المهني.

أخبرتني سالي عن ثمن الكتاب، وعندما أعطيتها بطاقتي الائتمانية، نظرت إليها وقالت: «توقّعت أن تكوني أنتِ! نادرًا ما لا أستطيع التعرّف إلى وجهٍ من وجوه سكان البلدة. أنا سالي غودي - إنك تمكثين في الكوخ الذي أملكه».

«أوه، واو، أهلًا» قلت، آملة من جديد أن أبدو بشريّة، أي إني تربّيت بين البشر. «تشرّفت بمعرفتك».

«تشرّفت بمعرفتك أيضًا - هل تجدان الكوخ ملائمًا؟ هل ترغبين بكيس للكتاب؟».

أشرت برأسي بما يعني ´كلّا´، وأخذت الكتاب والبطاقة منها. وقلت: «المكان جميل جدًّا. إنه رائع!».

فقالت: «لعلّه كذلك في الواقع، إنه موروث في عائلتي عبر أربعة أجيال، كما هي حال هذه المكتبة. لو لم نُرزق بأطفال، لعشنا في ذلك الكوخ إلى الأبد. إنه مليء بالذكريات الحلوة».

«هل تزوره الأرواح؟»، قلت ممازحة.

«ليس بحسب تجربتي، ولكنك لو رأيت إحداها، قولي لها إن سالي تبلّغك سلامها، وتوصيك بعدم إخافة ضيوفي». ضربت بأصابعها على المنضدة، وأضافت: «هل ينقصكما شيء في الكوخ؟ حطب؟ أو شيء آخر؟ سوف أطلب من ابني أن يحمل إليكما بعض الحطب لعلّكما بحاجة له».

«يا إلهي، لا ضرورة لذلك»، قلت.

«ليس لديه أي عمل يشغله على كل حال»، قالت.

سوى قيامه بوظيفتين بدوام *كامل*، قلت في نفسي. علمًا بأنها ذكرت إحداهما منذ لحظات فحسب.

«ليس ذلك ضروريًا»، قلت بإصرار.

ولكنها أصرّت أيضًا، وقالت حرفيًا: «إني أصرّ على ذلك».

قلت: «حسنًا... شكرًا». وبعد العمل لدقائق معدودة في غرفة القهوة، شكرتها مجدّدًا، وخرجت بسرعة إلى الشارع المتألق تحت أشعة الشمس، ووصلت إلى مقهى كوب + كأس.

ارتجّ هاتفي معلنًا وصول رسالة نصيّة، ولكني لم أتعرّف إلى الرقم.

«لماذا تحدّثني أمّي عنكِ، وعن شخصيتك الجذابة؟».

عرفت من هو المرسل.

أجبت: «غريب. أتظن أن لذلك علاقة بأني كنت أرتدي معطفًا جلديًا لامعًا ضدّ المطر؟».

وإذا بشارلي يرسل نسخة عن الحوار الذي دار بينه وبين أمّه.

كتبت سالي: «الضيفة التي تنزل في الكوخ جميلة جدًا، لا يوجد خاتم في أصبعها».

أجابها شارلي: «أوه، هل تفكّرين بالانفصال عن أبي؟».

تجاهلت سالي ردّه وتابعت: «طويلة القامة، وأنت تحبّ طول القامة».

«عمَّ تتكلّمين»، كتب شارلي من دون علامة الاستفهام.

«هل تذكر الفتاة التي كنت تواعدها، وتُدعى ليلاك والتر- هيكسون؟ كانت قامتها طويلة كأنها قامة مارد»، كتبت سالي.

«كان هذا في الصف الثامن، قبل أن ينبت شعر ذقني»، أجاب شارلي.

«حسنًا، هذه الفتاة طويلة القامة، ولكنها ليست طويلة جدًا».

كنت على وشك الضحك عاليًا ثمّ أخمدت ضحكتي.

«طويلة، ولكن ليست **طويلة جـــــــــــــــدًّا**»، قلت لشارلي.

«يمكن كتابة هذه الجملة أيضًا على قبري.

ردّ: «سوف أدوّن ذلك».
«قالت سالي إنكَ ستجلب لي بعض الحطب إلى الكوخ».
«رجاءً، أقسمي لي أنك لم تقولي لها شيئًا مثل تأخّرتِ!».
أجبت: «كلا، ولكن السيدة شرودر كانت في قاعة القهوة. وأعلم أن الثرثرة تسري بسرعة البرق في هذه البلدة، ولذلك فالمسألة مسألة وقت فحسب».
«سوف يخيب أمل سالي بكِ كثيرًا»، قال شارلي.
«أملها بي؟، ماذا عن أملها بابنها، *خاطف قلوب العذارى* في نيويورك؟».
«أبحرت سفينة خيبتها بي منذ زمن طويل. أحتاج للقيام بأمرٍ أكثر سوءًا بدرجة كبيرة لكي أخيّب أملها بي من جديد»، قال.
«عندما تكتشف كدسة بيغفوت *إروتيكا* تحت سريرك المشابه لسيارة السباق، ربّما ستعاود تلك السفينة أدراجها لتبحر من جديد».
جلست على السطيحة الخارجية في المقهى وأسندت رأسي إلى زجاج النافذة الدافئ تحت أشعة الشمس، وأوراق الأشجار المحيطة كانت تتراقص وتتناغم مع النسيم العليل، وترتفع رائحة قهوة الإسبرسو في الأجواء.
وصلتني رسالة أخرى. صفحة من إصدار بيغفوت لموسم عيد الميلاد وفيها استخدام فاضح جدًا لعبارة ديكنغ ذي هولز *decking the halls*[1]، وإشارة إلى وضع معيّن في ممارسة الجنس يسمّى *فوراشيوس يتي* Voracious Yeti[2]، وهو بعيد كلّيًا عن الواقع الممكن لأجسام البشر.
أحسست بوجود ليبي فجأة بقربي، فسألتني: «انتهيتِ من استخدام *الواي فاي*؟».

(1) عبارة بالإنكليزية تشير في الأصل إلى تزيين الأمكنة في عيد الميلاد ولكنها اكتسبت مع الوقت معاني جديدة وحتى معاني جنسية.
(2) تتصل التسمية بشخصية أسطورية لكائن وحشي يشبه البشر.

«كليًّا»، ثم سألتها: «هل سمعت من قبل بفوراشيوس يتي؟».

«هل هو عنوان كتاب للأطفال؟».

«بالطبع».

«سوف أبحث عنه».

ارتجّ هاتفي مجدّدًا بوصول رسالة أخرى: «أجد فوراشيوس يتي غير مقبول البتّة».

وجدت نفسي أبتسم، وربّما ابتسامة يخالطها ومض السكاكين. وأجبت: «هذا مخيّب للآمال بالفعل. إنه ينفّر القارئ عن المتابعة في قراءة نتاج أدبي واقعي بامتياز».

الفصل الثاني عشر

نهضت من نومي مع شهقة رعب، وقشعريرة برد.

ليبي.

أين هي ليبي؟

دارت عيناي حول الغرفة تفتّش عن شيء يشدّني إلى أرض الواقع.

الخيوط الأولى من أشعة الشمس تتسلّل من إحدى النوافذ؛ جلبة الأوعية والأواني تتصاعد من المطبخ؛ ورائحة القهوة الطازجة تعبق في الهواء وتتسرب من شقّ الباب إلى أنفي.

أنا في الكوخ.

لا *بأس. إنها هنا. إنها بخير.*

عندما يتملّكني القلق في بيتي في نيويورك، ألجأ إلى ركوب الدراجة. وعندما أحتاج إلى دفعة من الطاقة، أركب الدراجة؛ وعندما أشعر بالندم على أمر فعلته، أو كلمة قلتها، أركب الدراجة؛ وعندما لا أستطيع التركيز، أركب الدراجة.

أما هنا، فالركض هو خياري الوحيد.

ارتديت ثيابي بهدوء، وانتعلت حذائي الرياضي المتّسخ بالتراب، وانحدرت على عجل لأخرج وألاقي الصباح. شعرت بارتعاشة باردة وسط ضباب المرج إلى أن ولجت درب الغابة واستعدت سرعتي.

قفزت فوق جذورالأشجار الناتئة والمتعرّجة، وانطلقت فوق الجسر الضيّق الذي يتّخذ شكل القنطرة فوق الساقية.

شعرت بما يشبه الاحتراق في حنجرتي، ولكن الخوف ما زال

يطاردني. قد يعود السبب إلى كوني هنا، وكوني أشعر أني بعيدة جدًا عن أمي، أو لأني أقضي وقتًا طويلًا مع ليبي. ولكن، ثمّة إحساس يعيدني إلى كل الأمور التي أحاول عدم التفكير بها.

أشعر بوجود السّم في داخلي، وأني مهما ركضت لا أنجح في إحراقه والتخلّص منه. أتمنى لو أستطيع البكاء ولو لمرّة واحدة. ولكني لا أستطيع. لم أستطع ذلك منذ صباح اليوم الذي شهد دفن أمي.

مرّ كل ذلك في بالي، ثم استعدت وتيرتي في الركض.

***

«وجدته»! صرخت ليبي، فيما أسرعتْ إلى الحمام حيث كنت أصارع غرّتي لأثبتها في مكانها الصحيح رغم أنف الرطوبة التي لا تتراجع.

مدّت يدها بالهاتف نحوي، ورأيت على الشاشة صورة رجل جذاب، شعره قصير وبلون الشكولاتة، وعيناه رماديّتان؛ يرتدي سترة مبطّنة بلا أكمام فوق قميص ذي مربّعات، وينظر إلى بحيرة يكتنفها الضباب. فوق الصورة قرأت اسمه وعمره: BLAKE 36, (بليك 36).

زعقت: «ليبي! لماذا تستخدمين تطبيقًا للمواعدة؟».

«لستُ التي تستخدمه، بل أنتِ»، أجابت.

«كلا، ليست أنا التي تستخدمه بالتأكيد»، قلت.

«فتحت لك حسابًا. إنه تطبيق جديد يقوم على ذهنيّة الزواج، بدليل أنه يُدعى «زواج الأذهان\ Marriage of Minds».

قلت: « موم!، الاسم المختصر للتطبيق هو موم[1]؟ يقلقني أحيانًا عدم تنبّهك إلى ما قد يكون إنذارًا. ليبي».

«بليك صيّاد سمك ماهر؛ وهو ليس متأكّدًا بشأن رغبته في أن يكون أبًا.

---

(1) MOM: ويشير أيضًا إلى «الأم». Marriage Of Minds يتألف هذا الاسم من الحروف الأولى في الكلمات الثلاث.

وهو أستاذ مدرسة، ويعشق السهر -مثلك- ومتعدّد النشاطات الجسدية».

خطفت الهاتف من يدها، وقرأت بنفسي: «ليبي، يقول هنا إنه يرغب في التعرّف إلى امرأة متواضعة، لا تعبأ في أن تمضي فرص نهاية الأسبوع في التهليل لفرق تار هيلز Tar Heels».

قالت ليبي بنغمة لطيفة: «لستِ بحاجة إلى من هو تمامًا مثلك، يا أختي، تحتاجين إلى من يقدّرك. أعلم بالطبع أنك لست بحاجة لأحد قطّ. ولكنك تستحقين من يفهم كم أنتِ متميّزة! أو على الأقل، أحدًا تخرجين معه في الليل من غير أن تتعرّضي للضغط».

نظرت إليّ بعينيها الراجيتين. وبدا تعبيرها عند منتصف الطريق بين تعبير الهرّة التي اصطادت فأرًا ورمته أمام قدميّ أحد الناس؛ وتعبير طفل حمل لأمه رسمًا يمثلها، خطّه بأقلامه يوم عيد الأم، ولم يلاحظ الطفل لحسن الحظّ أن القبعة الثلجية الطويلة التي رسمها على رأس أمّه تبدو كأنها عضوٌ ذكري ضخم.

وبليك هو تلك القبعة الشاذّة في هذا السيناريو.

«أليس باستطاعتنا الخروج معًا لقضاء ليلة لطيفة خالية من الضغط؟»، سألتها.

حوّلت نظرها عنّي بتعبير يتوخّى الاعتذار. «بليك موعود بلقائك هذه الليلة في مطعم بوبا سكوات، حيث تقام سهرة *كاراوكي*».

«كل جزء من هذه الجملة تقريبًا، يثير قلقي»، قلت.

«ظننت أنك ترغبين في التغيير وألّا تكوني...»، قالت.

وإذ لم تكمل قولها، أكمله عنها صوت في رأسي:... *وألّا تكوني نادين وينترز*. وفي أقل من ثانية، تعرّفت من خلاله إلى نبرة صوت شارلي الأجش والمُغيظ. وقمعت في حنجرتي تأوّهًا يشكو صعوبة الاستسلام للأمر الواقع.

ليست أكثر من ليلة واحدة؛ وليبي تعبت في إعداد هذه الهديّة الغريبة.

«يترتّب عليّ البحث بدايةً في غوغل، لكي أعلم ما هو *تار هيلز*».

انفرجت أسارير وجه ليبي عن ابتسامة مضيئة. إن صحّ القول بأن ابتسامة

أمي كانت ربيعًا، فإن ابتسامة ليبي هي الصيف بذاته. وانطلقت قائلة: «هذا ما يمكن تسميته مقبّلات الحديث».

***

ليبي، التي انتحلت صفتي، لم تخبر بليك عن مكان سكننا، وعوضًا عن ذلك، اقترحت أن ألقاه (نلقاه بالأحرى) في بوبا سكوات في حوالي السابعة. وبالنظر إليها في ثوبها المتمايل والملفوف حول جسمها، وتسريحة شعرها الخاصّة، والطلاء الزهري اللامع على شفتيها، فإنك لن تصدّق أن كل ما كان ينتظرها في السهرة، كان الجلوس أمام كوب من الصودا تسبح فيه شرحات من الليمون، فيما تراقبنا من بعيد وعلى وجهها تعابير الحماسة للتطوّرات (الخائبة) التي ستؤول إليها الأمور في تلك الليلة.

من عادتي الوصول إلى المواعدة في وقت مبكر. ولكننا سرنا بحسب توقيت ليبي، فتأخرنا عشر دقائق عن موعد اللقاء. قبل دخولنا، شدّت بكوعي فجأة لتوقفني وتقول: «يجب أن تدخل كل منّا بمفردها، لكي لا يعلم أنّنا معًا».

قلت: «حسنًا، وهكذا سيكون من الأسهل أن نطرحه أرضًا، ونفرغ جيوبه» ثم أضفت: «أي إشارة سنعتمد بيننا؟».

أدارت عينيها، وقالت: «سأدخل أولًا، وسألقي عليه نظرة فاحصة لأتأكّد أنه لا يحمل سيفًا، ولا يرتدي سترة مخطّطة، ولا يسحر الأغراب الذين يقتربون منه».

«ستتأكدين أنه ليس أحد الفرسان الأربعة المخيفين في يوم القيامة».

«سأبعثِ إليك رسالة عندما أجد الأجواء آمنة لدخولك»، قالت.

بعد أربعين ثانية، أرسلت لي إشارة الإبهام المرفوع، فتبعتها.

الجوّ أكثر حرارة في بوبا سكوات من الخارج. ولعلّ السبب يعود إلى كثرة الناس.

كان الحشد يغنّي معًا بأصوات ثملة الأغنية المعروفة Sweet Home Alabama ومجموعة تقف على مسرح الكارأوكي في عمق المكان العابق بروائح التعرّق والبيرة.

أما بليك فجلس إلى الطاولة الأولى المواجهة للمدخل، وقد عقد أصابعه، وكأنه جاء برفقة موظفة شؤون الموظفين في مكان عملي، وهما هنا ليبلّغاني قرار فصلي.

«بليك؟»، قلت، ومددت يدي للمصافحة.

«نورا؟»، قال، وبقي جالسًا.

«تمامًا»، أجبت.

«تبدين مختلفة عن الصورة»؛ سارع إلى القول.

«لعلّها قصّة الشعر المختلفة»، أجبت، وجلست من غير أن يصافحني.

«لم تذكري كم يبلغ طولك على صفحة التعارف»، قال هذا الرجل الذي ادّعى على تلك الصفحة أن طوله ستّ أقدام وبوصة واحدة، فيما لا أتوقّع أنّه يتعدّى خمس أقدام وتسع بوصات، باستثناء إذا كان يخفي تحت الطاولة ركيزتين تضيفان إلى طول ساقيه بضع بوصات عندما ينهض.

على الأقلّ، المواعدة في صنشاين فولز تشبه تمامًا المواعدة في نيويورك.

«لم يخطر في بالي أن الأمر مهمّ إلى هذه الدرجة». أجبت.

«*أم...*»، ماطلت في الإجابة، لعلّه ينتهز الوقت ليعيد النظر بأسلوبه في المواعدة الأولى. ولكن لم يحدث أيّ تغيير، فقلت: «خمسة أقدام وإحدى عشرة بوصة».

«هل أنت عارضة أزياء؟»، سأل آملًا في أن أقول نعم. لأني لو أجبت أني عارضة أزياء، لاكتسبت المغفرة عن الكثير من ذنوب طول القامة.

هناك اعتقاد خاطئ بأن الرجال حول العالم يميلون إلى المرأة النحيلة وطويلة القامة. ومن حيث كوني كذلك، فبإمكاني دحض هذا الاعتقاد.

كثيرون من الرجال يخافون مواعدة المرأة طويلة القامة. ومِن بين

الذين لا يخافون، من يسعى إلى إرضاء غروره والافتخار أمام الناس. وفي هذه الحال، تكون العلاقة مبنية على حبّ الظهور، أكثر ممّا تكون مبنية على وجود الجاذبية بين الاثنين. وإرضاء الغرور يتحقّق لدى هؤلاء بنوعٍ خاصّ، إذا كانت المرأة، صاحبة القامة المديدة، عارضة أزياء. لأن ذلكً سيدلّ على أن شريكها جذّاب ومثير. ولكن النتيجة قد تكون عكسية على الرجل، إذا كانت شريكته التي تفوقه طولًا وكيلة أعمال أدبية، ويكفي أن نستعرض النكات التي تدّعي أنها *تعلّق خصيتيه على سلسال فضي وتختال بهما.*

ولكن بالنظر إلى الناحية الإيجابية، فإن بليك 36 لم يسأل على الأقل عن ـــ

«ما هو قياس حذائك؟»، قال، وانقبضت ملامح وجهه كأنه يتألّم.

لا تتوقّع إجابة مغايرة يا بليك. قلت له في نفسي.

سألته: «ماذا ستشرب؟ هل نشرب نوعًا من الكحول؟ شيء من الكحول قد يكون مناسبًا».

اقتربت النادلة، وقبل أن تتفوّه بكلمة، قلت: «كأسين كبيرين من كوكتيل مارتيني مع جين، من فضلك». لا بدّ أنها لاحظت عل وجهي أمارات البؤس المألوفة في المواعدات الأولى. ولذلك، لم تتلفّظ بأي من عبارات الترحيب المعهودة، بل اكتفت بهزّة رأس، وكادت تقفز نحو البار لإعداد الطلب.

«لا أشرب الكحول»، قال بليك.

«لا تأبه، سأشرب كأسك».

ومن هناك، من وراء طاولات البليارد، كانت ليبي ترمقني بابتسامة عريضة، وترفع إبهاميها بإشارة الفوز المؤكّد.

الفصل الثالث عشر

قد يخطر في بالك أن بليك قد يسرع إلى وضع نهاية لهذا اللقاء من باب أن العلاقة تبدو ميتة قبل ولادتها.

ولكنّه لا يستخدم تطبيق موم MOM بأسلوب عابر. بل كان في طوافٍ دائم لإيجاد زوجة. وعلى الرغم من هيكلي كمارد، وقدميّ الكبيرتين، وقدرتي على شرب الكحول، لم يكن مستعدًّا لإطلاق سراحي قبل أن يؤكّد لنفسه أني في الواقع لن أتمكّن من تحضير أطباقه المفضّلة.

«صدِّق أني لا أجيد الطهو»، قلت، بعد أن انتهينا من استعراض أنواع المقبّلات الجافة السريعة المدرجة على القائمة، وانتقلنا إلى الأسماك المقلية المتنوعة.

«حتى ولا طبق بسمكة تيلابيا؟».

تابعت النفي بهزة رأس.

«ماذا عن السلمون؟»، سألني.

«كلا»، أجبت.

«سمك السلور؟».

«هل تقصد مثلما يُعرض على التلفزيون؟»، قلت.

توقّف هنيهةً عن التحقيق معي، عندما فُتحت أبواب المدخل فجأةً ودخل شارلي لاسترا. قاومت ميلي إلى الغرق في الكرسي وإخفاء وجهي وراء قائمة الطعام لكي لا يلمحني. ولكن ما كانت ستنفع تلك الحيلة البتّة؛ ففي اللحظة التي يدخل فيها مطلق شخص عبر تلك الأبواب ستطالعه طاولتنا وجهًا لوجه. حطّت عينا شارلي على وجهي، وانقلبت تعابيره فورًا من المفاجأة إلى الاشمئزاز، ثمّ إلى ابتسامة ماكرة.

بدا لي ما جرى على وجه شارلي كأنه فيلم فيديو سريع يختصر المراحل التي تسبق نزول الصاعقة.

هزّ رأسه باتجاهي قبل أن يخطو بسرعة خاطفة نحو البار. وعاد بليك ببساطة لإكمال قائمة أسماكه. وهكذا، وجدتني ببساطة أبدّد ربع ساعة أخرى من حياتي.

قد يبدو بليك وسيمًا في صوره الفوتوغرافية، ولكني وجدت هذا الرجل في قمّة القبح.

ضربت كفّي على الطاولة، ونهضت. «هل تحتاج شيئًا من البار؟»، سألت.

«لا أشرب الكحول». قال، ووجدت في صوته نبرة تَشي بنفاد الصبر، فاستغربت ذلك من رجل سمعني أردّد جملة *لا أجيد الطبخ* سبع عشرة مرّة في نصف الساعة الماضية، قبل أن يترك قولي انطباعًا ثابتًا لديه.

لا يمكنني في الواقع أن أطلب كأس كوكتيل ثالث. قد تدفعني كأس ثالثة إلى أن أجعل بليك ينهض من كرسيّه ويقف في محاذاتي، وأن أطلب من النادلة أن تقيس طول كلّ منّا. أو بالأحرى تدفعني إلى أن أصرعه أرضًا وأسرق محفظته.

ولكن ما أردته في تلك اللحظة كان البحث عن ليبي، وليس ابتلاع المزيد من الكحول. كان المكان شديد الاكتظاظ، فشقّيت طريقي بين الناس حتى وصلت إلى البار، وأخرجت هاتفي لأجد محاولتَيّ اتصال من دَستي، بالإضافة إلى رسالة نصّية تعتذر فيها عن الاتصال في هذا الوقت المتأخر. أجبتها على الفور بقصد الاطمئنان عنها، وسألتها إذا كان مناسبًا أن أتصل بها بعد عشرين دقيقة. ثمّ بعثت برسالة خطّية إلى ليبي: «أين أنت؟». وانتصبت للتوّ على رؤوس أصابعي لكي أتفحّص الجمع بعينيّ.

قال صوتٌ عبر جلبة الأحاديث الدائرة بين الناس، (فيما الأصوات في عمق القاعة، تردّد بما يشبه الصراخ، الأغنية المعروفة ´Like a Virgin´ / مثل فتاة عذراء): «إن كان قصدكِ التفتيش عن كرامتك، فلن تجديها هنا».

كان شارلي جالسًا عند زاوية البار وأمامه زجاجة بيرة متعرّقة.

سألته: «ما الذي يسيء إلى الكرامة في سهرة كاراأوكي؟ *إنك* أيضًا هنا».

شقّت امرأة طريقها بيننا، لتطلب شيئًا من البار. فمدّ شارلي رأسه من ورائها ليكمل الحديث، وكذلك فعلت. قال: «نعم، ولكني لست هنا مع بليك كارلايل».

نظرت إلى الوراء باتجاه بليك، فوجدته يطيل النظر إلى فتاة شعرها أسود ولا يتجاوز طولها أربعة أقدام وستّ بوصات.

«أقدّر أنكما ترعرعتما معًا»، قلت.

«قليلون من بين الذين يبصرون النور هنا، يتمكّنون من الهروب»، قال.

«هل يعلم مكتب السياحة في صنشاين فولز بشأنك؟»، سألته.

بدت المرأة التي وقفت بيننا غير عازمة على المغادرة، ولكننا تابعنا الكلام من حولها كيفما استطعنا. من ورائها، أو من أمامها، وبحسب تغيّر وضع جلوسها.

«كلّا، ولكني متيقِّن من أنهم سيطلبون توقيعك، بعد أن تكوني قد سرت على درب العار من منزل بليك. وصلني من مصدر موثوق أن أرض حمّامه مفروشة بالسجاد».

«لستَ مصيبًا بهذه النكتة التافهة أبدًا، لأني لم أنم في شقّة رجل منذ عشرة أعوام أو أكثر»، قلت معترفة.

لمعت عينا شارلي، وشرارة كالبرق شقّت طريقها إلى وجهه. فقال: «أتشوّق إلى معرفة المزيد».

«أتّبع نظام عناية ليلية مكثّف ببشرتي وأرفض الإخلال به، ومن الصعب أن أحمل كل المستحضرات في حقيبة يدي». لكنني لحظَتها تذكّرت كلمات أمي: *لا يمكنكِ التحكّم بمرور السنين، ولكن يمكنك تخفيف وقعها على بشرتك.*

مال برأسه جانبًا وبدا مفكّرًا بروايتي التي تبيّن له أنها لا تحمل سوى

نصف الحقيقة. ثمّ قال: «إذا كيف تفسّرين أنك هنا برفقة بليك؟ هل أطلقتِ سهمًا عشوائيًّا على دليل التلفون وأصاب رقمه؟».

سألت: «هل سمعت من قبل بـ MOM؟».

أجاب بنبرة مسطّحة باردة: «تلك المرأة التي تعمل في المكتبة؟، أعتقد ذلك. لماذا؟».

«إنه تطبيق المواعدة!»، قلت. وضربت بكفّي على سطح البار عندما تنبّهت إلى الاحتمال التالي، وسألت شارلي: «أتظنّ أن لهذا المعنى دورًا في تسميته بهذه الطريقة؟ أي كأنك تقول: *أمي رتّبت لذلك*؟».

أجاب بتردّد: «لا أقبل البتّة مواعدة فتاة اختارتها لي سالي».

ولكنّي ذكّرته: «أمّك تجدني رائعة».

«أعلم ذلك».

« كلامك يعني أنك لن تقبل بمواعدتي. أليس كذلك؟».

ارتفع حاجبه، واهتزّت زاوية فمه. «أوه، هل سنفعل هذا الآن؟». ولم ينجح في إخفاء ابتسامته الماكرة وراء زجاجة البيرة. وفيما رفع الزجاجة إلى فمه، ازداد ذلك الخطّ تحت شفته السفلى وضوحًا، وازداد الفَوران في داخلي.

«نفعل ماذا؟»، سألت.

«ذلك الأمر، أي الادّعاء بأنّي رفضتكِ»، قال.

«ولكنّكَ رفضتني *بالفعل*»، قلت.

«ولكنّكِ قلتِ *انتظر*»، أجاب متحدّيًا.

«قلتُ ذلك، ولكن يبدو كأنك سمعتني أقول إني سأصعقك بتيار كهربائي بين ساقيك لو تابعت».

«قلتِ إن ذلك كان سلوكًا خاطئًا»، أجاب بانفعال.

«أنتَ الذي قلت ذلك أوّلًا!»، أجبت.

«كلانا يعلم ــ»، وإذا بالمرأة التي بيننا تغادر، وينتقل شارلي إلى مقعدها الشاغر، ثم تابع:

«ــ أن ذلك بالنسبة إليك لم يكن سوى لتنفيذ بندٍ من القائمة البائسة جدًّا التي حدّثتني عنها. ولا يهمّني أمر المشاركة في هذه اللعبة، نورا».

«توقّف عن ذلك أرجوك؛ حتى إنك لا تستوفي الشرط المذكور في القائمة. إنك نيويوركي بامتياز». قلت، وندمت على ما قلته فورًا. كان بإمكاني الادّعاء بأن القبلة كانت مجرّد خطوة مرسومة؛ ولكنه بات يعلم أني *أردتُها*.

وإذ تجمّدت زجاجة البيرة فوق شفتيه، وبدا كأني فاجأته بما قلت، ارتحت لتأثير ما تفوّهت به. أيّما كانت تلك اللعبة التي *نلعبها*، فها إني ربحت مجدّدًا؛ وجائزتي ظهرت في تعابير وجهه المكتئبة.

وضع الزجاجة من يده، وحكّ حاجبه، وقال: «سأدعك تعودين إلى مواعدتك».

تفقدتّ هاتفي ووجدت جوابًا من ليبي يقول: «ذهبت إلى البيت بعد أن قرّرت عدم البقاء في انتظارك». حتى إن الوقاحة أوصلتها إلى أن تذيّل رسالتها بوجه يضحك ضحكة ماكرة.

رفعت عينيّ، ووجدت شارلي يراقبني. «هل من طريق إلى الخارج تسمح لي بعدم المرور من أمام بليك؟».

تفحّص وجهي لبرهة، وقال بنبرة جافّة: «نورا ستيفنز، موم لن يكون مرتاحًا لتصرّفك». ثمّ أمسك بيدي وقال: «من الباب الخلفي».

سرت مع شارلي عبر الحشد إلى وراء البار، ودخلنا من باب ضيّق إلى المطبخ، لنصطدم بمن يقطع طريقنا على الفور.

«لحظة! لا يمكنكما ــ»، صرخت الساقية الجميلة، ورفعت ذراعيها في إشارة لتوقفنا. ولكن ما إن تعرّفت إلى وجه شارلي حتى تورّدت وجنتاها، وبدت أكثر جمالًا.

«أمايا!»، قال شارلي. وأصبح مظهره أكثر صلابة على الفور، كأنه تذكّر أن لديه جسدًا، وتقلّصت للتوّ كل عضلة فيه.

كنت أجد في ابتسامة أمايا -وفي أسلوب كلامها مع شارلي- شيئًا من

المداعبة. كان ذلك قبل أن أتعرّف إلى تاريخ علاقتهما السابقة. أما الآن، فعندما ألمح تلك الابتسامة، أحلّلها وأكتشف ظلال وجع وتردّد وشعاع أمل رفيع من ورائها.

تنحنح شارلي، وارتعشت أصابعه حول أصابعي. تحرّك نظرها باتجاه الحركة، وإذا بوجهي ومن غير سبب واضح، يلتهب حرارة أيضًا.

قال شارلي بنبرة اعتذار: «نحتاج إلى الخروج من الباب الخلفي، بليك كارلايل يظن أن لديه موعد مع هذه المرأة».

رفّت نظراتها بيننا من جديد. وبعد ثوانٍ من التفكّر، تنهّدت وتراجعت إلى الوراء. «هذه المرّة فحسب. ليس من المسموح أن ندع الناس يمرّون من هنا».

«شكرًا»، قال شارلي وهزّ برأسه. ولكنّه بقي في مكانه بضع لحظات؛ لعلّه كان مبهورًا بعودة ابتسامتها المضيئة والآملة التي تقول بصمت: *ما زلت أحبّك*.

«شكرًا»، قال من جديد، ومشى أمامي نحو الباب. وفي الممرّ الخلفي وسط الحديقة، حيث كان الهواء منعشًا وخاليًا من الرطوبة، شعرت وكأن جرعة الأوكسجين المفاجئة أيقظت دماغي من سباته، فنزعت للتوّ يدي من يد شارلي، وقلت: «هذا غير مقبول».

«ماذا؟»، سأل.

رمقته بنظرة قاطعة، وقلت: «الحبيبة التي نقضتَ عهدك معها، ونظراتها الخارقة».

«لم أنقض عهدي معها، وهي لا تملك بحسب معرفتي بها قدرات خارقة».

«ربّما لم تنقض عهدك معها، ولكن يبدو أن علاقتكما ما زالت معلّقة، أي رهن الانتظار».

«أنت لا تملكين المعلومات الصحيحة بشأن ما حدث».

«ولكنّك لا تحسن قراءة تصرّفاتها وتعابير وجهها»، قلت.

«ثقي بأن الطريقة التي انتهت بها العلاقة لم تترك البتّة أملًا بالعودة». قال، فيما حثثنا الخطى لكي نقطع الشارع.

«بدت متوتّرة كأنها مسكونة بالهواجس، يا شارلي».

«من الطبيعي أن تبدو ´مسكونة´ بعد أن سمعت اسم بليك»، أجاب.

«هل يحمل بليك سمعة معيّنة؟».

«إنها بلدة صغيرة، ولكلّ من السكان سمعته».

«ما هي سمعتك؟».

ارتفع حاجبه ورمقني بنظرة حادّة، ورقصت عضلات فكّيه، ثمّ أجاب: «ربّما تتطابق مع ما تفكّرين به».

أدرت نظري عن وجهه، قبل أن تبتلعني تلك العينان.

عدد من الأشخاص كانوا يتسكّعون خلف مطعم بوبا سكوات بقصد التدخين. وآخرون قطعوا الشارع ودخلوا إلى مطعم إيطالي اسمه جياكومو، جدرانه الخارجية بنيت بالطوب الأحمر، وتلفّ واجهته عرائش من نبات اللبلاب. لم أكن قد رأيت هذا المطعم مفتوحًا من قبل.

نوافذ المطعم تتوهّج الليلة، والخيمة الأمامية تتألق بألوانها، والنادلات والنُدُل في قمصان بيضاء رسمية وربطات عنق سوداء، ينطلقون كالسهام ذهابًا وإيابًا محمّلين بصوانٍ معرّمة بكؤوس النبيذ وأطباق الباستا.

أشرت بذقني إلى جياكومو، وقلت: «ظننت أن هذا المطعم قد جرى إقفاله».

قال شارلي: «إنه يفتح أبوابه مساء السبت والأحد من كل أسبوع. الأشخاص الذين يديرونه تقاعدوا منذ زمن، ولكن الجميع عملوا على إقناعهم بفتح المطعم في عطلة نهاية الأسبوع».

سألته باندفاع: «هل تقول إن سكّان البلدة كلّهم اجتمعوا معًا من أجل إنقاذ هذه المؤسّسة؟ تمامًا مثلما يجري في القصص؟».

قال ببرود: «بالتأكيد! ظهروا بمعاولهم وطالبوا بطبقهم الأسبوعي *كاسيو إي بيبس*».

«هل هو طبق لذيد؟».

«إنه لذيذ جدًّا». ثم أضاف بعد لحظة تردّد: «هل أنت جائعة؟».

قرقرت معدتي، واختلجت شفتاه. «هل تتفضّلين بتناول العشاء معي، نورا؟»، وأضاف مستبقًا إجابتي: «من موقع *الزمالة*. كزميل وزميلة لا يملك أحدهما المواصفات المطلوبة على قائمة الآخر».

«لم *أكن* أعلم أن لديك قائمة».

«من المؤكّد أن لديّ قائمة». لمعت عيناه وسط الظلمة، وأضاف: «ماذا أكون؟ هل أنا حيوان؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الرابع عشر

«حسنًا، هل هو الشابّ شارلي لاسترا الذي أعرفه!؟». قالت سيدة متقدّمة في السنّ بحماسة عالية فيما تقدّمت نحونا وعلى قمّة رأسها قرص من الشعر الأبيض الفضي، وفستانها عند خطّ الرقبة يكاد يغطّي ذقنها. «ها إنكَ تأتي بصحبة صديقتك! هذا رائع!».

تلألأت عيناها العسليّتان ببريق ساطع فيما أحاطتنا نحن الاثنين بذراعيها وشدّتنا إليها.

بدت ابتسامة شارلي في تلك اللحظة أخّاذة بالمقارنة طبعًا مع مقاييسه المعتادة في الابتسام. حتى أمايا لم تحظَ بمثل هذه الابتسامة.

«كيف حالك يا سيدة ستروثرز؟»، سألها.

رفعت يديها مشيرة إلى صالة العشاء الصاخبة بالروّاد. وقالت «هل أنتما بمفردكما؟».

عندما هزّ شارلي رأسه إيجابًا، سارت بنا إلى طاولة صغيرة قرب النافذة عليها غطاء أبيض ومجموعة من الشموع وُضعت في زجاجات نبيذ فارغة وملفوفة بحبال من الفتيل كانت تتلقّف قطرات الشمع الذائب.

«أهلا وسهلًا بكما. أرجو أن تستمتعا»؛ قالت، وضربت بكفّها برفق على الطاولة وغمزت بطرفها، ثم عادت إلى مكان وقوفها السابق لترحّب بالزبائن.

كانت رائحة الخبز الطازج رائعة. لم تمضِ دقائق قليلة حتى وصلت زجاجة نبيذ أحمر إلى طاولتنا.

«أوه، لم نطلب هذا»، قلت للنادل. لكنّه أشار برأسه إلى السيدة ستروثرز، وابتعد عن الطاولة مسرعًا.

نظر إليّ شارلي فيما كان يسكب النبيذ في كأسي، وقال: «إنها مالكة

المطعم. وكانت المعلمة البديلة لصفّنا في حال غياب معلّمتنا، والمفضَّلة لديّ؛ خصوصًا أنها أعطتني كتاب أوكتافيا بَتلر Octavia Butler الذي غيّر حياتي».

ارتعش قلبي برفّة غامضة على وقع كلماته. ثمّ أشرت بذقني إلى كأس النبيذ، وقلت: «ستشرب أنت هذا الكأس. أنا سبق وشربت كأسين هذا المساء، وجسمي النحيل لا يحتمل كمية أكبر من الكحول».

«آه، تذكّرت»، قال وأزاح الكأس باتجاهي. «ولكنّه نبيذ. إنه عصير الكرمة، وهذه ميزته من بين أنواع الكحول كافّة».

مدّيتُ ذراعي عبر الطاولة حتى وصلت يدي إلى الزجاجة فالتقطتها وملأت كأسه حتى الشفة. وبأقصى البرود، قوّس ظهره، وانحنى برأسه فوق الكأس وارتشف منه من غير أن يرفعه.

خرجت مني ضحكة عالية غير إراديّة، فبدا مسرورًا بقدرته على إضحاكي. ومن جهتي، شعرت بانتعاشة كبرياء لذيذة لأني عرفت أنه يرغب في إضحاكي.

«إذًا، إلى أيّ درجة يجب أن أشعر بالذنب لأني أدرت ظهري لبليك؟»، سألته.

استرخى شارلي في جلوسه، ومدّ ساقيه تحت الطاولة مفتّشًا عن ساقيَّ. «حسنًا، عندما كنّا في الصفوف الثانوية، كان يأخذ كتبي من خزانتي في غرفة الرياضة، ليضعها في خزان ماء المرحاض في الحمام. لذلك أقول: ربّما بنسبة ثلاثة من عشرة».

«كلا! غير معقول!»، قلت وكتمت ضحكي. كنت أستمتع بحالة من الخدر السعيد كأن نسبة الأدرينالين لمّا تزل مرتفعة في عروقي بعد مغامرة الهروب.

«كم عدد المواعدات الهدّامة المتبقّية على قائمة عطلتك؟»، سألني.

ابتلعت رشفة من كأسي وقلت: «هذا يتوقّف على عدد المتنمّرين في مدرستك».

أجاب بضحكة منخفضة وجافّة، أعادت إلى ذاكرتي انتعاشة الرضى التي تواكب صوت طابة التنس فوق المضرب عندما تكون الردّة سديدة.

لصوته وضحكته ملمس؛ إنهما يخدشان. ابتلعت رشفة إضافية من النبيذ لكي أبدّد تلك الأفكار. ثم انتقلت إلى شرب الماء.

«هل تقصدين أنك ستسعين إلى مواعدة الذين كانوا يتنمّرون عليّ أم إلى إهانتهم؟»، قال ثم أخذ قطعة خبز من السلّة، ومزّق منها نتفة، ودفعها بين شفتيه.

أدرت نظري عنه عندما شعرت بدبيب حارّ يرتفع إلى عنقي. «ذلك يتوقّف على ما إذا سألني في الدقائق الخمس الأولى من اللقاء عن قياس قدمي».

غصّ شارلي بما كان في بلعومه، ثمّ أسرع إلى الاستفسار: «هل تقصدين تلك الميول الشاذة في عشق القدمين؟».

أظن أن ردّ فعل بليك على طولي لم يكن طبيعيًّا، بل شيءٌ في هذا السياق: *واو، هل حدث أن سقطت في مستوعب للفضلات المشعّة حتى أصبحت بمثل هذا الطول؟*

فكّر شارلي وقال: «لطالما أوحى بليك بأنه يعاني من نقص الثقة في ذاته».

قطع حوارنا مع الأسف نادل مراهق ليسجّل طلبنا: طبقان من السلطة مع جبن الماعز، وآخران من *كاسيو إي بيبس*.

وما إن ابتعد النادل، حتى قلت: «إنها ليبي التي اختارت بليك؛ فهي التي استخدمت التطبيق لأجلي».

«تمامًا»، قال ورفع حاجبيه بتوجّس متممًا، «موم».

«تشترط القائمة مواعدتَيْن. والأولى كانت مع بليك».

تحرّكت عينا شارلي في حركة توحي بالضجر، وقال: «خفّفي العناء عن نفسك، واحسبي هذا اللقاء بيننا الرقم الثاني».

«قلت لكَ إنك غير محسوب».

«يا لها من كلمات يحلم كل رجل بسماعها!»، قال.

«يمكنكَ أن تعدّ نفسك مثل عصير الكرمة بين أنواع الكحول».

«إذًا، يشترط البند الخامس على القائمة أن تخرجي في مواعدتَيْن فاشلتين مع رجلين لا يمكنك تحمّل مجالستهما، وفي بلدة لا تتحملين العيش فيها. ماذا يقول البند السادس بعد ذلك؟ هل يشترط أن تستأصلي جزءًا من دماغك، بملء إرادتك؟».

أزحت كأسي الذي ما زال شبه مليء باتجاهه، وقلت: «ما برحت أنتظر *أسرارك*، لاسترا».

أعاد الكأس إلى وسط الطاولة، وقال: «أصبحت تعرفينها. أنا الابن الضالّ غير المرغوب به، الذي جاء إلى هنا ليدير أعمال مكتبة تنحدر بسرعة نحو الإفلاس، فيما أبي مشغول بجلسات علاجه الفيزيائي، وأمي مشغولة في إقناعه بعدم تسلّق السطح لتنظيف مزاريب المياه».

«لا بأس». قالها بنبرة تظهر أن جملته تنتهي بنقطة تؤكّد الرغبة في وضع حدّ للمساءلة.

«ودار النشر لوجيا تتفهّم الوضع، وتسمح لك بالمتابعة في عملك من بعيد»، قلت.

«حاليًا، نعم»، أجاب شارلي. وعندما تلاقت عيناي بعينيه، وجدت أن لونهما اشتدّ قتامةً. يبدو أني لامست في الحديث حدًّا محظورًا. والأسوأ من ذلك، أشعر مثل النحلة التي تعثرت أرجلها في العسل الكثيف وباتت غير قادرة على المغادرة.

«والآن، أيّ سرّ هدّدتكِ ليبي بإفشائه حتى خرجتِ مع بليك؟»، سألني شارلي. «هل سرَّبتِ يومًا أسرار الدولة؟ هل اقترفتِ جريمة؟».

«وأنا التي ظننت أن لديكَ أختًا تصغرك سنًّا!؟»، قلت له.

استرخى في مقعده، وقال: «إنها كارينا وعمرها اثنان وعشرون».

مع إني تعرّفت إلى والدته، أجد صعوبة في تصوّر شارلي وسط عائلة. يبدو لي مستقّلا إلى حدّ كبير...، وربّما هذا ما يقوله الناس عنّي أيضًا.

أوضحت: «أليس باستطاعة كارينا دفعك إلى القيام بأمر بمجرّد أن تطلب ذلك منك؟ خصوصًا بعد تفادي اللقاء بك طيلة أشهر، وبعد الامتناع عن مشاركتك أسرارها. وبعد أن تبدو باستمرار كأنها أفلتت للتوّ من خطر أن يجرّها قطار سريع».

«كارينا هي السبب في وجودي هنا»، قال متردّدًا.

أحنيت جذعي فوق الطاولة، حتى كادت حافّتها تكسر ضلوعي. أحسست كأني أقرأ قصّة مثيرة وغامضة، وأن سرّا سينكشف أمامي، ووجدتني أقاوم رغبتي الجامحة في القفز فوق السطور، لكي أصل إلى النتيجة على عجل.

قال تشارلي: «كانت تخطّط للعودة إلى هنا، وتتسلّم إدارة المكتبة بعد تخرّجها من الجامعة ثمّ قرّرت في الدقائق الأخيرة البقاء في إيطاليا. إنها رسّامة وستبقى في فلورنسا».

قلت: «واو! شأنها شأن كثيرين؛ ينتقلون للعيش في إيطاليا لمجرّد الرسم».

عقد شارلي حاجبيه، وراح يدير كوب الماء بأصابعه. ثمّ أعاد ترتيب أدوات المائدة التي أمامه، ورصفها في خطّ واحد. كنت أراقبه بلذة، كأن أحدًا كان يدلّك ظهري عند النقطة التي تحكّني بين الرفشين.

«هذا ما تفعله النساء في عائلتي. أمّي ذهبت إلى هناك عندما كانت في العشرين لكي تمضي أسبوعين وترسم. ولكنها بقيت هناك طيلة عام كامل».

«أعرف جيّدًا هذه الروح الحرّة، وأهواءها المتقلّبة التي تضفي لمسة من السحر على حياة الآخرين. مثل هذا السيناريو مألوف لديّ تمامًا»، قلت.

«بعض الناس يدعونه سحرًا. ولكني أفضل التفكير به كردّ فعل استثنائي على الضغط المزمن. كانت كارينا تسكن في نزل يملكه تاجر مخدّرات، إلى أن اكتشفتُ أنا الأمر وحجزت لها غرفةً في مكانٍ آخر».

ارتجفت فرائصي: «إنها تمامًا أختي ليبي في إطارٍ موازٍ».

«الأخوات الصغيرات»، قال، وتلوّت شفتاه، وازداد الخطّ المتغضّن عمقًا تحت شفته السفلى.

تفرّست في وجهه لحظة طويلة، وتلعثم تفكيري قبل أن يعيدني إلى سياق الحديث. ثمّ سألته: ماذا عن والدك؟ كيف هو؟».

أعاد رأسه إلى الوراء وقال: «إنه هادئ وقويّ. مقاول بناء في بلدة صغيرة نجح في الاستحواذ على قلب أمي إلى درجة جعلتها تقرّر البقاء وتمكين جذورها هنا».

إزاء علامات الرضى التي ظهرت على وجهي، قابلني بالانحناء مثلي فوق الطاولة، وقال: «نعم، إنهما الصورة الأمثل لقصّة الحب الرومنسية التي تحدث في البلدات الصغيرة». أقرَّ بالأمر، والتمعت عيناه فيما كانت ركبتاه تلامسان ركبتيّ في لعبة تحدّ واضحة تحت الطاولة. من سيكون الأكثر جبنًا ويهرب من هذه المواجهة أولًا؟

طالت الثواني وتمغّطت كأنها كثيفة وثقيلة مثل الدبس.

قال أخيرًا: «حسنًا ستيفنز، هيّا أخبرينا عن *عائلتك*. في أي خانة تضعينهم؟».

في تصنيفك الكاريكاتوري ثنائي الأبعاد (المسطّح والبسيط)؟».

أجبت: «هذا سهل. ليبي هي البطلة الفوضوية والجذابة من قصص الكوميديا الرومنسية في التسعينيّات. غير دقيقة في مواعيدها، وتتقلّب بحسب أهوائها بطريقة لطيفة ومثيرة. والدي هو الزاوية المظلمة، إنه الأب الغائب الذي لم يكن حاضرًا ليصبح أبًا. لكنه، وبحسب ما أخبرنا المفتّش الخاصّ الذي كلّفناه مهمّة البحث عنه، يصطحب أولاده الثلاثة وزوجته في يخته الخاص فوق بحيرة إيري في كل عطلة نهاية الأسبوع».

«وماذا عن والدتك؟» سألني.

«أمّي...»، قلت ورتّبت أدوات المائدة التي أمامي كأنها الكلمات التي ستؤلّف الجملة، وتابعت: «أمّي كانت مصدر السحر». والتفتّ إلى عينيه بانتظار أن أجد فيهما ابتسامة هازئة، أو ماكرة، أو غيمة تنبئ بعاصفة، لأجد عوضًا عنها، مجرّد تغضّن في حاجبيه. فأضفت: «كانت الممثلة التي

حلمت واجتهدت وتبعت أحلامها إلى نيويورك. لم يكن لدينا ما يكفينا من المال، ولكنها نجحت في أن تضفي جوًّا من المرح على حياتنا في جميع *الأحوال*. كانت الصديقة الأقرب لي؛ ولا أعني بعد أن كبرنا. إلى أبعد ما يمكنني أن أتذكّر، كانت أمي تأخذنا معها إلى كل مكان. كما تعلم، بالنسبة إلى معظم الناس الذين ينتقلون إلى العيش في المدينة، سرعان ما يخفت بريقها في أعينهم بعد أعوام قليلة، أما بالنسبة إليها فكان لكل يوم عاشته في نيويورك بريقه كأنه اليوم الأوّل».

ظلَّ صامتًا، فتابعت: «شعرت أمّي بأنها محظوظة جدّا لكونها في نيويورك، *والجميع* كان يحبّها. كانت رومنسية إلى حدّ كبير. ليبي ورثت الرومنسية عنها، وبدأت تقرأ روايات أمّي الرومنسية في سنّ مبكرة جدًّا».

«كنتِ مقربّة منها؟»، سأل شارلي بهدوء، بنبرة تراوحت ما بين الملاحظة والسؤال.

أجبت بهزّة من رأسي؛ وأكملت: «كانت تجعل كل الأمور تبدو أفضل».

ما زلت أشمّ عطرها بمزيج الخزامى والليمون، وأشعر بذراعيها الرفيقتين حولي، وأسمع صوتها يقول - *هيّا يا حلوتي، أخبريني*. كانت تكفيني نظرتها وتلك الكلمات الأربع لكي أفصح عن كل ما يعتمل في داخلي. أقوم بأفضل ما لديّ إزاء ليبي، ولكني لا أملك ذلك القدر من الليونة التي تخترق أسوار الكتمان.

رفعت عينيّ إلى شارلي، فوجدته لا يصغي إلى كلامي بقدر ما كان يحلّل تعابيري. وجدت عينيه تطيران فوق وجهي في كل اتجاه كأنها تريد ترجمة خطوطه وظلاله إلى كلمات؛ كأنه رأى أني كنت أبذل جهدي لتحويل الحديث إلى اتجاه آخر بطريقة انسيابية سلسة.

تنحنح قليلًا، وأعطاني الأداة لذلك: «قرأت بعض الكتب الرومنسية في صغري».

ارتياحي إزاء التغيير في وجهة الحديث تحوّل بسرعة إلى أمرٍ آخر، فضحك شارلي وقال: «ماذا حدث؟ أي قناع شرير اكتسى به وجهك الآن؟».

«هذه هي صورة وجهي المسرور»، قلت. «هل علّمتك تلك الكتب أمرًا مفيدًا؟».

أجاب متمتمًا «علّمتني أنه من غير الحكمة أن أفصح عن مثل هذه المعلومات أمام زميلة لي».

«إذا فالجواب هو كلّا».

«هل هكذا توصّلتِ إلى حبّ الكتب؟ لأن والدتكِ كانت تحبّ الروايات العاطفية؟»،.

حرّكت رأسي بالنفي؛ وقلت: «بالنسبة لي، مكتبة فريمان بوكس كانت السبب».

«أعرفها»، قال شارلي.

أوضحت: «كنا نسكن فوقها. وكانت السيدة فريمان تقدّم برامج مجانيّة وهدايا في مقابل شراء كل كتاب، ممّا برّر لأمي إنفاق المال على الكتب. أبدًا لم أكن أشعر بالضغوط هناك. كنت أنسى كل ما يدور في الخارج من صعوبات، وأشعر كأني أستطيع أن أفعل كل شيء وأن أذهب إلى كل مكان».

«المكتبة الجيّدة، مثل مطار تطير منه وإنما من غير أن تخلع حذاءك[1]».

«هذا صحيح. من الحكمة ألّا يفعل روّاد المكتبة ذلك»، قلت.

«أفكّر أحيانًا بفائدة أن تضع غودي بوكس إعلانًا بهذا المعنى. ولهذا لا أتوجه لزبون أبدًا بالقول: *استرخِ كأنك في منزلك*»، أجاب شارلي.

«طبعًا؛ لأنك لو فعلت ستجد الأحذية وحمّالات الصدر تتطاير، وأغاني مارفن غاي المثيرة Marvin Gaye تعلو أصداؤها في فضاء المكتبة»، قلت له.

«من كل نواة معلومة تقدّمينها يا ستيفنز تخرج مئات الأسئلة الجديدة. ومع ذلك *ما* زلت أجهل كيف وصلتِ إلى عملك الحالي كوكيلة أدبية».

«صمّمت السيدة فريمان برنامجًا يقوم على توزيع بطاقات خاصّة

---

(1) يطلب مسؤولو الأمن من المسافرين خلع أحذيتهم لأجل التأكد من عدم احتوائها على المتفجّرات.

تسمح لروّاد المكتبة بإبداء آرائهم حول ما يقرأونه من الكتب، وأسمته ´*عشاق الكتب ينصحون*´، وكانت تدعونا عشّاق الكتب الصغار. منذ ذلك الوقت، بدأت أميل إلى مقاربة الكتب بأسلوب نقدي».

وإذا بالخطّ الذي تحت شفته السفلى يتحوّل إلى تغضّن عميق. «وهكذا بدأتِ تكتبين النقد اللاذع؟»، سألني.

أجبت: «أصبحت آرائي أكثر حدّة، ثمّ بدأت أغيّر في بعض أجزاء النص. كنت أغيّر مثلًا في نهاية القصّة إذا اشتكت ليبي منها؛ وأغيّر أبطالها إذا كانوا كلّهم من الذكور، فتجدني أضيف إليهم أحيانًا فتاة شعرها أشقر مائل إلى حمرة الفراولة».

«إذًا كنتِ الطفلة المحرّرة»، قال شارلي.

«إنها المهنة التي أردتها لنفسي. بدأت العمل في المكتبة في مرحلة دراستي الثانوية، وطيلة المرحلة الأولى من دراستي الجامعية. كنت أريد توفير المال لكي أتمكّن من متابعة برنامج إيمرسن لإعداد المحرّرين Emerson´s publishing program. ثمّ توفيت والدتي، وأصبحت بحكم القانون وليّة أمر ليبي، وبالتالي كان عليّ العدول عن خطّتي. بعد حوالي عامين، توفيت السيدة فريمان أيضًا، وكان على ابنها التخفيف من عدد الموظفين لكي يتجنّب الخسارة. استطعت أن أجد لنفسي وظيفة إدارية في وكالة أدبية، ومن هناك، يمكنك استنتاج بقية القصة».

لم يكن هذا كل شيء بالطبع. لا أنسى تلك السنة حين كنت أعمل في وظيفتين، ولا أنام سوى في الساعات القليلة الفاصلة بين الدوامَين. وعندما اكتشفت المهارة التي أتمتّع بها، وهي قدرتي على تهدئة روع المؤلّفين عندما يتّصلون من أجل التحدّث إلى وكلائهم ولا يجدونهم في المكتب. إضافةً إلى المسوّدات العديدة التي كنت أستخرجها من كدسات الأوراق المهملة، ثم ألفت نظر المديرين إلى مزاياها، لتصبح بعد نشرها على قائمة الكتب الأكثر مبيعًا.

ثمّ جاءني العرض لأصبح وكيلة أدبية مبتدئة؛ وقائمة السيئات التي

دوّنتها في حال قبولي به: كان عليّ التخلي عن عملي بدوام جزئي كنادلة، والتخلّي عن راتب منتظم لأن الكسب بحسب الربح الذي أحقّقه لصالح الوكالة من إبرام الاتفاقيات بين المؤلفين والناشرين، كان مخاطرة. كان من الممكن أن يعيدنا ذلك إلى بؤرة الفقر الذي كنت أجتهد منذ وفاة أمي لكي نخرج منها.

استفضت في تدوين السلبيات والإيجابيات. لكني، وبعد أن تذوّقت حلاوة العمل في مجال الكتب، عرفت أني لن أكون سعيدة في أي مجال عمل آخر.

أخبرت شارلي بأني قرّرت آنذاك القبول بالعرض من باب التجربة. «أعطيت لنفسي مدّة ثلاثة أعوام، ومبلغًا من المال يجب أن أجمعه في تلك المدّة. وقلت لنفسي إني لو لم أستطع بلوغ هذا الهدف، فسوف أتخلّى عن هذا النوع من العمل، وأبحث عن عمل حيث أتلقّى مرتّبًا شهريًا ثابتًا».

«كم استغرق تحقيقك للمبلغ الذي حدّدتِه؟»، سأل شارلي.

افترّت شفتاي عن ابتسامة غير إرادية عندما أجبت: «ثمانية أشهر».

وافترّت شفتاه عن ابتسامة أيضًا. *الابتسام الذي يذكّر بومض السكاكين*، وتمتم: «طبعًا حقّقتِه»؛ والتقت عينانا لبرهة طويلة، وقال: «ماذا عن مجال التحرير؟».

شعرت بالغمازة تظهر على خدّي حتى قبل أن أكذب. في الواقع، بحثت في السنوات الأولى عن الوظائف الشاغرة في مجال التحرير بما يشبه الهوَس. حتى إني ذهبت مرّة إلى مقابلة. ولكني كنت على وشك إبرام اتفاقية بيع كبيرة في الوكالة، إضافة إلى أني توجّست من القبول بوظيفة محرّرة مبتدئة براتب منخفض. لذلك قمت بإلغاء المقابلة الثانية قبل موعدها بثلاثة أيام. لم أخبر شارلي بشيء من ذلك، بل أجبت:

«إني جيّدة في عملي كوكيلة. ماذا عنك؟ كيف أصبحت محررًا؟».

رفع يده فوق خصلات شعره المتموّجة والمتألقة بسوادها وبياض شيبها، وقال: «عانيت من صعوبات جمّة في المدرسة عندما كنت صغيرًا. لم أكن قادرًا على التركيز والاستيعاب، وكان لذلك تأثير على تقدّمي».

حاولت إخفاء المفاجأة عن وجهي.

«لستِ مجبرة على ذلك»، قال بدعابة.

«على ماذا؟»، قلت.

«المحافظة على ردّ فعل نورا اللائق والإيجابي. فإن شعرتِ بالذعر إزاء فشلي، لا تخفيه لأني أتقبّله».

«ليس الأمر كذلك، ولكنّك... توحي بكونك شخصية أكاديمية. قد أتوقّع مثلًا أن تكون أكاديميًّا متميّزًا مستوفيًا شروط 'منحة رودز' في جامعة أوكسفورد Rhodes Scholar، وعلى مؤخّرتك وشم مكتبة بودلين».

«لو كان الأمر كذلك، أين كنت سأضع وشم الهرّ غارفيلد؟»، سألني بنبرة جدّية جعلتني أضحك فيما كنت أرشف من كأسي، حتى بصقت للتوّ ما كان في فمي إلى داخل الكأس. «واحدة في مقابل واحدة»، أعلن بابتسامة خفية.

«ماذا تقصد؟».

«نتائجنا في مسابقة البصاق»، أجاب.

حاولت إخفاء ضحكي ولم أفلح. التزام شارلي بقول الحقيقة كان معديًا، والحقيقة هي أني كنت مستمتعة بما يجري. فتابعت: «ماذا حدث بعد ذلك؟ أقصد بعد إخفاقك في المدرسة؟».

تنهّد، وأصلح ترتيب أدوات المائدة وقال: «سبق وتعرّفتِ إلى أمي...، لديها أسلوبها الخاصّ في مقاربة الأمور. أرادت ببساطة أن تفصلني عن المدرسة، وتحتفظ بي في البيت لكي أساعدها في الاهتمام بحديقة الماريجوانا تحت مسمّى (التدريس البيتي). ولكن أبي كان الأكثر استقرارًا في اتّخاذ القرار». أنهى جملته بابتسامة رقيقة، ثم تابع: «فكّر أبي أني حتى لو لم أنجح في المدرسة، لا بدّ أن أكون ناجحًا في مجال مختلف. وعقد العزم على اكتشاف مواهبي. أراد معرفة الأمور التي تشدّني وتحفّزني على التركيز. جرّب الكثير من الهوايات معي، حتى حدث أخيرًا وابتاع لي جهاز سي دي (لتشغيل الأقراص المدمجة) - ربّما كان يأمل أن تكون لديّ

موهبة موسيقية خارقة وأتحوّل بين ليلة وضحاها إلى جاكسون براوني آخر. ولكني عوضًا عن ذلك، هرعت إلى تفكيك الآلة».

قابلته بوجه جدّي وقلت: «وهكذا اكتشف شغفك لتصبح قاتلًا بالتسلسل».

أضاءت عيناه عندما انفجر ضاحكًا. «هكذا اكتشفَ شغفي إلى معرفة الطريقة الكامنة وراء سير الأمور. كنت أعلم أن العالم يسير بطريقة معيّنة، وأصبو إلى اكتشاف تلك الطريقة. وبعد ذلك، بدأ أبي يدعوني إلى مساعدته في تصليح سيارته أحيانًا، وتعلّمت الكثير في هذا المجال».

«في *الثامنة*؟ »، سألت باستغراب.

«تبيّن أني قادر على التركيز بشكل كبير على الأمور التي تستميلني تحديدًا»، أجاب.

على الرغم من جدّية الموضوع، شعرت وكأن حممًا بركانية ترتفع من أصابع قدميَّ عبر ساقيَّ، وتلفّني.

أزحت عينيّ عنه، ونظرت إلى كأسي. «إذًا هنا يكمن سرّ حصولك على سرير يشبه سيارة السباق؟ ».

«بالإضافة إلى عشرات الكتب التي تتحدّث عن السيارات وكيفيّة إعادة بنائها. وإذا بعادة القراءة تتمسّك بي، وحبّي للأمور الميكانيكية يتراجع فجأةً بين ليلة وضحاها».

«هل أزعجه ذلك كثيرًا؟ ».

أخفض شارلي عينيه في تلك اللحظة، واكفهرّ جبينه وتقطّب حاجباه، وأجاب: «كل ما كان يريده هو أن أحبّ شيئًا معيّنًا، أيًّا كان».

مفهوم الأبوّة غريب عن حياتي اليومية، كأنه مفهوم رجال الفضاء. أعلم أن الآباء موجودون في العالم، إنما نادرًا ما أفكّر بهم. غير أني أصبحت فجأةً في تلك اللحظة قادرة على تخيّل دورهم. أوشكت حتى على الشعور بحاجتي إلى هذا الأمر الذي لم أنعم به مطلقًا.

«هذا لطيف للغاية»، قلت، وأحسست أن ما قلته لا يفي فحسب بالمعنى الحقيقي؛ بل ترجمة سطحية لأمر بعيد المدى وغير محدود.

قال شارلي بهدوء: «إنه رجل طيّب. ما لبث أن أهمل شأن السيارات، وراح يزوّدني بالكتب كيفما تيسّرت له الظروف. كان يتوقّف أمام البيوت التي تعرض مقتنياتها المستعملة للبيع، ويشتري لي الكتب المعروضة. أو يأتيني ببعض الكتب التي يتبرّع بها الناس للمكتبة. ولكن لم يكن على دراية بكميّة الأدب الإباحي الذي كان يضعه بين يديّ».

«وكنت تقرأها؟».

أدار شارلي كأس النبيذ بين أصابعه نحو 180 درجة، وعيناه لا تبرحان وجهي، وقال: «كنت أريد أن أفهم كيف يحدث كل شيء».

رفعت حاجبي، وسألت: «وكيف كان تأثير ذلك عليك؟».

انحنى صوبي من مقعده، وقال: «أصبت بخيبة أمل بسيطة في العلاقة الجدّية الأولى التي خضتها في حياتي، عندما لم تبلغ حبيبتي الذروة ثلاث مرّات متتالية. وعدا ذلك لا شيء».

انطلقتُ في نوبة عارمة من الضحك، وعندما هدأتُ، قال: «لعلّك وجدتِ المفتاح إلى سعادة نورا ستيفنز؛ وهو إذلالي من الناحية الجنسية».

«لم يضحكني الإذلال، بقدر ما أضحكني تفاؤلك الكبير».

عصر شفتيه قليلًا، ثم أجاب: «أعتبر نفسي واقعيًا، ولكني من أولئك الذين قد لا يلاحظون دائمًا أن الذي يرونه ليس واقعيًّا».

«لماذا إذًا هربت إلى نيويورك؟».

«لم أهرب، بل انتقلت. أين الفرق؟».

«لم أكن هاربًا من أحد. فالهروب يفترض التحرّك بسرعةتابعت دراستي في جامعة محليّة خلال سنتين تقريبًا، وعملت مع أبي في مشاريع البناء من أجل توفير المال، لأتمكّن من التحوّل إلى الجامعة في نيويورك على مستوى السنة الأولى».

«لا أرى فيك ذلك الشخص الذي يقف معتمرًا خوذة واقية في ورشة البناء».

«لست الشخص الذي يختبئ تحت قبّعة من أي نوع. كنت بحاجة إلى

المال لكي أستطيع الانتقال إلى نيويورك. كنت أظن أن مؤلفي الكتب كلّهم يعيشون هناك».

«آه، ها هي الحقيقة تخرج إلى النور. كنتَ تصبو لأن تصبح كاتبًا».

وإذا بعقلي ينتقل فجأة إلى جايكوب، كأنه كتاب تعوّد أن يكون مفتوحًا على هذه الصفحة.

«كنت أظنّ ذلك، ولكني لاحظت في الجامعة ميلي المفضّل إلى العمل في تحسين نتاج الآخرين. أحبّ الغموض والعمل على حلّه. أحبّ رؤية الأجزاء كلّها واكتشاف الأهداف التي تسعى إلى بلوغها، وكيفية إيصالها إلى الغاية المنشودة»، قال تشارلي.

شعرت بغصّة الحنين. «هذا هو أيضًا النشاط المفضّل لديّ في هذا الحقل»، قلت.

تفرّس في وجهي لحظة، وقال: «بحسب رأيي، أنتِ إذًا في غير مكانك الصحيح».

ربّما كان التحرير حلمي. ولكن لا يمكن تأمين الطعام والشراب والسرير الدافئ بالتمسّك بالأحلام. عملت في المهنة الأقرب إلى التحرير. كل منّا قد يحتاج إلى التخلّي عن حلمه في أحد الأيام. «هل تعلم ما أفكّر به؟».

بقيت عيناه معلّقتين عليّ، وحدقتاه تتّسعان كأنهما تمتصّان كل عتمة المكان. «كلّا، ولكنّي متشوّق إلى معرفته». قال بنبرة خالية من الانفعال.

«أعتقد أنكَ هربتَ بالفعل من هذا المكان».

أدار عينيه في جحريهما، وأسند ظهره إلى ظهر الكرسي، كأنه يتّخذ وضع هرٍّ وحشي. وقال: «غادرت بهدوء. في المقابل، أتوقّع أنك في غضون أسبوع لا أكثر، سوف تصرخين وتركضين باتجاه المدينة، راجيةً كل سائق شاحنة صغيرة تمرّ أن يقلّك إلى أقرب محلّ لبيع خبز *البيغل* Bagel».

لمست مستوى التحدّي في صوته، فرددتُ: «في الواقع، سأمكث هنا شهرًا كاملًا».

أطبق شفتيه، ثمّ تلفّظ بسؤال موجز: «هل هذا صحيح؟».

«نعم هذا صحيح. ليبي وأنا خطّطنا للقيام بنشاطات عديدة وممتعة. ولكنك تعلم ذلك. سبق واطّلعت على القائمة»، أجبت بنبرة التأكيد.

لأني لست نادين، فإني مرحة وعفوية، ولن يتسبّب ارتداء القميص القطني الخشن ذي المربّعات في إصابتي بطفرة جلدية، وسوف *أطبّق* بنود تلك القائمة كلّها.

زمّ عينيه، وسألني: «سوف تنامين في العراء تحت *النجوم*؟ وتقدّمين نفسك طعامًا مرغوبًا للبعوض؟».

«يوجد دواء يُرشّ على الجلد من أجل تفادي ذلك». أجبت.

« وستركبين *حصانًا*؟ قلتِ إنك تخافين جدًّا من الخيول».

«متى قلتُ ذلك؟»، سألت.

«في تلك الليلة عندما كانت الثمالة قد أخذت منك مأخذًا، قلتِ إنك ترتعبين من أيّ حيوان أكبر حجمًا من الغرير. ثمّ تراجعتِ وقلتِ إنك تخافين حتى من الغرير الذي لا يمكن توقّع سلوكه. لذا، لا أعتقد بأنك ستركبين حصانًا».

غيّرنا ركوب *الحصان* إلى *التربيت على ظهر الحصان*، ولكني الآن أقرّر عدم التراجع. «هل ترغب في المراهنة؟».

«المراهنة على أنكما لن تتمكّنا من نجدة مشروع تجاري من الإفلاس في غضون شهر واحد؟ مراهنة لا شكّ رابحة، ولن أحسبها مقامرة».

«ماذا ستعطيني لو ربحت؟»، سألته.

«ماذا تريدين؟ بعض أعضاء جسمي، أو شقتي التي وضعتها برسم الإيجار؟».

صفقتُ بكفي على يده فوق الطاولة. «هل لديك شقّة برسم الإيجار؟».

«إنها عندي منذ كنت في الجامعة. تقاسمتها مع شخصين آخرين، إلى أن استطعت دفع إيجارها بنفسي».

«كم عدد الحمّامات؟»، سألت.

«اثنتان».

«هل لديك صور للشقة؟».

أخرج هاتفه، وبحث قليلًا، ثمّ أعطاني الهاتف. كنت أنتظر مشاهدة صورٍ تبدو فيها الشقة بطريقة عرضية. لكن يبدو أن وسيطًا عقاريًّا محترفًا كان قد التقطها. بدت الشقة جميلة، وحسنة التهوية، ومصمَّمة بذوق وبساطة. بالإضافة إلى ذلك، فهي تبدو نظيفة جدًّا: شقّة رائعة.

غرف النوم صغيرة، إنما هناك ثلاث غرف. والحمام الرئيس مجهّز بمرآتين كبيرتين جدّا. إنه حلم الكثيرين من سكان المدينة.

«لماذا لديك كل هذا في الحمام...؟ هل لهذا صلة بأسلوبك في الجنس الإباحي؟».

«أسلوبي في الجنس الإباحي هو تلك الصفحة التي أملأها بملاحظاتي التحريرية بالحبر الأحمر. وأحتفظ بصور للشقّة، لأني أفكّر في تأجيرها أثناء مدّة مكوثي هنا».

«ليبي وعائلتها سوف يستأجرون الشقة عندما أربح الرّهان».

«هل أنت جادّة؟»، سأل بسخرية.

«قمت بأمور أكثر إزعاجًا لقاء مكافأة أقل. تذكّر بليك».

فكّر لحظةً، ثمّ قال: «حسنًا نورا، الشقة ستكون لكِ، إذا نجحتِ بتنفيذ كل ما هو مدرج على القائمة».

«وبلا شروط؟»، شدّدت. «ستتيح لهم استئجارها لمدة غير محدّدة؛ إلى أن يقرّروا الانتقال منها؟ وستجد مسكنًا آخر لنفسك لدى عودتك إلى نيويورك؟».

سخرَ وقال: «بالتأكيد! ولكن ذلك لن يحدث».

«هل أنتَ صاحٍ لما يجري الآن؟ لأننا لو اتفقنا وتصافحنا حول ذلك، فسوف يحدث».

نظر في عينيّ، ومدّ يده فوق الطاولة مصافحًا، وما إن لامست يده يدي حتى أوشكت حرارة الاحتكاك أن تشعل النيران في جسمي، وشعرت بقشعريرة تتسلّق ظهري وتنتشر بين كتفيّ.

لم أتذكّر أن أسحب يدي من يده، سوى عندما حضر النادل بقصّة شعره الدائرية حاملًا أطباق السلطة وصحون *كاسيو إي بيبس* وسط غيمة من الروائح المغرية جدًا. أجفلنا وصول النادل على حين غرّة، فأفلتنا يدينا للتوّ كأنه فاجأنا في وضع إباحي فوق الطاولة.

بعد ذلك، انصرفنا طيلة الدقائق العشر التالية، ومن دون توقّف، إلى التهام ما احتوته صحوننا من الباستا الطازجة التي صنعت باليد.

عندما انتهينا كانت معظم الطاولات الصغيرة مثل طاولتنا قد جرى ضمّها إلى بعضها لتؤلّف طاولات كبيرة اجتمع حولها عدد كبير من الساهرين. علت الضحكات في فضاء المطعم لتغطّي على الموسيقى الإيطالية الناعمة وعلى رنّات الكؤوس. أما روائح الخبز الطازج والصلصات المنكّهة والمحضّرة بالزبدة، فازدادت كثافتها في الجوّ.

قلت: «تُرى أين هو بليك الآن؟ أرجو أنه وجد السعادة مع تلك النادلة ذات القامة الصغيرة».

«أرجو أن رجالًا من المباحث الفيدرالية ألقت القبض عليه عن طريق الخطأ في مكان أحد المطلوبين»، قال شارلي.

قلت: «هكذا سيطلقون سراحه بعد 48 ساعة، ولكنه لن يكون سعيدًا حتى ذلك الوقت على الأقلّ». وعندما رأيت ابتسامة واضحة ترتسم على وجه شارلي، أضفت: «أرجو ألا يكون المحقّق طويل القامة مثلي؛ فذلك سيكون قاسيًا جدًّا عليه».

«أعتقد أن عليك أن تعلمي أمرًا». قال لي بصوت منخفض تحوّل إلى حشرجة مع ازدياد اقترابه مني فوق الطاولة. وإذا بقشعريرة تسري في ساقيّ عندما لامس باطن ساقه باطن ساقي.

انحنيت باتجاهه أيضًا، والتقت ركبنا ببعضها تحت الطاولة بترتيب الأصابع المتشابكة: ركبته ثم ركبتي، ثم ركبته ثمّ ركبتي.

وهمس: «لستِ طويلة القامة كثيرًا».

وهمست في المقابل: «طولي متساوٍ مع طولك».

«أنا أيضًا لست طويل القامة».

أحسست وكأن جسمي سمع عبارة هيّا *إلى ممارسة الحبّ إذًا*.

قلت: «ولكن بالنسبة إلى الرجال، مفهوم الطول *الزائد* غير موجود».

نظر في عينيّ بأسلوب بدا أكثر جدّية ممّا تستوجبها محادثتنا العابرة. أحسست بارتعاش على مساحة جلدي، كأن دمي مزدحم برقائق معدنية وعيناه مغناطيس يتجوّل فوقها.

«المفهوم غير موجود بالنسبة إلى النساء أيضًا. بل هناك *امرأة طويلة القامة*، ورجل يشعر بعدم الثقة الذاتية الكافية ليواعدها».

الفصل الخامس عشر

مشينا خارج المطعم في العتمة وفي ما يشبه الصمت التام، سوى من ذبذبات كهربائية تولّى الهواء نقلها بيننا.

«ليس عليك أن تسير معي كل الطريق إلى البيت»، قلت أخيرًا.

«طريقك هي طريق بيتي أيضًا»، ردّ شارلي.

تفحّصته بنظرة مشكّكة.

مال برأسه، وأنار قنديل الشارع وجهه. قلت في نفسي إني لا أصدّق أن هناك في العالم رجلًا آخر له حاجبان أجمل من حاجبي هذا الرجل. ولكني لست متأكّدة إن كنت قد لاحظت حاجبَي أي رجل آخر من قبل؛ ولذلك فقد يعود سبب إعجابي الحاضر إلى النقص في مصادر الإثارة في حياتي نتيجة تراجع وتيرة العمل في مجال النشر في هذا الموسم. وإذا بشارلي يجيب على شكّي بالقول: «حسنًا، ليست طريقي تمامًا، إنما غير بعيدة عن طريقي».

يتحوّل الرصيف عند أطراف البلدة إلى مساحة مغطاة بالعشب، ولكني كنت أنتعل حذاء مناسبًا هذه المرّة. وفيما تابعنا سيرنا لاحظت عند الجهة اليمنى للطريق، وجود درب ضيّقة تتلوّى صعودًا بين الأشجار، فقلت: «ماذا يوجد هناك؟».

أجاب: «أشجار الغابة».

«أعلم ذلك، ولكن إلى أين ينتهي الدرب؟».

مرّ بيده فوق وجهه، وأجاب: «إلى الكوخ».

«انتظر، هل هي الطريق الأقصر إلى هناك؟».

«ربّما كذلك»، أجاب.

«هل هناك سبب في عدم اختياره؟»، سألته.

رفع أحد حاجبيه، وأجابني: «لست في صدد دعوتك إلى رحلة تسلّق ريفية في منتصف الليل».

تخطّيته ومشيت في ذلك الاتجاه، فناداني:

«ستيفنز، ليس عليك أن تبرهني لي شيئًا الآن». وحثّ خطاه ورائي فوصل عطره الحارّ إليّ قبله. هذا العطر الذي أعرفه جيّدًا والذي ما زال يفاجئني لدى شارلي بما يحمله من لمسات إضافية من عطر القرفة وزهر البرتقال. «هيّا نعود إلى طريق الإسفلت»، قال، ونعقت فوق رأسينا بومة، وإذا بشارلي يخفض رأسه ويحميه بذراعيه.

رمقته بنظرة حادّة وقلت: «هل تخاف الظلمة؟».

«كلّا»، ردّ بقوّة، وحثّ خطاه على الدرب الترابية إلى جانبي. وأضاف: «ولكن يفاجئني كم تذهبان بعيدًا في فكرة تغيير أسلوب الحياة في البلدات الصغيرة. واعلمي أن هذه الغرّة على جبينك لا تجعلك تبدين أكثر ليونةً. بل تبدين بالأحرى مثل قاتلة جميلة تعتمر باروكة ثمينة».

قلت: «لم أسمع من كلامك سوى كلمتين ’جميلة، وثمينة‘».

لو أجريتُ عليك اختبار رورشاخ Rorshach blot[1]، فلا بدّ أنّك سترين في مكان ما من بقعة الحبر كلمتي جميل وثمين».

وفيما كنت أنظر إليه لمحت وراءه في مكان غير بعيد شلالًا يترقرق فوق منحدر صخري ويصبّ في حضن مجموعة من الصخور الضخمة المسنّنة ليؤلف ما يشبه بحيرة صغيرة ينعكس على صفحتها ضوء القمر عبر فتحة في لجّة الأغصان التي تغطّيها، فتخال الزبد فوق المياه المتساقطة كأنها أشكال لولبية متلاحقة من الفضّة.

«إنه البند السادس على القائمة»، قلت على الفور.

تبعت عينا شارلي اتجاه بصري، وقطّب حاجبيه وقال: «مستحيل».

ارتفع شوقي إلى مفاجأته على الفور بقوّة تنافس قوّة اندفاع المدّ على

---

(1) تحليل نفسي يعتمد النظر إلى بقعة من الحبر، وهو يساعد المحلّلين على التعرّف إلى الشخصية والوضع النفسي.

شاطئ المحيط. ولكن كان وراء إلحاحي سبب إضافي، وهو أني عندما كنت في الجامعة، كنت أتصرّف حيال الآخرين كأني الأمّ التي تخاف على أولادها من مغبّة السلوك الطائش. كنت التي تهتمّ مثلًا لئلّا يقع أحد الطلاب عن الدرج، أو لكي يحرصوا على عدم تناول مشروبٍ معيّن، إلا إذا سُكب أمام أعينهم من الزجاجة. أما بالنسبة إلى ليبي، فأنا هي الأخت التي ترعى أختها بشغف وتخاف عليها. وبالنسبة إلى عملائي، أنا هي الوكيلة القويّة التي تناقش وتضغط وتفاوض من أجلهم.

أما هنا، فإني لا ألعب أيًّا من تلك الأدوار. ولا يترتّب عليّ ذلك؛ خصوصًا عندما أكون إلى جانب شارلي لاسترا، المعروف بالدقّة والنظام وحسّ المسؤولية. لذلك أسرعت إلى حافّة الصخرة الأقرب وخلعت حذائي.

نادى شاكيًا: «نورا! لا أصدّق».

خلعت ثوبي، وسألت «لماذا؟ هل يوجد هنا تماسيح؟».

ورمقته في اللحظة المناسبة لأرى نظره يطير فوق جسمي، من لباسي الداخلي صعودًا ليحوم ثوانٍ وبحركة غريزية حول حمّالة صدري، قبل أن يحطّ على وجهي ضاغطًا على فكّيه. فأضفت: «أو أسماك قرش؟».

«واحدة فقط وهي أنتِ»، أجاب.

أكملت: «هل يوجد علَق، أو نفايات نووية؟».

«هل النفايات العاديّة لا تكفي لتؤذيكِ؟».

«أنا لا أطلب منكَ النزول إلى الماء».

«لن أفعل قبل أن توشكي على الغرق».

جلست على الصخرة وأرخيت ساقيّ في الماء الباردة، فشعرت بارتعاشة برد بين كتفيّ. «إني سبّاحة ماهرة جدًّا»، قلت له، قبل أن أنزلق إلى الماء وأكتم زعقة خاطفة كادت تخرج منّي.

«ما من شكّ أن المياه باردة»، قال شارلي بنبرة تنمّ عن الرّضى الذاتي.

«معتدلة»؛ أجبت، وتقدّمت إلى أن غمرتني المياه حتى صدري. «الغرق في هذه البركة قد لا يحدث بسهولة».

مشى إلى الحافّة، وقال: «غير أن الإصابة بالتهاب بكتيري ليس صعبًا».
«يمكن الظن أن الغطس في هذه البركة طقسٌ تقليديٌ أساسيٌّ في حياة أهالي صنشاين فولز».
«هل أبدو ممّن قد يمارسون هكذا نوع من الطقوس المحليّة؟».
«حسنًا، حذاؤك من نوع ساندرو؛ ولاحظت أكثر من ثلاث مرّات أنك ترتدي ثيابًا من الكشمير الفاخر. هذا يعني أنك على الأرجح لا تمارس مثل هذه الطقوس».
«يهمّني أن تحتوي خزانتي على مجموعة مدروسة من الثياب التي تتلاءم بين بعضها. لا أشتري سوى الأشياء التي يمكنني ارتداؤها مع كل الثياب الأخرى التي في حوزتي، والتي أعلم أني أحبّها بدرجة كافية تسمح لي الاستمرار في ارتدائها طويلًا. إنها ما يسمّى بالخزانة الكبسولة Capsule wardrobe. أستثمر في الثياب التي أشتريها»، أوضح شارلي.
علّقت بجملة نمطيّة: «ابن مدينة بكل ما للكلمة من معنى».
أدار عينيه، ثمّ قال: «تعرفين أن ما تفعلينه لا يلبّي شروط البند السادس على القائمة؟ إنه غير محسوب. في مانهاتن، ربّما كانوا سيعتبرون أنك تسبحين عارية؛ أما في صنشاين فولز، فنجد أنك ترتدين لباس سباحة من نوع مميّز».
كان يواجهني بتحدٍّ جديد.
وأنا امرأة ممسوسة. ولذلك غطست تحت سطح الماء على الفور، وفتحت حمّالة صدري، ورميتها عليه فاصطدمت بصدره. «أقرب»، قال، ثمّ أمسك بها من طرفها وتأمّل الدانتيل الأسود الجميل تحت ضوء القمر.
قال بجدّية: «كل هذا كان سيُهدر على بليك كارلايل».
قلت: «لا أرتدي من الملابس الداخلية سوى الغالية والجميلة، ومن الطبيعي أن تُهدر أحيانًا».
«تتكلّمين مثل سيّدة من المجتمع المخملي».
اندفعت على ظهري إلى الوراء، وأصابع قدميّ تلامس القعر الصخري

الأملس. «أعتقد أننا أثبتنا بالبرهان أنّك الأرستقراطي بيننا. ها أنا أغطس عارية في جدول بسيط، بينما أنت لا تستطيع السباحة».

أدار عينيه تبرّمًا، وقال: «أستطيع السباحة».

«شارلي، لا عيب في قول الحقيقة»، قلت ساخرةً.

«تذكّري عندما كنتِ تدّعين التهذيب».

«هل تشتاق إلى ذلك؟».

«كلّا، البتّة»، أجاب، وخلع قميصه ورماه فوق الصخور. «أنت هكذا أحبّ إلى القلب وأكثر مرَحًا»، وعندما هبط بنطاله إلى ركبتيه، تذكّرت أن أدير نظري عنه، وبعد دقيقة، عندما انشقّ وجه الماء، استدرت لأجده جافلًا بسبب البرودة التي فاجأت حرارة جسمه.

«اللعنة! إنها باردة - اللعنة!».

«كم لسانك ناعم!»، قلت، وسبحت نحوه، وأضفت: «البرودة محمولة».

«هل من الممكن أن ليس في جسمكِ موصلات كافية للألم؟».

«ليس ممكنًا، بل محتملٌ. قيل لي مرّةً إني أفتقر إلى المشاعر».

قطّب شارلي حاجبيه وقال: «لا بدّ أن الذي قال ذلك، لم يعرف سوى نورا الاحترافية في عملها فحسب».

«معظم الناس يقولون هذا».

«تافهون ومساكين!»، قالها بنبرة ودودة. تلك النبرة ذاتها التي ظهرت في صوته، عندما علّق على ما قلته بأني حقّقت الهدف الذي وضعته في بداية عملي كوكيلة قبل الموعد بثمانية أشهر. إذ قال: «ما من شكّ أنك فعلتِ».

وقفت على مسافة قريبة منه، وكافية لأرى القشعريرة على جسمه. لاحظت انعكاس الضوء في قطرات المياه المتأرجحة فوق خدّه وعنقه، وأحسست بارتعاشة في صدري وساقيّ.

اندفعت إلى الوراء، فيما تقدّم باتجاهي محتفظًا بالمسافة بيننا. «أي طقوس مرورٍ أخرى في صنشاين فولز تتجاهلها؟»، سألته.

رأيت ظلّ عضلات فكّه ترتجف. قال: «الناس هنا يحبّون الصخور».

«دعني أحزر، هذا يعني أن تقف على قمّة جبل وتنتظر ريثما يمرّ عدوّك لتدحرج صخرة عليه».

«اقتربتِ من المعنى»، قال. «هذا يعني أن تتسلّقي الصخور».

«لماذا... لأيّ سبب؟»، قلت.

«لكي تبلغي القمّة، إن استطعتِ».

«وماذا بعد؟».

هزّ بكتفه الأسمر الذهبي ليقول بأنه لا يعلم، وانحدرت المياه على صدره. «ربّما ستظهر أمامك صخرة أعلى، وتتسلّقينها أيضًا. لدى البشرأطوار غريبة وغامضة يا نورا. رأيت ذات مرّة عامل توصيل على الدراجة صدمته سيارة، وعندما قام عن الأرض سالمًا راح يصرخ بأعلى صوته: 'أصبحت إلهًا!'، وركب دراجته وانطلق في الاتجاه المعاكس».

«أين الغامض في هذا»؟ قلت. «لقد تحسّس حدود فنائه، ووجد أنها بعيدة أو غير موجودة».

التوت شفتا شارلي إلى جهة واحدة في نصف ابتسامة تخالطها السخرية. وقال: «هذا ما أحبّه بشأن نيويورك».

«هناك كثيرون من عمّال التوصيل على الدرّاجة الذين يتمتعون بعقدة الإله». أضاف.

«لن تكوني قطّ الإنسانة الأكثر غرابةً في المكان»، قال.

وافقته الرأي: «هناك دائمًا ذلك الرجل الذي يصبغ جسمه بالدهان الفضي، ويأتي ليطلب المال كي يتمكّن من ترميم الرجل الفضائي الذي لديه».

«إنه الشخصية المفضّلة لدي على خطّ القطار ´Q´ الذي أستقلّه يوميًّا».

سرَت موجة من الحرارة تحت جلدي، وتساءلت، تُرى كم من المرّات مشى أحدنا بمحاذاة الآخر من دون أن يلاحظه بين أفواج المارّة وركّاب القطار الذين يتدفّقون بالملايين؟

«ما أحبّه هو أنّ هويّتك تبقى لنفسك في نيويورك. تكونين من تقرّرين

أن تكوني. إنما هنا، في مثل هذه الأماكن، لا يمكنك التخلّص من الفكرة التي يكوّنها عنك الناس بدايةً».

اقتربت منه، ولم يبتعد. «وما الفكرة التي كوَّنوها عنك؟».

«لم تكن جذّابة ومشجّعة لكسب المحبّين»، قال.

أشرت: «ولكن السيدة ستروثرز تحبّك، وكذلك صديقتك السابقة». ثمّ غطست تحت الماء لأخفي تأثير عينيه على جسمي الذي يكاد يضيء تحت سحر نظراته.

لا أشعر بأني نادين وينترز عندما يكون قريبًا مني إلى هذه الدرجة، بل أشعر كأني قطعة سكّر تحت ضوئه الذي يذيبني، ويحوّل الدم في عروقي إلى قطر معقود.

«أحبّتني السيدة ستروثرز لأني كنت أحبّ المدرسة. وهذا طبعًا، بعد أن استطعت أخيرًا أن أتعلّم القراءة؛ ولكن ذلك لم يكن كافيًا لأصبح نجمًا بين رفاقي في الصفوف الابتدائية. لم تكن الأمور بهذه الصعوبة في المدرسة الثانوية، وبعد ذلك...».

«وبعد ذلك، أصبحتَ شابًّا جذّابًا»، قلت بجدّية.

تراقصت قهقهاته فوق جسمي. وتابع: «ـ بعد ذلك، انتقلت إلى نيويورك».

توقّفنا عن الحركة. ارتفعت الحرارة في صدري بشكل لولبي، وازداد ضغطها مع هروب الثواني.

تنحنحتُ، لأتمكّن من متابعة المزاح: « ثمّ أصبحتَ جذّابًا ومثيرًا».

قال: «في الواقع، حدث هذا منذ أربعة أو خمسة أسابيع لا غير. حين حدثت زخّة نيزك كبيرة، وتمنّيت في سرّي أمرًا...»، قال شارلي ومدّ ذراعيه فيما كان يتقدّم باتجاهي.

شعرت بقلبي خفيفًا وكأنه يطير في صدري، وبثقل يعيق حركة ساقيَّ. «تقول إذًا إن التعبير الذي بدا على وجه أمايا لم يكن حنينًا، بقدر ما كان نتيجة الصدمة التي أصابتها لدى مشاهدة وجهك الجديد».

«لم ألاحظ التعبير على وجه أمايا»، قال.

شعرت بجفاف في فمي وبتدفّق الدماء ما بين ساقيّ. أمسك شارلي بقطرة ماء علقت فوق قوس إله الحبّ (شفتي العليا). فانفرجت شفتاي، وداعب بباطن إصبعه شفتي السفلى.

تنبّهت إلى المسافة الواهية التي بيننا الآن، مسافة قليلة وقابلة للزوال. ربّما لهذا السبب يسافر الناس في العطلة؛ ربّما لأجل الشعور بأن عالمك الحقيقي ينساب بعيدًا عنك، لدرجة شعورك بأن أي أمر تفعله في العطلة قد لا يترك أثرًا على ذلك العالم الذي بنيته باجتهاد وإتقان.

وهو لا يختلف عن الشعور الذي تعيشه عندما تقرأ كتابًا جيّدًا: إنك تغرق في عبابه حتى أذنيك، وتنمحي همومك خارجه.

أعيش عادة مثل من يعدّ لتحرّكاته الأربعة المقبلة على لوحة الشطرنج. ولكن يبدو لي الآن أني لا أستطيع رؤية ماذا سيحدث في الدقائق الخمس المقبلة.

لم يكن سهلًا عليّ أن أسأل شارلي: «ربّما ترغب في العودة إلى البيت؟».

هزّ رأسه بالنفي، وقال: «ولكن، إن كنت ترغبين في ذلك...».

هززت رأسي بالنفي أيضًا.

في اللحظة الأولى لم يحدث شيء. شعرت وكأن تشاورًا صامتًا كان يجري بيننا. أمسكت يده بيدي تحت الماء، وبعد لحظة، شدّني بيده الأخرى نحوه، وإنما ببطء - كان أمام كلّ منا مِلء الوقت للتراجع.

ولكن، وعوضًا عن التراجع، سرحت أصابعي فوق جسمه، ولوحة الشطرنج التي في رأسي تحلّلت.

أمسك بيده الأخرى خصري، وألغى الفجوة بيننا.

وإذا بشعوري لحظة الالتصاق به يتأرجح بين السعادة والعذاب. خرجت مني تنهيدة خفيضة. لم يعلّق بكلمة، بل انحدرت يداه ببطء فوق ردفيّ، وشدّ كل بوصة من جسمي إلى جسمه: صدري، معدتي، حوضي، كل أجزائي الطريّة إلى أجزائه الصلبة. واسترخت ساقاي بارتياح فوق وركيه. وإذا بي أهمهم وأتنهّد فوق جسمه بصوت مكتوم وأجشّ.

شدّ ذراعيه حولي فشعرت بوخز في حلمتيَّ.

عشنا تلك اللحظة في صمت تامّ، كأنّ أي اختراق له كان سيعكّر سحر هالة القمر الفضّية.

تلامست شفتانا، ثم ابتعدت لتعود وتنزلق على بعضها في لقاء أعمق. تبعت يداه انحناءات ظهري وهي تشدّني إليه، وتُدخِلُ حوضي في دائرة حوضه.

كأنّ فمي كان يذوب تحت فمه. احتضن بإحدى يديه فكّي، وسرت اليد الأخرى إلى ثديي، فيما أغلقت ساقيّ بإحكام حول جسمه. تسارعت أنفاسي فوق فمه فيما داعب بإبهامه حلمتي. رفعني حتى بتّ من سرّة بطني صعودًا فوق صفحة الماء، وتحت ضوء القمر. كان ينظر، ويلمس، ويتذوّق كل ما بي.

تحرّك دماغي من أجل السيطرة على جسمي الذي خرجت ذبذباته الكهربائية عن تيّارها المعتاد. «ماذا لو نفكّر في هذا الأمر أكثر؟»، قلت.

«نفكّر؟»، قال وكأنه لم يسمع بهذه اللفظة من قبل. وإذا بقبلة أخرى جائعة تقلب كياني، وتمحو هذه الكلمة من مفرداتي أيضًا. انغرست أصابعي في شعره، وسافرت شفتاه فوق عنقي، وغرقت أسنانه في تجويف ترقوتي.

حاولت التفكير في إدارة ما يجري، ولكنّي وجدت أني مجرّد راكبٍ في جسم أراد التشبّث بمتعة اللحظة.

همس في أذني: «يجب ألّا ترتدي الثياب أبدًا، نورا». كنت سأضحك لولا أنه سرعان ما ثبّتني إلى صخرة ملساء على أطراف الماء. التففت بساقيّ حول وركيه، واشتعلت الأحاسيس في حوضي بسبب الاحتكاك بيننا، وضغطِ معدته على جسمي، واستجابةً لإحساسي بانتصابه عبر ثيابنا الداخلية.

قبّلني شارلي كما لم يقبّلني أحد من قبل؛ وإذا بتحركات ردفيّ،

وانحناءات ظهري، وتسارع أنفاسي، كلّها محطّات ترسم له خريطة التعاطي مع جسمي.

تمتم اسمي فوق جسمي، فسمعت اللفظة منه كما سمعتها في ذلك اليوم عندما اصطدمت به في مطعم بوبا سكوات، حيث تردّد صوته في داخلي كأنه نغمات الشوكة الرنّانة(1).

انحدرت شفتاه من عنقي إلى صدري وتحشرجت أنفاسه فيما كان يزرعني بالقبل. وضع أصابعه حول رسغيّ على الصخرة، فيما تأرجح حوضانا معًا في حركة إيقاعية جائعة.

«*اللعنة!*»، قال همسًا، وسمعته. ولكنه، هذه المرّة على الأقل، لم يهرب منّي على الفور. يداه ما زالتا في كل مكان، وفمه لم يغادر جسمي. «لا أريد التوقّف»، تمتم.

وفيما ذهني ما زال يتردّد في فرض سيطرته، اتّخذ جسمي قرارًا منفردًا، ليقول: «إذًا لا تتوقّف».

«يجب أن نتحدّث بهذا الشأن أوّلًا. الأمور معقّدة بالنسبة لي الآن»، أجاب. ولكن أحدًا منّا لم يتراجع عن تمسّكه بالآخر بعد. زحفت يدا شارلي على أعلى ساقيّ، وكانتا تشدّان على جلدي حتى حدود الألم، وأظافري على ظهره تحفّزه على الالتصاق أكثر. كان فمه الدافئ يلكأ كتفي، ثمّ يتحسّس بلسانه وأسنانه النبض في تجويف عنقي.

هززت برأسي وقلت: «إذًا تكلّم».

قبّلني من جديد، وعضّ بقوّة على شفتي، وشدّ على مؤخّرتي. «ليس سهلًا إيجاد الكلمات الآن يا نورا».

انسابت أصابعه بين شعري، وانزلق فمه إلى زاوية فمي، وكانت أنفاسه قصيرة ومتلاحقة. أجلست قامتي وما زلنا متلاصقين، ويداه معقودتان حولي، وتأوّهاته تخترقني كأنها صواعق برق تشعل صميمي.

---

(1) آلة معدنية تشبه الشوكة تصدر رنينًا بتموّجات متنوّعة.

وإذا بكل أمرٍ آخر ينمحي للحظة عندما ازداد تزاوج جسدينا وتحوّل الاحتكاك إلى شرارات كهربائية.

«أوه، نورا»، كان يهمسّ.

وشيء مثل «*أعلم*»، انزلق على لساني. ثمّ سَرت أصابعه تحت الدانتيل حول ردفي إلى جلدي. لم أشهد في حياتي على خيبة شخص آخر بمثل هذه الطريقة المحسوسة؛ ولم أكن في حياتي على هذه الدرجة من الخيبة أيضًا. كنت لا أرى من المشهد المحيط بي سوى نقاطٍ مبعثرة. كل شيء كان قد تلاشى وراء جدران الحاجة إلى إشباع الجوع.

وإذا بهاتفي يرنّ من بين الصخور.

وإذا بالواقع يهبط عليّ من كل مكان. شلال من الأفكار كانت المتعة قد وقفت حاجزًا دونه. ابتعدت عن شارلي وشهقت: «إنها دَستي!».

رمش عينيه في العتمة وتسارعت أنفاسه؛ «ماذا؟».

«اللعنة!لا!لا!»، وسبحتُ نحو الصخور ولمّا يزل الرنين يتردّد في الظلام.

«ما الخطب؟»، سأل شارلي من مسافة قريبة ورائي.

أجبت: «كان يجب أن أتّصل بدَستي منذ ساعات». ثم قفزت إلى خارج الماء لألتقط هاتفي. توقّف عن الرنين قبل وصولي إليه بلحظات، وعندما طلبت الرقم، طالعني التسجيل الذي يطلب منّي ترك رسالة صوتية. «اللعنة!».

كيف أفعل هذا؟ كيف يمكنني أن أنسى الأقدم، والأكثر حساسية، والأكثر فائدة لي من الناحية الماديّة بين جميع عملائي؟ كيف سمحت لنفسي أن أسلو عنها إلى هذه الدرجة؟

طلبت الرقم ثانيةً، وتلقّيت الإجابة التي تطلب منّي ترك رسالة، فقلت بنبرة سعيدة: «هاي دَستي! أعتذر أني لم...، ذلك أني...».

ما الذي قد يشغلني في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ لن يكون اجتماعًا *محترمًا* بالطبع.

تركت رسالة أخرى: «حدث أمر طارئ، ولكن لديَّ ملء الوقت الآن لنتكلّم. أرجو معاودة الاتصال».

أغلقت الخطّ، ومررت بنظري سريعًا على رسائل ليبي. تطلب مني بإلحاح مضطرد أن أؤكّد لها أن بليك لم يرمني في الغابة إلى الحطّابين. شعرت بقلبي وكأنه صعد فجأةً إلى حنجرتي، واعتراني إحساس ساخن بالخجل وخزني في قلبي وجلدي. وفي طريقي إلى البيت، بعثت إليها برسالة تقول: «هل كل شيء على ما يرام؟».

استدرت لأرى شارلي فوجدته يشدّ بنطاله صعودًا، وقميصه في يده. «ماذا حدث؟»، سألني.

لم أكن حاضرة، فكّرت. *كانوا بحاجة لي ولم أكن حاضرة. مثلما حدث* – ولكنّي قاطعت تفكيري للتوّ قبل أن ينزلق بلمح البصر إلى ما كان قبل دقائق؛ وقلت: «أنا لا أفعل هذا».

«ما الذي لا تفعلينه؟»، سألني شارلي رافعًا حاجبيه بتعجّب.

«كل ما حدث للتوّ... كلّه. هذه ليست طريقتي في التصرّف».

أطلق ضحكة، وقطعها ليقول: «وهل تظنّين أنه النمط الذي أتّبعه في حياتي؟».

«كلا، ولكن...، ربّما كان كذلك. كيف يمكنني أن أعلم؟». بهتت ابتسامته، وشعرت في المقابل بقرصة في صدري. نفضت رأسي نفيًا، واستدركت: «إنه هذا الكتاب، فريدجد، وهذه الرحلة ــ فكّرت أن باستطاعتي أن أفعل ما فعلته، ولكن...». رفعت الهاتف بيدي، كأن رؤية شارلي له ستفسّر كل ما أردت قوله. الأزمة التي تمرّ بها ليبي في هذه الفترة من حملها؛ الشعور بعدم الأمان الذي يسيطر على دَستي؛ بالإضافة إلى عملائي الآخرين. كلّهم يعتمدون عليّ. «ليس بوسعي التلهّي عن كل ذلك في هذا التوقيت».

«التلهّي». ردّد الكلمة كأنه غريب كلّيًا عن هذا المفهوم. ربّما كان كذلك بالفعل. كانت فكرة التلهّي غريبة عنّي طوال عقد كامل من الزمن.

تحديد الأولويّات؛ تقسيم العمل؛ الكفاءة. كل هذه العناوين لطالما كانت إلى جانبي في مسيرة نجاحي. أما الآن فإن لحظات معدودة من الطيش كانت كافية لتشغلني عن أختي وعن عميلتي الأولى. بعد ما حدث لي عندما كنت مع جايكوب، كان حريًّا بي أن أعلم أني لا أستطيع الوثوق بنفسي في مواجهة عوامل اللهو.

ابتلعت ريقي بصعوبة. «أحتاج إلى التركيز، عليّ واجب تجاه دَستي. وعندما يسرقني اللهو، أغفل عن أمور مهمّة. وعندما أغفل عنها، تقع حوادث سيئة.

تفرّس بي شارلي طيلة لحظات، وقال: «إذا كان هذا ما تريدينه، لا مانع ــ».

«نعم هذا ما أريده حقًّا»، قلت.

ارتفع حاجبه قليلًا، وقرأ على وجهي الكذبة الواضحة. غير مهمّ. العمل بما نريده لا يشكل حكمًا القاعدة في اتّخاذ القرار الصائب.

«عدا عن أن الأمور معقّدة بالنسبة إليك أيضًا. أليس كذلك؟».

تنفّس الصعداء بعد برهة، وقال: «تزداد تعقيدًا في كل ثانية».

مع ذلك، لم يتحرّك أي منّا من مكانه. وقفنا في صمت. كأننا بانتظار أن نرى إذا ما كان السدّ سيصمد في مواجهة الضغط الذي كان يزداد بيننا. وما برحت خلايا جسمي كلّه تنتفض تحت نظراته.

أزاح شارلي نظره عنّي أوّلًا، وحكّ جانب وجهه. «أنتِ على حقّ. لا أدري لماذا أجد صعوبة في إقناع نفسي بأن ما حدث بيننا ليس عابرًا».

ثمّ رفع ثوبي عن الصخرة وأعطاني إياه.

شعرت بانقباض في معدتي، فيما أخذت الثوب من يده، وقلت: «شكرًا».

ومن غير النظر إليّ، قال: «عفوًا، أليس هذا من واجب الزملاء؟».

الفصل السادس عشر

نزلت عن السرير بصعوبة، وأحسست بعصف مؤلم في رأسي، ومعدتي كأنها قارب ضائع يترنّح غارقًا في عباب البحر. يبدو أني بالغت في الشرب إلى حدّ قد يكون كافيًا ليسمّمني، وغير كافٍ ليؤثر على توازني الذهني بشيء. ولعلّ ذلك من بين الأمور التي تحدث عادةً في سنّ الثانية والثلاثين.

سمعت صوت ليبي تدندن، وأحسست بها تتحرّك جيئةً وإيابًا في الطابق الأرضي. على الرغم من رسائل القلق والرّعب النصيّة العديدة التي طاردتني بها، وجدتها عندما وصلت إلى البيت غارقة في نوم عميق. أما دَستي فعادت أخيرًا وكلّمتني في الليل، وأمضيت أكثر من ساعة أتمشى في المرج بثيابي الرطبة محاولةً إقناعها بأنه لا يمكن أن يكون القسم الثاني من رواية فريدجد سيئًا كما تعتقد. تفقدتُ هاتفي بعينين ضبابيتين، واستنتجت بما لا يطاله الشك أن مزيدًا من الصفحات كانت قد وصلت إلى بريدي الإلكتروني.

لم أكن قادرة على مطالعتها في تلك الساعة. ارتديت بنطالي وصدريتي الرياضية، وخرجت إلى المرج فيما كنت أفرك ذراعيَّ بيديَّ بين الفينة والأخرى لأضخّ الحرارة في عروقي. وصلت إلى الغابة ورحت أهرول بخطى متثاقلة على الدرب بين الأشجار، وأمسك بمعدتي أحيانًا حتى أتمكّن من المتابعة.

قلت لنفسي حسنًا، *أشعر بالراحة والأمور على ما يرام*، ولكن لم يكن ذلك واقعًا بقدر ما كان من نوع من التوكيد الذاتي الإيجابي. تابعت الهرولة على المنحدر عبر الأشجار باتجاه السور، وما هي إلا خطوات

ثلاث حتى تحوّلت التمتمة فجأةً من ´إن *الأمور على ما يرام*´ إلى ´ *يا إلهي ماذا يحدث؟*´. انحنيت إلى الأمام وتقيّأت فوق التراب؛ وإذا بصوتٍ يقطع سكون الصباح، ويقول: «هل أنت بخير سيدّتي؟».

التفتّ بسرعة نحو السور، وبحركة تلقائية مسحت فمي بظاهر يدي.

وإذا بعينيّ تقعان على ´أدونيس´، ذلك الشاب الوسيم الذي يشبه إله الجمال، في الجهة المقابلة وراء السور، وعلى بعد أربعة أقدام مني لا أكثر.

إنه هو بذاته. تنحنحت وتقزّزت جرّاء الطّعم المتبقي في فمي، وأجبت بصعوبة. «لا بأس، شربت كمية هائلة من الكحول البارحة».

ضحك؛ ووجدت ضحكته رائعة. حتى ولو صرخ من الرّعب، ربّما سيكون صراخه مقبولًا. وقال «أعرف جيّدًا ماذا تعنين».

إنه طويل القامة!

ثمّ قال: «أعرّفك إلى نفسي، أُدعى شيبرد».

سألته: «مثل اسم تلك...الوظيفة[1]؟».

أضاف: «وعائلتي تملك هذه الحظيرة. اضحكي، لا تخجلي!».

«لا، مطلقًا! ليس لديّ حسّ فكاهي».

وفيما كنت أبادر إلى مدّ يدي، تذكّرت أين كانت هذه اليد منذ لحظات (في القيء)، فتراجعت عن فكرة المصافحة، وقلت: «أنا نورا».

ضحك مجدّدًا. وخرجت ضحكته كأنها رنّات جرسٍ من الفضّة.

«إنك تقيمين في كوخ غودز ليلي؟».

أجبت: «نعم، أختي وأنا جئنا بقصد الزيارة من نيويورك».

«آه، إنكما من أهل المدينة الكبيرة»، ردّ ممازحًا، وعيناه تلتمعان.

أجبت بأسلوب يتماشى مع مزاحه: «أعلم أنّنا الأسوأ. ربّما تستطيع صنشاين فولز تغييرنا».

---

(1) الاسم بالإنكليزية يعني راعي الغنم.

ابتسم بعينيه، وقال: «سوف تفعل ذلك من دون شكّ».
«هل أنتَ من هنا في الأصل؟»، سألته.
«أنا هنا منذ ولادتي، لم أغادر هذا المكان سوى لفترة قصيرة أمضيتها في شيكاغو».
«أتوقّع أن حياة المدينة لم تكن ملائمة لكَ؟».
رفع كتفيه العريضتين، وأجاب: «لم تكن فصول الشتاء في المنطقة الشمالية سهلة بالطبع». قلت: «بالتأكيد. لكن من جهتي، أحبّ هذا الفصل - مع أن الكثيرين يتذمّرون منه».
كثيرًا ما يغادر الناس نيويورك بسبب عدم تحمّلهم لبرودة الطقس، أو لإصابتهم برهاب الأماكن المغلقة، أو بالإرهاق الجسدي أو المالي. على مرور الأعوام، يغادر معظم رفاقي في الجامعة المدينة نحو مدن في الوسط الغربي حيث كلفة المعيشة أقلّ؛ أو إلى الضواحي حيث البيوت المحاطة بالحدائق الواسعة، والمحاطة بدورها بالأسوار الخشبية المدهونة بالأبيض؛ أو ينتقلون في إحدى عمليات النزوح الجماعي إلى لوس أنجلوس؛ هذه الحركة التي يتكرّر حدوثها من حينٍ إلى آخر.
يمكن العيش في أماكن أكثر سهولة، ولكن نيويورك ملأى بالناس التوّاقين (الجائعين إلى الكسب والنجاح)، وتوقهم المشترك يولّد طاقة عارمة.
وضع شيبرد يده على السور، وقال: «حسنًا، سأدعك الآن تتابعين...» وأكاد أقسم أنه نظر باتجاه كومة القيء التي أمامي، قبل أن يكمل جملته بأسلوب دبلوماسي، وهو يدير ظهره للذهاب: «...الركض». ثم أضاف: «ولكن، يا نورا القادمة من نيويورك، لو وجدتِ نفسك بحاجة إلى مرشدٍ سياحي يعرّفك إلى معالم المدينة، فسأكون حاضرًا للمساعدة».
ناديته قبل أن يبتعد: «كيف أتواصل معك؟».
نظر إلى الوراء مبتسمًا: «البلدة صغيرة ولا بدّ أن نلتقي».

وجدت كلامه في تلك الثانية أسلوبًا بارعًا في الابتعاد، إلى أن رمقني بغمزة عين مثيرة لم يسبق لي أن تلقّيت مثلها في حياتي.

***

منذ أن انتهيت من سرد ما حدث معي على مسامع ليبي، وهي تحدّق بي بلا انقطاع.

«ماذا يدور في دماغك الآن؟»، سألتها.

«أحاول أن أقرّر هل أفرح لأنك غطست في ذلك الجدول عارية، أو أغضب لأنك كنت مع شارلي، أو أتوسّل المعذرة منك لأني خطّطت لتلك المواعدة الفاشلة».

«لا تؤنبي نفسك كثيرًا، من المؤكّد أني لو استطعت أن أقطع حوالي ست بوصات من طول ساقيّ، لكان سلوك بليك مقبولًا».

«أعتذر جدًّا يا أختي، أقسم لك أنه بدا لي طبيعيًّا جدًّا في رسائله النصّية».

«لا تلومي بليك. *أنا* التي تتحرّك بهذا الهيكل الضخم».

هزّت ليبي رأسها: « يا له من عديم الأخلاق بالفعل! أعتذر من كل قلبي. قد يكون من الأفضل أن نلغي البند الخامس. يبدو أن الفكرة غير جيّدة البتّة».

«كلا!» سارعت إلى القول.

«كلا؟»، تساءلت ليبي مرتبكة.

بعد ما حدث في الليلة الماضية، كنت *سأ*حبّ الانسحاب من البند الخامس بالتأكيد، ولكن شقة شارلي توجد الآن في المعادلة. لو تراجعت عن اتفاقيتي معه الآن، فسيذهب كل ما حدث البارحة هدرًا. أما عدم التراجع فسيعود علينا بأمرٍ مفيد على الأقلّ.

«أريد المتابعة... لن أتراجع».

«حقًّا؟». شدّت ليبي كفيّها إلى بعضهما، ولمعت الحماسة في عينيها.

«هذا عظيم! إني فخورة جدًّا بك، وبقرارك الخروج أخيرًا من شرنقتك المغلقة. تذكّرت الآن أن أخبرك بأني تكلّمت إلى سالي بشأن البند رقم 12، وهي على أتم الاستعداد لمساعدتنا في إعادة تنظيم مكتبة غودي بوكس».

«متى استطعت التكلّم إليها؟»سألت.

«تبادلنا بضع رسائل إلكترونية»، أجابت وهزّت كتفها، «هل تعلمين أنها التي رسمت الحائط الجميل في قسم كتب الأطفال؟».

انطلاقًا من معرفتي بأن ليبي تصنع في شهر ديسمبر من كل سنة فطيرة حلوى خالية من الغلوتين لتقدّمها إلى ساعي البريد لمعرفتها بعدم قدرته على تناول المأكولات التي تحتوي على الغلوتين، فإني لا أستغرب في المقابل أنها تبادلت رسائل مفصّلة مع صاحبة النزل الذي نمكث فيه.

تسارعَ نبضي عندما أزّ هاتفي، ولكن الرسالة لم تكن من شارلي لحسن الحظ.

كانت من براندن، ولعلّه حدث غير عادي. لو أردتُ استعراض أنواع الرسائل المتبادلة بيني وبين براندن، فسأجد أنها تقتصر على تبادل المعايدة في عيد ميلاده، أو عيد ميلادي، مع الاختراق الذي قد يحدث عندما يشاركني أحيانًا بلقطات لطيفة لتالا أو بيا.

تقول الرسالة: «سلام نورا، كيف تسير الأمور في الرحلة، هل ليبي بخير؟».

«ما هذا؟»، قلت لها، فيما مددتّ يدي بالهاتف، فزمّت شفتيها وانحنت لتقرأ.

«قولي له إني سأتصل به في وقت لاحق».

«حاضر مديرتي، وأي رسائل ترغبين في أن أحوّلها إلى مكتبك؟».

أدارت عينيها ممتعضة، ثمّ قالت: «لا أريد الصعود إلى الطابق العلوي لأجلب هاتفي الآن. لن ينتهي العالم لو لم أكلّم براندن كلّ خمس وعشرين دقيقة».

نفاد الصبر الذي لاحظته في صوتها أثار حفيظتي. سبق وشاهدتهما يتجادلان، ولكن، كأنهما يتضاربان بسهامٍ من ريش ناعم. غير أن ما أسمعه الآن ينمّ عن سخطٍ حقيقي.

هل هما في حالة نزاع حول موضوع الشقة؟ أو بسبب الرحلة؟

الفكرة وحدها جعلتني أشعر بالغثيان. حاولت نزعها من رأسي - ليبي وبراندن مهووسان ببعضهما. ربّما فاتني الاطّلاع على بعض الأمور التي حدثت خلال الأشهر القليلة الماضية، ولكن لا بدّ أني كنت سألاحظ أمرًا كه*ذا*.

إضافةً إلى أنها كانت تكلّمه يوميًا.

ولكني *لم أرها* وهي تكلّمه. بل توقّعت أنها كانت تفعل ذلك خلال الساعات التسع التي كنت أصرفها في العمل بعيدًا عنها.

أحسست بالعرق البارد ينساب على ظهر عنقي، وبحنجرتي كأنها تتلوى وتنعقد، ولكن ليبي لم تبدِ انتباهًا لذلك. وكانت تبتسم بطريقة عادية عندما شدّت نفسها لتنهض عن الكرسي الخشبي المنخفض.

تبالغين بالقلق، قلت لنفسي، *إنها ببساطة تركت هاتفها في الطابق العلوي.*

قالت لي: «على كل حال، هيّا نذهب! مكتبة غودي بوكس لن تنجو من الإفلاس من غير مساعدة، والكتب التي تحتويها لن تتمكّن وحيدةً من نجدة نفسها. هل فهمتِ ماذا أقصد؟».

أجبت برسالة سريعة على رسالة براندن: «كل الأمور على ما يرام. قالت إنها ستكلّمك لاحقًا». فأجاب على الفور برمز الوجه المبتسم، والإبهام المرفوع.

كل الأمور على ما يرام. إني هنا وكلّي تركيز. وسوف أصلح كل شيء.

***

كان بودّي أن أقول إن تنبُّهي إلى وجود أمور عدّة على المحكّ في هذه الرحلة، حرّرني على الفور من سحر شارلي لاسترا. ولكن، وعوضًا عن

ذلك، ففي كل مرّة تقفز عيناه من ليبي إليّ، يدفعني شعاعهما إلى التساؤل كم سأحتاج من الوقت لخلع ثيابي.

قال بتثاقل، بعد أن عاد بعينيه إلى ليبي: «تريدين أن تظهري غودي بوكس في حلّة جديدة؟».

«سوف نجدّد *الحياة* في كل أقسامها»، وشدّت ليبي أصابع يديها على وقع الحماسة. كانت بشرتها قد اكتسبت بفضل تعرّضها لأشعة الشمس لفحةً برونزية، والجيوب تحت عينيها اختفت تقريبًا. لم تبدُ أنها ارتاحت فحسب، بل في غاية السعادة إزاء الفرصة التي أتيحت لها لكي تنفض الغبار عن هذه المكتبة.

انحنى شارلي فوق المنضدة، وقال: «هل لهذا العمل علاقة بالقائمة؟». التفتت عيناه إلى عينيّ وأصابني شعاعهما من جديد، وإذا بجسمي يستجيب كأنه لمسني بالفعل. التقت نظراتنا، واهتزّت زاوية فمه كأنه يقول: *أعلم بماذا تفكرين الآن*.

«هل يعلم بشأن القائمة؟»، سألت ليبي، ثمّ توجّهت بالسؤال عينه إلى شارلي.

نظر إلى وجهها مجدّدًا، وحكّ كفّه على ذقنه، وقال: «لا نملك الميزانية الكافية بالفعل لتجديد *الحياة* في المكتبة».

«سنبتاع كل المفروشات من سوق المفروشات المستعملة. لديّ خبرة سحرية في كيفية الاستفادة من مخازن البضائع المستعملة. تعلّمت ذلك عبر سنوات حياتي. ليس مطلوبًا الآن سوى أن تدلّنا على مكان أدوات التنظيف».

عادت عينا شارلي إليّ لتشعلاني ببريقهما. تخيّلت أني لو نظرت إلى الأرض لوجدت ثيابي في كومة من رماد عند قدميّ.

«لن تشعر حتى بوجودنا هنا»، قلت.

«أشكّ في ذلك»، أجاب.

***

هناك حقيقة كونية أخرى كان بإمكان جاين أوستن أن تفتتح بها رواية كبرياء وهوى *Pride &Prejudice* وهي: عندما تطلب من نفسك عدم التفكير بأمر معيّن، فإن كل ما تفكّر به سيدور حول هذا الأمر تحديدًا.

وبالتالي، عندما كانت ليبي تدفعني إلى مسح الأرض، وحفّ البقع المزمنة عنها، وإلى تنظيف الرفوف وما عليها من الكتب، كل ما كان يدور في رأسي هو تقبيل شارلي. وعندما كنت أنقل الكتب التي تتحدّث عن سيَر الحياة، إلى القسم الذي سيخصّص لكتب الأدب الواقعي حصرًا، كنت في الحقيقة أفكّر في الأمكنة التي رأيته ينظر إليّ منها، وعدد المرّات التي رأيته فيها كذلك.

عندما عدت إلى غرفة القهوة لكي أنكبّ على القسم الجديد من رواية فرِيدجد، ولكي أشدّ بخيوط القصة من هنا، وأتفادى الوقوع في أفخاخها الخفيّة من هناك، كان فكري يعود إلى صورة شارلي وهو يثبتني إلى الصخرة، ويهمس بصوته المبحوح في أذني: *لا يمكن التفكير بالكلمات الآن، نورا.*

لا يمكنني التفكير بشيء البتّة، سوى بذلك الأمر الذي يجب *ألّا* أفكّر به.

حتى عندما انطلقت اليوم إلى جانب ليبي في طريقنا إلى وسط البلدة من أجل اكتشاف المفاجأة التي أعدّتها لي، فإني كنت حاضرة معها بثلثي كياني فحسب. وفي محاولتي لشدّ ذلك الثلث الأخير إلى الحضور قسرًا، ادّعيت الاهتمام بثيابي وسألتُ ليبي: «هل ثيابي على ما يرام؟».

ومن غير أن تقطع وتيرة سيرها، شدّت على ذراعي وأجابت: «مناسبة تمامًا. كأنك إلهة بين البشر».

نظرتُ إلى بنطالي الجينز وإلى قميصي الحريري الأصفر، وحاولت أن أحزر ذلك الأمر الذي تبدو ثيابي مناسبة له تمامًا.

وبطرف عيني، كنت أرمقها بقصد أن أفهم لغة جسدها. لم أتوانَ عن مراقبتها عن قرب منذ وصول رسالة براندن الغريبة ولكني لم ألحظ أي أمر ملفت.

عندما كنّا صغارًا، كانت ليبي تتوسّل إلى السيدة فريمان لكي تسمح لها بإعادة ترتيب الكتب على الرفوف. والآن، فإن ما تفعله في مكتبة غودي بوكس قد حوّلها إلى نموذج الفتاة الجميلة وغريبة الأطباع، التي لا تتوانى عن الغناء والتغني بجمال "الحياة الريفية"، وعن استخدام عصا المكنسة (كأنها ميكروفون)، فيما يرمقني شارلي بنظرات شزرة تقول: «دعيها تتوقّف».

فأجبت: «ليس بإمكاني مساعدتك. القرار ليس لي في هذا المجال».

وإذا بليبي تزعق من طرف المكتبة المقابل: «إني الفرس المتوحّشة يا عزيزي».

وفي نهاية ذلك النهار، عندما خرجنا أخيرًا، أجبرتني ليبي على الركوب في سيارة هاردي، والطواف في مدينة آشفيل ومحيطها على كل مخازن السلع المستعملة. وفي كل مرة كنا نجد شيئًا مناسبًا جدًّا لمكتبة غودي بوكس، كانت تصرّ أوّلًا على المساومة في الأسعار؛ وثانيًا، على التكلّم إلى كل الناس، حول كل الأمور.

كان العمل خلال النهار يضاعف من نشاط ليبي، ولكني أتمنّى اليوم أن تكون المفاجأة في نهاية مشوارنا عبارة عن استراحة في منتجع الاسترخاء Spa الوحيد في صنشاين فولز. (مع أن اسم هذا المركز سباهه Spaaaahhh، يجعلني أتوقّف للتساؤل: هل يجب قراءة هذه الكلمة بنغمة التنهيدة أو الصراخ؟ يبدو أن هناك احتمالين لا ثالث لهما، فإما أن يكون مالك هذا المكان مختلّ العقل وهو نفسه مالك كوب + كأس، وCurl up N Dye (الجملة التي قد تعني لسامعها دون قارئها: التفّ حول نفسك ومت)؛ أو إن المياه التي يشرب منها سكان هذه البلدة تحتوي على عنصر غريب يغذي حسّ الفكاهة.

مرّت ليبي من أمام المنتجع، وتابعنا السير إلى المنعطف، ثم إلى بناء من طابقين بحجر الآجر الوردي اللون، وبنوافذ مقنطرة، وذي سطح جملوني مسنّم، وبرج يتوسّطه جرس. كان هناك من إحدى جهات المبنى موقف مشغول بعدد من السيارات، ومن جهة أخرى، أولاد اتّسخت ركبهم

بالتراب، ويتقاذفون الطابة في ملعب بايسبول ارتفع العشب فيه، وحامت حول سوره، وراء قاعدة الملعب الرئيسية، غيمة كثيفة من البعوض.

«هل نحن هنا لحضور المباراة الكبرى؟»، سألتُ ليبي.

شدّت بي لأتسلّق معها سلالم المبنى، ووصلنا إلى فناء قديم حيث ما لبثت أن مرّت من أمامنا شلّة من المراهقات في ثياب رقص الباليه. كن يتضاحكن بأصوات عالية ويسرعن الخطى باتجاه السلالم إلى يميننا. وكانت هناك حفنة من الأولاد الأصغر سنًّا في ثياب خاصّة برياضة الجمباز منشغلين في تنظيف قطع السجّاد التي يتوزّعون فوقها.

قالت ليبي: «أظن أن المكان هناك». سرنا بين الأولاد وحولهم حتى دخلنا عبر أبواب عدّة ووصلنا إلى قاعة واسعة تتردّد فيها أصداء الأحاديث وتكثر فيها الكراسي. لم أرَ لحسن الحظ أحدًا من الحاضرين في ثياب الجمباز، وهذا يعني أننا لسنا هنا للمشاركة في حلقة جمباز للحوامل. يخطر في بالي أحيانًا أن تذهب ليبي إلى تسجيل اسمَينا لحضور مثل هذه الحلقات. وقع نظري على سالي تقف في مكان قريب من الصف الأمامي؛ يدها على كتف رجل متقدّم في السن وأشقر الشعر، وهي تضحك (وأكاد أكون واثقة أنها كانت تنفث دخان سيجارة إلكترونية). في إحدى الصفوف إلى وراء سالي، رأيت النادلة من مقهى كوب + كأس، التي تضع في أنفها خاتمًا، تجلس في محاذاة الساقية الجميلة أمايا، صديقة شارلي السابقة. شدّت بي ليبي إلى الصف الأخير حيث جلسنا للتوّ، فيما علا صوت مطرقة من الأمام.

في المقدّمة توجد خشبة مسرح، ولكن منصّة الخطابة كانت على الأرض وعلى مستوى المقاعد، أما المتكلّمة من وراء المنصّة فكانت امرأة ذات شعر أحمر، لم أرَ في مثل احمراره وحجمه في حياتي. وكانت الأضواء الوحيدة في القاعة مسلّطة عليها، حتى بدا رأسها كأنه مصباح كاشف تتوزّع منه الإضاءة حول القاعة.

«فلنبدأ، أيها الحاضرون!»، طلبت المتكلّمة بصوت مرتفع. انخفضت الجلبة، ووصلت إلى مسامعنا نغمات عزف بيانو من الطابق الأعلى.

انحنيت لأهمس في أذن ليبي: «هل جئت بي إلى جلسة محاكمة الجنيّات؟».

قالت صاحبة الرأس الأحمر: «الموضوع الأوّل الذي سنتناوله،هو الشكوى ضدّ المقهى الكائن على الشارع الرئيسي في العقار رقم 1480، والمعروف حاليًا باسم كوب + كأس/ Mug + Shot[1]».

قلت لليبي: «مهلًا، هل نحن ــ».

أسكتتني ليبي في اللحظة التي قفزت فيها النادلة من مقعدها، واستدارت نحو رجل أصلع جالسٍ على بعد مقاعدَ منها. «لن نغيّر اسم محلّنا من جديد يا دايفيد!».

«يوحي الاسم للسامع كأنه يستقبل الخارجين عن القانون والمجرمين»، هدر دايفيد.

«لم يعجبك اسم *Bean to be Wild*[2] (نبتة الفاصوليا البريّة)».

«التعبير المجازي غير واضح فيه»، ردّ دايفيد.

«أبديتَ غضبًا شديدًا عندما أسميناه: *Some Like it Hot* (بعضهم يحبّها حارّة)»، أضافت.

«يكاد هذا الاسم أن يكون إباحيًّا»، أجاب.

ضربت صاحبة الشعر الأحمر بالمطرقة. وشدّت أمايا بالنادلة لتجلس في مقعدها. «ندعو إلى التصويت: من يرغب في أن يتغيّر إسم مقهى كوب+ كأس، يرفع يده». ارتفعت بضع أيدٍ بما فيها يد دايفيد. ثمّ ضربت المرأة بالمطرقة مجدّدًا وأعلنت: «الشكوى سقطت».

«لا يمكن قطّ لما يحدث هنا أن يكون مشرّعًا في محكمة قانونية». همستُ في أذن ليبي مستغربة.

---

(1) Shot: يمكن لهذه الكلمة أن تعني طلقة نارية من فوهة سلاح أو كأسًا من الكحول.

(2) Bean: المقصود بهذه الكلمة ´حبّة القهوة´، ولكن الجملة قد تبدو للسامع بمعنى: خلقت لتكون بريّة.

«ماذا فاتني؟»، قال.

كدت أقفز من مكاني عندما انزلق شارلي في المقعد الشاغر إلى جانبي. «لا أظنّ أن في الأمر أكثر من أن دايفيد يقدّم الشكاوى بهدف إعادة تسمية كل اسم يوحي بالإباحية»، أجبت.

«هل انفجر أحدهم بالبكاء بعد؟»، سأل شارلي.

«هل يَبكون؟»، تمتمت.

انحنى ليهمس في أذني: «حاولي في المرّة المقبلة ألّا تبدين كثيرة التأثر إزاء مشاعر البؤس لدى الناس، حتى تتمكني من الانسجام بسرعة مع المجتمع هنا».

همست مجيبة: «من حيث إننا هنا في قسم الحضور المراقِب، وربّما المشاغب، لست مهتمّة حقًّا لأكون أكثر انسجامًا مع المحيط. لكن ماذا تفعل *أنت* هنا؟».

«أؤدي واجبي المدني».

وإذ تفحّصت وجهه بنظرة ثابتة، تابع:

«إني هنا لأشارك في التصويت إلى جانب أمرٍ تريده أمّي بحماسة. لست هنا سوى مجرّد يد مرفوعة في الهواء. ولكني سعيد بأني حضرت ــ انتهيت من مراجعة الصفحات الجديدة. ولديّ ملاحظات».

استدرت نحوه، وربّما كاد طرف أنفي يلامس أنفه في العتمة. «بهذه السرعة؟».

«أقترح محاولة أن نجعل الكتاب يبدأ في لحظة الحادث الذي تعرّضت له نادين»، قال هامسًا.

ضحكتُ، فإذا بعدد من الأشخاص الجالسين أمامنا يلتفتون إليّ. لكزتني ليبي على صدري، فابتسمت في الحال معتذرة. وعندما عادت تلك الرؤوس إلى وضعها السابق لكي تتابع النقاش الجاري بين شخصين لا بدّ أن مجموع عمرَيْهما يتخطّى المئتين، واجهني شارلي مجدّدًا بابتسامة ساخرة: «اعترفي أنك بحاجة إلى مساعدتي لكي تستطيعي الاندماج».

«يقع الحادث في الكتاب في الصفحة الخمسين تقريبًا»، همستُ مجيبةً. «سوف يكلّفنا التغيير ضياع الكثير من وصف الظروف المحيطة بالقصّة».

قال: «لا أعتقد ذلك، أودّ على الأقلّ اقتراح الفكرة على دَستي لنسمع رأيها».

هززت *رأسي* غير موافقة، وقلت: «سوف تظنّ أن الصفحات الخمسين من أصل المئة التي أرسلَتها إليك لم تعجبك».

عقّب: «تعلمين كم كنت مصرًّا على كسب الفرصة من أجل تحرير هذا الكتاب، وذلك انطلاقًا من الصفحات العشر الأولى فحسب. كل ما أطمح إليه هو أن يخرج الكتاب في حلّته الفضلى، تمامًا كالذي تطمحين إليه، وتطمح إليه دَستي. على كل حال، ما رأيك بالهرّة؟».

عضضت على شفتي، وشعرت بنفحة من الرّضى الحقيقي والخالص إزاء دقّته في متابعة أحداث القصّة. أطلت صمتي أكثر قليلًا من المهلة العادية، ثمّ قلت: «أجدني قلقة لأنها تشبه إلى حدّ بعيد الكلب في رواية *مرّة في العمر*».

أجاب بومضة من عينيه، وقال: «هذا ما أفكّر به تمامًا».

قلت: «علينا أن نرى كيف سيتطوّر دور الهرّة في القصة أوّلًا».

«يمكننا أن نلفت نظرها إلى التشابه، وننتظر منها الجواب في ما بعد»، أجاب موافقًا.

ضربَت صاحبة الشعر الأحمر بمطرقتها، ولكن الرجل والمرأة المسنَّيْن في الصف الأمامي تابعا في تبادل العتاب والصياح خلال عشرين ثانية إضافية. وعندما تمكّنَت أخيرًا من أن تضع حدّا لذلك، وجدتهما يعبّران عن القبول بحكمها بانحناءة رأس، ثمّ أمسك كل منهما بيد الآخر، وسارا باتجاه مقعدَيهما. «كأنه مشهد من رواية *ماكبث*»، قلت بتعجّب.

«لو ترين ماذا يحدث عندما يلتئم الجمع لاتخاذ القرار بشأن النشاطات

التي ستقام في الأعياد. هناك ستشهدين على معارك دامية. إنه اليوم الأكثر تسلية في السنة».

أخفيت ضحكتي بظاهر يدي، فرقصت ملامح وجهه ورفّ قلبي لرؤيته سعيدًا. أما في رأسي فكنت أسمعه يقول: «*إنكِ أكثر جاذبية هكذا*».

أدرت نظري عنه قبل أن يتمكّن مشهد وجهه من الغوص في عروقي.

«كيف تحلّلين دوافع نادين؟»، همس بأسلوب جعل الكلمات تبدو مثيرة بطبيعتها. ولعلّه نجح إذ بدأت أربع نقاط في جسمي بالارتعاش.

حاولت التركيز، وسألته: «دوافعها في أي وجه من السلوك؟».

«الركض عبر الشارع قبل أن تضيء الإشارة التي تسمح بسير المشاة».

وقال موضّحًا إن هذا السلوك هو الذي أودى بها إلى المستشفى، بعد أن صدمتها الحافلة.مكتبة سُر مَن قرأ

هذا صحيح. الشخصية التي تشبهني تكاد تلاقي حتفها في الصفحة الخمسين من الكتاب. أو في الصفحة الأولى لو صحّ لشارلي ما يريده.

قلت بهمس: «ربّما لو وجدنا دافعًا مشروعًا لتسرّعها، لتعرّضت الفكرة الأساسية التي بنت دَستي الشخصية عليها للنقض. تقدّم الكاتبة هذه الشخصية على أنها باردة وأنانيّة كما لو كانت سمكة قرش. ربّما كانت تُسرع لمجرّد السرعة، لأنها كذلك من حيث تكوينها».

أقسم أني رأيت بريق عينيّ شارلي يخترق العتمة. «لو عملتِ في مجال التحرير، لكنت محرّرة بارعة يا ستيفنز»، قال.

«هل أفهم أنك توافقني الرأي؟»، سألت.

«أظنّ أن علينا رؤية نادين تمامًا كما سيراها الناس عند نهاية الرواية».

فكّرت في ما قاله. ما يقوله مهمّ بلا شك. العمل على جزء من الكتاب فيما أنت في جهل عمّا سيتبعه ليس بالأمر العادي والسهل –خصوصًا بالنسبة إلى من لا يرغب حتى في قراءة الكتب بهذه الطريقة– ولكنّي أعرف أسلوب دَستي في الكتابة كما أعرف نبض قلبي، ولديّ إحساس بأن شارلي على حقّ حول هذه النقطة.

«إذًا، هل ستتحدّثين معها بشأن الصفحات الخمسين الأولى؟».

«سوف أسألها»، قلت بنبرة المراهنة. حتى عندما نتّفق حول أمرٍ معيّن فإننا لا نتصرّف كأننا نتناوب في حمل المشعل، بل كأننا نتقاذف كرة الطاولة حيث الطاولة مشتعلة.

مدّ شارلي يده ليصافحني بشأن اتفاقنا، وتردّدت قبل أن أمدّ يدي في المقابل، فإن تلك الملامسة السريعة كانت كافية لتعيد إلى رأسي مشاهد من تلك الليلة كأنها أفلام فيديو قصيرة. اتّسعت حدقتاه، والدوائر الملوّنة حولهما اتّقد جمرها، وتسارع النبض عند أسفل عنقه.

قدرتنا على فهم بعضنا إلى هذا الحدّ قد يعقّد الأمور في «علاقة العمل» التي بيننا.

مع أن أعلى ساقه لم يلمس أعلى ساقي *بالفعل*، كنت أشعر بحرارته، كأنه سكّين ملتهب فوق قرص الزبدة.

وإذا بسعال متقطع يصدر عن أحد الناس في مقدّمة القاعة ويثقب الفقاعة العازلة التي خلتها حولنا. التفتّ لأرى أن الناس من جميع الجهات كانوا يرفعون أياديهم في الهواء - بمن فيهم ليبي. أما سالي، فكانت قد استدارت نحونا في كرسيّها، وكانت تصدر ذلك السعال المتقطّع باتجاهنا، وتضع إحدى يديها فوق رأسها. سارع شارلي إلى سحب يده ورفعها. وانتقلت عينا سالي إليّ على الفور بنظرة بدت راجية. عندما رفعت يدي، ابتسمت واستدارت مجدّدًا إلى الأمام.

وإذ بدأت المرأة ذات الشعر الأحمر في عدّ الأصوات، انحنيت نحو ليبي وسألتها: «على ماذا نصوّت الآن تحديدًا؟».

«ألم تسمعي؟ يجري التصويت على وضع تمثال في ساحة البلدة»، أجابت.

«أيّ تمثال؟».

ضحك شارلي ساخرًا، ورنّ صوت ليبي قائلًا: «منحوتة كبيرة تمثّل العجوز السيد ويتاكر وكلبه!».

«إنه إذًا *التمثال الذي يخلّد رواية مرّة في العمر*».

أدرت رأسي نحو شارلي لأتحدّاه بسخرية، ولكنه قابل نظرتي بابتسامة ماكرة، وقال: «هيّا ستيفنز، مهما حاولتِ، لا شيء سينجح في تعكير مزاجي هذه الليلة».

ارتفع الأدرينالين في دمي، ولكنّها لعبة خطيرة معه، خصوصًا وأن قدرتي على التحكّم بأعصابي كانت قد تراجعت إلى حدّ كبير. ولذلك أجبرت نفسي بالأحرى على رسم ابتسامة مهنيّة وجليدية على وجهي، وأدرت نظري باتجاه مقدمة القاعة.

أمضيت ما تبقّى من مدّة ذلك الاجتماع، في مشادّة صعبة مع نفسي: *لا تفكّري قطّ في لمس يد شارلي. لا تفكّري قطّ في بريق عينيّ شارلي. لا تفكّري بأيّ من ذلك. ركّزي.*

الفصل السابع عشر

فاجأتني دَستي بموافقتها على حذف بعض الصفحات. وفي غضون ساعة من وعدي بإرسال الملاحظات بشكل رسمي إليها قريبًا، أرسل لي شارلي ملفًّا من خمس صفحات بشأن القسم الأول من رواية فريدجد.

تفحّصتها في غرفة القهوة فيما كانت ليبي تعيد ترتيب رفوف كتب الأطفال وهي تطلق لحنها الخاص المتعثّر من أغنية جولي أندروز «My Favorite Things (أشيائي المفضّلة)»، ولكنها كانت تستبدل كل الأشياء المفضلة المذكورة في الأغنية بأشيائها ونشاطاتها المفضلة، مثل: *الكتب التي ليست زوايا صفحاتها مطوية كأذن الكلب؛ والتي غلافها جديد ولامع؛ وتنظيف الرفوف وترتيبها، وقراءة الكتب التي تتحدّث عن العشاق!*

أعدتُّ إلى شارلي ملفّه بعد أن أدخلت أربعة وستين تعديلًا على مقترحاته. وما لبث أن أجابني بعد دقائق معدودة، كأننا لم نكن على مسافة أمتار من بعضنا. هو أمام الصندوق، وأنا في غرفة القهوة. قال في رسالته الإلكترونية:

«إنك حقًّا شريرة يا ستيفنز!».

أجبت: «أملك سمعة يجب أن أحافظ عليها».

سمعت ضحكته الخافتة ترنّ في جوفي، كأن شفتيه كانتا فوق معدتي.

ومن قاعة الكتب المستعملة والنادرة، كان يصلني صوت ليبي تغنّي.

«أليس هذا المديح للكاتبة مبالغًا به إلى حدّ معيّن؟»، كتب لي شارلي. مشيرًا بذلك إلى عبارات الثناء الأربعين أو أكثر التي أدخلتها إلى ملفّه.

أجبت: «أعجبتكَ تلك الصفحات؛ وكل ما فعلته هو أني أضفت بعض التفاصيل».

كتب: «كل ما في الأمر أن إضافاتك ليست ضرورية. أن تكلّمي الكاتبة

طويلًا على أمور ليست بحاجة إلى تغييرها، قد يبدو مضيعةً للوقت، ويوحي بأنك تتكلمين من موقع متعالٍ».

أجبت: «إذا اقترحتَ على دَستي حذف بعض الجوانب، ولم تلقِ الضوء على الجوانب الحسنة في النصّ، فقد تجازف بخسارة هذه الأخيرة».

وهكذا، استمرّ الملفّ في جيئة وإياب بيننا حتى توصّلنا إلى نتيجة مُرضية لكلينا، وأرسلناه إلى دَستي. لم أتوقّع تلقّي جواب دَستي قبل مرور أيّام، ولكنّه جاءني في غضون ساعتين.

كتبت دستي: «أجد كثيرًا من الأفكار الجيدة هنا والتي تستحقّ أن أفكّر بها. سوف أنكبّ على إجراء التعديلات المقترحة، باستثناء أن علينا المحافظة على وجود الهرّة. بالمناسبة، انتهيت من مراجعة الصفحات المئة التالية، وسأرفقها (ربطًا)».

بعثت إليّ برسالة خاصّة تقول: «جدّيًا، هل يمكنك المشاركة في تحريرعمالي أ أ أعمالي كلّها من الآن وصاعدًا. سأكون سعيدة لو وافقتِ على ذلك».

شعرت للتوّ كأني تحوّلت إلى قنديل يتوهّج بحرارة الفخر. ثمّ أرسل لي شارلي رسالة أخرى، فاختفى التوهّج للتوّ، كأنه الثعبان-اللعبة، الذي يخرج من العلبة فجأةً، ثمّ يعود إلى داخلها بعد لحظة، ريثما يستعدّ لخروج جديد.تقول الرسالة:

«أعتقد أننا مناسبان معًا، ستيفنز».

شعرت بنجم صغير يلمع ويستقرّ في عمق صدري. وأجبت: «نعم، قد نستطيع معًا بناء إنسانٍ مكتمل من حيث الطبيعة العاطفية. وقد يكون ذلك إنجازًا فعليًّا». ثمّ أصغيت إلى ضحكته المتقطّعة.

ولكن ما لبث أن شدّ انتباهي إلى النافذة صوت آخر- إنه صوت ليبي الذي وصل إلى أذنيّ من وراء الزجاج مكتومًا. كانت تتكلّم بما يشبه الصراخ، وتبدو بلا شكّ غاضبة. سرت عبر متاهة الممرات المرصوفة بالكتب، حتى وصلت إلى القسم الأمامي من المكتبة، حيث أستطيع

رؤيتها عبر النافذة. كانت على الرصيف، وفي إحدى يديها الهاتف الذي رفعته إلى أذنها، وباليد الآخرى كانت تحاول حماية عينيها من وهج الشمس.

كانت تقف بطريقة دفاعية. كتفاها مشدودتان إلى أعلى، وذراعاها عند الكوعين تلتصقان بجسمها. نفخت بضيق، ثم قالت شيئًا آخر، وأقفلت الخطّ. تقدّمت نحو الباب الأمامي لأكلّمها، ولكنّها سرعان ما علّقت حقيبتها على كتفها واجتازت الشارع إلى الجهة المقابلة، وانعطفت الى اليمين بخطوات حثيثة.

تجمّدت في مكاني، واعتصرت معدتي قلقًا.

«ماذا حدث فجأةً؟».

أزّ هاتفي وسارعت إلى فتح الرسالة. إنها من ليبي: «كان عليّ الخروج لإحضار بعض الأغراض. سألاقيك إلى البيت في حوالي الثامنة».

ازدردت ريقي بصعوبة كأني أزدرد حفنة من التوتّر الشائك، وأجبت: «هل ثمة مساعدة يمكنني المشاركة بها؟ ليس لديّ عمل كثير اليوم على كلّ حال». كانت الكذبة كبيرة، ولكن ليبي لم تكن أمامي لتقرأها على وجهي.

«كلا، إني سعيدة بصحبة نفسي الآن – أعتذر لا أقصد الإهانة. سأراك لاحقًا».

عدت إلى حاسوبي في حيرة. وشعرت وكأني تعرّضت للخيانة. ولكني لم أعلم ما الذي أستطيع فعله عند ذلك الحدّ. مرّت أسابيع منذ انطلاقنا في هذه الرحلة، وأسئلتي ما برحت بلا إجابة. فقرّرت أن أبعث برسالة نصّية إلى براندن.

«سلام براندن، كيف الأمور في نيويورك؟ هل كلّمتك ليبي؟».

أجاب على الفور: «الأمور على ما يرام. نعم تكلّمنا. هل كل شيء على ما يرام معكما؟».

فكّرت بطرح السؤال (هل من مشكلة لدى ليبي؟)، بأساليب عدّة، حتى اقتنعت بأن ليبي ستغتاظ جدًّا لو عرفت بأني طرحت على براندن

هذا السؤال. قد لا تخضع العلاقات العائلية إلى قوانين منطقية، ولكنها تفتقد إلى المرونة. كانت أمي تعلم تمامًا كيف تجعلنا نفضي همومنا إليها، ولكني أجد نفسي كأني في قبوٍ مهدّد بالانهيار، وقلب ليبي على منصّة في وسطه؛ ومطلق حركة خاطئة أقوم بها قد تجعل الأمور أسوأ.

«كل الأمور جيّدة»، كتبت إلى براندن. وعدت لأركّز على عملي، أو لأحاول التركيز.

كانت حركة الزبائن متوسّطة خلال الساعات المتبقية من فترة بعد الظهر، ولذلك كنت مع شارلي وحيدين في المكتبة في معظم الوقت. ولذلك أيضًا، لم أكن في حياتي أقلّ إنتاجًا.

وبعد قليل، بعث لي شارلي برسالة قائلًا: «أين ذهبت جولي أندروز؟».

«عادت إلى الدير. لم تتمكّن من مساعدتك؛ فأعلنت استسلامها».

«أعلم أن لديّ مثل هذا التأثير».

«ليس على دَستي. لكن يبدو أنها أحبّتك».

قال مصححًا: «أحبّتنا، مثلما قلت لكِ إننا جيّدان معًا».

فتّشت على الردّ المناسب، ولم أجده. كل ما كان يشغلني هو التوتّر الذي بدا على وجه أختي، وخروجها المفاجئ. كتبت: «لدى ليبي خطط غامضة».

أجاب: «لا بدّ أنه الافتتاح الكبير لمحل دنكن دوناتس في إحدى القرى المجاورة».

وبعد دقيقة، أضاف: «هل أنت بخير؟». استطاع شارلي أن يتعرّف إلى حالة مزاجي حتى من وراء الجدران الفاصلة بيننا. شعرت بألم غير مفهوم ينتشر في أطرافي إزاء الفكرة. قد يكون الشعور بالوحدة. شعور قد يكون مشابهًا لشعور إيبينيزير سكروج[1] Ebenezeer Scrooge وهو يراقب من وراء زجاج نافذته الضبابي احتفال عيد الميلاد في بيت ابن أخيه. إنه العالم الخارجي عندما يصبح أكثر وضوحًا في الذهن على ضوء الإيحاء الذي يأتي من الباطن.

---

(1) . رجل بخيل وقاسٍ كان يكره عيد الميلاد إلى أن تغيّر بمساعدة ثلاثة أرواح خيّرة.

كل ما كنت أرغب به، هو الذهاب إلى شارلي والجلوس على حافّة منضدته والتحدّث إليه في كل الأمور، وأن أجعله يضحك، وأدعه يضحكني حتى يتلاشى كل الضغط الذي أشعر به.

أجبت على رسالته بكلمة واحدة: «حسنًا». وبعد ذلك، وجدت نفسي أعود إلى هذه الرسالة مرارًا قبل إرسالها. ثم أجبرت نفسي على فتح مسوّدة الكتاب. انشغلت كثيرًا في محاولة إشغال نفسي، حتى نظرت إلى الساعة فوجدتها تشير إلى الخامسة وثماني دقائق.

كانت المكتبة قد أصبحت في سكون تامّ، فعملت على توضيب أغراضي في حقيبتي بهدوء كأني في حذر ألّا أوقظ قطيعًا من الأسود. علّقت حقيبتي على كتفي وسرت بسرعة إلى الخارج، وما زلت أجهل مَن الأسد في السيناريو، شارلي أم أنا؟

هذا ما كنت أفكّر به عندما كدت أصطدم بشارلي خارج الباب الرئيسي، إذ صرخت: «أسد!».

اتّسعت عيناه. وطارت يداه إلى أمام وجهه (ربّما ظنّ أني عنيت في قولي « *إنه أسد، اقبضي عليه!* »)، وكانت المعجزة الكبرى، وهي أن كلينا توقّفنا فجأةً، واحدنا قبالة الآخر، أصابع أقدامنا كأنها الرأس على الرأس، ولكننا لم نلامس بعضنا قطّ عند أيّ نقطة.

تسارعت ضربات قلبي، واتّسع دفق المشاعر في صدري.

«لم أعلم أنك ما زلتِ هنا».

«ما زلتُ هنا».

«إنك تغادرين عند الخامسة ــ»، ونقل وعاء الريّ من يده اليمنى إلى اليسرى. كانت الأزهار خلفه في الحوض الصغير المثبت إلى حافة النافذة تتألّق جمالًا، وقطرات الماء تتأرجح على بتلاتها الوردية والبرتقالية، وتلمع تحت شمس بعد الظهر اللطيفة. وأضاف: «عند الخامسة تمامًا».

«اضطّررت لذلك بسبب العمل»، أجبت كاذبة.

أرسلت عيناه سهامها إلى الغمازة على خدّي فارتفعت حرارته عشر درجات أو أكثر. وبصوتٍ هادئ، سألني: «هل كل شيء على ما يرام؟ لا يبدو عليك ـــ».

«هاي شارلي!»، قاطعه صوت منخفض ولطيف. في الجهة المقابلة من الشارع، رأيت رجلًا بقامة مارد، ووجه ملائكي، ينزل من شاحنة موحلة؛ عيناه تلمعان كجوهرتين، وعلى خدّيه غمازتان.

«شيبرد!»، قال شارلي بنبرة جافّة إلى حدّ معيّن، وأخفض ذقنه قليلًا عند السلام. لا أقول إني رأيت ما يشبه الخناجر المسنونة في عينيه، ولكنّه لم يبدُ سعيدًا عند رؤية شيبرد. قد يعود السبب في ذلك إلى تاريخ بينهما، أو إلى خلفية غير مريحة، أو مشاعر ضمنية سلبية، أو إلى أي أمر آخر.

«طلبت مني سالي أن أعطيك هذا»، قال شيبرد فيما كان يدفع بالكيس الذي يحمله باتجاه شارلي، ويقطع الشارع.

شكره شارلي، ولكن شيبرد الذي كان قد أصبح قبالتي، اتّسعت ابتسامته، وقال: «أهلًا، أهلًا، إنها نورا من نيويورك! قلت لك إننا سنلتقي ثانيةً».

قرأت ذات مرّة أن أزهار دوّار الشمس تلتفت نحو الشمس دائمًا. الحال هي كذلك بالنسبة لي في وجود شارلي لاسترا. قد تهبّ نيران قوية باتجاهي من جهة الغرب، ولكني أستمرّ بالانجذاب شرقًا إلى حرارته.

ولذلك، على الرغم من كوني متأكدة بنسبة ثمانين في المئة من رغبة شيبرد في مغازلتي، لم أتوانَ عن النظر باتجاه شارلي، أو بالأحرى نحو باب المكتبة الذي كان ينغلق وراءه.

«تُرى هل الوقت مناسبٌ الآن لكي أصطحبك في نزهة استكشافية حول البلدة كما تكلّمنا سابقًا؟».

فكّرت قليلًا، ونظرت إلى هاتفي ولم يكن هناك أي رسالة جديدة من ليبي بعد. داهمني القلق وانتشر في كل جزء من كياني طيلة لحظات، غير أني شعرت وكأن مئات الأيدي بدأت تطرق أبواب ذهني لكي أعتق نفسي

من الضغوط وأخرج إلى الحرية. أسقطت هاتفي داخل حقيبتي، وقلت لنفسي *ركّزي على شيء يمكنك التحكّم به. إنها القائمة والبند الخامس منها.*

وإذ قاومت رغبتي الملحّة في النظر مجدّدًا نحو المكتبة، التقت عيناي بعينيّ شيبرد، وكذبت قائلة: «الفكرة رائعة!».

كانت نوافذ الشاحنة مفتوحة، ورائحة أشجار الصنوبر تختلط برائحة التراب الذي جفّ تحت حرارة الشمس، ورائحة العرق، قبل أن تصل إلى أنفي. لم أكن قد رأيت مشهدًا في حياتي مثل مشهد ذلك السفح الأخضر المسمّى ذي بلو ريدج باركواي The Blue Ridge Parkway. وكان الدرب بمنعطفاته اللّينة محفورًا في الجبل بطريقة تجعل الأشجار كأنها تخيّم فوقنا من إحدى الجهتين وتنفلش تحتنا من الجهة أخرى. ومشهد شبيرد كان نادرًا أيضًا؛ فقد توفِّر ساعداه للكُتّاب مادّة للوصف المطوّل من حيث كثافتهما العضلية ومنثور الوبر الأشقر الذهبي فوقهما. كان يدندن مع موسيقى الريف الأميركي المنبعثة من الراديو، ناقرًا بأصابعه على إيقاعها فوق دولاب القيادة أو فوق عامود الدبرياج.

وبعد الحماسة التي شعرت بها بدايةً إزاء هذا القرار الفوري بمرافقة شيبرد، عدت إلى تفكيري، وخطر في بالي أنها المرّة الأولى منذ زمن طويل، التي أوافق فيها على الخروج مع رجل لا أعرفه جيّدًا. بغض النظر عن إمكان أن يكون مجرمًا أو مغتصبًا، أو آكل لحوم، فإني أجهل أيضًا كيف أحدّث رجلًا لا أعلم عنه شيئًا، ولا أفكّر به كشريك محتمل على المدى الطويل.

بإمكانك أن تفعلي هذا يا نورا، قلت في نفسي، *أنتِ لست نادين بالنسبة إليه، بل إنسانة أخرى عادية. هيّا قولي أيّ شيء!*

ولكنه ما لبث أن أخرجني من بؤسي أخيرًا، إذ بادر إلى سؤالي: «إذًا نورا، ماذا تفعلين؟».

«أعمل في مجال النشر كوكيلة أدبية»، أجبت.

«لا أصدّق!»، قال فيما تحوّلت عيناه الخضراوان على الفور عن الطريق إليّ. «إذًا، أنت على معرفة سابقة بشارلي».

أحسست وكأن معدتي هبطت ثمّ عادت وقفزت صعودًا إلى صدري. «ليس تحديدًا»، أجبت بأسلوب قصدت به الإبهام.

ضحك شيبرد، وخرجت من حنجرته قهقهة نقية ورنّانة، وقال: «أوه، أوه. أعرف تلك النظرة، لا تحكمي علينا كلّنا انطلاقًا من معرفتك به».

امتلأني ميل جارف للدفاع عنه - وقد يُسمّى ما شعرت به تعاطفًا، لمعرفتي بأن الناس قد يتكلّمون عليّ بالأسلوب ذاته. وبالتزامن مع هذا، اغتظت من تصرّفي الذي يمكن تفسيره بأني ركبت في سيارة رجل غريب كأنها كبسولة هاربة إلى الفضاء البعيد، ومع ذلك ما زال شبح شارلي حاضرًا معي.

قال شيبرد: «ليس شارلي سيئًا كما قد يبدو. تكفي عودته إلى هنا من أجل مساعدة سالي وكلينت، في حين أن كل ما كان يريده سابقًا هو مغادرة هذا المكان...». قال ذلك، فيما رفع ذراعه وأشار بحركة دائرية باتجاه الطريق الممتدّة أمامنا والمرقّطة ببقع من الظلال تارة، وبنور الشمس تارة أخرى. ثم انعطف شيبرد بشاحنته صعودًا حول سفح الجبل.

«ماذا تفعل أنتَ؟»، سألته.

«أعمل في مجال البناء، وفي النجارة أحيانًا، عندما يسمح الوقت»، أجاب.

«طبيعي»، قلت بصوتٍ عالٍ إنما عن غير قصد.

«لماذا تقولين ذلك؟»، سألني والشعاع في عينيه يتراقص كأنه بريق الزمرّد تحت الضوء.

«أردت بقولي إنك تبدو مثل نجّار».

«ماذا؟».

أوضحت: «النجّارون معروفون بالوسامة».

اهتزّ حاجبه، وابتسم. «هل هذا صحيح؟».

«أعني أن النجّارين يكونون محور قصص الحبّ في كثير من الكتب والأفلام. إنه الشخصية المجازية التي تمثّل الرجل الواقعي والصبور، والمثير من غير أن يكون سطحيًّا».

ضحك وقال: «هذا لا يبدو سيئًا».

«أعتذر، منذ زمن لم أخرج إلى ـــ». تراجعت للتوّ عن لفظ كلمة *مواعدة* - والكلمة لا تنطبق بالطبع على هذه النزهة، وأتممت الجملة بكلمة أكثر مأساوية بدرجات، فقلت «لم أخرج إلى مكان».

ابتسم شيبرد. قد لا يخطر في باله أني ربّما خرجت حديثًا من حجري المظلم بعد سنوات من الاختلاط القليل بالناس، أو من عدمه. «حسنًا إذًا، يا نورا القادمة من نيويورك، أعلم الآن جيّدًا إلى أين سنذهب».

***

لست في الواقع من الأشخاص الذين يعبّرون عن إعجابهم بطريقة مسموعة - ردّ الفعل الدراماتيكي الصارخ يختص بليبي. ولكني عندما نزلت من الشاحنة لم أتمكّن من كتم انشداهي.

«أعتقد أن ليس لديكم مناظر طبيعية مثل هذه في نيويورك»، قال شيبرد بافتخار.

لم أجرؤ على القول بأن الذي شدهني، ليس مشهد الوادي، مع أنه كان رائعًا، بل مشهد المنزل الذي يبدو أن بناءه انتهى بنسبة ثلاثة من أربعة، والذي يتربّع على السفح ويشرف على الوادي الذي تحتنا. وكانت الشمس في الجهة المقابلة تغطس عند خطّ الأفق، وتخلع على كل شيء رداءً بلون العسل الذهبي الذي كان قد أصبح على الأرجح لوني المفضّل الجديد.

ولكن البيت -الذي كان بناء فسيحًا وحديث التصميم مع واجهة خلفية مصنوعة بكليتها من الزجاج- كان يتوهّج وسط أنوار الغروب الأرجوانية.

«هل أنت المكلّف ببناء هذا البيت؟»، سألته، ونظرت إلى الخلف فوجدت شيبرد يُخرج برّادًا من صندوق الشاحنة، مع بساط أزرق.

«أنا مَنْ يبنيه»، قال مصحّحًا، وأغلق باب الصندوق. «هو لي؛ أتابع الاهتمام ببنائه عندما يتسنّى لي الوقت بين المشاريع الأخرى المدفوعة الأجر، ولذلك استغرق بناؤه زمنًا طويلًا».

«إنه في غاية الروعة»، قلت.

وضع البرّاد على الأرض وفتح البساط.

«أردت العيش هنا منذ أن كان عمري عشرة أعوام». قال وأشار عليّ بالجلوس.

هل أردتَ منذ صغرك العمل في مجال البناء. شددتُ تنورتي حول ساقيَّ، وانحدرت للجلوس على البساط، فيما استخرج شيبرد علبتين من البيرة من البراد، وجلس إلى جانبي.

«كنت أريد أن أكون مهندسًا إنشائيًّا».

قلت: «حسنًا، ولكن كيف لولد في العاشرة أن يطمح ليصبح مهندسًا إنشائيًّا؟ في مثل هذا العمر، قد لا يعرف الأولاد ماذا تعني هذه العبارة. بصراحة، لم أسمع بهذه العبارة *أنا* نفسي قبل هذه اللحظة».

ضحك بصوت منخفض وتردّدت قهقهاته اللطيفة كأنها تدحرجت فوق الأرض. شعرت بالأدرينالين يتفشّى في عروقي، كما في كل مرّة أنجح في إضحاك أيما شخص. ولكن ذلك الشعور المثير بفراشات ثملة كأنها ترقص في بطني، لم يستيقظ. عدّلت وضع ساقيّ، فأصبحتا أقرب إلى ساقيه، وسمحت بأن تتلامس أصابعنا عندما أخذت من يده علبة البيرة. ولكن شيئًا لم يحدث.

«أنتِ على حقّ. في الواقع، عندما كنت في العاشرة، كنت أحلم ببناء الملاعب الرياضية. ولكني عرفت ماذا أريد حقًّا عندما ذهبت إلى جامعة كورنيل Cornell University».

تعثّر بلعي، وغصصت بالبيرة، ولكن ليس بسبب طعمها الكريه وحده.

«هل أنت بخير؟»، سألني شيبرد وراح يربّت على ظهري كأني حصان أصابه الفزع.

هززت برأسي وقلت: «ذهبت إلى كورنيل!؟».

زمّ عينيه بطريقة وسيمة، وقال: «هل تفاجأتِ؟».

«نعم، لأنها المرّة الأولى التي أقابل فيها أحد خرّيجي كورنيل ويتمهّل كثيرًا قبل أن يخبرني بأنه كذلك».

مال برأسه إلى الوراء ضاحكًا، ثم مرّ بيده على ذقنه. «صدقًا، ربّما كنت أذكر ذلك أكثر بقليل قبل عودتي إلى هنا؛ لأن الناس هنا لا يهتمّون بأمر الجامعة التي تخرّجتُ منها، بقدر اهتمامهم بحسن الأداء الذي كنت أظهره في مركز *كوارترباك* Quarterback (موقع دفاعي رئيسي في لعبة الفوتبول الأميركية)».

«ما هذا أيضًا؟».

«كوارترباك ــ إنه موقع...» وكفّ عن المتابعة عندما قرأ تعابير وجهي. «إنك تمازحينني، أليس كذلك؟».

«أعتذر. إنها عادة سيئة».

«ليست بهذا السوء»، قال وفي صوته نغمة مغازلة وتحبّب.

نكزت ركبته بركبتي، وقلت: «إذًا، ما الذي جعلك تعود إلى هنا؟ سبق وأخبرتني أنك عشت في شيكاغو لفترة».

«بعد تخرّجي على الفور، حزت على وظيفة هناك. ولكني اشتقت إلى بلدتي، ولم أرغب في البقاء بعيدًا عن كل هذا لفترة طويلة».

تبعت عيناي عينيه التي تحوّلت من جديد إلى الوادي، حيث تحتشد الألوان البنفسجية والوردية في كل مكان، وتنفلش فوقها ظلال المساء الممتدّة من الأفق. أما الناموس والبعوض فكانت تطير وتحوم بالآلاف وسط ضوء النهار المتلاشي، كأنها تؤدّي رقصة الطبيعة الخاصّة بهذه الساعة. «المكان جميل»، قلت.

الهدوء على هذا الارتفاع يولّد شعورًا بالاسترخاء وليس بالخوف. لاحظت أن الرطوبة لا تزعج شيبرد ولا تسيء إلى مظهره، فخطر في بالي أن الأمر قد يكون مماثلًا بالنسبة لي، وربما لا أبدو مثل فراشة غرقت في

الماء. الشعور بدبق الرطوبة الحارة على الجلد يكاد يكون لذيذًا، ورائحة العشب ناعمة وتدغدغ الحواس، وما من أمرٍ يبدو مستعجلًا.

ولكن، وفي عمق رأسي، كنت أسمع ذلك الصوت الأجشّ والمألوف يردّد *إنك بالأحرى تفضّلين الأماكن الضاجّة والمزدحمة حيث حتى الحقّ بالوجود يتطلّب منافسة.*

أحسست بعينين تطيران فوقي، وعندما التفتّ جانبًا، كانت المفاجأة صاعقة. كأني كنت أتوقّع كلّيًا أن تقع عيناي على شخص آخر غير شبيرد.

«تُرى ما الذي حملك على المجيء إلى هنا؟»، سألني شيبرد.

كانت الشمس قد توارت تمامًا، والهواء أصبح أكثر برودة. أجبت: «إنها أختي».

لم يطلب مني أي معلومات إضافية، بل فتح لي المجال لمتابعة الكلام. ولكن كل ما يجري مع ليبي ليس ملموسًا ولا يمكن نقله بأسلوب واضح إلى مسامع شخص غريب إلى حدّ كبير.

«انتظري لحظة»، قال شيبرد وقفز من مكانه إلى شاحنته، وما هي سوى ثوانٍ حتى خرجت من مكبّرات الصوت نغمات أغنية من موسيقى الريف الأميركي رومنسية وهادئة. ترك باب الشاحنة مفتوحًا وعاد إليّ وانحنى نحوي بابتسامة تكاد تكون خجولة، ومدّ يده قائلًا: «هل ترغبين بالرقص؟».

ما كنت في العادة سأجد في هذه الحركة سوى إحراجٍ كبيرٍ. ولكن قد يكون القول بسحر الأرياف حقيقة. أو ربّما أن مزيجًا من نادين وليبي وشارلي حرّك لديّ جانبًا في شخصي، لأني ومن غير تردّد، وضعت علبة البيرة جانبًا على الأرض، وأمسكت بيده.

الفصل الثامن عشر

كنت أرى المشهد كأني أراقبه من الخارج. أو كأني كنت أقرأه في كتاب، وفي عمق تفكيري، ما برحت أقول *إن هذا* لا يحدث.

ولكن يبدو أنه يحدث بالفعل. لا بدّ أن القصص التي في الكتب تأتي من مكان ما. ويبدو أن النساء يرقصن منذ فجر الزمان على أنغام الموسيقى الريفية بصحبة مهندسين ونجّارين مثيرين، والعتمة تنشر ظلالها على الوديان الجميلة، فيما تُردّد زيزان الليل أنغامها كأنها تعزف على ألف قيثارة وقيثارة.

كانت رائحة شيبرد تمامًا كما تذكّرتها، خليطًا من رائحة الأشجار دائمة الخضرة مع رائحة الجلد وأشعة الشمس.

كل شيء كان يبدو جميلًا. كنت قد تراخيت وتركت العنان لنفسي إنما ضمن حدود التحرّكات المضبوطة التي لن تعود لتعضّني في أحد الأيام.

ها إني أفوز عليكِ يا نادين. إني حاضرة، وأتعرّق، وأتبع خطوات شخصٍ آخر؛ أسمح لشيبرد أن يؤرجحني، ويديرني ويغزلني حينًا إلى الوراء، وآخر إلى الأمام. أنا لست صلبة وقاسية وباردة. كان يدفع بي إلى تحت، ثمّ يبهرني بتلك الابتسامة الساطعة كأنها ابتسامة نجم سينمائي، قبل أن يشدّ بي إلى أعلى ويعيدني لأستوي على قدميّ.

«ماذا؟ هل الأمور تسير على ما يرام؟»، سأل.

«أيّ أمور؟» قلت.

«هل سنفوز بك في صنشاين فولز؟»،.

فتاة مثلك -في مثل هذا الحذاء- لا يمكن أن تكون سعيدة هنا. لا تدعي مزارع خنازير بسيط يرفع آماله عاليًا، قلت لنفسي.

تعثّرت خطوتي، ولكن شيبرد بلباقته تفادى تداعيات ذلك. التقطني وحرّكني في ربع استدارة. لم تصبني أذية، سوى في ما يخصّ كعبَيّ حذائي. لفّهما الوحل والتصق بهما العشب؛ فاغتظت من نفسي لأني لاحظت حدوث ذلك؛ ولأني تذكّرت عندما حملني شارلي على ظهره وتسلّق بي التلّة بعد الوقت الذي أمضيناه في لعب البلياردو تلك الليلة.

من الخارج، شيبرد وأنا، كنّا نؤلّف ذلك المشهد الجميل المتكامل. ولكني شعرت حقّا أني خارجه. كأن هذه الفتاة التي ترقص بين ذراعي شيبرد ليست في الواقع أنا. كأني ما زلت أنظر إلى المشهد من وراء النافذة.

وإذا بمشهد نافذتنا *القديمة*، وشقتنا *القديمة*، يظهر أمام عينيّ في الحال وبتفاصيله الدقيقة. أرض المطبخ الدبقة، والمنضدة المكسوَّة بطبقة بلاستيكية والمشبعة بالرطوبة. رأيت ليبي وأنا، نجلس على المنضدة فيما اتكأت أمي عليها، وبيننا كانت علبة بوظة بطعم الفراولة وثلاث ملاعق.

صعقتني الصورة كأنه طالعني فجأةً مشهد مخيف من فيلم مرعب. أو كأني مشيت حول منعطف لأجد هوّة ساحقة بانتظاري.

شددتُ أصابعي بين أصابع شيبرد، وتركته يجذبني أكثر نحوه. كانت ضربات قلبي تتسابق عندما عدت بفكري إلى السؤال الذي طرحه عليّ، وقلت: «لا شكّ أني تأثرت بهذا المكان».

ربّما لاحظ شيبرد التغيير على وجهي، ولكنّه لم يُظهر دليلًا على ذلك. ابتسم بدماثة وأزاح خصلة من شعري إلى وراء أذني. *ها إننا نصل إلى هنا*، قلت في نفسي. تنبّهت في تلك اللحظة إلى أنّي على وشك تقبيل رجل وسيم ولطيف في لقاء لم يكن منتظرًا وفي مكان غير مألوف. كان من المتوقّع أن تسير القصة بهذا الاتجاه، وها إنها فعلت.

أحنى جبينه فوق جبيني، ورنّ الهاتف في حقيبتي.

وعلى الفور، أضاءت نافذة أخرى في ذهني؛ إنها شقّة أخرى، شقّتي.

رأيت الأريكة بقماشها المطبوع بخليط من الأزهار، وكدسات الكتب التي لا تنتهي. شمعتي المفضّلة، والموقّعة باسم جو مالوني Joe Malone،

تشتعل فوق مصطبة الموقد الرخامية؛ وأنا ممدّدة في رداء من طراز قديم، وأضع على وجهي قناعًا خاصًّا للعناية ببشرتي. وبيدي مسوّدة جديدة لامعة، وعلى الطرف الآخر من الأريكة يجلس رجل عاقدًا حاجبيه، مغلقًا شفتيه، وبيده كتاب.

يغزو شارلي دماغي كأنه كبسولة من الدواء الفوّار ألكا سلتزرAlka Seltzer الذي ما إن يلامس الماء حتى يتوزّع في جميع أرجائه.

أدرت رأسي جانبًا، فتوقّف شيبرد في التوّ، وشفتاه لا تبعدان عن خدّي سوى بمقدار بوصة أو أقل. «يجب أن أعود إلى أختي»، خرجَت هذه الجملة من فمي على غير استعداد، وبصوتٍ أعلى ممّا أردت بستين مرّة. ولكني لا أستطيع المتابعة في هذا. كنت أشعر أن دماغي موحل وضبابي.

ابتعد شيبرد مرتبكًا، ولكنه ابتسم بأسلوب طبيعي وبطيب خاطر. «حسنًا، إن كنت بحاجة إلى دليل سياحي من جديد...»، ومدّ يده إلى جيب قميصه وأخرج قلم حبر ناشف، وورقة صغيرة وضعها فوق باطن كفّه وكتب عليها رقم هاتفه، «لا تتصرّفي كأنك غريبة». أعطاني الورقة، وقال بعد تردّد طفيف: «حتى وإن لم تكوني بحاجة إلى دليل سياحي».

تمتمت: «نعم، سوف أهاتفك». وتابعت الجملة في عقلي *عندما أتوصّل إلى معرفة ماذا يدور في دماغي*.

***

دفع شارلي إليّ بكوب القهوة فوق سطح المنضدة، «وصلتِ في موعدك تمامًا، أتوقّع إذًا أن شيبرد لم ينجح في أن يرفع لعنة ابنة المدينة عنك».

أغاظني تأكيده على رؤيتي أصعد إلى الشاحنة مع شيبرد. وجدت فيه البرهان على أنّ شارلي كان يغزو أفكاري البارحة عن قصد.

رفعت نظارتي الشمسية إلى رأسي، وقلت: «أمضينا وقتًا ممتعًا». كنت غاضبة منه. وغاضبة من نفسي. إني غاضبة بشكل عام، ولأسباب قد لا تكون مفهومة.

انقبضت عضلات فكّه بشكل ظاهر، ثم قال: «أين أخذك؟ إلى مقهى كريمي ويب في البلدة المجاورة؟ أو إلى موقف السيارات أمام مخازن ولمارت Walmart، حيث قضيتما الليل في صندوق الشاحنة وراقبتما النجوم؟».

«انتبه يا شارلي، كلامك يشير إلى الغيرة».

«بل يشير بالأحرى إلى شعوري بالارتياح. توقّعت رؤيتك هذا الصباح في شورت جينز قصير وضفائر، وربّما مع وشم لشاحنة فورد على أسفل ظهرك».

وضعت ساعديّ على منضدته، وانحنيت إلى الأمام كأني أقدّم له مشهد صدري على صينيّة من فضّة. كانت تداعيات الأرق الليلي الذي أعاني منه قد بدأت تؤثر عليّ. كان شبحه يطاردني، وقرّرت مطاردته في المقابل.

«قد أكون»، وتابعت -بصوتٍ منخفض- «رائعة بشورت الجينز والضفائر».

عادت عيناه إلى وجهي ورمقتاني بومضة حادّة. وارتجفت شفتاه بالتزامن مع تعابير الاستياء والسخرية التي يتقنها. إنها تعابير وجهه المتزامنة تزامن البرق والرعد. ثمّ أجاب: «´رائعة´، قد لا تكون الكلمة المناسبة...».

تنبّهت إلى حقيقة ما يحدث تمامًا، ثم انحنيت باتجاهه أكثر. «هل نقول جذّابة؟».

فيما بقيت عيناه حائمتان فوق وجهي، قال: «لا، ليست الكلمة المناسبة أيضًا».

«حلوة؟».

«كلا».

«حسناء؟».

«حسناء؟ قديم جدًّا. تُرى في أي سنة نحن يا ستيفنز؟».

«مثل ابنة الجيران - تلك الفتاة الحقيقية»، غامرت بالقول.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ضحك وسأل: «جيران مَن؟».
«سأجيبك عندما يخطر في بالي الجواب».
«أشكّ في ذلك»، قال متمتمًا.
شعوري بالرّضى عن نفسي استمرّ إلى أن وصلت إلى طاولتي في غرفة القهوة، وفتحت حاسوبي وتفقدتُ قائمة مهمّاتي لذلك اليوم. كانت هناك عروض لم أنتهِ من تقييمها البارحة؛ وبيانات يجب أن أوثقها وأسلّمها قبل نهاية هذا الفصل البطيء في عالم النشر.
من جديد، يحتاج عملي إلى التركيز التامّ من جانبي. ومن جديد، لا أنجح في فصل مشاغلي عن بعضها كما ينبغي. الحديث الذي دار بين ليبي وبيني حول وجبة العشاء البارحة ما زال يحوم حول رأسي مثل فراشات مشتعلة. كانت مرتاحة ومرحة إلى أبعد الحدود. ما من إشارة إلى أن أمرًا لم يكن على ما يرام، إلى أن مارست شيئًا من الضغط عليها لتخبرني عن مشاويرها الغامضة. عند هذا الحدّ انفجرت بكل طاقتها، وتقزّزت عيناها.
«ألا يمكن لامرأة ناضجة أن تنفرد مع نفسها لبعض الوقت؟ أعتقد أنه يحقّ لي ببعض الخصوصية». وهذا ما حدث بعد ذلك. حاولنا الابتعاد عن طرح المواضيع الشائكة، ولكن نظرات ليبي كانت تعود لتصبح قاسية وبعيدة من وقتٍ لآخر. لا بدّ من وجود أمرٍ تخفيه ليبي عني. إنه أشبه بحائط من زجاج أو جليد؛ ربّما كان غير مرئيّ، ولكنه ملموس.
فتحت الصفحات التي أرسلتها دَستي، وتخيّلت أني أغطس فيها كما لو كنت في غواصّة، وأطفئ الضوء على كل ما عداها من حولي. هذا ما أفعله دائمًا، ولا ألاقي صعوبة في فعله - إنه السرّ الذي جعلني أعشق القراءة: الشعور الفوري بأني أنساب تحت الماء، وأن مشكلات العالم كلّه تحلّلت وتوزّعت فجأة على عوالم ما ورائية آمنة.
تحرّكت أجراس الرياح المعدنية اللطيفة عند مدخل المكتبة، وأصدرت نغمات ناعمة اختلطت بكركرة صوت نسائي أجشّ ألقى التحيّة على شارلي. أجاب شارلي بحرارة وقابلته بضحكة مثيرة. لم أتمكّن من التقاط

كل كلمة دارت بينهما، ولكن تلك الضحكة المبحوحة ذاتها ما انفكّت تقطع انسياب الكلام من حين إلى آخر.

أظن أني سمعت أمايا تقول شيئًا مثل: «هل ما زلنا على موعدنا يوم الجمعة؟».

كما وسمعت شارلي يقول شيئًا مثل: «ما زال الموعد ساريًا بالنسبة لي».

أما دماغي فكان يقول شيئًا مثل: ***ولكن ذلك ليس مناسبًا لي قطعًا.***

وعلى هذا كان يجيب صوت الملاك الحارس في شخصيتي المهنية، قائلًا: «*كفّي عن هذا الهراء وفكّري في الأمور المفيدة لك. يجب ألّا تسمحي له باحتلال مشاعاتك الفكرية*».

ثبّتُّ السماعات على أذنيّ، ورفعت تسجيل أصوات جلبة المدينة إلى أقصى حدّ، لعلّها تصمّ أذنيّ عن الإصغاء إلى ما يدور في الغرفة المجاورة، ولكن حتى أعذب الأصوات الخارجة من أفواه سائقي سيارات التاكسي في نيويورك أثناء تبادل السباب، لم تكن كافية لتهدئتي.

قال شارلي إنه لم ينبذ أمايا، ما يعني على الأرجح أنها هي التي بادرت إلى قطع علاقتها به. لم أرغب في الذهاب بهذه الفكرة إلى الاستنتاج المنطقي الذي تؤدّي إليه. ولكن عقلي مثل قطار هارب لا يتوقّف، بل يخترق المحطّات المتتابعة بلا هوادة.

لم يكن شارلي راغبًا في إنهاء العلاقة.

تندم أمايا الآن على القرار الذي اتّخذته.

الأمور معقّدة بالنسبة إلى شارلي. أما الذي يجري بينه وبيني الآن، أيما كانت حقيقته، «لا يمكن أن يكون ذا أهميّة».

يحتفظ شارلي بالباب مفتوحًا أمام علاقته السابقة.

طلبت أمايا منه الآن الخروج معًا.

كانت هذه واحدة من الحبكات الممكنة التي نسجها عقلي؛ إنه يعمل بهذه الطريقة تحديدًا.

ولهذا فإن السقوط مرعب. إنك تنتقل فجأةً من الإحساس بأن الحياة مسار منبسط وأنك لا تحتاج سوى لعبوره، إلى الشعور بأنك في حالة من الانزلاق المستمرّ على منحدر، أو في سقوط مريع رأسًا على عقب، كأنك ريشة في مهبّ الريح. إنه مشهد أمي في كل صباح، وقد سرّحت شعرها وصبغت شفتيها المبتسمتين بأحمر الشفاه، وخرجت مسرعة لتوقف سيارة تاكسي، لتعود مساءً إلى البيت مع خطوط داكنة على طول خدّيها بخليط من الماسكرا والدموع. من الصعود إلى الهبوط، وما من جسرٍ بينهما.

ظهرت ليبي أخيرًا، وكنت سعيدة بشأن المهمّات التي أوكلتها لي والمتصلة بالبند الثاني عشر، مع أنها انحصرت في أعمال مثل تنظيف الغبار ومسح الأرض وترتيب المحتويات في المكتبة.

بقي شارلي في مكتبه، وعندما كان يخرج لتلبية طلبات الزبائن، كنت أتفادى النظر إليه، مع أني كنت أعلم في كل لحظة أين هو بالضبط.

بعد فرصة الغداء، أعدّت ليبي مجموعة من البطاقات تحت عنوان «نصائح عشّاق الكتب»، لكي يدوّن الزبائن عليها آراءهم، مع علبة حذاءٍ قديمة صمَّمَتها لكي يتمكّن الزبائن من إسقاط البطاقات في داخلها. أعطتني ثلاث بطاقات أوّلية لكي أملأها، ورحت أجول في المكتبة لأستوحي منها. رأيت الكتاب الذي كنت قد ابتعته في نهاية الأسبوع الأول من وجودي في البلدة، والذي قالت لي سالي إن شارلي هو من قام بتحريره، ووضعت البطاقة على أحد الرفوف لأكتب عليها بضعة أسطر. وبعد ذلك، وقع نظري على قصة رومنسية من تأليف أليسا كول Alyssa Cole، كانت ليبي قد أعارتني نسخةً منها في السنة الماضية؛ لكنّي وقعتُ في خطأ الشروع في قراءتها عبر الإنترنت على شاشة هاتفي فيما كنت أقف أمام البراد في شقتي. فكان أني قرأتها في غضون ساعتين ونصف، قبل أن أبرح مكاني.

وبعد ذلك انحنيت لأدخل غرفة كتب الأطفال من بابها المنخفض، وما إن استقمت في وقوفي حتى وجدت نفسي الأنف على الأنف مع شارلي. *هل نحن قطعتان من المغناطيس أو ماذا؟* تساءلت في نفسي. أمسك

بذراعي لكي يوقف تقدّمي تفاديًا للاصطدام. ولكن كان يمكن الظنّ أننا حقًّا التصقنا ببعضنا من الفم حتى الفخذين قياسًا بموجة الحرارة الفورية التي اجتاحتني.

«لم أعلم أنّكَ هنا»! قلت مسرعة. وكان ذلك بالطبع تقدّمًا كبيرًا بالمقارنة مع وهلتي وصرخة *أسد!*، يوم أمس.

لاحظت بريق عينيه الملوّنتين بلون السكر المحروق في اللحظة التي لمع في رأسه الجواب العفوي الأوّل، ثم لاحظت اختفاء ذلك البريق فجأةً عندما قرّر الاستعاضة عنه بالقول: «أقوم بجردة للموجودات». أرخى يديه عن ساعديّ ورفع الملفّ عن الرفّ. أكثر من ثلاث بوصات ونصف كانت تفصلنا، إلا أن شحنة كهربائية كانت تقفز منه وتحدث أزيزًا في عروقي.

قلت: «سأدعك تعود إلى عملك...». ولكن أحدًا منّا لم يتحرّك.

«إذًا أنت وأمايا تتلاقيان»، أضفت بطريقة تكاد تكون غير إرادية. «لم أكن أسترق السمع، ولكن المكتبة شديدة الهدوء».

اهتزّ حاجبه، وقال بصوتٍ منخفض قاصدًا إغاظتي: «'لا أسترق السمع'، و'لا أطاردك'، كأني أكتشف نمطًا معيّنًا هنا».

قلت بتحدٍّ: «و'لا أغار'، و'لا أبدو جذابة بالضفائر'».

انخفضت عيناه إلى فمي واتسعتا قليلًا، قبل أن يرفعهما ويتمتم «نورا...»، بصوت متثاقل ينطوي على تلمّس المعذرة وعلى الرجاء الذي لا يخلو من التردّد.

انقبضت حنجرتي، وتوتّرت أعصابي عندما كدنا نتلامس عند منطقة البطن قليلًا، وتمتمت: «ماذا؟».

أرسى يديه على كتفيّ بلطف وعناية، وقال بهدوء محاولًا تفادي النظر إلى وجهي: «يجب أن أذهب». ثمّ مرّ من أمامي وانسحب من الغرفة.

***

مجموعة جديدة من صفحات فريدجد وصلت إلى البريد الإلكتروني لكل منّا يوم الجمعة. أمضيت الساعات الأولى في قراءتها وإعادة قراءتها،

وفي جمع أفكاري حولها في ملفّ خاص. كنت أقاوم توقي إلى تبادل الرسائل النصّية مع شارلي الذي كان في الغرفة المجاورة. جاءت ليبي إلى المكتبة قرابة ساعة الغداء، وغادرت عند الثالثة بعد أن ذكرتني بأن مفاجأة ثانية تنتظرني الليلة.

حاولت إقناع نفسي أن إعداد هذه المفاجأة كان وراء اختفائها منذ يومين، ولكني لم أستطع الامتناع عن التفكير بأن سبب غيابها كان له صلة ببراندن. اقترحت عليها مرارًا أن نتواصل معه عن طريق الفيديو، ولكنها كانت تجد عذرًا لكي تتهرّب من ذلك.

عند الخامسة، لملمت أغراضي لأغادر المكتبة وأذهب للقائها. ولكن شارلي، هذه المرّة أيضًا، لم يكن وراء الصندوق. لم أشعر بالاغتياظ والغضب فحسب، بل *بالحزن* أيضًا.

شعرت *بالشوق إليه*، وسئمت من تواري كل منّا عن الآخر.

تسلّحت برباطة جأشي، ودخلت إلى غرفة المكتب. رفع رأسه بدهشة ونظر إليّ من مكانه، حيث كان منحنيًا فوق مكتب ضخم من خشب الماهوغوني عند الجهة اليمنى من الغرفة، ومنغمسًا في القراءة. كل ما فيه، من عينيه إلى كيفيّة جلوسه، أوحى لي بشكل الهرّ *الوحشي*. لو حدث في أحد الأزمان أنّ فهدًا تعرّض لسحر جنيّة نقلته من حيوان إلى رجل، لكان هذا الفهد هو شارلي لاسترا. وبعد بضع ثوانٍ من تفرّس واحدنا في وجه الآخر، سألني: «هل تحتاجين إلى شيء؟».

في السنة الماضية، كنت سأجد في سؤاله مسحة تعالٍ، أما اليوم فأعلم أنه يفضّل الذهاب فورًا إلى لبّ الموضوع.

«يجب أن نحدّد موعدًا لمناقشة الصفحات المئة التالية».

انصبّت عيناه عليّ حتى كاد الدخان يصعد من جلدي. شعرت وكأني نملة تحت مجهره وسط ضوء النهار. ثمّ أزاح نظره عنّي أخيرًا، وقال: «لا بأس يمكننا أن نفعل ذلك عبر البريد الإلكتروني. أعلم أن ليبي تشغلك بأمور كثيرة».

«نحتاج إلى مناقشة النصّ وجهًا لوجه»، قلت له.

كنت غير قادرة على احتمال وجود التوتّر بيننا لفترة أطول. تفادي رؤيته يزيد الأمور تعقيدًا، وأمقت الشعور بأني أتهرّب منه. يتطلّب علاج المسائل مع ليبي وقتًا طويلًا وقسطًا من الدراية لتفادي العقبات. ولكنه شارلي، وشارلي مثلي. نميل نحن الاثنان إلى التعاطي مع الأمور الغامضة بقوّة وصراحة. *أحنّ إليه*. إلى المشاكسة، والتحدّي، والمنافسة، وإلى اهتمامه بحذائي الثمين، وإلى رائحته، وإلى ـــ تبًّا لي، لم أتوقّع أن تطول القائمة إلى هذا الحدّ. إني غارقة في مياهه أكثر ممّا تصوّرت.

لم أسمع جوابه، فأضفت: «إلّا إن كنتَ منشغلًا جدًّا!».

قابلني بذلك التعبير الحائر بين السخرية والابتسام، وقال: «ما الأمر الذي قد يشغلني إلى هذا الحدّ؟».

لقاؤه مع أمايا قفز إلى مقدّمة أفكاري. تصوّرته يحملها فوق مستنقع ماء خوفًا من أن تبلّل حذاءها، ويفتح مظلّة فوقهما لكي لا يتبلّل شعرها المتطاير مع الريح.

«ربّما تكون منشغلًا بذلك الافتتاح لمحل حلويات دنكن دوناتس الجديد، أو بشأن عمليّة الطلاق بين الزوجين المتشاجرين في مركز البلدية».

«لن ينفصلا أبدًا». قال بنبرة جدّية. «هذا أسلوب الزوجين كاسيدي في المداعبة».

المداعبة! ليست الكلمة التي كنت قد أختارها في مقدّمة هذا الحديث.

«هل يناسبك يوم غدٍ؟ قبل الظهر».

نظر إليّ بتمعّن، ثم قال: «سأحجز لنا غرفة». وعندما لاحظ تعبير وجهي، ضحك. «غرفة درس في المكتبة يا ستيفنز، تخلّصي من أفكارك السيئة!».

أعتقد أني حاولت ذلك، صدّقني. أجبته في نفسي.

الفصل التاسع عشر

ساعدتني ليبي في النزول من سيارة التاكسي، وفي السير باتجاه مصدر الأصوات، وجعلتني أتوقّف في المكان المناسب، وانطلقت تقول: إنها المفاجأة!

أنزلت العصبة التي كانت قد طلبت مني وضعها على عينيّ، واختلجت أجفاني في استقبال ألوان الغروب الوردية والبرتقالية. كنّا أمام إعلان كبير للمدرسة الابتدائية يقول:

يقدّم سكّان بلدة صنشاين فولز

عند الساعة السابعة من بعد ظهر هذا اليوم

مسرحية

مرّة في العمر

«أوه! يا إلهي!»، قلت.

وخرجت من حنجرة ليبي صرخة حماسة تُغني عن الكلام. ثمّ قالت: «أرأيتِ؟ إنه المسرح المحلّي! كل ما يوجد في نيويورك، يمكن أن نجده هنا أيضًا».

«إنها بالفعل... قفزة كبيرة»، أضافت ليبي.

ثمّ ضحكت ولفّت ذراعها حولي. «هيّا، الدعوة عامّة، ولكنّي أريد إحضار الفوشار وتأمين مقاعد جيّدة».

لا أدري إن كان هناك ما يمكن تسميته اختيار «مقاعد جيّدة»، عندما تختار من بين صفوف من الكراسي القابلة للطيّ في قاعة الألعاب الرياضية في المدرسة. كانت خشبة المسرح مرتفعة، وهذا يعني أنه كان علينا أن نشدّ أعناقنا صعودًا طيلة عرض المسرحية. ولكن، ما إن انخفضت

الإضاءة وبدأ العرض، حتى أصبحت مسألة الجلوس والمقاعد ثانوية جدًّا قياسًا بالمسائل الأخرى.

«يا إلهي»، همست ليبي، وشدّت على ذراعي، عندما ظهر الممثّل الأول وهو يتمشّى أمام صورة محل العطارة التي تؤلف خلفية المشهد. يذهب الممثل إلى المكتب العقاري، وينظر بتمعّن إلى الصورة المعروضة.

«لا»، همست.

«نعم»، أجابت ليبي.

الممثل الذي يلعب دور العجوز ويتاكر كان طفلًا.

«وكيف يصحّ هذا؟ ماذا عن مسألة تعاطي العجوز الأدوية المخدّرة؟!»، قالت ليبي.

«ماذا بشأن الجرعة الزائدة؟!»، قلت.

«حتى إنه لا يبدو في الثالثة عشرة»، همست ليبي.

«صوته صوت صبيّ في العاشرة يغنّي في جوقة المدرسة»، قلت.

تنحنح أحد الجالسين بقربنا مُظهرًا انزعاجه، فانحدرنا ليبي وأنا في مقعدينا، ولم نرفع رأسينا سوى لنشاهد السيدة ويلدر صاحبة المكتبة تظهر على المسرح. في تلك اللحظة سارعت إلى إخفاء ضحكتي الفاقعة وحوّلتها إلى نوبة مصطنعة من السعال.

أما ليبي فكانت تصفر في أذني: «يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي». لم تكن عيناها على المسرح بل ركّزت نظرها على قدميها محترسةً من الانفجار في نوبة فاضحة من الضحك.

وبصوتٍ منخفض جدًا، سألتها: «كم يبلغ فارق العمر بين هؤلاء الممثلين بحسب رأيك؟ ثمانٍ وستين سنة؟»

وتنحنحت قليلًا، لكي تتحكّم بإمكان انفجارها في الضحك من جديد.

المرأة التي كانت تلعب دور السيدة ويلدر يليق بها بالفعل أن تكون جدّة ذلك الولد الذي يلعب دور العجوز ويتاكر.

«ربّما هي كذلك. وربّما أسند دور الصغيرة دليلة تايلر إلى كلب

العائلة»، همست. طوت ليبي نفسها فوق بطنها لكي تخبئ وجهها، وبقيت كتفاها تهتزّان على إيقاع ضحكاتها المكتومة.

وإذا بالمرأة الجالسة إلى يميننا ترمقنا بنظرة مؤنّبة أخرى. حرّكت شفتيّ بما يشبه الاعتذار؛ وقلت همسًا: «مشكلات الحساسيّة». غير أنها تبرّمت بعينيها وأزاحت نظرها عنّا.

ولكني عدت وتمتمت في أذن ليبي: «أوه، أوه، والدة ويتاكر غاضبة!».

التفتت ليبي إلى وجهي، ثم التصقت بي وعضّت على كتفي، لكي لا تصرخ. وعلى المسرح كان ويتاكر يضع يده على ظهره، ويحرّك فمه بالسباب معبّرًا عن بؤسه بسبب ألم ظهره المزمن.

ضغطت ليبي على يدي بقوّة لدرجة أني أحسست أنها قد تكسرها.

ثمّ همست بسرعة: «كما ويترتّب أيضًا على هذا الطفل الملتحي أن يختبر الآلام الجسدية التي ترافق التقدّم في العمر».

«كان على هذا الطفل أوّلًا أن يختبر بالأحرى عمليّة هبوط خصيتيه»، أجبت.

وكأن صوته أراد في الجملة التالية أن يدحض قولي، فانطلق من حنجرته كالزعاق. أما ليبي فأغلقت عينيها رشدّت ساقيها إلى بعضهما، وهي تقول: «لن أتبوّل على نفسي».

لم نرفع عيوننا عن أقدامنا طيلة دقائق، وكنّا ننفجر في نوبات من الضحك الصامت حتى تهتزّ أوصالنا. لم أكن قد عشت مثل هذا المرح منذ زمن طويل.

أيّما كانت الأمور التي تحدث مع براندن؛ أو مع أختي، أو بشأن الشقة، فنحن في هذه اللحظات نعيش التجارب الحلوة كالتي كنا نعيشها معًا في السابق، والتي لم ننعم بمثلها منذ زمن.

***

ما إن انتهت المسرحية حتى قفزنا إلى الخارج. كنا على وشك انفلات

السيطرة على أنفسنا فأسرعنا في الابتعاد عن أنظار الآخرين. وفيما كنا نسرع باتجاه المخرج، أوقفنا صوت ناعم ومرح.

«نورا! ليبي!»، قطعت سالي غودي الطريق نحونا مع رجل أشقر طويل القامة جالس على كرسي متحرّك. ابتسامتها بالغمازتين من طراز شارلي، أما غيمة روائح الياسمين والماريجوانا العائمة حولها فليست كذلك. لعلّه من الصعب أن تفكّر بأن شارلي بشخصيته الواضحة والحادّة الخطوط ترعرع على ذراعي هذه المرأة ذات الشخصية الطليقة والعفوية جدًّا.

«جميل أن نراك هنا!»، قالت ليبي بتنغيمة.

«هذا شأن البلدات الصغيرة... ، لا أعتقد أنكما تعرّفتما إلى زوجي بعد».

«كلينت»، عرّف الرجل عن نفسه، «أتشرف بالتعرّف إليكما».

«نتشرّف بمعرفتك»، قلنا معًا.

سألنا: «ما رأيكما بالمسرحية؟».

تبادلنا للتوّ، ليبي وأنا، نظرات رعب وارتباك.

«لا تحرجهما بالإجابة عن هذا السؤال». لمست سالي ذراعه معترضة بابتسام، «ليس قبل وجودنا معًا في الصالون. أدعوكما للحضور إلى منزلنا. تعوّدنا دائمًا الاجتماع مع الأصدقاء في بيتنا بعد كل عرض فني في البلدة».

«هل تُقدَّم مثل هذه المسرحيات عادةً؟»، سألت ليبي بصوت مختنق. كنا لا نزال في حالة غريبة كأنها مزيج من الفرح والسخرية والسخط.

«يقدّمون أربع مسرحيات كل عام»، أجابت سالي.

رفع كلينت حاجبه وقال: «ولكن يبدو لي أنهم يقدّمون عددًا أكبر منها».

استطاعت ليبي أن تقمع ضحكةً عالية من غير أن تتمكّن من كتم صريرٍ خرج من حنجرتها.

«أرجو أن تقبلا دعوتي»، قالت سالي.

«أوه، ولكننا لا نحبّ أن نتعدّى على خصوصية المجتمعين»، أجبت.

اعترضت سالي: «هذا غير مقبول! لا وجود لأمور مثل هذه في صنشاين فولز. ألم تشاهدا المسرحية مثلنا؟».

«شاهدناها بالطبع»، تمتمت ليبي.

وضعت سالي حقيبتها بين يدي زوجها لكي تتمكّن من البحث في داخلها عن قلم وأقصوصة من الورق؛ وعندما وجدتهما خطّت على الورقة عنوان بيتها.

«يقع بيتنا عند الجهة الأخرى من الغابة، عند أعلى الدرب الذي يمرّ من أمام الكوخ». وأعطت الورقة إلى ليبي، ولكنها أضافت: «هناك أيضًا طريق معبّدة ومضاءة يمكنكما اختيارها لو أردتما عدم المشي في الظلام».

لم تنتظر جوابنا بل تحرّكت مع كلينت للتوّ بسبب ازدحام الممرّ بالناس وراءنا.

سمعنا أحد المارّة المتقدّمين في السنّ يقول: « أوه؛ كان تمثيل بوريس رائعًا مع أنه لا يتخطّى الحادية عشرة».

عصرت ليبي يدي في يدها، وانطلقنا على الرصيف نقهقه كأننا مراهقتان أصابهما السّكر من الإفراط في تناول المشروبات الغازية.

***

يقع منزل عائلة لاسترا - غودي في نهاية طريق طويلة محاطة بأشجار السنديان المعمّرة. وجود لمنزل على هذه المسافة البعيدة من قلب البلدة ساعد في أن يبقى فضاء الليل حوله خاليًا سوى من أنوار النجوم ووميض أفواج الحشرات المضيئة الراقصة حول أغصان الشجيرات الكثيفة المحيطة بالمدخل.

إنه منزل من طابقين على طراز المنازل التي بناها البريطانيون لأنفسهم في المستعمرات. جدران المنزل بيضاء. أما خشب النوافذ، فكان يبدو أنه طلي حديثًا باللون الأسود. في المساحة الخارجية الفسيحة أمام البيت رأينا حوالى عشر سيارات مركونة، إضافة إلى سيارة أخرى وصلت وراءنا فيما كنت وأختي نترجّل من سيارة السائق هاردي.

وعندما اقتربنا من الباب الأمامي، رفعت ليبي عينيها لترمق واجهة البيت الذي يوحي بالدفء، وتقول حالمة: «قد لا أتردّد عن التضحية بمليون دولار في مقابل أن أكون هنا في عطلة عيد الميلاد».

«أتوقّع أن هذا يفسّر لماذا يهتمّ براندن بتنظيم ميزانية البيت بنفسه»، قلت.

شعرت بذراع ليبي الملفوفة حول ذراعي تتشنّج. نظرت إليها واكتشفت بعض الشحوب على وجهها. لم أتمكّن من معرفة إذا كان سبب ذلك عائدًا إلى التوتّر أو المرض، أو إلى كليهما. ومهما كان السبب فإن شعوري المفاجئ بالخوف عليها، أحدث تسارعًا في نبضي، فتذكّرت أنه حتى في مثل هذه الأوقات، لا يختفي خوفي عليها مهما توارى.

هزرت ذراعها. «هل كل شيء على ما يرام، ليبي؟».

فوجئت ليبي بما فعلته، ولكنها أخفت ردّ فعلها وأجابت: «بالطبع! لماذا لا أكون كذلك؟».

«أعني أنّك لو احتجت إلى أيّ شيء، تعلمين أني دائمًا ــ».

«أهلًا، أهلًا، تفضّلا»، صاحت سالي من الداخل. كان عليها أن تتكلّم بأعلى صوتها عندما مشت معنا عبر البهو الأمامي العابق بروائح الياسمين، باتجاه أصوات الضحك، وضجّة الأحاديث المتشابكة المتصاعدة من الفناء الخلفي. «من المستحسن أن أخبركما، أننا نتصرّف عادةً كأن العرض كان ناجحًا».

«أعتذر... ماذا تقصدين؟»، قلت.

ابتسمت، وساعد الابتسام في تعميق الخطوط حول فمها. كانت أعوامها الستون واضحة على وجهها، إلا أن اللون البرونزي الجميل كان يضفي عليها مسحة من الجاذبية والتميّز.

«أقصد المسرحية»، أوضحت. «أو حتى بعد أن يجري عرض لأعمال السيراميك، أو لأي نوع من الصناعات اليدوية، أو أي نشاط آخر، نتصرّف

كأن الأمور سارت على أفضل وجه، على الأقلّ ريثما يشرب معظمنا كأسين أو ثلاث». ربَّتَت على كتف كلّ منّا وابتعدت، ثمّ صاحت: «تصرّفا كأنكما في منزلكما».

«بشأن ما كنت أقوله لك في الخارج، ليبي ــ»، شرعت في الكلام، ولكنها قاطعتني وشدّت على ذراعي، «أنا بخير نورا. ولكني أشكو من ذلك التشنجّ في ساقي أثناء الليل، ولا أنام جيّدًا. لا تقلقي، بل استمتعي بعطلتنا». كلّما ازداد تأكيدها لي بأن أحوالها ممتازة، ازداد يقيني بأنها ليست كذلك. وما إن تلوح عليها أمارات القلق الأولى، فإنها كعادتها منذ أعوام، تسرع إلى الانغلاق دوني.

هكذا تجري الأمور. إنها لا تطلب المساعدة، ولذلك يصبح عليّ تصوّر ما تحتاج إليه؛ والتخطيط لكي أوفّره لها بالطريقة التي لا تثير ميلها إلى الرفض.

حتى بالنسبة إلى ثوب زفافها، كان عليّ الادّعاء بأني وجدت أثواب زفاف من صناعة دور أزياء كبيرة معروضة في التنزيلات، وأني وقعت على ثوبٍ رائع بثمن محسوم لأن بطانته كانت متّسخة بمسحة من مواد التجميل. وفي الحقيقة كنت أنا نفسي من وضع تلك المسحة على البطانة لكي أنجح في إقناع ليبي بقبوله.

ولكني الآن...، لا أعلم تحديدًا من أين أبدأ.

وإذا بفكرة مفاجئة تجتاحني فجأة وتوضح الصورة أمام عينيّ: إنها القائمة. تنبّهت إلى أن النشاطات التي وضعتها ليبي على القائمة تتصل في الواقع بالأعمال التي حلمت يومًا بامتهانها: البناء، الخبز، المكتبة... التسويق.

هل هذا كله يعني الحنين إلى خوض ميدان العمل؟ أو أسلوبها في البرهان على قدرتها على الاستقلال بحياتها لو احتاجت يومًا إلى ذلك؟ كان يجب أن أتنبّه إلى غرابة إقبال ليبي على تمضية ثلاثة أسابيع بعيدًا عن زوجها، خصوصًا في الشهر الخامس من الحمل، وإلى أسلوبها في التصرّف في الفترة الأخيرة.

إنها تحبّ براندن، ذكّرت نفسي. وحتى لو كان الاثنان يمرّان في فترة عصيبة تحت ضغط الاستعداد لاستقبال الطفل الجديد، فإن حقيقة حبّهما لا تتغيّر.

شعرت بالحرّ، وكأن ثيابي تضيق عليّ. نظرت حولي باحثةً عن محور آخر يشغل تفكيري ويعيدني إلى اللحظة الحاضرة، وإذا بنظري يقع على كلينت واقفًا بمساعدة جهاز المشي وسط المطبخ المزدحم بالأشخاص، وعلى الرجل الآخر الذي وقف بجانبه والذي لا يقلّ عنه طولًا، إنما يفوقه شبابًا وقوّة.

«واووو»، قالت ليبي إذ رأت شيبرد في اللحظة نفسها.

التقت عيناه الخضراوان بعينيَّ، فتمتم شيئًا إلى كلينت، قبل أن ينسحب من بين المجموعة ويمشي بخطى ثابتة نحونا.

«يا إلهي»، قالت ليبي، «هل هذا المخلوق الأسطوري قادم نحونا في هذه اللحظة؟».

«إنه شيبرد»، قلت، ولمّا أزل مشغولة بدولاب القلق الذي لم يتوقّف عن الدوران في جمجمتي.

سألت ليبي: «هل هذا راعي غنم حقيقي القادم نحونا؟».

«كلا، بل اسمه شيبرد».

«أوه، شيبرد!»، قالت باندفاع، في لحظة وصول شيبرد إلينا.

قال لي: «هل رأيتِ؟ هنا يكمن السبب الذي يجب أن يدفعك إلى حبّ الريف والبلدات الصغيرة».

الفصل العشرون

قال شيبرد: «لم أرَكِ في المسرحية، ربّما خرجتِ سريعًا».

رمتني ليبي بنظرة كأنها تقول: *لمَ نسيتِ أن تخبريني أن الشاب الذي خرجتِ معه كان أدونيس؟*

«احتاجت أختي إلى التبوّل»، قلت. فأمعن قولي في إظهار تعابير وجه ليبي التي بدا كأنها ساخت أمام جماله.

«هذه ليبي»؛ وأضفت، «ليبي، هذا شيبرد».

اكتفت ليبي بلفظة «واو».

«تشرّفت بمعرفتك، ليبي»، أجاب.

صافحَته، وقالت: «القبضة القويّة تشير إلى صفة جيّدة لدى الرجل. أليس كذلك يا نورا؟». ثمّ ثبّتت ليبي نظرها عليّ، كأنها تحاول القيام بدور الرفيقة الداعمة، *وأيضًا* إحراجي.

«صفة جيّدة ومفيدة خصوصًا في أفلام جيمس بوند»، قلت موافقة، فابتسم شيبرد بأدب. ولكن أحدًا لم يعلّق بكلمة، فأوضحت للتوّ: «مع كل هؤلاء الناس الذين يتأرجحون في الهواء من نوافذ المباني العالية...».

هزّ رأسه، وقال: «فهمت».

كان سحر ذلك المساء الرائع بصحبته قد ذهب عنّي، ولذلك شعرت بالحيرة بشأن كيفيّة التحدّث إليه.

«هل تشربن البيرة، أو... ؟»، قال.

«كأس نبيذ»، أجبت.

«أعتذر، إنها مثانتي المثقوبة...؛ عليّ الذهاب للتبوّل مجدّدًا»، قالت ليبي.

أشار شيبرد بيده إلى ليبي، قائلًا: «الحمامات عند آخر الممر».

«سأعود في الحال»، وعَدت ليبي. وفيما مشى شيبرد باتجاه البار ليسكب لي كأسًا من زجاجة نبيذ مفتوحة، استدارت ليبي نحوي لتنقض وعدها على الفور، وتمتمت: «لا لن أعود».

أعطاني شيبرد الكأس، وأشرت بذقني إلى عدد قناني النبيذ الهائل على الطاولة وسط المطبخ. «كلّكم تريدون حقًا تناسي أمر المسرحية».

ضحك، وسألني: «ماذا تعنين؟».

ابتلعت رشفة كبيرة من كأسي، وقلت: «لا تأبه. أمازحك بشأن النبيذ».

حكّ رأسه بحركة عفوية، وقال: «تدير خالتي عملية تبادل زجاجات النبيذ بين ضيوفها. كلّ من الضيوف يحمل معه زجاجة، وتضع هي رقمًا على أسفلها. وفي النهاية يجري ما يشبه سحب اليانصيب على الزجاجات المتبقية».

«يبدو لي أن خالتك من نوع النساء اللّاتي ينلن إعجابي. هل هي معنا؟».

«بالطبع؛ ليست غائبة عن الحفلة التي تقيمها هي نفسها».

كدت أشرَق بالنبيذ إلى داخل أنفي، حتى إني سعلت لأخرج ما كان قد طار منه إلى رئتي. «سالي؟ سالي هي خالتك؟ وشارلي لاسترا هو ابن خالتك».

«لا غرابة في أن يفاجئك هذا الأمر. إننا متناقضان كلّيًا. المضحك أننا كنّا رفيقين حميمين في صغرنا، ولكننا ابتعدنا بعد أن كبرنا. نباحه أسوأ من عضّه. إنه في الحقيقة شابّ طيّب على الرغم ممّا يظهره».

كنت بحاجة إما إلى تغيير موضوع الحديث، أو إلى التفتيش عن أريكة لأرتمي عليها. «كنت قد وعدتك بأن أتّصل...»، قلت.

ظهرت غمّازة خجولة على خدّه. وقال: «لا تأبهي، إني هنا على كل حال».

«إذًا، تعود ملكية مزرعة الخيول إلى عائلتك؟».

«إسطبل الخيول»، قال مصحِّحًا.

«حسنًا، لا أعلم الفرق جيّدًا».

«يعود الإسطبل إلى أهلي. وعندما تتراجع وتيرة العمل في مشاريع البناء التي أقوم بها مع عمّي، أساعدهم في الإسطبل».

يقول «عمّي» إنه يعمل مع والد شارلي في مجال البناء. قلت في نفسي.

أزّ هاتف شيبرد، فتنهّد وقرأ الشاشة، ثمّ قال: «لم أنتبه إلى مرور الوقت، يجب أن أنطلق».

«أوه!»، قلت آسفة. كنت في الواقع متحمّسة لمتابعة ذلك الحوار المسلّي مع شيبرد.

«أرجو ألا تجدي دعوتي كثيرة الإلحاح. سأتفهّم إن كنت غير مهتمّة، ولكن إن رغبت في تسلّق الدروب الجبلية أثناء وجودك هنا، فستجدينني سعيدًا باصطحابك».

تعابير وجهه الودّية والدافئة كانت بالروعة نفسها التي استوقفتني عندما التقيته لأول مرّة في مقهى كوب + كأس. أؤمن بصدق تام أنه رجل جدّ لطيف وطيّب.

«ربّما سأفعل»، أجبت، وجدّدت وعدي له بالاتصال. وفيما غادرت سحابة عطره القاعة، بقيت في مكاني أسيرة الدوّامة التي تتردّد في رأسي وتقول: شيبرد هو *ابن خالة شارلي؛ كنت على وشك تقبيل ابن خالة شارلي.*

يجب ألّا أعير هذا الأمر أهميّة؛ ولكنه مهمّ. أتصوّر شارلي يقول: *ما حدث لا يعني شيئًا...*، ولكن شعوري يقول العكس.

لم تكن ليبي قد عادت بعد. كنت أشعر بغثيان خفيف، وانشغالي بالتفكير أبعدني عن فكرة تبادل الأحاديث مع الغرباء. سرت بين الحشد إلى الجهة المقابلة من البهو متفادية أن يلتقي نظري بنظر أيّ من الأشخاص من حولي.

مشهد يتكامل في ثلاث لوحات ضخمة علّقت على الجدار المقابل. كانت معظم الجدران مزيّنة باللوحات الفنية المبتكرة والمتنوعة بألوانها

وأحجامها؛ ولعلّني لاحظت أنها تتحدّى من حيث تنوّع المدارس التي تنتمي إليها، الواجهة الخارجية التقليدية للمنزل الكبير.

لا شكّ أن مشاهد العُري واضحة على الرغم من الأسلوب التجريدي المعتمد: ظلال أجساد وخطوط انسيابية بالوردي والبرونزي والبنفسجي، ذكّرتني بلوحات هنري ماتيس التجريدية الشهيرة التي اعتمدت على الريشة وعلى قصاصات الورق في آن واحد (Matisse Cut-Outs)، وفيما لا أنفكّ في لوحات ماتيس عن رؤية مسحتها الرومنسية التي قد تذهب إلى حدّ الإثارة الجنسية -الخطوط الفنية والانحناءات في أشكال السيقان المتشابكة- أجد في اللوحات التي أمامي عريًا عاديًا وخجولًا، كأنها مثلًا، مشهد تلك الفتاة التي ركضت في شقتها عارية لتبحث عن فرشاة شعرها.

وصلت إلى أنفي رائحة الماريجوانا قبل أن يصلني صوتها، ومع ذلك انتفضتُ لدى سماع سالي تسألني: «هل أنت فنانة؟».

«كلا بالتأكيد، ولكني أقدّر الفنّ»، أجبت.

رفعت زجاجة النبيذ بيدها كأنها تسألني. أومأت برأسي إيجابًا، وملأت لي كأسي.

«من رسم هذه اللوحات؟»، سألتها.

زمّت سالي شفتيها بشكل محبّب، وأجابت: «أنا التي رسمتها... في حياةٍ أخرى».

«إنها رائعة!»، قلت. لا أدّعي كثيرًا الخبرة التقنية. ولكنها جميلة، ومريحة بألونها الترابية وأشكالها الطبيعية. ليست قطعًا ذلك النوع من الفن الذي قد يحدو بأحدهم إلى القول: *ابنة أختي، في الرابعة، تستطيع أن ترسم مثلها.*

«لا أصدّق أنك رسمت هذا. أستغرب أن أرى شيئًا كهذا وأن أكتشف أنه من نتاج شخص عادي». وأوضحت: «لا أقصد بقولي إنك عاديّة!».

قالت ضاحكة: «حسنًا يا عزيزتي، هناك أمور كثيرة أسوأ من أن تكوني عادية. أن أكون امرأة عادية، وسامٌ أحمله بفخر على صدري».

«كان من الممكن أن تكوني فنانة شهيرة، أعني أن نتاجك رائع جدًّا».

تأمّلت سالي في اللوحات، وقالت: «بالحديث عن ذلك، فهذه الأشياء أسوأ من أن تكوني عادية».

قلت: «الشهرة تأتي بالمال، والمال مفيد».

«الشهرة تأتي أيضًا بالناس الذين يتهافتون إلى إسماعك كل ما يظنون أنك ترغبين في سماعه». أجابت.

«سلام»، قالت ليبي بصوت رفيع، واتّخذت مكانها بيننا. ثمّ طالعتني بحركة من حاجبيها. لم ترها سالي لحسن الحظّ، لأنها لو فعلت، كنت سأضطر إلى شرح ما يلي: تريد مني *أختي أن* أختار *ابن أختك عوضًا عن ابنك!*

«سالي هي التي رسمت كل هذه اللوحات!»، قلت.

نظرت ليبي إلى سالي بتعجّب: «غير ممكن!».

ضحكت سالي: «هل فاجأك الأمر إلى هذه الدرجة؟».

قالت ليبي: «تبدو هذه اللوحات احترافية للغاية. سالي. هل حاولتِ بيع أيّ منها؟».

«كنت أفعل في السابق»، أجابت، ولكنها لم تبدُ مرتاحة في التحدّث بهذا الشأن.

«واو! يبدو أن هنالك قصة وراء ذلك. هيّا سالي، أخبرينا!».

«ليست قصّة مسلية»، قالت.

«من حسن حظك أننا شاهدنا معًا للتوّ عرضًا مسرحيًا قلّص بالتأكيد مقاييسنا».

ضحكت سالي بخبث، ولمَست ذراعي، وهمست: «حذار أن تسمعك القسّة مونيكا تقولين هذا. الفتى الذي مثّل دور العجوز ويتاكر هو ابنها الروحي».

«عسى ألّا يصنعوا تمثال ويتاكر الذي سيرتفع وسط البلدة على مثاله»، قلت.

«لا يهمّني من سيشبه ذلك التمثال، حتى لو بدا مشابهًا لساعي البريد ديريك؛ كل ما يهمّني هو الجانب السياحي الذي يجذب المال إلى البلدة».

تدخّلت ليبي: «لنعُد إلى قصة أنك كنت سابقًا تبيعين لوحاتك؟».

تنهّدت سالي وقالت: «حسنًا، عندما كنت فتاة صغيرة، كنت أطمح أن أكون رسّامة. وعندما بلغت الثامنة عشرة، سافرت إلى فلورنسة لكي أمارس الرسم لبضعة أسابيع، ولكن الأسابيع طالت وتحوّلت إلى أشهر -فانقطعت علاقتي بكلينت بالتأكيد- وبعد مرور سنة، عدت إلى الولايات المتحدة، وحاولت أن أصبح جزءًا من المشهد الفني في نيويورك».

«بلا مزاح!» قالت ليبي بحماسة، «أين سكنتِ؟».

أجابت: «في منطقة آلفابيت سيتي. بقيت هناك طيلة إحدى عشرة سنة، وعملت بكدّ وتعب. بعت بضع لوحات، وكنت لا أتوقّف عن محاولة الاشتراك في المعارض. عملت لصالح ثلاثة أو أربعة فنانين مختلفين لكي أوسّع شبكة معارفي في صالات العرض. كنت أعمل بشكلٍ مضنٍ. أخيرًا، وبعد ثمانية أعوام على هذا المنوال، وإذ كنت أشترك في معرض جماعي للرسم، زارنا ذلك الرجل واشترى إحدى لوحاتي؛ ليتبيّن بالتالي أنه متذوّق يمتهن جمع اللوحات الفنية؛ ولينطلق مساري المهني في اتجاه جديد».

«إنه الحلم!»، صرخت ليبي.

«ظننت هذا. ولكني سرعان ما اكتشفت الحقيقة».

«وهي أن الذي يحبّك حقّا، كان كلينت؟»، أسرعت ليبي إلى الاستنتاج.

«بل إن ذلك برمّته كان أشبه بلعبة. مع أن لوحاتي لم تكن قد تغيّرت بالفعل، فإن كل تلك الأماكن التي كانت ترفضني، باتت فجأة تتزاحم لكي تستضيف لوحاتي. أصبح اقتناء لوحاتي رمزًا ومفخرة اجتماعية، لا فرق إن كان مستوى نتاجي رفيعًا أو وضيعًا».

«أم إنك بالفعل تتمتعين بموهبة عالية لم يتنبّه إليها الناس قبل أن يكتشفها ذلك المتذوّق المعروف، ويلفت الأنظار إليها»، قلت.

أجابت سالي: «ربّما كذلك. ولكن الإرهاق في ذلك الوقت كان قد

تغلّب عليّ وكذلك الحنين إلى أهلي. كنت أعاني في معظم الأحيان من الجوع والفقر. عندما ظهر ذلك الرجل الذي يمتهن جمع اللوحات الفنية، وجدني في حالة من البؤس والوحدة، الأمر الذي جعلني سهلة المنال وسريعة الانزلاق إلى سريره. بعد ذلك بمدّة غير طويلة مات والدي، وانفصلنا، وعدت إلى بلدتي لأكون إلى جانب والدتي. بعد عودتي، دعت أمي كلينت لكي يأتي وينظّف مزاريب الأمطار حول منزلنا».

«ثمّ تعود الحكاية لتكمل ذاتها»، قلت.

«ثمّ لاحظتِ أنه حبيبك الحقيقي»، قالت ليبي.

ابتسمت سالي موافقة على قول ليبي. ثمّ أوضحت: «كان كلينت قد عقد خطوبته على فتاة أخرى، غير أن ذلك لم يمنع أمي من المحاولات والتكتيك. كانت تؤمن بأن الارتباط لا يكون رسميًا قبل يوم الزفاف. ولحسن حظّي أنها كانت على حق. ما إن التقيت بكلينت بعد عودتي حتى عرفت أن ابتعادي عنه كان خطأ جسيمًا. وفي غضون ثلاثة أسابيع لا أكثر، كان كلينت قد أصبح خطيبي».

«قصة رومنسية بالفعل»، قالت ليبي.

«ولكنك لم تشتاقي؟»، سألتُها.

«أشتاق لماذا؟»، وبدا عليها عدم التركيز.

«إلى المدينة؟ المعارض في نيويورك؟ إلى كل ذلك؟»، أوضحت.

فتحت سالي ذراعيها وتنشّقت نفَسًا عميقًا، ثم قالت: «في الواقع، بعد كل تلك السنوات الشاقّة، أحسست بالارتياح الشديد عندما عدت. أحسست بالإستقرار».

«من جهتنا، انتقلنا إلى المدينة لكي تتمكّن أمي من بلوغ هدفها في أن تصبح ممثلة، ولكنها كانت تعاني من الإرهاق المزمن، وربّما كانت المرأة الأشدّ إرهاقًا في العالم»، قالت ليبي.

«ما تقولينه ليس عدلًا يا ليبي، ربّما بذلت أمّنا جهودًا قصوى، ولكنها كانت تضجّ حيويّة وحماسة في سعيها إلى تحقيق أحلامها».

رمقتني ليبي بنظرة قاسية، وقالت: «ألا تذكرين عندما ذهبنا مباشرة بعد تجربة الأداء إلى سوبرماركت بوديغا ولم تستطع دفع قيمة الفاتورة، كانت بحاجة إلى خمسة سنتات إضافية لم تكن في حوزتها، وطلب منها المحاسب أن تعيد ليمونة حامض إلى مكانها، فأصيبت بنوبة إحباط؟».

اعتصر قلبي. لم أكن أتصوّر أن ليبي تذكر ذلك. كانت قد بلغت السادسة حديثًا، وقد أرادت أمي أن تصنع لها نوعًا من الكعك بطحين الذرة والليمون لأنها تحبّه.

عندما رأيتُ توتّر أمي آنذاك، أخذتُ الليمونة، وأمسكت بيد أختي، وعدنا معًا إلى معرض الخضار، لنعيد الليمونة إلى مكانها، ولكي أبتعد بليبي الصغيرة عن المشهد المقلق. ثمّ عدنا بهدوء بعد أن أتحنا لأمي فرصة استجماع قوتّها واستعادة هدوئها.

وفي أثناء سيرنا معًا، سألت ليبي: «إن استطعت الحصول على نوع لذيذ من الأطعمة المذكورة في الكتب، أيّها تختارين؟».

اختارت حلوى الراحة التركية، مثلما أكل إدموند في أحد كتب *نارنيا Narnia*. أما أنا فاخترت الشراب المسمّى «فروبسكوتل» لأنه قد يسمح للناس بالطيران، من كتاب (المارد الضحم والصدوق) *BFG*. في ذلك المساء، جلسنا نحن الثلاثة أمام شاشة التلفزيون واستمتعنا بمشاهدة فيلم ويلي وونكا *Willy Wonka*، وأكلنا كل ما كان متبقيًا لدينا من حلوى عيد *هالووين*.

ما حدث في ذلك النهار ترك أثرًا طيّبًا في نفسي، لأنه كان دليلًا قاطعًا على أن المسائل مهما تعقّدت، يمكن حلّها إذا تعاملنا معها بالأسلوب الصحيح.

أتذكّر أني فكّرت كالتالي: *كل الأمور باتت على ما يرام... وستبقى كذلك ما دمنا معًا.*

كنّا نعيش بسعادة.

ولكن ليبي لم تقل ذلك. بل قالت «إنّ أمي كانت مرهقة ومنهارة

وحيدة. وإنها كانت تضع أمر مهنتها في المقدّمة مهما كانت الظروف، وإنها كانت بائسة بسبب طموحها المهني». واستدارت باتجاه سالي شاكيةً: «نورا هي كذلك أيضًا، إنها ترهق نفسها في العمل. ولا تترك وقتًا لنفسها لكي تستمتع بالعيش الحقيقي. رفضَت ذات مرّة مواعدة أحد الأشخاص ثانيةً، لمجرّد أنه طلب منها إقفال هاتفها أثناء تناول العشاء. العمل يحتلّ دائمًا المرتبة الأولى في حياتها؛ ولذلك حفّزتها على المجيء إلى هنا. قصدتُ من هذه الزيارة الترفيهية أن تعود عليها بالفائدة والاسترخاء».

كانت تتكلّم بأسلوب ممازح، ولكني شعرت بكلامها مبطّنًا بمشاعر معقّدة وقاسية، فأصابني كاللكمة في عمق أحشائي. شعرت للتوّ كأن الغرفة تدور بي، وكأن ثيابي تضيق عليّ وحنجرتي يزداد حجمها في حلقي. تابعت ليبي حديثها غير أن كلماتها كانت تختلط في أذنيّ.

تعِبة، وحيدة، حياة خالية من المتعة، العمل أوّلًا.

أشعر بالقلق منذ أسابيع بسبب الصورة التي سيراني بها الناس بعد خروج كتاب فرِيدجد إلى المكتبات. ولكن مع أن ليبي هي الإنسانة الوحيدة التي تعرفني جيّدًا، فهي تراني أيضًا كذلك.

بصورة سمكة *القرش*.

اجتاحتني مشاعر العار والخجل بسخونة وسرعة، فأحسست بحاجة طارئة للخروج من جسدي، للخروج إلى مكان آخر، ولأكون *شخصًا آخر*.

انفصلت عن الناس، وسرت باتجاه الحمّام في عمق الصالة الأمامية، ولكنها كانت مقفلة. أسرعت باتجاه الباب الخارجي، فوجدت عددًا من الأشخاص حوله، فعدت أدراجي أشعر بدوار.

كنت بحاجة للانفراد بنفسي، أو لأختفي وسط مجموعة، أو على الأقل، بين أناس لا يمكن لأحد منهم معرفة ما يحدث في داخلي.

ماذا يحدث لي!؟

رأيت الدّرَج، فتسلقته إلى الطابق الثاني. هناك غرفة حمّام في آخر

الممر. وما كدت أصل إليها، حتى استوقفني وجود غرفة في الجهة اليمنى، استطعت أن أرى عبر بابها المفتوح جزئيًا جدارًا مليئًا بالكتب.

شعرت بذلك الجدار كأنه منارة في عمق الشاطئ البعيد. دخلت وأغلقت الباب خلفي، فتراجع الضجيج إلى حدّ كبير. تراخت كتفاي، وهدأت ضربات قلبي خصوصًا بعد أن وقع نظري على السرير الأحمر المشابه لسيارة السباق في الجهة اليسرى من الغرفة.

لم يكن السرير مصنوعًا من البلاستيك الرخيص، بل من الخشب الذي صُمّم بعناية، وصُنع باليد، ودُهن باللون الأحمر اللامع بتقنية عالية. ما إن رأيته، ورأيت الرفوف الخشبية الأخرى المتقنة التي تغطّي الجدار المقابل، حتى اختلج قلبي. كل ما في تلك الغرفة من تصميم وترتيب كان يوحي مؤكّدًا بلمسات شارلي وكلينت.

كانت الكتب مرتّبة بعناية تبعًا للنوع والمؤلّف، ولكنها لم تكن جميلة. لم تكن كتبًا مجلّدة ومرصوفة، إنما ذات غلافات ورقية، بعضها فقد نصف غلافه، أو بات ملتويًا. بعض تلك الكتب حملت ملصقات صغيرة تشي بأنه قد تمّ شراؤها من مكتبات عادية أو عامة بأسعار تصفية زهيدة قد لا تتعدّى خمسة سنتات.

إنها تشبه الكتب التي كانت السيدة فريمان تعطينا إياها، والتي كانت تضعها في السلّة التي كُتب عليها: خذ كتابًا، واترك كتابًا (سبق وقرأته) في السلّة.

كنّا، ليبي وأنا، نتسلّى بالقول أحيانًا، إن مكتبة فريمان كانت في مقام أبينا. ساعدت في تنشئتنا، وجعلتنا نشعر بالأمان، وقدّمت إلينا الهدايا عندما كنا نشعر بشيء من الإحباط.

قد تكون الحياة اليومية غير مستقرّة، ولكن وجود المكتبة كان مستمرًّا. في الشتاء، عندما تزداد البرودة في شقتنا، أو في الصيف عندما يعجز المكيّف الصغير عن التبريد، كنا ننزل إلى المكتبة ونجلس على المقاعد الدافئة بمحاذاة النافذة المستديرة. وكانت أمي تأخذنا أحيانًا إلى متحف

التاريخ الطبيعي، أو إلى متحف المدينة للفنون (Met) في الأيام الحارّة. كنت أحمل معي نسختي المشلّعة من كتاب *From the Mixed up files of Mrs. Basil E. Frankweiler*، وأفكّر أن باستطاعتنا أن نعيش هناك مثل الأخوة كينكايد في القصة. كنت أفكّر أن الأمر سيكون مسليًا لنا نحن الثلاثة.

أجواء من السحر. هكذا كنت أشعر بحياتنا في تلك الأيام. ليس كما كانت تتكلّم عليها ليبي.

لا شك أننا كنا نواجه بعض المشكلات، ولكن ماذا عن الأيام التي كنا نقضيها في الاستلقاء على بطوننا فوق رمال جزيرة كوني Coney Island الدافئة، وفي القراءة حتى الغروب؟ أو الليالي المتتالية التي كنا نقضيها معًا أمام شاشة التلفزيون، في مشاهدة الأفلام القديمة والتسلّي بالمقرمشات اللذيذة؟

وماذا عن متعة الذهاب إلى مركز روكفلر Rockfeller ولذّة الاشتراك في إضاءة شجرة عيد الميلاد، وتناول مشروب الشوكولاتة لتبقى أيدينا دافئة؟

كانت الحياة مع أمي في مدينة نيويورك تشبه العيش داخل مكتبة خيالية مترامية الأطراف: كل تلك الممرات والاحتمالات التي تجذب الحالمين إلى قلب المدينة النابض الذي يقول: *لا أعدكم بشيء ولكني أفتح أمامكم عددًا لا يحصى من الأبواب.*

يمكنك أن ترقص على المسرح وسط بقعة الضوء أحيانًا، أو أن تبكي على حبّة ليمون لم تتمكّن من شرائها أحيانًا أخرى.

بعد حادثة الليمونة بأربعة أيام، زارتنا مجموعة من صديقات أمي، وحملن معهن زجاجة شمبانيا من نوع جيّد، ومغلّفًا فيه مبلغ من المال جمعنه لمساعدتنا في تخطّي ظرفنا المالي العصيب.

نيويورك بلا شكّ مرهِقة. نعم، ملايين من البشر، ومن بينهم أنت، يسبحون في النهر صعودًا. ولكنك معهم، ولا تفعل ذلك وحيدا.

لذلك تجدني أضع مهنتي في المقدّمة. ليس لأني لا أحب الاستمتاع بأوقاتي، بل لأني لا أريد لتلك الفرصة التي أرادتها أمي لنا أن تنزلق من بين يديّ. لأني أريد أن تكون ليبي وبراندن وابنتاهما وأنا في أمان في كل وقت. لأني أريد أن أقتطع من هذه المدينة وسحرها جزءًا لنا. وعمليّة القطع قد تحوّلك إلى سكين بارد وقاسٍ وحادّ في الظاهر على الأقل.

ما زلت أشعر بألم جارح في صدري.

ربّما كنت قد تعوّدت القبول بأن الإنسانة الأحبّ إلى قلبي، كانت تبدو لي غامضة أحيانًا؛ ولكن لم يخطر في بالي قطّ أنها لا تراني؛ وأنها لا تثق بي بدرجة كافية لكي تطلعني على ما يدور في داخلها، ولا لكي تتكئ على صدري وتدعني أخفّف عنها.

كل تلك المشاعر القديمة راحت تتعاظم في صدري حتى شعرت بصعوبة في التنفّس، كأنّي أغرق.

«نورا؟». اخترق الصوت البوتقة الخانقة التي كانت تسجنني، وكان خفيضًا وأليفًا. دخل الضوء من الممرّ الخارجي إلى الغرفة عبر شقّ الباب؛ فإذا بشارلي واقفٌ، كأنه النقطة الثابتة الوحيدة في الدوامة.

لفظ اسمي مجدّدًا بتردّد، وسألني: «ماذا حدث؟».

الفصل الواحد والعشرون

ترك شارلي الحاسوب من يده على الأرض، واقترب مني ليقول ثانية: «نورا؟».

وإذ لم أستطع أن أصدر صوتًا، شدّني إليه واحتضن وجهي بكلتَي يديه، وراح يدلّك بشرتي بإبهاميه بحركة لطيفة. «ماذا حدث؟»، قال متمتمًا.

أعادت يداه إليّ الهدوء، وشعرت كأن الغرفة توقّفت عن الدوران. «أعتذر، كنت بحاجة إلى...».

بحثت عيناه في عيني...، ولمّا تزل يداه تدلّكان وجهي بلمسات متتالية عندما حاول مساعدتي في إتمام الجملة مداعبًا: «كنتِ بحاجة لقيلولة؟ أو لقراءة قصة خيالية، أو لتغيير زيت محرّك السيارة؟».

أحسست بانكسار اللوح الجليدي الذي كان يثقل صدري. «كيف تفعل ذلك؟»، سألته.

قطّب حاجبيه، وقال: «أفعل ماذا؟».

«تتفوّه بالكلام الصحيح».

تراخت زاويتا فمه وقال: «لا أحد يفكّر كذلك».

«بلى، أنا أفكّر كذلك».

أخفض جفنيه، ولمست رموشه أعلى خدّيه، وقال: «ربّما أتفوّه بما هو صحيح بالنسبة لكِ أنت فحسب».

«شعرت وكأني أكاد أختنق»، قلت. كان صوتي يرتجف وغصّت حنجرتي بالكلمة الأخيرة. غرس أصابعه بين خصلات شعري، ورفع عينيه إلى عينيّ مجدّدًا. ثمّ تابعت: «شعرت وكأن الجميع كان يراقبني، ويعلم ما يدور في داخلي. تعوّدت التفكير بأني لست امرأة مقبولة، ولكن الأمر

مع ليبي كان مختلفًا. إنها الإنسانة الوحيدة منذ وفاة أمي التي أكون على سجيّتي معها. ولكن يبدو أن دَستي كانت على حقّ. هذه أنا، حتى بالنسبة إلى أختي. امرأة غير مقبولة».

رفع وجهي بيده ليقابل وجهه، وقال: «أختك تحبّك».

«تقول إني لا أعيش حياتي».

«نورا»، لفظ اسمي بابتسامة شاحبة، «من المؤكّد أنك لا تعيشين حياتك؛ أنتِ تقضين أوقاتك بين الكتب. ليس منّا من يعيش حياته. هناك دائمًا كتابٌ جيّدٌ بانتظارنا».

كادت نصف ضحكة تخرج مني، ولكن سرعان ما تراجع شعور المرح. فقلت: «تظن أني لا أهتم سوى بوظيفتي؛ وهكذا يظنّ الجميع. يخالونني بلا عواطف، وربّما هم على حقّ». وخرجت مني ضحكة متحشرجة. «لم أذرف دمعةً واحدة منذ عشرة أعوام. هل هذا طبيعي؟».

فكّر شارلي لحظةً. ولفّ ذراعيه حول خصري، وعقدهما فوق تجويف ظهري، فولّد تلامس جسدينا للتوّ تأثيرًا إيجابيًا على أفكاري. لا أذكّر كيف فعلت ذلك، ولكن ذراعيّ التفّتا حول خصره أيضًا، واختلجت معدتي وازدادت الحرارة بيننا. «تعلمين بماذا أفكّر؟».

ملامسته تشعرني بالاسترخاء الشديد. حتى إني أستغرب هذا الشعور لشدّة خلوّه من التعقيد، كأنه الاستثناء لكل القواعد. أجبت «بماذا؟».

قال بلطف: «أفكّر أن السبب يعود إلى أنكِ تعشقين عملكِ. وأنك تعملين بمثل هذا المستوى العالي من الجدّية، لأنك تهتمّين أكثر بعشرة أضعاف ممّا يهتمّ معظم الناس».

«تعني أني أهتمّ بأمر عملي»، قلت.

«تهتمّين بكل الأمور»، قال، وشدّ ذراعيه حولي. «أختك، عملاؤك، مؤلّفاتهم، لا تقومين بعمل إلا وتتقنينه مئة في المئة. لا تبدأين في أمر لا يمكنك إتمامه. لستِ الإنسانة التي تبتاع الدراجة الرياضية الثابتة، لأنها اتخذت قرارًا بممارسة الرياضة منذ حلول العام الجديد، ثمّ تستخدمها

كحمّالة ثياب طوال ثلاثة أعوام. لستِ ذلك النوع من النساء اللواتي لا يعملن بجديّة سوى عندما يتوافق الأمر مع مزاجهن، أو لا يحضرن سوى إذا كان الموعد مناسبًا لهن. لو تجرّأ أحدهم على ذمّ أحد عملائك، فإنك تخلعين قفازاتك الطفولية المزخرفة على الفور وتبادرين إلى الدفاع. أما قلمك فلا يغادر حقيبتك، لأنّه لو ترتّب عليك أن تكتبي شيئًا، فيجب أن يبدو في مظهر جيّد. تقرئين الصفحة الأخيرة من الكتاب أوّلًا، لا تنظري إليّ بهذه الطريقة، ستيفنز». لاحت ابتسامة حول فمه. « *رأيتكِ* - حتى عندما كنت ترتّبين الرفوف، كنت تنظرين إلى الصفحة الأخيرة أحيانًا. كأنك تحاولين دائمًا جمع المقدار الأكبر من المعلومات، لكي تخرجي بالقرار الأفضل على الإطلاق».

هل تعني بقولك *رأيتني، إنك تراقبني*.

«طبعًا أفعل»، قال بصوت منخفض ومتحشرج. «لا أستطيع التوقّف عن ذلك. أعلم دائمًا أين أنتِ، حتى ولو لم أنظر إليك. من الصعب عليّ جدًّا ألّا أفعل. أريد أن أرى وجهك الصارم عندما تردّين على أحد المحرّرين حمايةً لحقوق موكّلك أو موكّلتك. وأريد أن أراقبك بعد قراءة نصٍّ يعجبك، لأراقب حماستك التي تظهر في حركة ساقيك حيث لا تتوقّفين عن عقدهما وفكّهما تواليًا. وعندما تغضبين من أحد الناس، ويظهر على عنقك تلك الاحمرار». ولمس بأصابعه عنقي قائلًا، «في هذه النقطة تمامًا».

ارتعشت حلمتاي، واعتصر حوضي، وشعرت بقشعريرة على جلدي. أما التوتّر في يديه فجعل أصابعه تنعقد فوق تجويف ظهري وتمسك بقميصي، وكأنه كان يحاول إثناء نفسه في لحظة معيّنة عن تمزيقه.

قال: «إنكِ محاربة. عندما تهتمّين لأمرٍ أو شخصٍ معيّن، لا تسمحين لأحد بالتعرّض له. لم ألتقِ في حياتي بشخصٍ مخلص على غرارك. هل تعلمين كم يتمنّى معظم الناس أن يكون في حياتهم إنسانة مثلك؟». بدت عيناه داكنتين، تتحرّكان كأنهما تبحثان عن شيء ما، ودقّات قلبه متسارعة. «هل تعلمين كم هو محظوظ الشخص الذي تهتمّين لشأنه...؟».

تردّد، وعضّ على شفتيه، وأخفض جفنيه، وأرخى أصابعه قليلًا عن ظهري من غير أن تغادره، ثمّ قال: «عندما كنت وأختي كارينا في سنّ الطفولة، لم نكن نملك ما يكفي من المال وكان على أبي أن يعمل لساعاتٍ طويلة في اليوم. وبعد رحيل جدّتي، شكّلت المكتبة مسربًا لنزف المال».

«ليست أمّي سيّدة أعمال. ولا تستطيع الالتزام ببرنامج زمني منتظم. ولذلك كانت أبواب المكتبة لا تفتح أبوابها في الساعات المحدّدة. قد يصادف موعد محاضرة في جورجيا لأحد الفنانين في منتصف الأسبوع، فتخرجنا من المدرسة لتصطحبنا إلى هناك من غير إنذار مسبق. أو قد تغرق في الرسم وتنسى الذهاب إلى العمل، كما وقد تنسى أن تأخذنا من المدرسة بعد انتهاء الدوام. كانت كارينا تشبه والديّ بطبعها المتراخي وغير الملتزم، في حين أني مختلف، وأعاني في معظم الأحيان من القلق والتوتّر. ربّما بسبب الصعوبة التي واجهتها في مرحلة دراستي الأولى، أو لأني تحوّلت إلى حبّ المدرسة كثيرًا، وبتّ أرفض كلّيًا التغيّب عن الحصص. وإضافةً إلى ذلك ــ»

تنشّق نفسًا عميقًا. يداي تمسكان بقميصه من الخلف ليبقى بقربي ومتّصلًا بي.

«ــ كانت عائلتنا عرضة للانتقاد. عندما استعاد والدي علاقته بأمي التي كانت حاملًا بي في الشهر الثالث، وكان ما زال مرتبطًا بخطوبته إلى فتاة أخرى».

انفتح فمي وانغلق للتوّ، وقلت: «إذًا كلينت ليس...».

هزّ رأسه نفيًا. «والدي البيولوجي هو رجل من نيويورك، يمتهن تذوّق الفن وجمع اللوحات الفنيّة. تبادلت معه بضع رسائل إلكترونية وكان ذلك كافيًا لكلينا. بالنسبة لي، كلينت هو أبي الوحيد، وهو ملجأي. ولكني كنت أشعر منذ البداية أني لا أشبهه في الشكل ولا في الميول».

رفع شارلي عينيه إليّ، وأصابني بذلك الشعاع الذهبي الداكن مجدّدًا، فأحسست بالرغبة تشتعل في صلبي، وتؤلمني. وتابع: «كنت في الصف

الخامس عندما اكتشفت هذه الحقيقة من الأولاد في المدرسة». قال ذلك بصوت متهدّج، فانقطعت أنفاسي.

قاومت الصدمة، وشعرت كأن تلك الأطراف والقطع التي طالما اجتهدت في جمعها لتكوين صورة شارلي، باتت تتكامل على الفور. لم يكن شارلي مطابقًا لشخصية دارس في أدب جاين أوستن؛ وليس هو الأكاديمي المغرور الذي قابلته حول وجبة غداء مزعجة ذات مرّة. إنه الرّجل الذي يسعى إلى الالتزام بالصّدق في كل شيء. إنه الواقعي وغير الواقعي معًا. إنه شارلي الذي يسعى إلى فهم العالم، ولكنّه تعلّم ألّا يولي العالم ثقته.

«آسفة...، شارلي»، همست.

بلع ريقه، وقال: «أعلم أنه كان يريدني ألا أعلم شيئًا آخر سوى أني ولده؛ ولكن الطريقة التي عرفت بها الحقيقة كانت مؤذية. معظم الناس في البلدة كانوا يلاطفون أهلي في حضورهم. ولكن السنوات الأولى من وجودي في المدرسة كانت مثل جهنّم بالنسبة لي. اعتمدت أمي أسلوب إغراق أهل البلدة بالمعاملة الحسنة، ونجحت في ذلك. وأصبح الجميع إلى جانبها. ولكني لم أستطع ذلك. لم يكن باستطاعتي التحدّث بدماثة مع غرباء كنت على معرفة بكراهيتهم لي. كانت كارينا في الصف الثالث عندما سمعت أحد الأولاد يقول إنها قد تكون مولودة بأمراض جنسية معدية لأن أمّها كانت عاهرة».

«يا للقرف!»، قلت وأرخيت ذراعي من حول خصره، واحتضنت وجهه بيديّ، وشعرت بما يشبه الاحتراق في رئتيّ. ساورتني مشاعر كنت أعجز عن التعبير عنها بالكلمات. شعرت أني أريد أن ألفّه بجسدي لأحميه، أو أن أضع في فمي كميّة من المازوت وأن أنحدر إلى الطابق الأول وأنفخها في وجوه هؤلاء الناس نارًا حارقة.

«أمضيت نصف أوقات دراستي المتوسطة في المكتبة، ونصفها الآخر في مكتب المدير لأني كنت أُعاقَب على التشاجر والتضارب مع بقية

الأولاد. وفي الواقع، كنت في هذين المكانين فحسب أشعر بقدرتي على السيطرة في حياتي». هزّ رأسه، كأنه أراد التخلّص ممّا يثقله. وأضاف: «أقصد بكلامي أن ´الروح الحرّة´ التي لا تلتزم بقيود، لا تجعلك امرأة مثالية، بل قد تجرّ عليك الكثير من التعقيدات والمشكلات. أن لا يفهمك الناس لا يعني أنك *أنت* على خطأ. إنك امرأة جديرة بتحمّل المسؤولية. وهذا لا يجعلك باردة أو مضجرة. بل يجعلك أكثر الناس...» لم يكمل جملته، إنما هزّ رأسه، ليقول: «أنتِ وأختك قد لا تتوافقان حول كل الأمور، وقد لا تتمكّن من فهمك تمامًا، ولكنك لن تخسريها البتّة. لا تقلقي بشأن ذلك يا نورا».

«ما الذي يجعلك متأكّدًا إلى هذا الحدّ؟»، سألته.

تحوّلت عيناه في تلك اللحظة إلى لون الكراميل السائل، ويداه فوق ردفيّ في حركة ناعمة تقرّبنا قليلًا ثمّ تبعدنا، كأننا في مدّ وجذر يزيد في تلاصقنا مرّة بعد مرّة.

أجاب بهدوء: «لأن ليبي ذكية بالقدر الكافي لكي تعلم قيمة ما تملكه».

أردت أن أشدّه إلى ذلك السرير لأمرّغ وجهي في عطر شعره، لأشعر بأصابعه تتحرّك بجنون فوق جسمي، فيزداد تلاصقنا ونزداد حرارة ترنحًا وإلحاحًا.

قال: «إلى حين وصولك إلى هنا، كل شيء في هذه البلدة كان يذكّرني بأني مدعاة للخيبة بنظر الناس. أما الآن، بعد مجيئك، فأشعر أني بخير. لو كنت أنتِ النوع غير المقبول من النساء، فإني على ما يبدو النوع غير المقبول من الرجال».

كان بإمكاني في تلك اللحظة رؤية كل أشكال شارلي معًا. الصبي الهادئ والشارد. اليافع الرافض ومبكر النضوج. الطالب في المدرسة الثانوية الذي يُكثر من التأمّل والتفكير وبه رغبة ملحّة إلى المغادرة. الرجل الصارم وحادّ الطباع، الذي يحاول تقديم نفسه في صورة لا تمتّ إليه في الأصل.

هذا ما يحدث عندما تقف كإنسان بالغ إلى جانب سريرك في سنّ الطفولة والمصنوع على شكل سيارة سباق حمراء. يختفي عنصر الوقت، وعوضًا عن رؤية النسخة النهائية التي بنيتها لنفسك، فإنك ترى كل تلك المحاولات المبتذلة، والنسخ التجريبية التي سبقتها.

قلت له بصوت خافت: « لستَ مدعاة للخيبة، أنتَ لست نوعًا غير مقبول من الرجال».

سرحت عينا شارلي فوق وجهي؛ ولمس بإصبعه تلك النقطة الناعمة عند زاوية فمي اليمنى، وتصلّب فكّه. وعندما رفع عينيه مجدّدًا إلى عينيّ، كانتا تتّقدان بالضوء، لعلّه انعكاس الشعاع المنبعث من القنديل المضاء إلى جانب السرير. ولكني كنت لمّا أزل أشعر بالحرارة تنبعث منه.

قال بنبرة هادئة وعميقة: «كل هؤلاء الناس الذين دفعوك إلى الشعور بأنّكِ غير مقبولة، يفتقرون إلى الذوق السليم». شعرت بالعاطفة تختلج في صوته وتسري في عروقي كموجةٍ دافئة، وتملأ حنايا صدري.

نحن بالفعل مثل قطعتين متعاكستين من المغناطيس، لا يمكن أن نكون في مكان واحد من غير الانجذاب إلى بعضنا. أحسست برغبة جامحة إلى غرس أصابعي في شعره، وإلى تقبيله بشدّة إلى أن ينسى أين نحن، وإلى أن ينسى كل أمرٍ وشخصٍ جعله يشعر بأنه مدعاة للخيبة. كأن نظراته كانت تقول لي إني وحدي بإمكاني أن أفعل ذلك، وإني وحدي أستطيع أن أشفيه من وجعه.

أريد أن أقول له: *إنك الشخص الذي يبحث عن الأسباب الكامنة وراء الأمور.*

أو، إنك الشخص الذي يفكّك الأشياء ليكتشف الآلية التي تعمل بها، عوضًا عن مجرّد القبول بها كما هي. إنك الشخص الذي يفضّل معرفة الحقيقة، ويرفض القبول بالكذب حتى ولو كان ملائمًا له.

أنت الشخص الذي لديه خمسة أطقم من الثياب، ولكنها فاخرة ومختارة بعناية تامّة.

«أعتقد أنكَ آخر من يمكن وصفه بمدعاة للخيبة من بين كل الناس الذين عرفتهم في حياتي»، قلت له.

ظهر ظلّ ذلك التغضّن الخفيف تحت شفته السفلى عندما افترّ فمه عن ابتسامة خفيفة، ولامس عبق نفَسه الدافئ والمنعش فمي. مكثنا خلال لحظات في مأزق الاختيار بين الاقتراب والابتعاد، نتلذّذ بطيب المسافة القصيرة بيننا. شعرت وكأن الهواء قد فرغ من الغرفة، وكل ما أصبو إليه هو أن أتنشّق شارلي نفسه إلى داخل كياني.

كل تلك الأسباب التي كانت توحي لي بضرورة الاحتفاظ بجدار فاصل بيننا بدَت غير مهمّة. لأن لا وجود لذلك الجدار. إنه يراني، ويلمسني؛ ولأول مرة منذ وقت طويل - ربّما منذ فقدان أمي، لا أشعر أني أقف خارج المشهد، ناظرة عبرالزجاج، وأشتاق بكل جوارحي للدخول.

أزّ هاتفي، وكل ذلك الثقل الدافئ تبخّر فجأةً عندما استقام شارلي في وقوفه، وقفز ليعود إلى أرض الواقع، وربّما إلى أسبابه الخاصة التي توجب بناء حاجز بيننا.

أدار وجهه نحو الرفوف، وشعرت بجفاف في حلقي عندما لاحظت أنه كان يعيد ترتيب هندامه.

كان الشوق لألمسه ثانية يوجعني، ولكني لم أفعل. ربّما تغيّرت مشاعري، ولكن ماذا عنه... *ليست الأمور بهذه البساطة. إنها معقّدة.*

ذهبت أفكاري مباشرة إلى أمايا، وإذا بأحاسيس الذنب والغيرة والألم تتفاعل في أحشائي.

رسالة ثانية تصلني من ليبي، وتتبعها أخرى وأخرى.

«أين أنتِ؟».

«عندما تنتهين من تأملك الباطني في إحدى الزوايا المظلمة، اعلمي أني وجدت من سيصحبنا إلى البيت في السيارة».

«هاي؟ هل ما زلت حيّة؟؟؟».

أخبرت شارلي: «إنها ليبي».

ومن مكانه ورائي، تنحنح وأجاب: «يجب أن تسرعي إلى نجدتها قبل أن تضمّها مجموعة الحياكة اليدوية إليها. إنهن كالمافيا في صنشاين فولز».

هززت رأسي، وقلت له: «سألقاك غدًا».

«ليلة سعيدة، ستيفنز».

***

كدتُ أصطدم بسالي عند أسفل الدرج.

قالت: «كنت أبحث عن أختك! وجدت الرقم الذي طلبته مني- هلّا تعطينه لها؟».

أخذت قصاصة الورق من يدها، وقبل أن أستوضح منها شيئًا، أسرعت سالي لتودّع امرأة بدا لي أنها بالغت باستخدام الرشّ المثبّت فوق خصلات شعرها الأمامية.

أرسلت في التوّ صورة عن رقم الهاتف إلى ليبي، وكتبت: «هذا من سالي. أين أنت؟».

«في الباحة الأمامية. أسرعي. غيرتي بارك، النادلة في المقهى، سوف تقلّنا بسيارتها إلى البيت».

كانت ليبي تتصرّف بأسلوب عادي، ولكن في المقعد الخلفي من سيارة النادلة، المزيّنة بعدد لا يحصى من الملصقات، مرّت أمام عينيّ مشاهد الأسابيع الأخيرة، كأنها قصاصات ورق مبعثرة.

ما قالته ليبي بشأن أمي وبشأني، رسائل براندن الغريبة، وردّ فعل ليبي عليها. حديثها المحتدم عبر الهاتف خارج المكتبة، القائمة، اختفاء ليبي وظهورها المفاجئان، شحوبها والتعب الذي يظهر عليها من حين إلى آخر.

نظّمتُ كل ذلك في خانات مختلفة، وصنّفتها كمشكلات يمكن حلّها، وتصوّرت السيناريوهات المحتملة، وخطط الخروج منها عند الضرورة. ها إني أعود إلى لبّ المسألة الآن، وألقي نظرة شاملة على لوحة الشطرنج، وأحاول إعداد الحلول لكل ما يمكن أن يحدث.

ولكن، كل شيء بدا على ما يرام في غضون لحظات، عندما كنت مع شارلي في الطابق الأعلى.

كنت على ما يرام.

كنت أسبح وسط الظلمة المريحة غير المقيّدة بحدود، حيث لا تعقيد، ولا مسائل تستدعي الحلّ. وحيث كان باستطاعتي الشعور بالاستقرار. عادت إليّ صورة سالي عندما رفعت ذراعيها في الهواء، تعبيرًا عن شعورها بالاستقرار.

الفصل الثاني والعشرون

بناء المكتبة العامة عند طرف البلدة يبدو ضخمًا: طوابق ثلاثة من الطوب الأحمر مكلّلة بسطح مسنّم، ومغطّى بالقرميد. وفيما توجّهت ليبي إلى المكتبة لكي تدير عملية نقل بعض المفروشات منها إلى مكتبة غودي، رافقتُها إلى هناك لكي ألتقي بشارلي في الطابق الثالث، وفي الغرفة رقم 3C، لمتابعة عملنا التحريري لكتاب فرِيدجد.

كانت العلاقة بين ليبي وبيني لمّا تزل مشدودة طيلة ساعات الصباح. لم نبرح متاهة المشاعر الصعبة التي تملّكتنا في الليلة السابقة.

اهتمامي الدائم بعملي يغضبها ويولّد بيننا مسافة فاصلة. وهذا يؤدّي بها إلى إخفاء أسرارها عني. وتلك الأسرار المجهولة تولّد في نفسي غضبًا. إننا بأيدينا نخلق ذلك النفور الذي نخافه، والذي يجعلنا في شجار دائم وصامت، فيما ندّعي أن كل الأمور تسير على ما يرام بيننا.

هذا الألم الذي يتردّد صداه في كياني: *إني أبتعد عن أختي وأكاد أفقدها بلا مبرّر.*

ما إن انفتحت الأبواب الأتوماتيكية في المكتبة ودخلت، حتى استقبلتني رائحة الورق الدافئة واللذيذة التي أحبّها، كأنها تحتضنني، وما لبث القلق أن انزاح قليلًا عن صدري. إلى اليمين، كان عدد من طلاب الصفوف الثانويّة يقفون أمام خطّ طويل من الحواسيب القديمة. وكانت جلبة أحاديثهم غير مسموعة كثيرًا بفضل السجاد الصناعي الأزرق الذي يبدو أنه يساعد في امتصاص الأصوات. مررت بمحاذاتهم ووصلت إلى السلّم، فتسلّقته حتى الطابق الثالث والأخير.

سرت في الممر الطويل من أمام نوافذ الغرف العديدة، حتى وصلت الى الغرفة C3، حيث رأيت شارلي في ثياب باللون الأزرق المريح، منحنيًا فوق حاسوبه المحمول، وسط جوّ الغرفة المضاء بنور الشمس الصباحية.

الغرفة صغيرة ذات سقفٍ منحنٍ، ومجهزة بطاولة مصقولة السطح، كانت مع الكراسي الأربعة التي وُضعت حولها، تملأ معظم المساحة.

عندما ظهرتُ في الباب، شعرت بشيء من الخجل لم أفقه سببه ـــ ربّما كان الهدوء، أو ما حدث في الليلة الفائتة. «هل تأخرت؟»، سألته.

نظر إليّ، وقال: «أنا أتيت باكرًا»، وتنحنح لكي يتخلّص من أثر النعاس في صوته، وتابع: «أعمل هنا كل صباح يوم سبت تقريبًا».

رأيت كوبًا كبيرًا من قهوة «كوب + كأس» على الطاولة أمام كرسي فارغ بانتظاري. جلست، وشكرته.

هزّ شارلي رأسه، وكان شديد التركيز على الشاشة. وبإحدى يديه، كان يتسلّى بخصلة من شعره.

ارتجّ هاتفي معلنًا وصول رسالة أخرى من براندن: «ماذا عنكما، هل ما زلتما تستمتعان بالفرصة؟».

أحسست وكأنّ حبال القلق تنعقد الواحد فوق الآخر في معدتي. كانت ليبي قد بعثت لي رسالة من مكتبة غودي قبل دقائق، ولهذا كنت متأكدة من وجود هاتفها معها. وهذا يعني أنه لم يراسلها قبل مراسلتي، أو أنه حاول التواصل معها ولم تجب.

أجبت على رسالة براندن: «نعم، كل شيء على ما يرام، هل أنتم بخير؟».

أجاب: «بالتأكيد!!!». بدا لي أنّه ذهب إلى الإكثار من علامات التعجّب تهرّبًا من الشرح.

هل بتنا بحاجة إلى توسّل الإجابة عن كل سؤال؟

غير أني لم أجد صعوبة في اللحظة الراهنة في أن أطوي تلك الأفكار، وأضعها في الجزء الخلفي من دماغي.

«هل أنت بحاجة إلى دقائق إضافية؟»، سألتُ شارلي، وفتحت حاسوبي.

نظر إليّ جافلًا، كأنه نسي للحظة أني موجودة. «كلا، كلا، إني حاضر». مسح يده فوق فمه، ثم وقف وجرّ كرسيّه حول زاوية الطاولة، إلى حيث يمكنه النظر إلى شاشة حاسوبي وقراءة ملاحظاتي. اصطدمت ساقه من الأعلى بساقي عندما جلس، وإذا بدفق من الأحاسيس ينبلج ويفيض في قفصي الصدري طيلة لحظات.

سألته: «هل نبدأ بالملاحظات الإيجابية وبالتفاصيل التي نحبّها؟». نظر إليّ شارلي وأطال النظر قليلًا، كأنه لم يسمعني. فقلت: «هيّا شارلي، يجب أن تعترف بأنك أحببت بعض الجوانب. نعدك، دَستي وأنا، ألّا نخبر بذلك أحدًا».

رفّ جفناه بضع مرّات، فأحسست كأني كنت أراقب وعيه يستيقظ، ويعوم إلى السطح. «أحببت الكتاب بالتأكيد. ألا تذكرين أني توسّلت لكي تتاح لي فرصة تحريره؟».

«سأتذكّر أنك توسّلت، حتى آخر نفَس في حياتي».

نظر إلى شاشة حاسوبي باقتضاب وبأسلوب جدّي تمامًا، فشعرت وكأن قلبي يسيل في صدري. قال: «النصّ جميل، ووجود المعالج الفيزيائي المرح يساعد في إبراز شخصية نادين بوضوح أشدّ، ولكني أعتقد بوجوب إضافة بُعدٍ أعمق إلى هذه الشخصية مع اقتراب نهاية هذا القسم».

«كتبتُ ذلك أيضًا»، قلت. وتنبّهت للتوّ إلى ما قلته، ورنّ في بالي صوتي كفتاة صغيرة تفتخر أمام أستاذها بالقول: «أجبت عن كل أسئلة الامتحان بلا خطأ»، عندما لاحظت تعبيرًا لم أفهمه على وجه شارلي. قلت: «*ماذا؟*».

كان قد سيطر على حركة شفتيه التلقائية التي تتأرجح عادةً بين الابتسام والسخرية، وأجاب: «لا شيء».

«كلا، التعبير الذي ظهر على وجهك ليس ´لا شيء´».

«ولكن، غالبًا ما تظهر على وجهي حركة معيّنة تلقائية. هل إنك لم تلاحظي هذا حتى الآن يا ستيفنز؟».

«أتكلّم عن ذلك *التعبير* الذي رأيته منذ لحظات على وجهك».

أسند ظهره إلى الكرسي، وفيما تراقص قلم الحبر الأحمر برشاقة بين أصابعه، قال: «ما أردتُ التعبير عنه بالفعل، هو أنك جيّدة في التحرير».

«وهل في ذلك ما يستدعي الشعور بالصدمة؟»، سألت.

«كلا بالطبع، لكن ألا يحقّ لي التعبير عن متعتي في رؤية البراعة في العمل؟».

«إنه نوع العمل الذي تختصّ به *أنت* في الأصل»، قلت.

«يمكن أن يكون ما تختصّين به أنت أيضًا، لو أردتِ»، أجاب.

«ذهبت إلى مقابلة بشأن وظيفة في التحرير ذات مرّة»، أخبرته.

رفع حاجبيه، وسأل: «ألم تنجحي في الحصول عليها؟».

«لم أحضر للمقابلة الثانية؛ كانت ليبي قد اكتشفت حديثًا أنها حامل».

«وماذا أيضًا؟».

«وكان براندن قد خسر وظيفته»، قلت وأحسست بكتفيّ تتقلّصان كأني أتقوقع لأتحوّل إلى موقع دفاعي، فأضفت: «كنت أكسب قدرًا جيّدًا من العمولة في وظيفتي؛ والانتقال إلى وظيفة جديدة كمبتدئة في المجال، يعني كسبًا أقلّ».

شرع يتفحّصني تارةً فأشعر أنّ جلدي يهتزّ في مكانه، ثمّ يزيح نظره عني تارةً أخرى. أحسست كأننا نلعب لعبة الدجاجة، ونتبادل الدور في الخسارة إلى ما لا نهاية. ثمّ سألني: «كيف كان ردّ فعل ليبي على ذلك؟».

«لم أخبرها»، والتفتّ إلى شاشتي، وأضفت: «أمامنا الآن جوزفين».

ولكن شارلي قال: «ألا تظنين أنها ستكون حزينة لو عرفت أنك تخلّيت عن المهنة التي تحلمين بها من أجلها؟».

«أعلم أنها لا تؤيّد تحديدًا إخلاصي الكبير لمهنتي الحاضرة!»، قلت بقصد التذكير. «لنتحدّث الآن عن جوزفين».

تنهّد وسلّم بالأمر. «أحبّ جوزفين».

«هل تظنّ أنها تختلف بقدرٍ كافٍ عن الرجل العجوز ويتاكر؟ أعني أنها مسنّة مثله، وغريبة الأطوار، وليس لديها عائلة».

«لا أعتقد أنها تشبهه. يلمس القارئ أعماق شخصيتها بسرعة، وحكايتها القديمة مع زوجها السابق الذي جعلها تغادر هوليوود، لا تذكّر أبدًا بكتاب مرّة في *العمر*. العجوز ويتاكر خسر عائلته، ولكن جوزفين لم يكن لديها عائلة في الأصل. إضافةً إلى أن ما يُطرح بشأن تأثير كونها امرأة على أسلوب تعاطي العالم ووسائل التواصل معها، قد يكون المحور الرئيسي في هذه القصة».

«أنتَ على حقّ، وأحب هذا الأمر، ولكنه يأخذني إلى فكرتي التالية. ربّما من الأفضل التروّي في الكشف عن علاقتها بالسينما إلى فصل لاحق».

أدار شارلي عينيه في محجريهما بسرعة دوران دولاب ماكدونالد، وكأنه كان يقوم بعمليّة التحميل لأفكاره. وأجاب ببطء: «لا أوافق على الفكرة. قد يكون من الأفضل ألّا يكتشف القارئ سبب عدم تمكّن *نادين* من أن تصبح ممثلة حتى وقت لاحق. أعتقد أنه يمكن اغتنام هذه النقطة لزيادة التشويق. مثل أنه عندما تكتشف نادين أمر جائزة الأوسكار التي نالتها جو، يتبيّن أن نادين كانت تحبّ مهنة التمثيل في الأصل، وتسألها جو عن السبب الذي دعاها إلى تغيير خيارها، ويكون في إجابتها نوعٌ من التحضير لانكشاف الحقيقة لاحقًا».

«اللعنة!»، قلت.

«ماذا؟»، سأل بلهفة.

«أنتَ على حقّ»، أجبته.

«آسف. يبدو أن وقع هذه الحقيقة كان قاسيًا عليكِ».

كنت قد بدأت بإضافة الملاحظات الجديدة، حين أردف:

«كان حريًا بنادين ألّا تتنازل عن مهنة التمثيل». بقيت كلماته في الهواء للحظات، ثم تنبّهت إلى الفخّ الذي كان ينصبه لي، فقلت: «إنها تتقاضى مبالغ جيّدة في عملها كوكيلة».

«ولكنّها لا تستمتع بالمال الذي تجنيه»، ذكّرَني.

تابعت الطباعة، وقلت: «إنها تحبّ عمل الوكيلة».

«ولكنها تعشق التمثيل».

«كنت أظنّ أنك تحبّها»، قلت.

«هذا صحيح، ولهذا أريد لها الوصول إلى نهاية سعيدة»، أجاب.

«لا أتوقّع مثل ذلك في هذا النوع من الكتب، شارلي».

هزّ كتفه في حركة متزامنة مع انقلاب شفتيه المكتنزتين، وقال: «سنرى».

على الرغم من التنظيم الذي حرصتُ عليه في ملاحظاتي، كنّا نتقدّم في عملنا التحريري بعفوية أقرب إلى الفوضى، ذكّرتني بالقرارات العفوية التي كنّا نعتمدها، أمي وليبي وأنا، في اختيار الدروب في منتزه سنترال بارك رامبل.

ازداد حجم النص كثيرًا، فعملنا على تشذيبه. وإذا بشارلي يجذب حاسوبي تارةً، ويختصر أربع جمل في جملة واحدة، فيما أستعيد الحاسوب تارةً أخرى، لأضيف تعابير الثناء هنا وهناك وبين السطور، لكني لاحظت بعد بضع ساعات أننا تبادلنا الأدوار، إذ أصبح هو الذي يثني ويمدح، وأنا التي تشذّب.

وفيما كان يراقبني، قال: «لطالما كنت أرغب في رؤية سمكة القرش أثناء الهجوم عن قرب. *يا لكمية الدماء المُراقة!*».

ارتفعت الحرارة في وجهي، توازيًا مع أماكن أخرى غير فاضحة بالدرجة عينها. وحوّلت عينيّ إلى النصّ الذي غطّته التغييرات المقترحة. قلت: «أحبّ أن أراجع تقدّمي حتى الآن».

«نورا كلّ ما فعلتِه حتى الآن يندرج في خانة التقدّم». ومدّ يده إلى فأرة حاسوبي واختار النص بأكمله، ثم أزاح المؤشر إلى أمر «قبول التغييرات كلّها»، ونظر إليّ فيما تلامست ذراعه بذراعي فوق سطح الطاولة المصقول، وأومأ: «هل أنت موافقة؟».

هززت رأسي بالموافقة، ولكنه لم يتحرّك، والتلامس اللطيف بين ذراعينا جعل كل أعصاب جسمي تجتمع لتتركّز حصرًا حول نقطة التّماس.

في أيّ لحظة، يمكن أن ترتفع الجدران بيننا من جديد، ولن أستطيع تحمّل ذلك. قضيت الليل أفكّر في كيفية إثارة الموضوع، ومع ذلك كل ما أثمره سهري كان قولي له: «نسيت أن أخبرك بأني التقيت *بابن خالتك* مساء أمس».

لفظت كلمة ´ابن خالتك´عن قصد. نظر شارلي جانبًا فيما مرّ بيده فوق خدّه. وسأل:»هل كان منشغلًا بمساعدة هرّة عالقة في الشجرة، أو بمساعدة امرأة مسنّة على اجتياز الشارع؟».

«بل كان عاري الصدر ومنشغلًا في غسل إحدى السيارات»،.

«عسى أن تكوني قد أعطيته بقشيشًا تقديرًا لتعبه». ثمّ التفت إليّ، وطارت شرارة كهربائية من عينيه إلى عينيّ وألغت المسافة بيننا.

قلت: «ناديته قائلةً ´أيها الشاب، أنصحك بأن ترتدي قميصًا تستر به عريك؟ إنك في صالون أدبي وعائلي».

تلوّت شفتا شارلي بالطريقة التي أعرفها، وقام عن الكرسي، ووقف مسندًا ظهره إلى الطاولة، ونظر إلى النافذة، وقال: «لو قلتِ ذلك حقًّا، لطردَتك نساء مجموعة الحياكة للتوّ خارج البلدة. يعتبر مشهد شيبرد عاري الصدر أساسيًّا في حياة أهالي صنشاين فولز».

اجتهدتُ لكي يبقى صوتي هادئًا، وقلت: «لم أكن على معرفة بأنه ابن خالتك...؛ لو كنت أعلم، لما خرجت معه قطّ».

نظر إلى البعيد، وقال: «لستِ ملزمة تُجاهي بشيء يا نورا».

«نعم، أعلم ذلك». أجبته، ووقفت أيضًا. لم أعد أحتمل تفادي التحدّث بهذا الأمر. قد يكون صعبًا عليّ حلّ المسألة المتعلّقة بأختي، ولكن باستطاعتي إيجاد الحلّ لهذه. أشعر اليوم أن مستوى التوتر بيننا ينخفض بطريقة أو بأخرى.

تنشّقت نفسًا عميقًا، وتابعت: «خصوصًا إن كان ثمّة أمر يجري بينك وبين خطيبتك السابقة».

حوّل عينيه نحوي ورمقني بنظرة جارحة: «لا شيء يجري بيننا».

«قابلتها مساء أمس، أليس كذلك؟».

اهتزّ فكّه، وأجاب على الفور: «كنت أعمل في مكتبي، وتوقّفت لتسلّم عليّ».

شعرت بعينيّ تضيقان وترمقانه بنظرات الشكّ. فصحّحت قوله: «وتوقّفت لتزورك بناءً على موعد».

تأرجح قليلًا في وقوفه، وأجاب: «نعم، أنتِ على حقّ».

«لتشتري كتابًا؟»، قلت.

تصلّب فكّه من جديد: «ليس تمامًا».

«لقضاء الوقت معًا؟».

«لنتحدّث»، قال.

«مثلما يفعل غالبًا من كانا في علاقة خطوبة سابقة»، قلت.

«إننا نعيش في بلدة صغيرة، ولا بدّ أن نلتقي. كان علينا التحدّث لوضع النقاط عل الحروف، ولتنقية الأجواء».

«آه!»، قلت بنبرة سخرية.

أجابني، وبدا غاضبًا. «لا تقولي 'آه'، لم يحدث شيء بيننا، ولن يحدث».

«الأمر لا يعنيني»، قلت.

«تمامًا»، أجاب. ولكن ذلك جعله أكثر ضيقًا، وجعلني أكثر تلهّفًا، وأدقّ انتباهًا إلى المسافة التي كانت آخذة في الانحسار بيننا. وأضاف: «تمامًا مثلما أنه لا يعنيني لو تواعدتِ مع ابن خالتي».

«لا أنوي اللقاء به مجدّدًا، ولم أكن لأخرج معه، حتى مرّة واحدة، لو كنت *أعلم* أنه ابن خالتك».

«لم تقترفي خطأً»، أصرّ.

«كذلك أنتَ، عندما أمضيت وقتًا مع أمايا»، أجبت.

ربّما كنّا بارعَيْن، أو فاشلين في المشاجرة، ولكن كان كلّ منّا يدعم بشراسة حياة الآخر العاطفية.

لقد بادرني شارلي بقوله: «شيبرد هو شابّ ممتاز. العازب الأكثر أهليّة في البلدة. إنه مناسب جدًّا لقائمتك ويفي بجميع الشروط».

«ماذا بشأن أمايا؟ هل تلبّي شروطك؟»

«ليس تمامًا»، أجاب.

«يبدو أن لديك قائمة طويلة»، قلت.

«شرط واحد، شديد الخصوصية»، أجاب.

ألهبت نظراته مسامي، والدماء في عروقي، وشهوتي. «من المؤسف أن العلاقة بينكما لن تصل إلى نهاية سعيدة»، قلت.

«يؤسفني أن أعلم أنكِ وشيبرد...»، قال، وسطعت عيناه. «كنت أظن أنكما، أنتما الاثنان، قضيتما وقتًا ممتعًا».

«أوه، بلى، قضينا وقتًا ممتعًا. ولكن يبدو أن ذلك ليس تمامًا ما أريده في الوقت الحاضر».

أمعن النظر بي، وتمنّيت أن يتمكّن الآن من قراءة مشاعري أكثر من أي وقت مضى؛ وأن يعلم أني لا أريد التهرّب بعد الآن مما بيننا. وقال بصوت متهدّج: «وما الذي تريدينه يا ستيفنز؟».

«لا أريد سوى...»، قلت في نفسي *الآن أو أبدًا*. شعرت وكأني أستعدّ للقفز في الهواء. «أريد أن أكون هنا معك، وأن أنسى أمر ما قد يحدث في ما بعد».

اقترب مني، فازدادت ضربات قلبي عندما اخترق مساحتي الشخصية. «نورا»، قال بهدوء.

فقلت: «لا بأس إن كنت غير راغبٍ في هذا. ولكني أفكر بك كثيرًا جدًّا. وكلّما حاولت المحافظة على المسافة بيننا، كلما ازداد الأمر صعوبة».

تلوّت شفتاه، والتمعت عيناه. «إنكِ الآن تحاولين التخفيف عن نفسك وإخراج هذا الأمر من داخلك».

«ربّما، وربّما أيضًا أرغب في أمر يكون سهلًا لمرّة واحدة على الأقل».

رفع حاجبه، قاصدًا إغاظتي، وقال: «هل تعنين أني سهل؟».

فكّرت، نعم، *بالنسبة لي، أنت الأسهل في العالم*. ولكني قلت: «يا إلهي؛ أرجو ذلك».

ضحك شارلي، ولكن سرعان ما خفتت ضحكاته، وأزاح نظره عني.

«ماذا لو عرفتِ أن مثل هذا الأمر لن يذهب بعيدًا...، مهما كانت رغبتنا في استمراره؟».

«هل أنت على علاقة بامرأة أخرى؟».

«كلا، لا شيء من هذا. ليس سوى أن ـــ».

«شارلي، قلت لك إني لا أريد التفكير بما قد يحدث لاحقًا. حتى إني قد لا أحتمل الكلام على ذلك الآن».

تأمّل في وجهي، وسأل: «هل أنت متأكّدة؟».

«تمامًا»، وكنت أعني ما أقول. «يمكنني أن أوقّع على فوطة ورقية لو أردتني أن أفعل».

لست أعلم من منّا كان البادئ، ولكن شفتيه أطبقتا على شفتيّ دافئتين وملهوفتين، وتحركت يداه فوق ردفيّ صعودًا إلى صدري، لتأخذا منّي كل ما استطاعتا مرّةً واحدة. لا تردّد، ولا تهذيب، بل شهوة فحسب. انسلّت أصابعي تحت قميصه، وشدّني إلى جسمه، فالتأمت كل ثغرة بيننا. وما هي إلا ثوانٍ حتى وجدته يُخرج أطراف قميصي من تحت تنورتي. تسلّقت يداه فوق القميص بمزيج رائع من الخشونة والدفء جعلت بقاء الحرير على جسمي صعب الاحتمال. تصاعدت حشرجة متلهّفة من داخلي، فجعلني أستلقي على الطاولة، ورفع تنورتي كاشفًا عن ساقي لكي يتمكن من الاقتراب أكثر.

جذبته إليّ، وارتعش جسدي تحت لمساته. سارت أصابعه وراء عنقي وتشابكت وسط شعري.

«لا يمكن أن نفعل هذا في المكتبة»، همستُ مع أن يديَّ ما زالتا تتحسّسان ملمس ظهره تحت القميص، وأظافري تداعبانه حتى القشعريرة.

تمتم معاتبًا: «ظننت أنك لا تريدين التفكير بالقواعد؟».

«عندما يتعلّق الأمر بالآداب العامة، يصبح الأمر أكثر من قاعدة، بل قانونٌ فيدراليٌّ»، وتبسّمت.

رفع بإحدى يديه حوضي إلى حوضه لأتحسّس الانتصاب. *يا إلهي!* وقال: «هذا لا يعدّ مخالفة سوى عندما ننزع الثياب عنّا».

خرج من حنجرتي صوت كان بعيدًا عن الإثارة، وأقرب إلى حشرجة حيوان ينازع. سألت: «للتوضيح، هل لديك مشكلة من ناحية أننا نعمل معًا؟».

تابع تقبيلي حول عنقي، وأجاب بكلمات متقطّعة: «كلانا يعلم أنك لن تتساهلي معي على أيّ حال».

«وماذا عنكَ؟». قلتُ، وأحسست بالغرابة مما كنت أفعله؛ إذ كنت أتابع التحدّث إليه بأسلوب طبيعي جدًّا فيما كانت يداي منبسطتان فوق سطح الطاولة ورائي، وجسدي يعلو نحوه لكي يسهل عليه تقبيل أعلى صدري تحت قبّة القميص.

«لا أميل إلى التساهل معك، نورا»، قال لي.

انسلّت أصابعي بين شعره، وانخفضت إلى رقبته، فأحسست بنبضه تحت لمساتي. شعرت بأفكاري كأنها تتحوّل إلى قصاصات وأجزاء. تسلّقت أصابعه باطن فخذي إلى أعلى وأعلى، وكانت عيناه تتابعان ما يفعله بلذّة ظاهرة.

انفتحت ركبتاي أمامه، وراح يمرّ بيده فوقي بخفّة الريشة أولًا ثمّ بضغط أكبر. انزلقت أصابعه تحت الدانتيل، فارتفع حوضي مع الحركة.

«ظهرت على عنقك تلك البقع الحمراء يا نورا، هل أنت مستاءة مني؟»، قال مداعبًا، وانحدر يلثم بشفتيه عنقي.

«بل بي غضب جنوني»، أجبت لاهثة، وكان يحاول فكّ أزرار قميصي. ثمّ شدّ بصدريتي إلى تحت، فشعرت ببرودة الهواء على جلدي.

«كيف أستطيع أن أعوّض لكِ عمّا فات؟»، تمتم وفمه فوق صدري.

رفعت جسمي لكي أقدّم له قسطًا أوفر منّي، وقلت: «هذه ليست سوى البداية». شدّني إلى شفتيه. حاولت كتم أنّة عالية عندما أصدرت تأوّهًا خفيضًا. أنزل يده تحت تنورتي من جديد وهو يلهث. «إنكِ تسيطرين على عقلي».

شددته إليّ أكثر، لأستمتع به أكثر. كنا قد أصبحنا ممدّدَين تقريبًا على الطاولة، وباطن فخذي ملتصق بوركه. دفنت فمي في عنقه لكي أكتم الأصوات التي كان يدفعها إلى الخروج مني.

شعرت بأني لا أملك السيطرة على ما يجري، ولاحظت كم يبدو سعيدًا برؤيتي هكذا. ولم يكن ذلك سوى ليزيد لهب اللذة اشتعالًا في داخلي. أريد أن أكون خارج السيطرة. أريده أن يراني كذلك، وأن يعلم أنه السبب. جالت يده نزولًا إلى كاحل رجلي، وأمسك بها ورفع ساقي إلى أعلى لتلتفّ حول حوضه لتسهيل التصاقنا أكثر.

لو كان لدينا مكان آخر أكثر ملاءمةً، لذهبنا إليه.

«أريد اقتحامكِ بكل قوّتي» همهم؛ وقفزت ضربات قلبي.

«أريد اقتحامكَ...»، قلت.

أطلق ضحكة خافتة، وقال: «لا تتورّعين عن المنافسة في كل الأمور».

أدخلت يدي تحت خصر بنطاله، لأتحسّسه بكل حواسي، فتقطّع لهث أنفاسه عندما شددتُ قبضتي، وتحرّك ليعطيني أكثر.

لم أستمتع بـ*هذا*، إلى هذه الدرجة من قبل. ربّما لم أستمتع به مطلقًا. ولعلّ استسلام شارلي لي، أسكرني بمشاعر القوّة.

قال: «يا إلهي كم أريد أن أكون في داخلك».

توتّرت، وانتفضت بعصبية، فضحك من جديد. وقال: «كلا أنتِ على حقّ. ليس في هذا المكان».

قال فيما كان ينهض ويبتعد عني، وأصابعه تمتدّ إلى أزرار قميصي ليعيد إغلاقها بالسهولة التي فتحها بها: «عندما سنفعل هذا يا نورا...، لن يحدث على الطاولة في المكتبة، ولن يكون محكومًا بعامل الوقت». رتّب شعري وأعاد أطراف قميصي إلى وضعها السابق تحت خصر التنورة، ثم رفعني بحرص، وأنزلني عن الطاولة؛ «سوف نفعل هذا بالطريقة الصحيحة، ومن غير استعجال».

الفصل الثالث والعشرون

غادرت المكتبة بساقين مرتجفتين كأنّي أمضيت أربعين دقيقة في تمارين الدوران. لم أتفقد هاتفي منذ ساعات. تراكمت الرسائل الإلكترونية المعتادة -واحدة من مديرتي التي نادرًا ما تحترم مفهوم عطلة نهاية الأسبوع، ورسائل من عملاء يتصرّفون بالطريقة نفسها- إلى جانب سلسلة من الرسائل النصّية من ليبي.

حدّقت وسط ضوء النهار الساطع في الشاشة لأتمكّن من مشاهدة الصور التي أرسلتها ليبي بشأن التقدّم الذي حقّقَته اليوم في المكتبة. غرفة القهوة في مكتبة غودي باتت الآن أنيقة ودافئة؛ ونافذة عرض الكتب **الصيفيّة المفضّلة** أصبحت مضاءة بسلسلة من المصابيح الصغيرة الوامضة. في معظم الصور، تقف سالي ضاحكة في إحدى الجهات. ولكن، وفي لقطة واحدة معوجة، حيث تغطّي صورة إبهام المصور جزءًا كبيرًا من المشهد، تقف ليبي وذراعاها منفتحتان كأنهما تطيران في الهواء، وابتسامة رائعة على وجهها، وكتلة من الشعر الناعم الوردي تجتمع إلى جهة واحدة فوق رأسها.

كان وجهها يبدو على شكل القلب إلى حدّ بعيد مثلما بدا في سنّ الرابعة عشرة، حين تبلّغت بقبولها للمشاركة في معرض الفنون في المدرسة: كانت تبدو فخورة، واثقة وقادرة. على الرغم من الأجواء المتوترة بيننا، شعرت بسعادة كبيرة لرؤيتها كذلك.

أجبتها: «يبدو المكان رائعًا! إنك رائعة أيضًا!!! من الصعب القول إنها المكتبة ذاتها!!!».

«شكرًا»، أجابتني. «هل كل شيء على ما يرام؟ لماذا تأخرت؟».

كان يجب أن ألقاها منذ عشر دقائق في مطعم بوبا سكوات، فكتبت: «انتظريني سأصل في غضون دقائق».

ولكن كان عليّ القيام بمكالمة أولًا. توقّفت لأجلس على أحد المقاعد المعدنية الخضراء على رصيف الشارع، وكانت شديدة السخونة تحت أشعة الشمس، ثم مددت يدي إلى حقيبتي لاستخراج الورقة التي كتبت عليها رقم هاتف شيبرد. ربّما لم تعد طريقتي في التعاطي مع هذه الأمور شائعة، إذ أردت الاتصال بشيبرد لأعتذر منه، وأقول بأني لا أميل إلى الخروج معه مجدّدًا. إنه شاب لطيف، ولا يستحقّ أن يُترك للأوهام.

رنّ الهاتف ثلاث مرّات قبل أن يجيب صوت نسائي يقول: «مكتب دنت، وهوبكنز، ومورّو، تفضّلي، كيف يمكنني المساعدة؟».

بعد لحظة ارتباك، أجبت: «أودّ التكلّم إلى شيبرد».

«أعتذر، لا يوجد أحد هنا بهذا الاسم».

«من يتكلّم لو سمحتِ؟».

«اسمي تيرا، من مكتب المحاماة للأساتذة دنت، وهوبكنز، ومورّو».

«أعتذر، يبدو أن الرقم غير صحيح». قلت وأقفلت الهاتف. ثمّ فتّشت مجدّدًا داخل حقيبتي حتى وقعت يدي على فاتورة قديمة على ظهرها أرقامٌ مخربشة. هذا هو الرقم الذي أعطاني إيّاه شيبرد. أما الذي اتصلت به للتوّ، فلا بدّ أنه الرقم الذي من سالي. *هذا لأختك؛ وجدت الرقم الذي طلبته مني.*

لم أتناول أي طعام من الصباح علىَ الرغم من كميّة القهوة الكبيرة التي ابتلعتها. ولكن لم يكن ذلك وراء ارتجاف أصابعي عندما بحثت على غوغل عن اسم مكتب المحاماة المذكور.

عندما ظهرت نتائج البحث، شعرت وكأن حقنة جليدية دخلت في عروقي.

دنت، هوبكنز، ومورّو- مكتب محاماة متخصّص في الدعاوى العائلية.

هل طلبت ليبي من سالي رقم مكتب محاماة متخصّص في قضايا الطلاق؟ شعرت طيلة لحظات أن الشارع والرصيف الحجَري والسماء الزرقاء والعالم كلّه قد تحول إلى قصائص متنافرة. انتفخ صدري، كأن شيئًا كبيرًا وثقيلًا سبّب لي انسدادًا في مجاري التنفّس.

عادت إليّ صورتنا في شقتنا القديمة، في تلك الأسابيع التي تلت موت أمي، كنت أراقب ليبي منهارة ومتهالكة؛ أشدّها إلى صدري وهي تبكي بشدّة وتكاد تختنق.

كنت أغرق في ألمها وأتغاضى عن ألمي الذي تجمّد، وتصلّب في قلبي.

لا أريد أن أبقى وحيدة، كانت تصرخ أحيانًا، *نحن وحيدتان، نحن وحيدتان يا نورا!*

وأنا أحضنها بشدّة، وأدفن فمي في شعرها، وأهمس لها أننا لسنا وحيدتين، وأنها لن تكون كذلك قطّ.

أنت إلى جانبي، كنت أردّد. ستكونين دائمًا إلى جانبي.

تذكّرت كل تلك الليالي التي كنت أصحو فيها من نومي فجأةً لأرى المشهد المؤلم بانتظاري: أمي غائبة. ونحن بلا مال، وليبي في حالة انهيار.

كانت تنتحب في نومها أحيانًا. وفي بعض الليالي كنت أستيقظ من غفوتي فأجدها في الحمام، ومكانها إلى جانبي فارغًا وباردًا فيعتريني الرعب.

في تلك الأيام كان الألم يتربّص بنا كظلال مارد فوق سريرنا، وعوضًا عن الانحسار يومًا بعد يوم، كان يكبر ويسمن من حزننا.

وذات صباح مبكر، كنا نتدثّر في السرير تحت الأغطية، وكنت أداعب شعرها المائل إلى حمرة الفراولة بأصابعي، همسَت قائلة: *لا أريد البقاء هنا بعد الآن. أريد لكل هذا أن يتوقّف.*

كبر ذلك الرعب البارد في قلبي وتخطّى حجمي، وازداد تورّمًا ونبضًا غاضبًا.

ومن غير التفكير في المال، أو العمل، أو المدرسة، ولا في أي شأن عملي من الشؤون العديدة جدًّا التي كانت تقع مسؤوليتها على كتفيّ، قلت لها: «*إذًا فلنذهب إلى مكان ما!*».

وذهبنا.

اشترينا بطاقات رحلة إلى لوس أنجلس في منتصف الأسبوع ذهابًا وإيابًا. نزلنا في فندق متهالك، حيث لم نتمكّن من إغلاق باب الغرفة الذي تخلّع مقبضه سوى عن طريق حشر كرسي وراءه.

كنا في كل صباح نستقل سيارة أجرة ونذهب إلى الشاطئ حيث نقضي النهار حتى موعد العشاء الذي غالبًا ما كان طعامًا رخيصًا وكثير الدهون. أخذنا بعضًا من رماد أمّنا ورميناه في مياه المحيط على غفلة من عيون المراقبين، ثمّ هربنا، وكنا نصرخ ونضحك في خوفٍ من أن ما فعلناه قد لا يكون مقبولًا ولا تسمح به القوانين.

بعد عودتنا إلى نيويورك قمنا بنثر بقية الرّماد بين نهري إيست ريفر وهدسن، ليكون بعضٌ من أمّنا على جهتي المدينة، ولكي تحيط بنا وتدعمنا.

لم تبكِ ليبي طيلة الأسبوع، ولكنها بعد صعودنا إلى الطائرة في طريق العودة وخلال عمليّة الإقلاع، نظرت من النافذة تراقب مشهد المحيط يختفي من تحتنا تدريجًا، وسألتني: «تُرى متى سيتوقّف الألم؟».

«لا أعلم»، أجبت، وعلمت أنها ستكتشف أني أكذب، وأني أؤمن بأنه لن ينتهي مطلقًا وأبدًا.

وإذا بها تغرق في نوبة مُرّة من البكاء والنشيج، حتى راح بعض الركاب يرمقوننا بنظرات غير متعاطفة. تجاهلت نظراتهم، وشددتُ ليبي إلى صدري، وهمست في أذنها: «*أخرِجي ما في داخلك يا حبيبتي*»، تمامًا كما كانت أمّنا تقول لنا.

وإذا بمضيف يقترب ويعطينا سرًّا زجاجتين صغيرتَيْن من الكحول. تُرى هل فعل ذلك لأنه لم يحسن تقدير سنّنا الذي لا يسمح باحتساء الكحول، أو بسبب شعوره بالشفقة علينا؟

وبين الشهقات، اختارت ليبي زجاجة بيليز، وشربت أنا زجاجة جين.
ومنذ ذلك اليوم، لم تصل إلى أنفي رائحة هذا المشروب من غير أن أفكّر في ضمّ أختي إليّ والتمسّك بها. ومن غير الاشتياق الشديد إلى أمي، والشعور بأنها أقرب إليّ ممّا كانت عليه ربّما طيلة أسابيع.

ربّما كان هذا وراء مَيْلي إلى تناول مشروب *الجين* دون سائر الكحول. أفضّل الإحساس بفجوة الفراغ في صدري على عدم الإحساس بشيء البتّة.

رمشت عيني لأزيح هذه الذكريات عن تفكيري. ولكن الألم الذي في صدري، وذلك الذي أحسّه بين يديّ، لم يغادراني. تراخيت في المقعد المعدني الساخن، ورحت أراقب أنفاسي وأعدّ الثواني في عمليَتَي الشهيق والزفير.

كانت تلك هي الرحلة الأخيرة التي سافرت فيها بصحبة ليبي، وكانت الرحلة الأخيرة لي على الإطلاق؛ باستثناء عطلة نهاية الأسبوع غير الموفّقة التي ذهبت لأقضيها مع جايكوب في وايومينغ Wyoming.

بعد أن عالجت مسألة الديون، بدأت أوفّر المال بمبالغ صغيرة لكي أجمع ما كنت سأحتاجه لأصطحب ليبي إلى مكانٍ جميل، مثل باريس أو ميلانو، بعد تخرّجها من الجامعة. لطالما كانت لدى ليبي طموحات عالية، ولكنها اختفت بعد فقدان أمّنا. توقّفتْ عن العمل بدوام جزئي في مكتبة فريمان؛ وحاولتْ السير في عدد من الاتّجاهات المهنية، ولكنها سرعان ما كانت تتراجع وتفقد عنصر الاهتمام بها.

لم أتوانَ عن مساندتها طوال فترة دراستها الجامعية. كنت أشجعها، وأقرأ النصوص التي تكتبها، وأساعدها على حفظ الدروس. كنا نتشاجر أكثر من السابق، والأدوار الجديدة التي أضحينا نتقلّدها باتت تزيدنا حدّة في الطباع. أما حزنها الذي لا نهاية له، سرعان ما كان يتحوّل إلى غضب، ثمّ إلى إرهاق، وهكذا دواليك. ولم تتوقّف ليبي، حتى بعد مضي أعوام، عن البكاء أحيانًا في نومها.

ثمّ تعرّفَت إلى براندن، وقرّرت عدم متابعة دراستها.

عندما أخبرَتني بخطوبتهما، لم يفاجئني الخبر، بل كل ما ساور تفكيري هو أن أختي المراهقة كانت تخاف كثيرًا من الوحدة.

أقلقني أن القرار الذي اتّخذته بالزواج في تلك السن المبكرة كان نابعًا من حاجتها إلى الشعور بالأمان، ولم يكن مبنيًا على رغبة حقيقية عميقة. ولكنها بدت سعيدة، واستعادت طبعها المرح الذي كانت قد فقدته منذ سنوات.

شعرت ليبي مع براندن بالاستقرار. وسرعان ما تخلّت عن وظيفتها في تنسيق الحفلات والاجتماعات، تلك الوظيفة التي كنتُ قد بذلت جهدًا كبيرًا لكي تكون من نصيبها. غير أن النظرات الموتورة كانت قد غادرت عينيّ أختي، وغمرني بالتالي الشعور بالارتياح.

كانت أختي قد أصبحت أخيرًا، وبعد أعوام طويلة، بخير. وكل ما قاسيته في العمل، وكل الحفلات التي كانت تفوتني، وكل لقاءات العمل التي كنت أهرع إليها في الصباح المبكر، وكل العلاقات العاطفية التي كانت تموت في مهدها بسبب برنامج عملي المثقل ــ كلّ ذلك كان بالنسبة لي ثمنًا زهيدًا مقابل سعادة ليبي.

كانت ليبي بخير.

أما الآن فإنها تتهرّب من الإجابة على مكالمات زوجها، وتسعى إلى التحدّث إلى محامٍ في قضايا الطلاق. يبدو أنها خطّطت لهذه الرحلة من أجل الابتعاد عنه طيلة أسابيع. بات انغماسي في العمل فجأة مشكلة بالنسبة إلى ليبي، ليس لأنها لا تقتنع بأهمية عملي، بل لأنها تحتاجني. إنها تحتاجني ولا تجدني إلى جانبها.

الخوف يخترقني بعنف الحريق في الغابة، ولكنه بارد كالثلج.

وراء قناع السيطرة القاسي الذي أرتديه، ووراء مظهري الحديدي، يختبئ *دائمًا* الخوف.

لم تكن ليبي على صواب عندما أخبرت سالي أني مثل أمي. كانت أمي

تعمل من دون انقطاع لبلوغ هدفٍ كانت تريده. أما أنا، فأركض من دون توقّف لأهرب من الماضي.

الخوف من ندرة المال من جديد. أو من الجوع، أو من الفشل. أو من أن أرغب في شيء ولا أستطيع نيله. الخوف مِن أن أحبّ شخصًا لا أستطيع الاحتفاظ به، ومن أن أرى أختي تنساب بعيدًا عنّي كانسياب الرمل من بين الأصابع. أو الخوف من رؤية كيان ينكسر، وأعجز عن إعادته إلى وضعه الصحيح.

أخاف من ذلك النوع من الألم، الذي أدرك أننا لن نتمكّن من تخطّيه مرّة ثانية.

أركّز على إحساسي بصلابة الأرض تحت قدميّ، لكي أغرس نفسي فيها.

الخطوات العملية بدأت تمرّ وتترتّب الواحدة بعد الأخرى في دماغي:

إيجاد أفضل محامٍ في قضايا الطلاق مهما كلّف من مال.

إيجاد شقة مناسبةٍ تستطيع ليبي دفع إيجارها بنفسها، أو شقة نستطيع معًا العيش فيها مع الأولاد. (تُرى هل يمكن لشقة شارلي المعروضة للإيجار أن تسعنا كلّنا).

الاستعانة بأخصائي لمساعدة ليبي في تخطّي المرحلة.

قد يكون استخدام قاتل مأجور مفيدًا؛ أو ربّما ببساطة، شخص قادر على تنفيذ بعض الأمور التافهة التي تندرج في خانة الانتقام -مثل أن يقذف محتوى كأس المشروب على وجه براندن، أو أن يمرّ بمفتاح، أو آلة حادّة، على طول سيارة براندن ليقشر دهانها- وكل ذلك يتوقّف على ما سيحدث، وعلى سلوك براندن؛ لأنه من الصعب عليّ بمكان تصوّر براندن يقوم بأي شيء مختلف عن التأمّل بحبّ في وجه ليبي أثناء قيامه بتمسيد قدميها المنتفختين.

وأخيرًا، الخطوة النهائية والأكثر إلحاحًا على القائمة، وهي: العمل على

أن تشعر ليبي بأكبر قدر ممكن من السعادة الآن. مساعدتها على الإحساس بالأمان بما يكفي لكي تفتح لي قلبها وتطلعني على هواجسها.

عادت كتفاي إلى وضعهما الطبيعي، واسترخت رئتاي، لأني بتّ على معرفة بوجود المشكلة، وبات بإمكاني بالتالي معالجتها.

***

قلت: «تعلمين بالطبع أن باستطاعتك أن تخبريني أيّ شيء، أليس كذلك؟».

رفعت ليبي عينيها عن الصحن الذي احتوى على مزيج من الكاتشاب والمايونيز حيث كنا نغمّس البطاطا المقلية في مطعم بوبا سكوات. نظرت في عينيّ وقالت: «لا تفعلي هذا من جديد. ركّزي على حياتك أنتِ يا أختي».

عوضًا عن إظهار انزعاجي، تخطّيته، وقلت: «ماذا عن البند التالي على القائمة؟».

بدا عليها الارتياح للتوّ، وقالت: «من الجيد أن تطرحي هذا السؤال، لأن لديّ فكرة رائعة».

قلت: «كم من مرّة سأحتاج إلى تذكيرك أن مركز ألعاب مائية يعتمد الكحول في مكان الماء ليس فكرة جيّدة».

«أوافق على ألّا أوافق». قالت، ومسحت يديها ببعضهما، لتنفض الملح عن رؤوس أصابعها. «ولكن، ليس هذا ما أريد قوله. بل أريد أن أقول بأني وجدت الفكرة التي ستحمل المكتبة إلى برّ النجاة».

«كم من التماثيل البرونزية يمكن لبلدة صغيرة أن تعرض في ساحتها؟»، سألتها.

«إقامة حفلة راقصة. حفلة راقصة على ضوء القمر الأزرق. مثلما جرى في قصّة *مرّة في العمر*»، قالت.

أحسست بحاجبي يتغضّن. «هل سيكون هناك قمر أزرق هذا الشهر؟».

«هذا ليس محور الموضوع»، أجابت.

«حسنًا، أين هو المحور...؟»، قلت.

«إنها مناسبة عظيمة لجمع التبرّعات!»، أجابت. أحد معارف سالي يدير شركة لتنظيم الحفلات، وبإمكانه أن يعدّ لنا مكان الرقص، وتجهيزات الموسيقى. ثم نؤمّن وجود متطوّعين لكي يزيّنوا المكان، ويقدّموا أنواعًا من المآكل والمخبوزات للبيع. سوف يجري كل شيء في ساحة البلدة، تمامًا كما في القصّة.

«سيتطلّب كل هذا الكثير من التحضير والعمل»، قلت بتردّد.

«لن نقوم بذلك وحدنا. اتّصلت سالي بجميع رفاقها في مجموعة تبادل النبيذ. وستقف أمايا وراء البار، ومعها غيرتي».

«النادلة الفوضوية؟»، قلت مستوضحةً.

«تبرّعت غيرتي بإعداد منشورات الإعلان عن الحفلة وتوزيعها في أرجاء آشفيل. مقهى كوب + كأس سيتحوّل إلى فوّارة المشروبات الغازية. إضافةً إلى أن لديهم رخصة لبيع الكحول، ويمكنهم بالتالي تقديم نوعين من كوكتيلات كحولية. نصف سكان البلدة معنا يدًا بيد في الإعداد للمناسبة»، قالت ليبي، وضربت على يدي فوق سطح البار الدبق. «سيكون الأمر سهلًا، وأكثر من سهل في الواقع. الأمر الوحيد هو أنّ...»

«أوه، ماذا؟»، قلت.

«لا بأس لو لم نستطع تحقيق هذا الأمر! ولكن فكّرنا في إمكان تصميم لقاء موسع عبر الانترنت مع الكاتبة دَستي؛ وفي إمكان أن نطلب منها توقيع عدد من نسخات كتابها الموجودة في المكتبة من أجل ترويج بيعها. وهذا بالطبع إن وافقت هي على الفكرة؛ وإن وافقت أنتِ شخصيًا عليّ طلب ذلك منها».

شدّت ليبي كفّيها إلى بعضهما كأنها تتوسّل أو تصلّي.

«أهكذا تريدين تمضية الأسبوعين المقبلين؟»، سألتها بنبرة يتداخلها

الشك. «أعني أنك لن تقضيهما في الراحة والاسترخاء؟ ولا في القراءة ومشاهدة الأفلام والتمدّد تحت االشمس؟».

«*هذا ما أريده من كل قلبي*»، أجابت.

أيًّا كان السبب وراء خيارها؛ أكان التسلية، أو اغتنام الفرصة لتكون في موقع قيادي، أو لتذوّق حياةٍ جديدة. وإذا كان هذا ما تريده، فستناله.

«سوف أطلب ذلك من دَستي»، قلت.

لفّت ليبي ذراعيها حول عنقي، وطبعت عشرات القبلات على رأسي.

«سنحقّق ذلك. سوف نمنع مشروعًا محليًّا من إغلاق أبوابه».

لم تقنعني ليبي، لكنها سعيدة، وسعادتها كانت وستبقى غايتي الأهم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الرابع والعشرون

«بالتأكيد، بالتأكيد!»، قالت دَستي بحماسة فورية، وبشيء من الذهول في الآن عينه. «أميل جدًّا إلى النزول عند رغبتك يا نورا. في الواقع...، لم أزر صنشاين فولز أبدًا في حياتي، ولكني مررت فيها بالسيارة منذ زمنٍ طويل».

«الناس هنا يعشقون كتابك»، قلت. ونظرت إلى الوراء، حيث تمدّدت ليبي على العشب ليس بعيدًا عن الكوخ لكي تتشمّس وتسترق السمع؛ وإذا بها للتوّ تبادرني مرّتين بإشارة الإبهام المرفوع تأييدًا. تنحنحت وتابعت التحدّث إلى دَستي: «كل سكان البلدة لديهم لوحات معدنية محفور عليها أجزاء من القصة. وهذا لطيف بالفعل».

«لطيف بالفعل!؟»، ردّدت دَستي عبارتي بتعجّب. كأنما تلك الكلمات لعنة لاتينية قديمة خرجت من فمي.

ارتفعت نبرة صوتي قليلًا، وقلت: «نعم!».

شعرت بالغرابة لأني أطلب من أحد عملائي خدمةً، إضافة إلى أن ذلك يفترض اعترافي بأني *هنا*، وأني أعمل وجهًا لوجه مع شارلي.

فوجئت دَستي عندما أخبرتها بأني غادرت المدينة، فشرحت لها أني أتيت بصحبة أختي. وإذا بها تفاجأ بالقدر عينه لمعرفة أن لديّ أخت.

تبيّن لي بالتالي أن كل ما تعرفه عميلتي الأقدم والأكثر استمرارية عنّي، هو أني لا أغادر نيويورك أبدًا وأن بإمكانها التحدّث إليّ عبر الهاتف في أيّ وقت شاءت.

هكذا، وبعد إطلاع دستي على خلفية المشهد هنا في البلدة، أخبرتها عن المأزق الذي تعاني منه مكتبة غودي، وشرحت لها الخطّة لجمع

التبرّعات: إقامة لقاء عبر الإنترنت يجمع القرّاء مع دَستي نفسها، ويكون مفتوحًا أمام كل من يأتي في تلك الساعة لشراء كتاب من المكتبة.

قالت دَستي: «إنها ساعة من عمري، وأظن أن باستطاعتي أن أجعلها ناجحة ومثمرة، إكرامًا للوكيلة الأدبية الأفضل في العالم».

«هل أخبرتك مؤخرًا أنك عميلتي *المفضّلة*؟»، قلت.

أجابت: «لم تفعلي أبدًا، ولكنّك أرسلت لي أفضل أنواع الشمبانيا أكثر من مرّة عبر السنوات، فاستنتجت ذلك».

«عندما ننتهي من تحرير فريدجد، سأرسل لك بركة سباحة ملأى بالشمبانيا»، أجبتها.

استقامت ليبي من تمدّدها، وأومأت مشيرة بإصبعها، وقالت بحركات شفوية صامتة، وبفرح المنتصر: «**مركز ألعاب مائية مليء بالكحول؟**»، ثمّ قفزت على قدميها وأسرعت إلى الداخل لكي تهاتف سالي وتزفّ إليها الخبر السعيد.

عندما صعقني ما اكتشفته يوم أمس، بعثت برسالة نصّية إلى براندن لأسأله حول حقيقة ما يحدث بينهما، ولكنه ببساطة لم يجب على *رسالتي*. غير أني أحاول عدم التركيز على ذلك.

«أودّ أن أطرح عليك سؤالًا، دَستي»، قلت.

«هيّا، لا تتردّدي»، أجابت.

«لما اخترت صنشاين فولز تحديدًا؟».

بعد لحظة من التفكير، أجابت: «ربّما لأن الانطباع الذي تعطيه البلدة للناظر إليها من الخارج، قد يختلف تمامًا عمّا سيكتشفه عندما يتعرّف إليها أكثر. أيْ إنها ستبدو أكثر جاذبية وجمالًا عندما تتوقّفين وتكرّسين بعض الوقت لفهم ما يدور في داخلها».

***

سالي وغيرتي وأمايا مع حشدٍ من الوجوه الأخرى، التي لم أتعرّف إليها

جيّدًا، كانت تموج بلا انقطاع في المكتبة وخارجها طيلة أيام إبّان التحضير للحفلة؛ غير أني استطعت أخيرًا التركيز على عملي. كانت ليبي في صلب عمليات التخطيط، وتتحرّك في ذهابٍ وإيابٍ دائمَيْن. وكانت تجيب على هاتفها بصوت عالٍ، حتى دفعتها نظرات بعض الزبائن المنزعجين ذات يوم إلى الاعتذار عبر سيل من العبارات التي لم تنتهِ سوى بخروجها من المكتبة.

حرصنا، شارلي وأنا، على العمل معًا عبر البريد الإلكتروني في معظم الأحيان. لأننا لو مكثنا في غرفة واحدة طويلًا فإن ليبي -وربّما حتى سالي- ستعرفان بما يدور بيننا، والأمور ستتعقّد.

كنت أفهم عدم موافقة ليبي على انجذابي إلى شارلي على قاعدة الأسباب التي تذكرها. ولكن بعض تفكيري بات الآن يطرح نقاط الاستفهام، ويبحث عن السبب الحقيقي. ماذا لو كان المقصود من دفعي إلى استخدام برامج المواعدة، مجرّد انطلاقة تجريبية لها شخصيًا، لكي تكتشف الفرص المتاحة. على كل حال، لا أرغب في إخراج علاقتي المستجدّة مع شارلي إلى العلن، في وقت تعاني ليبي من اهتزاز مفاجئ في علاقتها بزوجها.

يتكدّر مزاجي كلّ مرّة أفكر في هذا الأمر، ولكنني أقول صدقًا إنّ تواصلنا عبر البريد الإلكتروني كان عنوانًا لاحترام الأصول المهنية. غير أن رسائلنا النصيّة لم تكن كذلك، وكثيرًا ما كان عليّ الخروج من غرفة القهوة، «ساحة التخطيط الحربي لدى ليبي والمجموعة»، لأبتعد عن العيون التي قد تكتشف تورّد وجهي.

وفي معظم الأحيان كان شارلي يقطع طريقي، فنتسلّل إلى أيّ مكانٍ في المكتبة لنبقى بمفردنا في مأمن من العيون حتى ولو لثوانٍ معدودة. قد نذهب إلى الممرّ المؤدّي إلى الحمّام، أو إلى غرفة كتب الأطفال، أو إلى الرواق المسدود من الجهة الخلفية حيث رفوف الكتب غير- الخيالية. حتى في مثل هذه الأمكنة حيث قد لا ترانا العيون، كان علينا البقاء صامتَيْن

تقريبًا. شدّني في إحدى المرّات إلى الخارج عبر الباب الخلفي، وسرعان ما تلامسنا بحرارة ولمّا يزل الباب خلفنا غير مغلق تمامًا.

«تبدو مرهقًا، كأنك لم تنم منذ سنوات»، همست.

انحدرت كفّاه إلى مؤخرتي، وشدّني إليه، ثم همس في أذني: «وابل من الأمور يشغل فكري». تسلّقت يداه صعودًا على جسمي تتحسّس انحناءاته واستداراته. «لنذهب إلى مكانٍ ما»، قال.

«أين؟».

«إلى أي مكان. بعيدًا عن أبصار أمي وأختك، وعن مسامعهما».

نظرت نحو الباب، وفي الاتجاه التقريبي حيث توجد ليبي ورفاقها مع قائمة الأعمال الطويلة المدوّنة على اللوح الأبيض.

كل جراح قلبي التي اجتهدتُ في إخاطتها عادت لتنبض ألمًا؛ كنت أحسّ كأن عقلي تجمّد وبات عاجزًا عن التفكير تحت وقع العواطف التي تعصف بكياني. أريد تمضية بعض الوقت مع شارلي؛ أريده هو؛ ولكن كيف أنسى الأمور التي تستدعي اهتمامي؟

التفتّ مجدّدًا إلى عينيه العسليتين، وشعرت أني أغرق فيهما حتى وسطي، كأن لا أمل لي في الابتعاد عنه؛ كما ولا أشعر بالرغبة في ذلك وخصوصًا بوجود يديه فوق جسمي. «أيّ مكان؟»، سألته.

«اختاري».

***

كانت ليبي غارقة في **مزاج العمل**، ولم تصرّ على مرافقتنا إلى المخازن الكبرى تارغيت Target، بل فضّلت التركيز على اختيار المعروضات التي سيعود ريعها الخيري إلى المكتبة. وبعد أن وافقت سالي على الاهتمام بالصندوق، انطلقنا في سيارة سالي القديمة من نوع بويك، التي يستخدمها شارلي أثناء وجوده في البلدة.

جهاز التبريد في السيارة كان معطّلًا، وحرارة الشمس حارقة، والهواء

الساخن المحمّل برائحة العشب كان يلفحنا، ويطيّر خصلات شعري. كلّ ذلك جعل برودة المكيّفات، وروائح البضائع البلاستيكية في مركز تارغيت أكثر قبولًا. لم أكن أتصوّر مقدار الوقت الذي كنّا نمضيه في الهواء الطلق، ولكني عندما نظرت إلى صورتي في كاميرا المراقبة عند نقطة تسديد الحساب عبر آلة الخدمة الذاتية، وجدت أن بشرتي باتت تميل إلى السمرة، والنمش (الذي يذكّرني بأختي) بات أكثر ظهورًا على أنفي، وشعري يبدو متموّجًا تحت تأثير الرطوبة.

وقعت عينا شارلي عليّ وأنا أتفحّص شكلي، فقال ممازحًا: «هل رأيت كم تبدين مثيرة وغالية الثمن؟».

أمسكت بالإيصال الذي خرج من الآلة وقلت: «في الواقع، أفكّر كم سأكون قاسية عليك في العمل».

لمعت عيناه وأجاب: «أستطيع التحمّل».

قاد بنا شارلي السيارة إلى الكوخ، وما إن دخلنا إلى جوّ الكوخ المنعش والهادئ، حتى تنبّهت إلى أنها المرّة الأولى حقًّا التي أكون فيها مع شارلي على انفراد تامّ. ولكن لم يكن الوقت طويلًا أمامنا قبل أن تعود ليبي، وهناك بالتأكيد مسائل تدعوني إلى التركيز أكثر عليها من النقاط المتعرّقة حيث يلتصق قميص شارلي بجسمه.

«يمكنك المباشرة في العمل في الحديقة الخلفية»، قلت له، قبل أن أصعد إلى الطابق العلوي لإحضار بقيّة الأغراض التي سنحتاجها.

وفي مهلة وصولي إلى باب الحديقة الخلفي بيدين محمّلتين بالأغطية والمفارش، كان شارلي قد انتهى من نصب الخيمة.

«يا للمفاجأة! أراكَ انتهيت من نصبها بهذه السرعة!».

«كنت أظنّ أنّك لو أردتَ إبهار سمكة قرش، فستحتاج إلى أن تضربها بين عينيها».

«كلا، المهارة في نصب الخيم قد تكون كافية»، أجبت.

جلس القرفصاء تحت الخيمة وراح يفتح الفراش الهوائي الذي كنا

قد ابتعناه من تارغيت - لأننا، ليبي وأنا، حتى لو أردنا التخييم، فإننا نبقى من عائلة ستيفنز (ولا ننام على الأرض القاسية من دون فراش). «ما الذي يجعلك ماهرًا إلى هذه الدرجة في هذه الأمور؟»، سألته.

«عندما كنت صبيًّا، كنت أذهب مع والدي في نزهات طويلة ونخيّم في الهواء الطلق»، أجابني. وكانت أشعة الشمس الساطعة قد رسمت ظلالًا داكنة لخطوط وجهه المستقيمة، وأصبحت عيناه العسليّتان تميلان أكثر إلى لون الدبس.

«هل ذهبتما في رحلة تخييم منذ عودتك؟»، سألته.

هزّ شارلي رأسه نفيًا. وبعد ثوانٍ، أجاب: «لا يريدني هنا».

نغمة صوته، وحاجباه، وفمه - كل ما فيه اتّخذ مظهرًا ثابتًا وربّما قاسيًا، كأنه يتحدّث عن حقائق مجرّدة لا تخصّه. «مع أنّه لم يعجبهما في الأصل قرار مكوثي في المدينة بدل العودة إلى هنا والعمل إلى جانب أحدهما».

أتساءل إذا كان الناس يصدّقون أقوال شارلي عندما يتطرّق إلى مثل هذه الأمور التي تهمّه مباشرةً بأسلوبه البارد المعروف في التعاطي مع الأمور برؤية تشريحية علمية، بدل أسلوب الرجل الذي يصارع لكي يفهمه الآخرون وليكون سيّد قراراته؛ مع العلم أنّهما هدفان بات تحقيقهما نادرًا في العالم.

ابتلعت ريقي بألم وصعوبة، وقلت: «هما يريدانك هنا بالتأكيد، شارلي. يبدو لي أن هذا ما يريدانه منذ البداية».

أشار بذقنه إلى الطاولة القريبة، حيث وضعنا سلك التوصيل الذي ابتعناه، «هل توصلي مضخّة الهواء بالكهرباء، لو سمحتِ؟».

علا صوت المضخة، وآثر كل منّا الصمت خلال دقائق. أتيت بالمراوح من داخل إحدى الخزائن في البيت، ووصلتها بالكهرباء أيضًا. مدّ شارلي الأغطية فوق الفراش، فيما انشغلت في تعليق المصابيح الورقية، وتوزيع الشموع الطاردة للحشرات على مسافات متساوية.

استمرّ الصمت حتى لم أتمكّن من تحمّله أكثر، فقلت: «شارلي». أدار رأسه لينظر إليّ، ثم استدار بكلّيته وجلس على حافة الفراش.

وتابعت: «إنه مرتاح لوجودك هنا، لا شكّ أن كليهما كذلك».

مسح بظاهر يده العرق عن حاجبه، وقال: «عندما أخبرته بأني سأبقى هنا لمدّة طويلة بعض الشيء، قال لي حرفيًا: ´يا بنيّ، ماذا تعتقد أن باستطاعتك أنتَ أن تفعل؟´ وشدّد على ´أنت´».

جلست قبالته فوق الدكّة الخشبية وتربّعتُ في جلوسي. «ألستما مقرّبَين؟»، سألت.

«كنّا كذلك، بل نحن كذلك. إنه أفضل الناس الذين أعرفهم. ولكنّه محقّ، إذ إن الأمور التي يمكنني القيام بها لمساعدته محدودة. شيبرد قادر على الاستمرار في الأعمال، وهو الذي يتمكّن من تنفيذ أعمال الصيانة التي يحتاجها منزل والديّ. في حين أن كلّ ما أستطيع فعله ينحصر في إدارة المكتبة».

انعصر قلبي. تذكّرت ذلك الشعور بعدم امتلاك القدرات الكافية. شعور اختبرته في توقي لأكون كلّ ما كانت تحتاج إليه ليبي بعد وفاة أمّي؛ وعندما كنت أخفق في ذلك المرّة بعد الأخرى. لم أستطع أن أكون في مثل حنان أمي. لم أستطع استعادة المسحة السحرية التي كانت لا تغيب عن حياتنا في أثناء وجودها. كل ما كنت أملكه، كان من نوع القوّة الخام، والحاجة الملحّة واليائسة أحيانًا.

ولكني كنت أحاول التماهي مع شبح أمي؛ الإنسانة التي فقدناها وأحببناها كثيرًا.

غير أني اكتشفت في تلك اللحظة ما لم أفكّر به من قبل. لا تقتصر معاناة شارلي على أنه لم يشعر أبدًا بالانسجام مع محيطه، بل لأنه يرى كيف كانت ستكون الأمور لو *فعل*. لم يذهب تفكيري بعيدًا عندما شاهدت شيبرد واقفًا إلى جانب كلينت في الصالون - ليس لأنّهما متشابهان في البنية وطول القامة والسمات العامّة. بل يتطابقان تقريبًا بالعينين الخضراوين والشعر الأشقر واللحية.

قفزت إلى داخل الخيمة لأجلس بجانبه، فهبط الفراش تحت ثقلي. «*إنك* ابنه يا شارلي»، قلت له.

مرّ بيده على ساقه، وتنهّد قائلًا: «لا أحسن القيام بأيّ من أعماله». ثم رفع يده وحكّ قليلًا حاجبه، وانحنى إلى الخلف ليتمدّد على الفراش، ناظرًا إلى أعلى عبر غطاء الخيمة الذي صمّم ليكون مفتوحًا وواقيًا من البعوض في آن معًا. إنه يتيح لنا تنفيذ أحد بنود القائمة الذي يشترط النوم تحت النجوم، إنما بتساهل (نظرًا للسماح لنا بالوقاية من البعوض). «لم أشعر في حياتي بأني عديم الفائدة إلى هذه الدرجة. خطر الانهيار يحدق بهما من كل جهة، وأقصى ما يمكنني فعله لا يتخطّى فتح أبواب المكتبة في وقت محدَّد يوميّا».

«وهذا، قياسًا مع ما سبق وأخبرتني، يعدّ تقدّمًا كبيرًا». اقتربت منه أكثر، وأحسست بعطر جلده يلفّني ويمعن في انتشاره داخل الخيمة بفضل الحرارة. كانت الغيوم القليلة تعبر السماء الصافية كأنها نتفٌ من ´غزل البنات´. «لستَ عديم الفائدة يا شارلي. تأمّل في كل هذا»، قلت له.

نظر إليّ: «نجاحي في نصب خيمة لا يستحق جائزة نوبل، يا نورا».

هززتُ رأسي. « *لا أعني ذلك*. إنك...» ووجدتني أبحث عن الكلمة المناسبة بصعوبة. من النادر ألا تسعفني مفرداتي بهذا الشكل. «منظّم».

«منظّم؟»، واتّقدت عيناه وانطلق مقهقهًا.

أجبت بنبرة حازمة: «منظّم للغاية، عدا عن أنك عميق وشامل».

«تتكلّمين عنّيكأنك تصفين اتفاقيّة»، قال ممازحًا.

«وأنت تعلم تمامًا كم تهمّني الاتفاقية الجيّدة»، قلت.

علت زاويتا فمه، وقال مبتسمًا: «في الواقع، كل ما أعرفه هو موقفك من الاتفاقيات السيئة المكتوبة على فوطة ورقية رطبة». ثمّ تمدّد فوق الفراش، وفعلتُ مثله، مع المحافظة على مسافة ´وقائية´ بيننا.

«الاتفاقية الجيدة هي...»، وتوقّفتُ لأفكر قليلًا.

«حلوة؟»، قال شارلي مداعبًا.

«كلا».

«جميلة؟».

«هذا أقل ما يمكن قوله عنها».

«جذابة؟»، قال بلهجة السؤال.

أجبت: «ومثيرة إلى أقصى الحدود، ولا تقاوَم. إنها مجموعة من الميزات الجيّدة التي تضمن التفاهم بين مختلف الفرقاء من أجل نجاح العمل. إنها مُرضية... حتى لو لم تكن كما كنت تتوقّعها. لأنك لن توفّر جهدًا في نحت تفاصيلها حتى تصبح كما تريدها أن تكون».

نظرت بطرف عيني إلى شارلي، فوجدته ينظر إليّ. كانت المسافة الوقائيّة التي حرصت عليها قد ازدادت حرارةً. «ما هي اتفاقيتك مع أمايا؟»، خرج السؤال من فمي من دون تفكير.

هبطت زاويتا فمه من جديد. «ماذا تعنين؟».

«أعني أنكَ كنت على وشك الزواج بها. ماذا حدث؟».

«أمور كثيرة»، قال.

«مثل أنكَ كنت صريحًا أكثر من اللزوم في بعض المواقف؟»، قلت ممازحة.

ارتسمت الابتسامة الساخرة المعهودة على شفتيه، وأجاب: «أو ربّما لم تكن بمستوى الذكاء الذي يرضيني؟».

بعد لحظات من الصمت حيث سبحت فيها أنظارنا مع الغيوم البيضاء المتهادية في السماء. تابع شارلي: «بدأنا نتواعد في الصفوف الثانوية، ثم التحقت هي بجامعة نيويورك، وتبعتها إلى هناك بعد الفترة التي أمضيتها هنا في الكلية الأهلية».

«إنها حبّك الأول؟» سألت.

هزّ رأسه إيجابًا. «عندما أنهينا دراستنا، أرادت أن تجد شقّةً لنا في آشفيل. لم يكن قد خطر في بالي أنها سترغب في العودة إلى هنا. ولم يكن قد خطر في بالها قطّ أني سأرفض ذلك. لم نحسن التواصل بيننا ولم نحرز تقدّمًا».

«هل حاولتما الاستمرار في العلاقة عن بعد؟»، سألته.

«فعلنا هذا طيلة عام كامل. وكان أسوأ عام في حياتي»، أجاب.

«لا يُكتب لمثل هذه الطريقة النجاح في معظم الحالات»، قلت.

«كل يوم كان يشي بنهاية علاقتنا. في كل يوم، يشعر الشريك أنك على وشك التخلي عنه؛ فيستخدم الضغط ليتأكد أن الآخر ما زال متمسكًا به. عندما توصّلنا أخيرًا إلى وضع حدّ للعلاقة، أحزن الأمر أمّي كثيرًا. فقالت إني أقع في الأخطاء ذاتها التي وقعت فيها هي نفسها؛ وإن الأمور ستنتهي بي إلى الوحدة إن لم أحدّد أولويّاتي».

«كل ما أرادته سالي هو عودتك. واعتقدَت أن أمايا كانت الطريق الأسرع إلى ذلك»، قلت.

«ربّما»، قال، وأخرج نفسًا طويلًا، وأكمل: «مرّت أشهر لم نتبادل فيها الكلام عبر الهاتف سوى لمامًا. وبعد ذلك جئت لأمضي عطلة الأعياد مع العائلة، فوجدت أن أمايا كانت قد شرعت، بعد انفصالنا بفترة زمنية قصيرة، بمواعدة ابن خالتي. ومن أجل هذا الأمر تحديدًا، طلبت الجلوس معي في ذلك المساء وتصفية الأجواء».

فاجأني كلامه، فرفعت رأسي وأسندته إلى ساعديّ، وسألته: «هل تعني أن خطيبتك *السابقة* تواعدت مع *ابن خالتك*؟ مع شيبرد؟».

هزّ رأسه إيجابًا. «اتّفق أهلي على إخفاء هذا الأمر عني، ولكنّي اكتشفته، وحدثت بيننا مشادّة قاسية بعد ذلك».

وها إن جزء آخر صغير من أجزاء صورة شارلي يظهر أمام عينيّ، ويستقرّ في مكانه.

«إمكان استمرار علاقتنا كان ضئيلًا، ولذلك لم أجدهما مذنبَين ولكن...، ومع ذلك...».

«هل شعرتَ بغيظ شديد؟»، سألته.

وضع يده وراء رأسه واستند إليها، وقال: «تستحقّ أن تكون سعيدة؛ ويمكن لشيبرد أن يسعدها أكثر مني».

«لماذا؟»، سألت. نظر إليّ رافعًا حاجبه كأنه لم يفهم السؤال. «لماذا لديه القدرة على إسعاد أي شخص أكثر منك؟».

«هيّا ستيفنز، لا تطرحي هذا السؤال»، قال بسخرية. «أنتِ، أكثر من أي شخص آخر، تعرفين ما أعني».

«كلّا، لا أعرف».

« *النماذج التي تعرفينها في القصص*. إنه الشخصية المجازية المثالية االتي تتكرّر في القصص الرومنسية. الشاب الذي تعشقه النساء. الابن الذي كان والداي يتمنّونه؛ الذي يعمل دوامًا كاملًا في الوظيفة التي كان أهلي يريدونها لي. إضافةً إلى تلك الكراسي الهزّازة التي يصنعها في أوقات فراغه. حتى إنه تخرّج من الجامعة التي كانت خياري الأول بين الجامعات».

«جامعة كورنيل؟»، قلت.

«ذهب إلى هناك في الأصل ليمارس لعبة كرة القدمن ولكنه ذكي جدًا أيضًا. تعرّفتِ إليه عندما خرجت في نزهة معه»، قال شارلي.

«خرجت معه بالفعل، ولذلك فإني مؤهّلة للقول بأنك مخطئ. ولا أعني من حيث ما ذكرته في كلامك عن ذكائه، وإنما من حيث قدرته على إسعاد شخص آخر».

بهتت ابتسامته، وعاد لينظر إلى السماء، وهمس: «ولكن ذلك يتطابق على الأقل مع رأي أمايا. فيما كنا نتبادل الأسباب التي تبرّر انفصالنا. قالت لي: ’*لو بقينا معًا فإن كل يوم من حياتنا حتى نهاية عمرنا سيبقى مثل الآخر*‘. مع أن مثل هذا الكلام يتردّد عادةً في نهاية العلاقات العاطفية...، فإنها طلبت لقائي في ذلك اليوم لكي تعتذر على الأسلوب الذي انتهت به علاقتنا».

أحسست بخدّيَّ يتورّدان. «لطيف منك أن تفكّر بهذه الطريقة يا شارلي، ولكني متأكّدة بناء على نظراتها إليك، بأن كل ذلك التكرار الذي كانت تتوقّعه مملًّا ربّما عاد ليجذبها».

«ليس أني كنت مملًّا بنظرها فحسب، بل قرّرَت أنها تريد الإنجاب – أو على الأقل، اعترفت بأنها تريد ذلك، وكانت تنتظر مني تبديل موقفي».

التفتّ إليه، وسألت: «لا تريد أطفالًا؟».

«لم تكن طفولتي سعيدة»، قال وطوى ذراعه تحت رأسه، ورمقني

بنظرة هاربة. «لن أكون قادرًا على مساعدة شخص آخر على اجتيازها، ولن يفرحني مثل هذا الدور بالتأكيد. أحبّ الأطفال، ولكني لا أرغب في تحمّل مسؤولية أي طفل».

«أوافقك الرأي»، قلت. «أحبّ بنات أختي أكثر من أي شيء آخر في العالم. وفي كل مرّة تنام فيها تالا في حضني، ينظر والدها إليّ بعينين دامعتين، كأنه يقول: *ألا يولّد هذا في نفسك الرغبة لكي يكون لك أطفال مثلها، نورا*. ولكن، عندما يكون لديك أطفال، فإنك تتحمّل مسؤوليتهم؛ وإلى الأبد. أي خطأ تقع فيه، أي فشل ــ أو لو حدث لك مكروهٌ...».

انعقدت حنجرتي. ولكني تابعت:

«يميل الناس إلى ذكر مرحلة الطفولة كأنها ملأى بما يشبه السحر بعيدًا عن المسؤوليات، ولكن الطفولة ليست كذلك. لا يملك الطفل أي سيطرة على محيطه. كل السيطرة تكون في يد البالغين من حوله، ثمّ...، لا أعلم ماذا أقول. في كل مرّة تُرزق ليبي بطفلة، أشعر وكأن بيتا سحريًا في قلبي يعيد ترتيب ذاته ليخصّص زاوية جديدة لها».

«والأمر مؤلم، أو حتى مخيف. لأنه يعني أن شخصًا إضافيًا بات بحاجة إليك».

يدٌ جديدة تحمل قلبك في قبضتها الصغيرة.

تنشّقتُ نفسًا عميقًا، وقلت: «هل أقول لكَ شيئًا؟ سرًّا آخر؟».

استدار نحوي، وقال محدّقًا في وجهي: «هل سنعود إلى السرّ حول من قتل جون كنيدي؟».

هززت رأسي نفيًا، وقلت: «أعتقد أن ليبي تسعى إلى الطلاق».

رفع أحد حاجبيه، وقال: «أتعتقدين ذلك؟».

أوضحت: «لم تخبرني بالأمر بعد، ولكنها لا تجيب على اتصالات براندن، وهي لا تنام جيّدًا في الليل. كانت قد تخلّصت من مشكلة الأرق منذ...». وجود شارلي يدفعني من جديد إلى الكشف عن كل ما في داخلي أمامه. إنه يستحوذ على كل تركيزي في كل لحظة إلى حدّ أنه يصبح من الصعب عليَّ إعداد ما سأتفوّه به؛ كأن أحترس في كلامي من التغيّرات أو السناريوات المحتملة.

قد يعود السبب في ذلك إلى أن شارلي هو حقًّا دقيق التنظيم وعميق التفكير، ويوحي بأنه قادر على إصلاح أيّ خطأ أو مشكلة لو أراد ذلك. لذلك لا أتردّد في الإفراج عن فوضى المشاعر التي تقلقني أمامه.

«منذ وفاة أمّك»، قال مستكملًا جملتي.

أومأت برأسي، ومررت بأصابعي فوق الوسادة الباردة التي بيننا وقلت: «الأمر الوحيد الذي لطالما استحوذ على اهتمامي، هو أن يكون لديها كل ما تحتاج إليه. والآن، وفيما هي تمرّ في مأزق سيغيّر حياتها، أجد نفسي غير قادرة على فعل أي شيء. حتى إنها لم تخبرني بذلك. لو أن أحدًا...».

سرحت يده فوق ظهري، وتركت إحساسًا لطيفًا ومريحًا فوق عمودي الفقري، واستقرّت تحت شعري. «وجودك هنا بقربها، قد يكون كل ما تحتاج إليه»، قال.

كلامه أشعرني بالراحة، فقلت: «ربّما هذا أيضًا كل ما يريده والدك منك».

شدّ برفق على رقبتي، وسحب يده. «الفرق هو أن ليبي طلبت منك أن تكوني هنا، في حين أنّ والدي طلب مني العكس».

«حسنًا، إذا كان سماع مثل هذا الطلب سيصنع الفرق»، ثم همست كأني ألفظ سرًّا: «شارلي، هل بإمكانك أن تكون هنا؟».

انحنى صوبي، وقبّلني بنعومة، وأصابعه تراقصت بخفّة تحت خدّي، فيما تنشّقت من عطر أنفاسه ودفء جلده. وعندما ابتعد، كانت عيناه تسبحان في ذلك السائل الذهبي، وأعصابي ترتعش تحت نظراتهما.

«نعم»، قال، وشدّني إليه، ولفّ ذراعه حولي، وأسند ذقنه إلى كتفي. «سبق وقلت لك يا نورا»، همس، وأصابعه انسلّت قليلًا من تحت أطراف قميصي لتستريح فوق بطني. «أذهب معكِ إلى أيّ مكان في العالم».

أحيانًا، حتى لو بدأت القراءة من الصفحة الأخيرة، وظننت أنك تعرّفت إلى كل الأمور، فلا بدّ أن يجد الكتاب ما سيفاجئك به.

الفصل الخامس والعشرون

«لِمَ هذه الرائحة في يديكِ؟»، سألت ليبي، فيما أغلقتُ عينيها بكفيَّ وسرتُ معها إلى الباب الخلفي للكوخ.

«لا رائحة في يدّي»، قلت.

«إنها مثل رائحة تلفاز جديد»، قالت.

«لا وجود لذلك»، قلت.

«بلى، إنها رائحة تلفاز جديد».

«تعنين أنها رائحة سيارة جديدة؟»،.

«كلا، أشمّ رائحة مثل التي تنبعث من علبة التلفاز الجديد، عندما نسحب الغطاء الواقي المصنوع من الستايروفوم. كأنها رائحة بركة السباحة من الداخل».

«إذا لمَ لا تقولين بصراحة إن رائحتي مثل رائحة بركة السباحة؟»، قلت.

«هل اشتريت لنا جهاز تلفاز ضخم؟»، سألتني.

«أقول لكِ، كفى...» ورفعت يديّ عن عينيها، فأطلقتْ صرخةً عالية.

قفز شارلي كأنه أراد التقاط إناء زجاجي غالي الثمن رمته ليبي باتجاهه. «أختي»! قالت ليبي بعد أن استدارت نحوي. «شارلي!». ثم أدارت وجهها إليّ مجدّدًا لتقول: «إذًا، سنخيّم؟!».

قلت: «أوَليس التخييم أحد بنود القائمة؟».

رمت بذراعيها حول عنقي، وأفلتت صرخة أخرى. «شكرًا يا أختي، شكرًا».

«أي شيء تطلبينه...» أجبتها، والتقت عيناي بعيني شارلي من فوق كتف ليبي.

حرّكت شفتيّ متمتمة شكرًا. ابتسم وتمتم *أيضًا أي شيء تريدينه*. وفي داخل صدري تحرك شعور ثقيل.

***

استيقظت مرّتين لألتقط أنفاسي. وفي المرّة الثانية كانت ليبي قد استدارت، وأسقطت ذراعها فوقي، أما ساقها فكانت تنتفض بحركة غير إرادية كأنها تسدّد إليّ ركلات منتظمة.

وعلى الرغم من المراوح الموزّعة بطريقة مدروسة، كان الجوّ حارًا إلى درجة مزعجة. ولكنّي لم أرفع يدها عني، بل وضعت ذراعي حولها وغمرتها.

سوف أهتمّ بك، وعدتها.

لن أسمح لأي شخص أو أمر أن يؤذيك.

وعلى غير عادتي، نهضت في الصباح قبل ليبي. قرّرت عدم الخروج للركض، بل توجّهت مباشرة إلى الاستحمام، وأشعلت النار في الفرن.

كان البسكويت المصنوع بطحين الذرة وعصير الليمون قد أصبح جاهزًا عندما استيقظت ليبي، وأكلنا منه مع الفطور والقهوة الصباحية.

«كلّك مفاجآت يا نورا!»، قالت، وأكلت من البسكويت متظاهرة بعدم ملاحظة وجود الكتل في قوامه، وأن بعضه كان محروقًا حول الأطراف. لم يكن البسكويت الذي صنعته جيّدًا، ولكني لم أتوقّف عند ذلك، خصوصًا وأنه أعجب ليبي.

توجّهت إلى مكتبة غودي بعد الفطور، وأثناء سيري لاحظت وصول القسم الأخير من كتاب فرِيدجد إلى بريدي. وهكذا كانت المرحلة الأخيرة من تحرير الكتاب على وشك الانطلاق رسميًا.

عندما لا أكون مع شارلي في غرفة واحدة، نتبادل الرسائل الإلكترونية بشأن الكتاب. وعندما لا نتبادل الرسائل بشأن الكتاب، نتبادل الرسائل النصّية حول كل شيء آخر.

يوم الثلاثاء، عندما أجبرت نفسي على طلب طبق سلطة من بوبا سكوات، أرسلت إليه صورة قطع الجامبون المدخّن البشعة على وجه الطبق الذي وضعته أمايا أمامي.

أجاب: «أعتقد أني لم أقدّر جيّدًا فهمك للسلوك السادومازوشيستي Sadomasochistic، ستيفنز».

وفي اليوم التالي، أرسل لي شارلي لقطة يبدو فيها الزوجان المسنّان اللذان كانا يتشاجران كالديكة في قاعة محكمة البلدية، في قبلة طويلة أمام محل ´دنكن دوناتس´ الجديد. «أتوقّع أن الحب يتغلّب على كل شيء آخر»، كتب.

«أو أنها وجدَت أسلوبًا غير منظور لكي تخمد أنفاسه»،كتبتُ.

«يعجبني دماغك اللامع والمتشعّب، نورا».

عندما مرّ بنا شارلي ذات مساء ليوصل الحطب الذي وعدَتنا به سالي، بالإضافة إلى المارشميللووالبسكويت، وساعدنا على إشعال النار وسط الجوّ الحار في تلك الليلة. وفيما جلسنا على السطيحة الخشبية لنشوي المارشميللو، أعلنت ليبي: «شارلي، إني أحبّك».

«هذا يشرّفني»، قال.

«انتبه، لا تشعر كثيرًا بأنك تشرّفت، لأن ليبي تحبّ كل الناس»، قلت.

مدّت ليبي يدها إلى كيس المارشميللو ورمتني بواحدة. وقالت: «هذا ليس صحيحًا، هل نسيتِ قراري بالثأر من ذلك الشاب الذي يقدّم دعاية تريفاغو Trivago؟».

«حلم جنسي مزعج لا يستوجب الثأر»، قلت.

«عشت مرّةً حلمًا جنسيًّا مع الشخصية الكرتونية الخضراء في الصور الدعائية لشكولاته M&M»، قال شارلي بصراحة مفاجئة. فانفجرنا للتوّ، ليبي وأنا، في نوبة ضحك صاخبة.

قالت ليبي بعد أن هدأت، «لا بأس، يمكن فهم ذلك. إنها فاحشة الجمال».

«فاحشة الجمال»، ردّد شارلي موافقًا، وعيناه في عينيّ من فوق ألسنة النار. «أفضّلها كثيرًا على ´رائعة الجمال´».

وضعنا الخطّة للانتهاء يوم السبت من تحرير ملاحظاتنا حول القسم الأخير من الكتاب. وإذا بكل لحظة تمرّ كأنها في عدٍّ عكسي بالنسبة لي ريثما يحين موعد لقائنا. كنت أشعر أحيانًا أني أريد تسريع عقارب الساعة. وأحيانًا، كأني أريد تسريع إفراغ الرمل عبر عنق الساعة الرملية.

كان يبعث إليّ برسائل نصّية قصيرة مثل: «يا للّعنة! أنظري الصفحة 340»؛ «إنها تلتهب!»؛ «الهرّ!»؛

وأردّ عليه برسائل أخرى مثل: «صرخت!»؛ «الأفضل ما زال في الصفحات التالية...»؛ «الهرّ يبقى»؛ فيجيبني: «أوافق».

أحيانًا يبعث لي برسائل تقول: «نورا». فأردّ بأخرى تقول «شارلي». ثم يقول: «هذا الكتاب». فأردّ «هذا الكتاب».

«أتوق لكي أعرف كيف سينتهي»، كتبت.

«بل يعذّبني أنه سينتهي. لو لم أكن مسؤولًا عن تحريره، لا أقرأ الصفحات الأخيرة»، كتب.

«حقًّا؟ هل تتمتّع بهذا المستوى من السيطرة على النفس؟»، سألته.

«نعم، أحيانًا». ثم أردف بعد دقيقة: «هناك عدد من الروايات التي أعشقها والتي لم أقرأ فصولها الأخيرة، لأني أمقت الشعور بحلول النهاية».

شعرت للتوّ بفراغ في قلبي، إنه يعتصر، بل يحترق ويؤلمني.

هذا الكتاب، هذه الوظيفة، هذه الرحلة، هذا الحديث الذي لا ينقطع على مرور الأيام. أريد لكل ذلك أن يستمرّ، وأتوق لمعرفة كيف سينتهي. أريد إنجازه، وأريد استمراره إلى ما لا نهاية.

لو فكّرت أني كنت لا أنام جيّدًا في الأسبوعين الأوّل والثاني بعد وصولنا إلى صانشاين فولز، فإن ما جرى في الأسبوع الثالث كان جديرًا بمحو هذه الفكرة. في الأسبوع الثالث، درجنا، شارلي وأنا، ليليًّا على تبادل الرسائل النصّية حتى منتصف الليل أو بعده. إضافةً إلى المكالمات

السريعة من حين إلى آخر من أجل مناقشة بعض النقاط المهمّة في حبكة الرواية، وغالبًا ما كان ذلك يضاعف من نشاطي إلى درجة اضطراري إلى الخروج والسير حول المرج لكي أفرغ طاقتي.

بعد كل تلك السنوات التي أمضيتها في التفكير بأني أتمتّع بقدرة متفوّقة في السيطرة على نفسي، تجدني الآن أكتشف أني لا أفضّل على نفسي أي شيء مهما كنت أرغب في حيازته.

وأخيرًا جاءت ليلة الخميس، ولم يعد أمامنا سوى يومين لكي ننتهي من تحرير الكتاب. ولم يبقَ سوى أسبوع وبضعة أيام قبل أن أعود إلى المدينة، حيث يبدأ ذلك **المستقبل الذي اتّفقنا على عدم الكلام بشأنه**. ستنتهي الافتتاحية، ويتحوّل المستقبل ليصبح حاضرًا، ثمّ يصبح الحاضر ماضيًا.

ولكن ليس بعد.

الفصل السادس والعشرون

مشينا، ليبي وأنا، إلى السور المحيط بالأسطبل، وبأيدينا الجزر والكرفس ومكعبات السكر، ولكنّنا على الرغم من كل ما حملنا من أدوات الإغراء، ومن كلمات الممالقة والتحبّب، صوات التحبّب لم ننجح في كسب ودّ الأحصنة.

«أتظنين أنهم عرفوا أننا من أهل المدينة؟»، قلت.

«لا بدّ أن رائحة صالون الشعر *درايبار* Drybar ما زالت عالقة بك»، أجابت ليبي.

وضعت يديّ حول فمي، وصرخت بملء صوتي عبر المرج الغافي في الغسق: «هذه ليست النهاية سنعود ثانيةً!». عدنا إلى الكوخ، ثمّ قرّرنا عدم تحضير وجبة العشاء لأننا متعبتان، بل الذهاب إلى مطعم بوبّا سكوات حيث يمكننا أن نطلب طبقًا كبيرًا من زهرة القرنبيط والبطاطا المقلية.

في الطريق إلى ساحة البلدة، كانت ليبي ترتجف بعض الشيء. وعندما مررنا تحت ضوء قناديل الشارع بدت كأنها تخطت ذروة الوهن وباتت أقرب إلى شبح يسير على قدمين.

وراء نوافذ مكتبة غودي المشعّة، كان شارلي يغلق الأبواب.

«هيّا ندعوه إلى تناول العشاء معنا»، صرخت ليبي، وابتعدت عني فجأةً وانطلقت لتقطع الشارع نحو المكتبة.

على الرغم من أننا حاولنا منذ البداية إبقاء ما يدور بيننا في الظلّ، تأكّدت أن ليبي لاحظت ذلك، ولكنها أخفت اعتراضها عليه خصوصًا بعد أن ساهم شارلي في إعداد المفاجأة التي تخصّ الخيمة والنوم تحت النجوم.

ضربت على باب المكتبة كما يضرب ضابط المخابرات الفيدرالية على الأبواب في المسلسلات التلفزيونية، حتى فتح شارلي وظهر كعادته تمامًا: أنيق الهندام، وحاضرًا ليقضم قطعةً منّي.

«جئنا لندعوك إلى العشاء»، قالت له. ثم شقّت طريقها إلى الداخل باتجاه الحمام، كما تعوّدت في تلك الأيام، وتابعت بصوت عالٍ: «سنذهب إلى بوبّا سكوات».

قلت: «ربّما سمعتَ به من قبل...، كان على قائمة حصريّة لأكثر المطاعم تميّزًا في البلاد».

هزّ رأسه ببطء؛ وأذابت عيناه الداكنتان قلبي. شعرت وكأن مجرّد النظر إلى عينيه قد يعرّضني إلى مخالفة قانون الآداب العامّة. «إنها المطاعم التي يوحي اسمها بأنها ستؤدي بك إلى الإسهال، فيما أنها في الحقيقة، ستؤدي بك حصرًا مؤكدًا إلى الإسهال». قال شارلي.

«إنه هو بالتحديد!»، قلت موافقة.

فتح شارلي الباب واسعًا لكي أدخل، ولكن هاتفي ما لبث أن رنّ. نظرت إلى الشاشة تلقائيًّا، لأجد أنه اتصال من شارون، مع أنها في عطلة الأمومة. فقلت معتذرة: «لا بدّ أن أجيب على هذا الاتصال».

ثمّ ظهرت ليبي فجأة، وأوقفتني بصوتٍ كأنه صرير فرامل في فيلم كرتوني، وذكّرتني: «لا اتصالات عمل بعد الخامسة».

«هذا اتصال مختلف»، قلت، والرنّات المتكرّرة ما برحت تخدش أعصابي كما قد تفعل الأظافر على لوح الطبشور. «قد يكون سبب الاتصال مهمًّا».

ظهرت على ليبي الخيبة. «نورا»، قالت.

«أعطني دقيقة لا أكثر»، قلت. اتّسعت عيناها تعجّبًا إزاء نبرة صوتي الحادّة: «أعتذر، ولكن عليّ أن أجيب».

خرجت، وسرت بمفردي على الرصيف المظلم، وأجبت على وقع نبضات قلبي المتسارعة: «مرحبًا شارون، هل كل شيء على ما يرام؟».

أجابت بفرح: «مرحبًا، نعم، كل الأمور جيّدة، وأعتذر لأني أوهلتك. أريد أن أطرح عليك سؤالًا».

زال التوتّر عنّي على الفور، واسترخت كتفاي. «بالطبع، تفضّلي».

«لا يمكنني الدخول في التفاصيل؛ ولكن دار النشر لوجيا قد يكون لديها وظيفة تحرير شاغرة في وقت قريب».

«أوه؟»، شعرت بهبوط مفاجئ في معدتي. لطالما استقبلت مثل هذه الاتصالات عبر السنين، ومن غير الصعب أن أتوقّع سبب اتصال شارون. إنها تنوي الاستقالة؛ أو إنها ببساطة لن تعود إلى العمل بعد انتهاء عطلة الأمومة.

تابعت شارون: «نعم، هذا ما سيحدث على الأرجح في لوجيا، أعلم أنك في الوقت الحاضر تلمعين في دورك كوكيلة، وقد لا تهمّك هذه الفرصة قطعًا؛ ولكني كنت أتحدّث مع شارلي، وأخبرني أنك تساهمين بطريقة ممتازة في تحرير كتاب دَستي الجديد».

قلت: «إنه يساهم في تسهيل العمل، وهي أيضًا».

قالت شارون: «بالتأكيد، ولكن لا يمكن التغاضي عن الموهبة التي تمتلكينها أيضًا في التحرير. ولذلك، تساءلت إن كانت لديك أي رغبة في ذلك؟».

«رغبة؟».

«رغبة في التحرير مع لوجيا؟».

لا بدّ أن المفاجأة أصابتني وتركتني في صمت دام لحظات، بدليل أن شارون انطلقت تصيح: «نورا، أين أنتِ، هل انقطع الاتصال؟».

شعرت بجفاف ريقي، وأجبت بصوت رفيع: «أنا هنا».

قد يكون ذلك هو الإحساس الذي يصيب المرأة الحامل عند نزول ماء الرأس فجأةً قبل الولادة. كأنها كانت تحمل في جوفها مستقبلًا جديدًا، وإذا به يبدأ على حين غرّة، من غير إعلان مسبق.

«تريدينني أن أصبح محرّرة؟»، سألتها.

«أريد منك إجراء المقابلة، نعم»، أجابت. «ولكني أتفهّم إن كنت لا

ترغبين في ذلك، لأنك نجحت وبنيت سمعةً جيدة لنفسك كوكيلة ممتازة. ربّما كان هذا الاقتراح غير مقنع بالنسبة لك».

فتحت فمي لأقول شيئًا، ولكن صوتي كان قد اختفى فجأةً.

كنت في حالة ذهول.

قالت: «لا أحتاج إلى إجابة نهائية منك الآن، ولكن لو شعرت بالميل إلى...»

كان عليّ أن أغوص في فوضى أفكاري ومشاعري، لأتمكّن من صوغ إجابة معيّنة؛ أو لأحاول على الأقل إصدار كحةٍ قد تفتح الطريق أمام صوتي للخروج ببعض الكلمات.

ولكني سمعت صوتي كأنه يخرج من نفق طويل ليقول: «نعم».

«نعم؟» صاحت شارون. «إذًا ستُجرين المقابلة معنا؟».

ضغطتُ على أعلى أنفي كأني أُخفّف من تدفّق الدماء إلى رأسي. ليس سهلًا اتخاذ مثل هذا القرار؛ على الأقلّ الآن، فيما تمرّ أختي بأزمة قد تتطلّب مصاريف جمّة.

قلت مستدركة: «أفضّل التفكير بالأمر. هل باستطاعتي الإجابة بعد يوم أو يومين؟».

«بالطبع! إنه قرار مهمّ *بالطبع*! ولكني أعترف بشدّة حماستي إزاء قول شارلي بأنك قد ترغبين في الانتقال إلى التحرير».

كدت لا أسمع نهاية الحديث، إذ تحوّل فكري إلى ما يشبه لوح الفلّين في مركز المباحث المحمَّل بالدبابيس والصور والخيوط الحمراء التي تربط بينها، كان ينتقل من نقطة إلى أخرى، ويجمع بين مختلف النقاط في محاولة لجمع المعطيات الإيجابية التي تبرهن على إمكان أن أقبل بهذا العرض، وعلى أنه رائعٌ وخياليٌّ، وليس خارج متناولي.

عندما أغلقت الخطّ، جلست على المقعد الأخضر تحت ضوء الشارع، ولمّا أزل أشعر كأني داخل حوض أسماك، وكل ما حولي يبدو غريبًا وملتويًا. وعندما نهضت أخيرًا وعدت إلى المكتبة، سمعت خشخشة

أجراس الرياح المعلّقة فوق الباب، كأنها آتية من بعيد، غير أن صوت ليبي كان قريبًا وجارحًا: «ها قد عدتِ أخيرًا»، وتابعت بغيظ واضح: «هل يمكننا الذهاب إلى العشاء الآن، أو يترتّب عليك التوجّه إلى اجتماع لمجلس الإدارة؟».

شعرت بالتوتّر والضعف، وكأنّ حبالًا تشدّني باتجاهات كثيرة، وعندما شاهدتها تدير عينيها تبرّمًا، انقطع الوتر الأخير في قدرتي على الاحتمال، فقلت: «هل يمكنك التوقّف عن هذا يا ليبي؟ أرجوك، ليس الآن».

« *التوقّف عن ماذا؟*» قالت. «سبق وقلتِ إنك ستكونين حاضرة معي بكل كيانك بعد الخامسة، وها إنك...».

«توقّفي»، قلت، ورفعت يدي في محاولة وهمية لمنع انفلات كل تلك الدبابيس، والخيوط الحمراء التي أمطرت فوق رأسي؛ كأنها الحقيقة التي هبطت لتسحقني من كل الجهات.

لأني، حتى لو أردت الحصول على تلك الوظيفة، لن أتمكّن من ذلك.

تمامًا كما في المرّة السابقة، ولكن في ذلك الحين على الأقلّ، كانت ليبي تخبرني بما يدور في حياتها. على الأقلّ، لم أكن أرمي السهام وسط العتمة لكي تسدّ الثقوب في المركب الغارق.

«ماذا يجري معك؟»، سألتني، وقد ارتفع حاجباها، وتدلّت وجنتاها بما يوحي بالحيرة والفزع.

شعرت بعاصفة هوجاء تعلو في داخلي. «معي؟»، أعدت اللفظة وراءها. «لست التي تتهرّب وتتوارى عن الرؤية، والتي لا تجيب على رسائل زوجها، وتخفي الأسرار. حرصتُ على أن أكون حاضرة تمامًا، ولكنك تحرصين على إبقائي في الظلمة».

شعرت بنبضي يتسارع بجنون، وبتنميل في أصابعي. «لا أستطيع المساعدة إن لم تخبريني بما يجري!».

«لا أريد منك المساعدة يا نورا!»، أعلنت، وأصابها الشحوب ما إن خرجت تلك الكلمات من فمها، وبدت كأنها تتأرجح على ساقيها. «أعلم

أني لطالما اعتمدتُ عليك كثيرًا وأعتذر بسبب ذلك. ولكني لا أريد من جديد أن أكون مبرّرًا لكي لا تعيشي حياتك».

قلت بغضب: «أوه، حسنًا، أنا لا أعيش حياتي. وما من شيء يهمّني سوى مهنتي. اسمعي يا ليبي، لو كان هذا الادّعاء صحيحًا، لكنتُ محرّرة الآن! ولما تخلّيت عن المهنة التي أردتُها حقًا. كلّ ذلك لكي تتمكّني من الحصول على المساعدة الأفضل في مانهاتن خلال فترة حملك!».

غاب اللون عن وجهها كلّيًا وتعرّق حاجباها. «انتظري...، أنت...، أنت...»، تباطأت أنفاسها، واستدارت لتستند بإحدى راحتيها إلى المنضدة القريبة. ثمّ رفعت يدها الأخرى إلى جبينها فيما ارتعشت أجفانها وانغلقت عيناها. هزّت ليبي رأسها لكي تستجمع قواها، وهرعتُ إليها وناديتُ: «ليبي؟»، وشعرت بقلبي يخرج منّي. وإذا بها تفقد الوعي.

الفصل السابع والعشرون

أمسكت بها لأمنعها من السقوط، ولكني لم أمتلك القوّة الكافية لأعيدها إلى وضعية الوقوف. «النجدة!». صرخت وقد هبطنا معًا إلى الأرض. ولكن، ولحسن الحظ، كان سقوطها بهذه الطريقة بطيئًا.

انفتح باب المكتب بسرعة، ولكني تابعت الصراخ «النجدة!». كنت أصرخ كأنّ الصراخ كان يفيد في شيء، أو كأن مجرّد طلب النجدة بهذه الطريقة يعطيني قوّةً. مجرّد الفعل الذي يغلب على عدم الفعل، والحركة التي تتغلب على الركود. إنه الوهم بالقدرة على السيطرة.

جاء شارلي راكضًا وركع قربنا. «ماذا حدث؟».

«لا أدري، إنها ليبي. ليبي».

انفتحت عيناها قليلًا، وعادتا لتنغلقا بسرعة. يا إلهي إنها شاحبة. هل كانت بهذا الشحوب طيلة فترة بعد الظهر؟ كان قلبها يدقّ بسرعة، كأنه يرتعش في كل نقطة من جسمها. أما يداها فكأنهما في برودة الثلج. أخذت إحدى يديها بين يديّ وطفقت أفركها.

«ليبي، ليبي».

انفتحت عيناها مجدّدًا، ولكنها بدت أكثر وعيًا هذه المرّة.

«لنأخذها إلى المستشفى»، قال شارلي.

«إني بخير» أصرّت وإنما بصوت مرتجف. ثمّ حاولت النهوض. فجذبتها مجدّدًا إلى حضني. «لا تتحرّكي، تمهّلي دقيقة».

هزّت رأسها وارتاحت على ذراعي.

كان شارلي قد نهض وذهب نحو الباب، وقال: «سوف أجلب السيارة إلى هنا».

***

شارلي هو من تكلّم إلى موظف الاستقبال بجمل تامّة، غير متقطّعة، عندما وصلنا.

شارلي هو من شدّ بذراعي، وأبعدني عندما كنت أجادل الممرضة بصوتٍ يكاد يكون صراخًا لأنها منعتنا من الدخول وراء ليبي إلى المكان الذي أُدخلت إليه. هو الذي احتضن وجنتي بيديه وطمأنني أنها ستكون بخير.

لا يمكنك معرفة *ذلك*. قلت في رأسي، ولكنه متأكّد من أني أميل إلى تصديق قوله.

«اهدأي، واجلسي هنا، وسأرى ماذا نفعل».

وفي غضون أقلّ من سبع دقائق، عاد وبيده فنجان قهوة بلا كافيين، وكيس من شرحات التفاح المقرمشة، ورقم الغرفة التي نُقلت إليها ليبي.

«إنها تخضع لسلسلة من الفحوص المخبرية، ولكن ذلك لن يستغرق وقتًا طويلًا».

«كيف عرفت كل ذلك؟»، سألته بصوت متحشرج.

أجاب: «زميلتي في فريق مشروع التخرج من المدرسة الثانوية طبيبة هنا، وهي تقول إن باستطاعتنا انتظار ليبي في القسم حيث هي موجودة، ريثما تنتهي الفحوص».

لم أشعر في حياتي أني بلا فائدة لهذه الدرجة؛ ولا بالامتنان لكوني خارج موقع المسؤولية. «شكرًا»، قلت.

أعطاني شارلي كيس التفاح المقرمش قائلًا: «يجب أن تأكلي شيئًا». ثمّ سار بي عبر ممرّات المستشفى، وتوقّف أمام برّاد بيع ليشتري زجاجة ماء، ومشينا نحو كرسيَّيْن قديمين جدّا في مكان ضعيف الإضاءة تملأ أرجاءه روائح مواد التعقيم.

قال لي بلطف: «إنها هناك. إن لم تخرج بعد خمس دقائق، سأجد من أتكلّم إليه. لنعطهم خمس دقائق فحسب».

لم تمضِ عشرون ثانية حتى نهضت وبدأت أقطع المكان ذهابًا وإيابًا. شعرت بوخز في صدري، وبحريق في عينيّ، إنما من غير دمع.

شدّني شارلي إلى صدره، واحتضن بإحدى يديه رأسي، فشعرت بأني صغيرة، وضعيفة، كما لم أشعر منذ أعوام طويلة.

لم أكن في حياتي، حتى قبل وفاة أمّي، شديدة الميل إلى البكاء. ولكن عندما كنت وأختي طفلتين، ما من شيء كان قادرًا على دفعي إلى البكاء مثل غمرة أمي. لأنه في تلك اللحظة، وليس سوى في تلك اللحظة، كنت أشعر بالأمان لو أرخيت اللجام لمشاعري.

يابنتي الحلوة. هكذا كانت تدعوني دائمًا.

لم تقل قطعًا شيئًا مثل: *كل شيء على ما يرام*؛ لا تبكي. إنما *يا ابنتي الحلوة، استخرجي من داخلك كل ما يزعجك*.

في مأتمها، أذكر إحساسي بالدموع تتجمّد في عينيّ، وبوخز الاحتقان في أعلى أنفي؛ وإلى جانبي كان صوت بكاء ليبي يتحوّل إلى إجهاش ونشيج.

أتذكّر أني وجدت نفسي أحبس أنفاسي كأني في انتظار شيء ما.

ثمّ لاحظت أني كنت أنتظر *بالفعل*.

كنت أنتظرها. أنتظر أمي لتحتضننا بذراعيها.

كانت ليبي تنهار، وأمّي لن تأتي.

وإذا بي أشعر وكأن قصر الرمال الذي كان قد تهاوى في صدري، عاد فجأة ليلملم أطرافه ويعيد ترتيب قلبي ليصبح أكثر قدرة على الاحتمال. ضممت أختي بذراعيّ، وحاولت أن أهمس لها: *استخرجي ما في داخلك*. ولكن تلك الكلمات عجزت عن الخروج من حلقي.

عوضًا عن ذلك، اقتربت من أذن ليبي، وهمست: *أختي!*

أجابتني بنفَسٍ متقطّع كأنها تقول: *ماذا؟*

«لو رأت أمّنا وسامة هذا القس، لقرّرت العودة إلى هنا بسرعة».

نظرت إليّ ليبي بعينيها المثقلتين بالدموع، وشعرت بصدري كأنه علبة فارغة ومسحوقة، إلى أن أفلتت منها ضحكة عالية متهدّجة وصلت إلى القس الوسيم فتلعثم في ما كان يقوله.

أراحت رأسها على كتفي، ودفنت وجهها في سترتي، وهزّت رأسها. «مصيبتنا كبيرة»، قالت، وارتجفت وسط قهقهة امتزجت بالنشيج.

استطعت في تلك الدقيقة مساعدتها ولو قليلًا. أما الآن، وفي قمّة حاجتها لي، فها إنها ستجدني عاجزة وبلا فائدة.

«لماذا لا نستطيع الدخول إلى الغرفة أثناء إجراء *الفحوص*؟»، سألته.

تنشّق شارلي نفسًا عميقًا، وغيّر في وضع وقوفه، وأجاب: «ربّما يخافون من أن تعطيها الإجابات».

أحسست بأن النكتة كانت متكلّفة بعض الشيء، وعندما نظرت إليه بتجرّد، ساورني الشكّ بأنه لم يكن على ما يرام.

«هل أنتَ بخير؟ تبدو وكأنك على شفير التقيّؤ»، قلت.

«لا أحب المشافي. هذا كل شيء»، أجاب.

«لستِ مجبرًا على البقاء»، قلت.

أمسك بيديّ، ورفعهما إلى ما بين صدرينا. «لن أتركك وحدك هنا».

«يمكنني التصرّف».

زمّ فمه، فتعمّق الخطّ تحت شفته السفلى، وأجاب: «أعلم ذلك، ولكنني أريد البقاء».

ثمّ مرّت من أمامنا بضع ممرّضات ومريض على سرير متحرّك، فلاحظت كأن غشاء شاحبًا بات يغطّي وجه شارلي.

بحثت عن شيء أقوله، أي شيء قد يوجّه تفكير شارلي إلى مكان آخر، فقلت: «اتّصلت بي شارون».

زمّ شفتيه مترقّبًا.

قالت إنك اقترحت اسمي لملء وظيفة شاغرة.

بعد هنيهة أجاب متمتمًا: «أعتذر إن كان تدخّلي في غير محلّه».

شعرت بتنميل في وجهي. «لا أعني ذلك، ولكن...، ماذا لو كنت غير مؤهّلة لهذا العمل؟».

صعد بيديه فوق ذراعيّ حتى احتضن براحتيه وجهي، وقال: «هذا مستحيل».

ارتفع حاجباي بحركة تلقائية، وسألته: «هل لأني ساعدت في تحرير كتاب واحد؟».

هزّ رأسه نفيًا. «لأنك ذكية وتتمتّعين بحسّ ملهم. ولأنك ماهرة في تحفيز الكاتب على إعطاء أفضل ما عنده، ولأنك تضعين عملك في المصافِ الأول، حتى قبل نفسك. تعلمين جيّدًا أين تتدخّلين، وتستخدمين أسلوب الدفع، وأين تتساهلين وتتركين الأمور تجري على سجيّتها. إنك جديرة بالثقة، ربّما لأنك لا تتقنين الكذب ولأنك تعتنين بالمسائل التي تهمّك. لو أردتُّ اختيار شخص ليكون في مكاني، فسيكون أنتِ، لأنك في كل مرّة تهتمّين في ترتيب الأمور المتعثرة».

اشتدّ خفقان قلبي، وأخفضت نظري إلى الأرض، وأجبت: «ليس دائمًا».

«لا تقلقي»، قال، ورفع يدي ولثم أصابعي. «سوف نكتشف السبب وراء ما حدث، ونقوم بكل ما نستطيع لمعالجته».

«تلك القائمة اللعينة». همستُ بجهد من داخل صدري المنقبض، وأضفت: «أرهقت نفسها بأمور كثيرة، وكان عليّ أن أوقفها. نمنا في الخارج وسط الجوّ الحار، إضافة إلى الجهد الذي تبذله مع المجموعة من أجل جمع التبرّعات - في حين أنها كانت بحاجة إلى الراحة».

جلس شارلي، وأجلسني في حضنه، وكل أفكارنا بشأن عدم إفشاء علاقتنا تفاديًا للتعقيدات، ذهبت أدراج الرياح في لحظة. أحتاج إليه، وهو هنا بكلّيته ومن غير حذر ولا شكوك. انزلقت يده خلف عنقي، واندسّت بين شعري، وتكوّمتُ بين ذراعيه كأنه قلعتي الشخصية الحصينة؛ وكأنه، حتى ولو تداعت قواي وفقدت السيطرة، فإن لا شيء سيتمكّن من المساس بي.

«دعي ليبي تتخذ قراراتها بنفسها يا ستيفنز. تخيّلي ردّ فعلك لو أن

أحدًا حاول منعك عن القيام بما تريدين القيام به». كان ظل ابتسامة يخترق عبوسه المعتاد، فاستدرك: «ولكن من الأفضل ألّا تتخيّلي، إذ لا يصحّ أن تتحرّك الشهوة في أروقة المشافي».

زرعتُ ضحكة خافتة في حنايا صدره، وشعرت بأن عقدة أخرى بدأت تنحلّ في صدري. «فاتني أمر مهمّ. أنا الآن إلى جانبها، وبراندن ليس هنا، و ــ»، غار صوتي في حنجرتي، فتابعت بصعوبة: «من واجبي أنا مراقبة سلامتها».

قال: «أعلم أنك قد تتوجّسين من وجودك هنا، ولكنه مستشفى جيّد. يعلمون جيّدًا ماذا يفعلون». وراحت أصابعه ترسم دوائر لطيفة عند أسفل عنقي من أجل التخفيف من توتّري. «تلقّى والدي العلاج في هذا المستشفى تحديدًا».

الإشارة إلى والده بعبارة «الرجل الطيّب» برقت في ذهني، كأنها الصورة التي يبقى شبحها في العين لحظات بعد الانطفاء المفاجئ للضوء في الكاميرا.

هكذا يدعو شارلي والده: *الرجل الطيّب. أفضل إنسان أعرفه.*

بعد صمت دام لحظات، قال شارلي: «الجلطة القلبية الأولى لم تكن سيئة جدًّا. ولكن الأخيرة...، أدخلته في غيبوبة دامت ستّة أيام». كان يراقب حركة إصبعه الهائمة صعودًا ونزولًا فوق إصبعي. وراقبت تقطّب حاجبيه. في يوم تعارفنا في المطعم، أخطأت تفسير هذا التعبير وظننته دليلًا على فظاظة طبعه، وبرهانًا مقلقًا على أنّه من حيث دفء المشاعر الإنسانية، ليس أفضل من لوح الرّخام.

أما الآن، فلعلّ كل ما يكشف عنه هذا العبوس هو نظرة عينيه الضائعة. قال شارلي: «ذلك الرجل الضخم الحاذق والقادر على إصلاح أيّ عطل، أو إقامة أيّ بناء، كان مستلقيًا على ذلك السرير كأنه...»، وانقطع صوته. رفعت يدي الأخرى وأدخلت أصابعي بين شعره وراء الرقبة. «كأنه رجل عجوز». ثمّ بعد صمت غير مريح، أضاف: «عندما كنت صغيرًا، كل ما

أردته من الحياة هو أن أكون مثله. ولم أكن مثله. ولكنّه لطالما حرِص على أن أشعر بأن ´لا بأس في أن أكون كما أنا´».

أحطت وجهه بيدي ورفعته لكي ينظر في عينيّ، وفي تعابير وجهي، أو لعلّه يقرأ كل كلمة شعرت بصعودها من عمق أعماقي لتقول له: عبارة ´لا بأس´ لا تفي بالمعنى. *لأنك أكثر تفوّقًا*.

تنحنح قليلًا، ثم تابع: «ما زال والدي حيًّا بفضل العناية التي قُدّمت له هنا. والآن، بفضل عنايتك أنتِ من جهة، وعنايتهم من الجهة الأخرى، ستكون ليبي بخير. لا بدّ أن تكون بخير».

ما إن أنهى شارلي جملته، حتى ظهر الطبيب خارجًا من غرفة الفحص. أصلع الرأس، وله لحية صغيرة أشبه بلحية سلمان رشدي. رأيته وقفزت على قدميّ قائلةً: «هل هي بخير؟».

قال: «إنها ترتاح، ولكنّها أعطتني الإذن لأتكلّم إلى كليكما». وأشار برأسه نحو شارلي، الذي وقف وشدّ على يدي لكي يبثّ الاطمئنان في قلبي.

«ماذا حدث؟»، سألت.

وفي أقلّ من لحظة كان فكري يسافر بين كل أشكال التوّعكات التي سبق وسمعت بها.

سكتة قلبية.

جلطة.

إجهاض.

فإذا به يجيبني: **إنسداد رئوي** Pulmonary Embolism.

تردّدت الكلمات، وأحدثت صدًى، وطارت بي إلى بداية عمري، ثم حملتني باتجاه نهايته. هذه الجملة المنمّقة التي تتلوّى عبر الزمن، وتصيب باللعنة كل ما يصادفها، وتصيب حياتي بالإعوجاج في أماكن، وبالتمزّق في أخرى: *إنسداد رئوي*.

قال الطبيب: «أختك تعاني من فقر الدمّ».

شعرت وكأني أرتطم بالحائط. أو ربّما أنزلق من على صخرة شاهقة؛ كأني خطوت في الفراغ وأترنّح قبل السقوط.

«تعاني من نقص في الحديد وفيتامين ب 12»، شرح لنا. «ولذلك، فإن جسمها لا يصنع ما يكفي من الكريات الحمراء الصحيحة. ليس من الغريب أن يحدث مثل هذا الأمر أثناء الحمل، وليس مفاجئًا خصوصًا لدى السيدات اللاتي اختبرن مثل هذه المشكلة في حمل سابق».

«لم تعانِ ليبي من مثل هذا الأمر في السابق»، قلت.

تفحّص الأوراق التي كانت بيده وأجاب: «حسنًا لم تكن المشكلة متقدّمة قياسًا بما هي عليه اليوم، ولكن مستويات الحديد في دمها كانت منخفضة بالتأكيد. تكلّمت إلى الطبيب النسائي الذي يتابع حملها، ويبدو أن صحة أختك كانت أكثر استقرارًا حتى الشهر الثالث، ولكن الأطباء كانوا يراقبون هذه المشكلة منذ البداية».

أحسست بتنمّل أصابعي مجدّدًا. اجتهد دماغي لكي يمسح عنه الضبابية، ويبدأ في إعداد قائمة ما يلزم فعله، ولكن من دون جدوى.

«ما الذي يجدر بنا القيام به؟»، سأل شارلي.

«الأمر بسيط»، قال الطبيب. «ستحتاج إلى تناول مكمّل غذائي يحتوي على الحديد، ويجب أن تأكل المزيد من اللحوم والبيض، إذا أمكن. وعليها أن تفعل الأمر عينه مع الفيتامين ب 12، وسوف نزوّدكم بمنشور يتضمّن أفضل المواد الغذائية الغنية بهذه العناصر؛ وأتوقّع أنها تتذكرها من المرّة الماضية».

المرّة الماضية.

لقد حدث هذا الأمر سابقًا. ها إن حدوثه لم يفتني مرّة واحدة، بل مرّتين.

«قد تشعر ربّما بالغثيان، ولكن تناول عدد أكبر من الوجبات الصغيرة يوميّا سيساعدها. أريد رؤيتها في الأسبوع القادم. لأتأكّد من تحسّن

حالتها، وبعد ذلك، يجب أن تخضع لفحوص دورية تحت إشراف طبيبها حتى يحين موعد الولادة».

المشكلة لا تخرج عن السيطرة، ويمكن حلّها، ويمكن وضع قائمة بالخطوات المطلوبة.

«شكرًا»، قلت له، وصافحته، «شكرًا جزيلًا».

أجاب بابتسامة دافئة ومطمئنة: «عفوًا، أرجو أن تنتظرا الوقت الكافي لكي ترتاح، وستخبركما الممرّضة عندما يصبح بإمكانكما رؤيتها».

وما إن ذهب، حتى شعرت بالإعياء؛ كأن حملًا ثقيلًا جدًّا أنزل للتوّ عن كتفيّ بعد أن حملته لساعاتٍ طويلة.

«هل أنت بخير؟»، سألني شارلي.

عندما نظرت إلى وجهه، بدت صورته أمامي ضبابية كأن خطبًا مفاجئًا حلّ بعينيّ.

«تنفّسي يا نورا. إنها بخير»، قال وأمسك بكتفيّ وتنشّق أمامي عميقًا، فحذوت حذوه. وفعلنا ذلك مرارًا حتى شعرت ببعض الارتياح.

هززت رأسي، واستجبت له عندما شدّني إلى صدره، وغمرني بقوّة.

حاولت أن أخبره أني أشعر بالارتياح، ولكن لا مجال للكلمات ولا للمنطق، أو العقل، أو النقاش. بل اتّخذ جسدي القرار في ما سيفعله بين ذراعي شارلي: لا شيء.

أرسى فمه فوق صدغي؛ فأغلقت عينيّ، وتركت لأمواج الاسترخاء الحرية في أن تتقاذفني وتغمرني. انحسرت تلك الأمواج تدريجيًّا، وتركتني عائمة في تيّار شارلي: عطره المنكّه بمسحة من الأفاويه، حرارة جسمه، نعومة خيوط كنزته الصوفية الخفيفة.

ولاح أمام عينيّ مشهد من شقتي. أضواء الشارع الصفراء والحمراء التي تتمرّى في نقاط المطر المتهادية فوق زجاج نافذتي؛ أصوات السيارات المارّة فوق الإسفلت الموحل؛ وأزيز الهواء الحار، المنبعث من جهاز التدفئة، فوق قدميّ وجواربي. رائحة الكتب القديمة، والجديدة

منها؛ ورائحة الكولونيا بمزيج عطر خشب الأرز والعنبر الذي يحملك إلى أجواء العطلة وكتب المطالعة الصيفية. صرير ألواح الأرضيات الخشبية العتيقة تحت وقع الخطوات فوق السلالم، وغناء أحد السكارى الخارجين من حانة التيكيلا المقابلة، فيما وقف في الطابور لشراء قطعة من البيتزا الرخيصة التي تقطر زيتًا.

أكاد أصدّق أني هناك. في بيتي حيث أشعر بما يكفي من الأمان لأفكّ الأقفال المعدنية عن عمودي الفقري، وأنفلت من الإطار القاسي الذي أحيط به نفسي أمام الناس، ـــ *وأستقرّ*.

«لستَ عديم الفائدة، يا شارلي»، همست فوق نبض قلبه المنتظم. «إنكَ...».

قاطعني ويده لمّا تزل في شعري: «منظّم؟».

ابتسمت فوق صدره، وقلت: «شيءٌ من هذا».

انفتح باب غرفة ليبي، وانفتحت عيناي.

ابتسمت الممرّضة، واقتربت قائلة: «أختك بانتظارك».

الفصل الثامن والعشرون

كانت ليبي جالسة على حافة السرير وقد ارتدت من جديد فستانها الصيفي البنفسجي المنقّط، وكانت تبدو كأنها في موقع المذنبة التي تنتظر العقاب.

«سلام»، قالت بابتسامة خوف على شفتيها.

نظرت في عينَيْها، ومشيت لأجلس على حافة السرير إلى جانبها.

سألتني: «هل أنت بخير؟».

أجبت معترضة: «لست أنا من فقدت وعيها، يا ليبي، ولا التي كادت أن تقع وتكسر رأسها فوق صندوق المحاسبة الحديدي الضخم».

عضّت على شفتها السفلى، وقالت: «أتوقّع أنك غاضبة لأني لم أخبرك في السابق بحقيقة وضعي الصحّي».

«إني... مرتبكة»، أجبت.

رمقتني بنظرات سريعة، وقالت: «أنا أيضًا مرتبكة. لماذا لم تخبريني من قبل أنّه سبق وعُرضت عليك وظيفة في التحرير؟».

«كان هذا من سنوات عدّة. كانت الوظيفة بسيطة، والمعاش منخفضًا جدًّا. لم يكن سبب رفضي يتعلّق بك، بل إن أسبابًا عديدة دفعتني إلى البقاء في عملي كوكيلة».

نظرت إليّ بعينيها الزرقاوين الدامعتين، وجبينها المتغضّن، وقالت: «كان يجب أن تخبريني».

أجبتها بهدوء: «كان يجب أن أفعل؛ وكان عليك أن تخبريني عن وضعك الصحّي».

تنهّدت ليبي، ثم قالت: «لم يعلم أحد بالأمر سوى براندن. طلب مني أن

أخبرك بشأنه، ولكني فكّرت بأنك ستقلقين جدًّا، خصوصًا أن الحالة عادية، وكل شيء يعود إلى طبيعته بعد الوضع. لم أرغب في تحميلك هذا العبء».

أمسكت بيدها. «ليبي، لستِ عبئًا عليَّ. إنك الأهمّ، ولك الأولويّة»، وأضفت بمرح: «أنتِ أوّلًا، قبل وظيفتي، وقبل درّاجتي».

تنفّست بشيء من التوتّر، وسحبت يدها من يدي لتقول: «هل تعلمين يا أختي كم أشعر بالذنب لأنك قد تفعلين أي شيء من أجلي، ومن أجل تسهيل شؤون حياتي؟ وأنّك قد تتنازلين عن المهنة التي تحلمين بها لكي تقومي بدور الأم لي. وهذا بالأحرى يشعرني... بالعجز».

«كل ما أريده، هو أن أكون إلى جانبك»، قلت مبرّرة.

قالت بلطف: «لا، لا يجب أن تكون لي الأولويّة في حياتك يا نورا، ولا لعملائك أيضًا».

«حسنًا، من الآن وصاعدًا، سيكون الصبي الذي يبيعني كعك الفطور في المقدّمة، ولكنك في المرتبة التالية مباشرة».

«إني جادّة في ما أقول. كانت أمي تحمّلك الكثير»، قالت.

«ما علاقة أمي بهذا؟».

«علاقتها بكل شيء»، أجابت، وتابعت قبل أن يتسنّى لي الاعتراض. «لا أعني بقولي إني ألومها - كانت تقاسي أوضاعًا صعبة جدًّا، ونجحت مع ذلك في تربيتنا. ولكن هذا لا ينفي أنها كانت تنسى أحيانًا على من تقع مسؤولية الاهتمام بعائلتنا».

«ليبي...، ماذا تقولين؟».

«أنتِ لستِ والدي»، قالت.

«منذ متى كان هذا الأمر مطروحًا؟».

تنهّدت، وأمسكت بكلتا يديّ، وأردفت: «كانت تتعامل معك كأنك زوجها يا نورا. تعاملت معك كأنك... كأنّ مهمّتك الطبيعية أن تهتمّي بي. وأنا، أتحتُ لك ذلك بعد وفاتها. ولكنّك تتابعين القيام بذلك. وهذا حمل ثقيل على كلينا».

«هذا ليس صحيحًا»، قلت.

«بل صحيح جدّا، الآن أصبحتُ أمًّا بدوري. ودعيني أخبرك أني أحيانًا، عندما تثقل عليَّ الهموم، أبكي في الحمام، وأضع الليفة فوق فمي لكي لا تسمع الفتاتان صوت بكائي. ربّما من غير الصواب تمامًا أن أخفي كل شيء عنهما، ولكنّي لا أتصوّر أن ألقي ثقل همومي على أكتاف تالا وبيا، كما كانت تفعل أمي، وخصوصًا كما فعلَت معكِ. ظروف حياتها كانت صعبة، وكان عليها أن تكون الأم والأب بالنسبة إلينا. وإنما كانت تنسى ذلك أحيانًا، وتتعامل معكِ كأنك بالغة».

شعرت بوخز صقيعي يجتاحني. هل هو الشعور بالذنب، أو بالوجع، أو بالحنين الجامح إلى أمي، أو كل ذلك معًا؟ كأنه سكين من جليد يخترق قلبي، ويحرقني كما الجليد وحده قادر أن يفعل.

كأن أثمن الأمور -الأمر الأوحد الغالي في حياتي- قد تحوّل إلى جليد مدفون في عمق أعماقي، لدرجة أن بعضه بات ينتشر مثل خيوط العنكبوت في شراييني وأوصالي.

قلت: «أردت المساعدة وأردت الاهتمام بك».

«أعلم ذلك»، قالت ورفعت يديّ بين يديها، ووضعتهما فوق قلبها. «هذا ما تفعلينه دائمًا، وأقدّر لك ذلك. ولكني لا أريد أن تكوني أمّي، ولا بالتأكيد أبي. عندما أخبرك عن أمرٍ معيّن في حياتي، أريد منك أن تكوني أختي فحسب، وأن تكتفي بالقول ´*هذا مقرف*´، ولا تحاولي إصلاحه».

البرود بيننا، والرحلة، وقائمة النشاطات، والأسرار. رأيت في كل ذلك تحدّيات صغيرة أريد التغلّب عليها، أو ربّما امتحانًا لكي أثبت أن باستطاعتي أن أكون الأخت التي تريدها ليبي. ولكن يبدو أن شارلي كان على حقّ حين قال لي إن كل ما تريده منّي ليبي هو أن أكون أختًا. لا أكثر ولا أقلّ.

اعترفت: «هذا صعب عليَّ. ولكني أكره التفكير بأني لا أستطيع حمايتك».

«أعلم ذلك. ولكن...»، أغلقتْ عينيها. وعندما فتحَتهما من جديد، اجتهدتْ لكي تتكلّم بصوت واضح غير متهدّج، وكانت أيدينا تلتفّ حول بعضها في كتلة واحدة متماسكة بيننا. وأكملت: «لا تستطيعين. وأنا بحاجة لأن أستطيع أن أكون بخير من غير مساعدتك. عندما خسرنا أمّنا، غرقت في الحزن، ولكني لم أشعر بالخوف من عدم القدرة على الاستمرار. كنت أعلم أن بإمكانكِ توفير ذلك. إني أقدّر لك ذلك يا أختي، أكثر ممّا أستطيع التعبير عنه بالكلمات».

مازحتها: «يمكنك المحاولة. قد تقدّمين لي بطاقة شكر أو شيئًا مشابهًا».

ضحكت بكل جوارحها حتى امتلأت عيناها بالدموع. ثمّ سحبتْ إحدى يديها من بين يديّ لتمسح دمعها. «أحتاج أحيانًا لأؤكّد لنفسي بأني أستطيع إنجاز الأمور بمفردي. من غير مساعدة براندن ولا مساعدتك. ومن جهتك، فأنت بحاجة لأن تتيحي مكانًا في حياتك لأمور أخرى، ولآخرين لكي يصبحوا مهمّين بالنسبة إليك».

ابتلعتُ ريقي بصعوبة، «لا أحد في حياتي في مثل أهميتك يا ليبي».

«ولا أحد في مثل أهميّتك في حياتي سوى الصبي الذي يبيعني كعك الفطور»، قالت ممازحة.

وضعت ذراعي حول عنقها وجذبتها نحوي لكي أحتضنها وقلت: «أرجو أن تخبريني في المرّة القادمة، إن أصابك توعّك أو نقص في الفيتامينات»، وأضفت هامسةً بين خصلات شعرها الأشقر الوردي: «حتى ولو من غير المسموح أن أقول شيئًا آخر سوى، ´*هذا مقرف*´، ثم إرسال ستّ علب من المكمّلات الغذائية إلى بيتك».

«اتفقنا»، قالت، وسكتت قليلًا. ثمّ انكمشت ابتسامتها وبدا عليها الفزع. «هناك أمرٌ آخر يجب أن تعلمي به».

هذا هو. أظن أنه السرّ الذي كانت تخبّئه عنّي. قلت في نفسي.

تنشّقَت نفسًا عميقًا، وقالت: «إني أتناول اللحوم».

جفلت، وقفزت عن السرير على الفور كأنها قالت لي إنها ذبحت عجلًا رضيعًا بيديها في تلك اللحظة وشربت من دمه.

«أعلم وقع هذا عليك!»، صرخت. «بدأ ذلك عندما كنت حاملًا بتالا وبسبب مشكلة فقر الدمّ وبسبب جوعي الغريب المستمرّ للبرغر الضخمة Whoppers».

«أوه»، قلت.أوضحت ليبي: «توقّفتُ عن ذلك بعد ولادة تالا، ولكني بدأت من جديد عندما اكتشفت حملي بالطفل الثالث. ظننت أن توقّفي عن تناول اللحم خلال بضعة أسابيع لن يؤذيني. ولكني نسيت أن أعوّض عن ذلك بمغذيات تسدّ النقص. ولذلك إما أن أتناول البرغر الضخمة وإما...، سأنهار».

«لا أصدّق أنك استطعت إيهامي بأنك نباتية طيلة عقد كامل من السنين، ثمّ تعترفين بأنك كنت تستسلمين لإغراء سندويشات البرغر الضخمة!».

قالت: «لا تستخفّي بسندويشات البرغر الضخمة، إنها مدهشة!».

«حسنًا إذًا، أبديتِ مهارة عالية في الكذب».

قهقهت ليبي، وقالت: «حسنًا، إنها ليست مدهشة؛ ولكن للقلب ما يشتهيه!».

«قلبك يحتاج إلى علاج».

«هل أستطيع شراء بعضًا من ذلك في طريقنا إلى البيت؟». ونزلت عن السرير، وتابعت: «أقصد بعض السندويشات وليس العلاج».

«السندويشات؟ وبصيغة الجمع؟».

قالت: «تعرفين أنهم يبيعون برغر نباتي أيضًا. ونحن الآن في نقطة غير بعيدة عن آشفيل حيث يوجد فرع BK (برغر كينغ)».

حدّقتُ في وجهها، وقلت: «لا تكتفين بتسميته ´BK´ تحبّبًا وليس من باب السخرية، بل تقولين أيضًا إنك تعرّفت إلى مكان أقرب فرع».

«علّمتني أختي أن أكون دائمًا مستعدّة. ولذلك عاينت مكانه عندما ذهبت إلى آشفيل برفقة سالي لكي نوزّع المنشورات الدعائية للحفل الخيري الراقص».

«لا تسمّي هذا ´مستعدّة´ بل ´مشوّشة´». وعلى وقع ضحكاتها، سلّمت بالأمر قائلة: «ليكن البرغر».

***

«هل أنت متأكّدة من قدرتك على الذهاب؟»، قلت.

رمقتني ليبي شزرًا. «تستحقّين التهنئة. استطعت الاستمرار في هذا الدور طوال اثنتي عشرة ساعة كاملة».

«أنت على حقّ؛ إنك تتحمّلين مسؤولية نفسك. من يهتمّ إذا كنت قادرة على الذهاب أو لا؟ لست التي تهتمّ بالتأكيد».

ضحكت، ورفعت حقيبتها البنفسجية الضخمة. «وضعتُ هنا كيسًا من شرحات اللحم المجفّف، وكمية من اللوز، ومن زبدة الفستق السوداني. إضافةً إلى أني سأكون مع غيرتي وسالي وأمايا. من جهتك، يجب أن تنتهي من تحرير ذلك الكتاب، لكي يكون أمامك وقتٌ سانحٌ في الأسبوع المقبل للمشاركة والاستمتاع بالحفلة». أزّ هاتفها، فنظرت إلى الشاشة وقالت: «وصلت غيرتي. يبدو أن الطقس سيكون ماطرًا - تقترح أن نصطحبك الآن معنا في السيارة إلى المكتبة، ما رأيك؟»».

كان شارلي قد وافق أن يناوب عن سالي اليوم، لكي يتسنّى لها التركيز على أمور الحفلة التي ستقام في نهاية الأسبوع المقبل. وهذا يعني بالتالي أننا سنعمل على القسم النهائي من ملاحظاتنا في المكتبة. كنا قد خطّطنا لقراءة الصفحات الأخيرة مساء أمس، ولكن حادث ليبي الصحّي غيّر كل شيء. ولذلك سننتهي من قراءتها وكتابة الملاحظات حولها اليوم.

«موافقة بالطبع»، قلت.

كانت سيارة غيرتي المتوقفة عند أسفل التلة مكسوة بالغبار، وحتى أكثر ازدحامًا بالملصقات ممّا كانت عليه في تلك الليلة، حين أقلّتنا في طريق عودتنا من بيت سالي. وضعت غيرتي عيدانًا مشتعلة من البخور فوق منضدة السيارة الأمامية؛ وكدتُ أعضّ على لساني لكي أمنع نفسي من

إسداء النصح بشأن خطورة ذلك على السلامة، بصرف النظر عن الاحتمال الضئيل في أن يصلها صوتي وسط نشاز الموسيقى الصاخبة في السيارة.

حتى إن قعقعة الموسيقى أغرقت هدير الرعد القادم من بعيد فيما كنت أترجّل من السيارة أمام المكتبة. وفي السماء كانت زرافات من الغيوم السوداء تتحوّم هنا وهناك. سرعان ما شعرت بقرصة برد في الهواء بعد أن استدارت السيارة وغابت حول المنعطف.

ومن خلال زجاج النافذة والضوء المائل إلى الصفرة، رأيت شارلي يرتّب على رفّ قريب كتبًا مجلّدة بغلافات ملوّنة بالأحمر والذهبي.

بدت لي خطوط فكّيه وشفتيه عبر النافذة أقرب إلى الكمال، وشعره الداكن محاطًا بهالة لطيفة من الضوء. ارتجفت معدتي، وشعرت كأن زهرة رائعة تتفتّح بهدوء خلف ضلوعي. الآن وقد أصبحت في هذا المكان، وبهذا القرب من نهاية الكتاب، ومن التحرير، ومن هذه الرحلة، أحسّ أن جزءًا غير يسير منّي يريد الابتعاد والهروب.

لمحني، وانفرجت شفتاه بابتسامة عريضة، ومثيرة وآسرة، فإذا بخوفي يتطاير بنفخة، كأنها نفخة الهواء التي تطيّر الغبار بسهولة عن غلافات الكتب.

فتح الباب وانحنى إلى الخارج في اللحظة التي وقعت فيها قطرات واسعة من المطر على أرض الممرّ المرصوف بالحصى. «هل أنت مستعدّة للانتهاء اليوم من تحرير الكتاب، ستيفنز؟»، سأل.

«مستعدّة؟» هذا صدق، إنما أيضًا كذب. هل قد يريد أي شخص الانتهاء من العمل على كتاب ممتع؟

الجوّ في المكتب الخلفي كان دافئًا، وبعيد عن العاصفة المربدة في الخارج. وعلى سطح المكتب المخدّش المصنوع من خشب الماهوغني، كانت توجد أوراق وأشياء أخرى كثيرة، ولكنها جميعًا مرتّبة على طريقة شارلي. وإلى جانب الأريكة القديمة، يوجد الموقد والمنضدة الرخامية فوقه حيث تُعرض مجموعة من الصور العائلية في ثلاثة صفوف مرتّبة

كانت تبدو وكأنه جرى نزع الغبار عنها وتلميعها للتوّ. وما زالت آثار مرور المكنسة الكهربائية ظاهرة على قطع السجّاد العتيق. أما جهاز التبريد الضخم المثبت فوق النافذة فكان يربض صامتًا، بعد أن جرى توقيفه بسبب برودة الهواء المفاجئة في ما قد يبدو فصلًا خريفيًا وهميًّا.

أزال شارلي كدسة من الكتب المجلّدة عن الأريكة، ثم سار ليجلس على الكرسي وراء المكتب. كان التعبير على وجهه يشي برغبته في المشاكسة. «هل ترين؟، وجودي في هذا الكرسي يضمن حسن سلوكي».

غير أن كل ما يتعلّق به لا يوحي لي بأي ضمان؛ بل يبدو لي مثل السكين السويسري المعروف. إنه الرجل المجهّز بستة أنصال حاضرة لتجرّدني من قدرتي على السيطرة على نفسي.

هذا شارلي الذي يجعلني أبوح بكل أسراري.

وهذا شارلي الذي يجعلني أضحك.

وهذا الذي يثير شهوتي.

وهذا الذي يقنعني بأني قادرة على القيام بأي أمر.

وهذا هو شارلي الذي يحتضنني في المشفى ويجعلني أشعر كأني وسط قلعة بشرية صامدة تحميني من أي سوء.

وهذا أيضًا شارلي القادر على هدمي وتحويلي إلى كومة من الركام.

«كيف حال ليبي؟»، سألني.

«حسنًا، باتت الآن تحمل حقيبة ملأى بقطع اللحم المجفّف».

«أتوقّع أن ما تقولينه يعني أنه بات لديها حقيبة متنوّعة[1] الآن»، قال شارلي.

انتفض رأسي إلى الوراء وخرجت مني ضحكة عالية: «ما حكاية هذه البلدة وعادة اللعب على الألفاظ هنا؟».

---

(1) Mixed Bag: حقيبة متنوّعة (المقصود بالعبارة وجود مجموعة متنوّعة من الأشخاص أو الأمور معًا، والتي قد لا تكون منسجمة بينها).

«لا أفهم تمامًا ماذا تقصدين؟»، أجاب باقتضاب.

«أريدك أن تسوي رهان بين ليبي وبيني». قلت له فيما كنت أنحني قليلًا فوق حاسوبي والشاشة ما زالت نصف مغلقة.

قال: «هذا ليس عدلًا بالنسبة إلى ليبي، لأني لا أستطيع سوى أن أكون منحازًا لصالح سمكة القرش».

امتلأ قلبي دفئًا ولكني تابعت بلا تراجع، كسمكة قرش حقيقية عنيدة. «هذا بشأن منتجع الاسترخاء في هذه البلدة الذي يدعى *Spaaaahhh*. هل المقصود أن تلفظ الكلمة كأنها تنهيدة، أو صرخة؟».

مرّ شارلي بيده على عينيه فيما انطلق ضاحكًا، وأجاب: «لا أرغب في التعتيم على الأمور أكثر بالنسبة إليك، ولكن في الماضي، عندما كنت أعيش هنا، كان يدعى G Spa[1]، لذلك أتوقّع أن تلفظ الكلمة بالنغمة التي ترافق قمّة النشوة بحسب رأيك».

«أعتقد أن هذه الإجابة من صنع خيالك»، قلت.

«مخيّلتي جيّدة، ولكن ليس إلى هذا الحدّ».

قلت بتعجب: «ما الذي يجري في تلك الغرف الغامضة؟ وهل تجيز القوانين ذلك؟».

قال شارلي: «صدقًا، أعتقد أن ما حدث كان مجرّد خطأ غير مقصود». اسم المالكة غلاديس غلادبوري Gladys Gladbury، ولهذا أرادت أن يبدأ اسم المكان بأول حرف من اسمها، وليس أكثر. كان ذلك، بحسب اعتقادي، كل ما توخّته من الاسم، ولكنها انتهت بمركز G Spa.

فرك وجهه بحركة خفيفة. وقال: «دماغك المخيف يجذبني، ستيفنز».

شعرت ببداية الغليان في عروقي عندما توقّفت عيناه لتغوصا في عينيّ. ولكنه استدرك قائلًا: «أظن أنّ علينا القراءة».

---

(1) Gay Spa: مراكز استرخاء ترحّب بالمثليين الجنسيين وبالساعين إلى اللذة الجنسية.

«نعم، علينا أن نقرأ»، قلت.

حوّل نظره عنّي، وبدأ بتحريك فأرة حاسوبه. «أخبريني عندما تنتهين».

بدوري حوّلت انتباهي، ليس من غير صعوبة، إلى فريدجد. ولكني ما لبثت أن غرقت بين سطور دَستي، من رأسي إلى أخمص قدميّ.

نادين مع أخصائية العلاج الفيزيائي المرحة التي تُدعى لولا، حملتا جوزفين بأقصى سرعة إلى المستشفى. ولكن اثنتين وعشرين ساعة مرّت، والتورّم في دماغ جو ما زال على حاله. وكان على نادين عدم التأخّر في العودة إلى بيتها من أجل إطعام الهرّ البري الذي كانت تحاول إيواءه. غير أن العاصفة الماطرة كانت تنشط وتقترب من أوجها.

وهنا، في مكتبة غودي بوكس، تكاد الجدران تهتزّ بسبب العاصفة الحقيقية العاتية أيضًا.

نادت نادين الهرّ عندما دخلت إلى شقّتها المعتمة. ولكن المواء الذي لا يتوقّف عادةً لم يكن مسموعًا. ثمّ تلاحظ نادين أن نافذة المطبخ التي كانت قد تركتها مفتوحة قليلًا، أصبحت مشرعة.

ركضت إلى الخارج تحت المطر وتمنّت لو أنها أطلقت على ذلك الهرّ اسمًا، لأن مناداته وسط الريح: *يا أيّها القبيح، عد إلى البيت*، لا تنفع. وأخيرًا، لاحظت وجود ذلك الهرّ المخطّط الشعر والجربان عالقًا بالغطاء الحديدي فوق مصرف مياه الأمطار.

ركضت نادين عبر الشارع، وسمعت صرير المكابح فوق الإسفلت المبلول، لترى السيارة تقتحم المكان باتجاهها.

ثمّ صرخَت حتى فرغت رئتاها من الهواء.

انغلقت عيناها، وتصاعدت حدّة الألم في قفصها الصدري. وعندما فتحت عينيها كانت ممدّدة إلى جانب الطريق، وصديقتها لولا تنحني فوقها. وما إن التقطت أنفاسها حتى لاحظت خروج الهرّ متعسّرًا من مصرف المياه. نظر إليها بخوف وقفز راكضًا ومبتعدًا.

«اللعنة!»، صرخت لولا، وتحرّكت لتركض وراءه. غير أن نادين أمسكت بذراعها، وأثنتها عن المتابعة: «دعيه يذهب. لا يمكنني مساعدته».

ثمّ جاء اتصال من المستشفى.

شعرت بوجع في صدري مع بلوغي الصفحة الأولى من الفصل الأخير. تنشّقت نفسًا عميقًا استعدادًا لمتابعة القراءة.

وقفت نادين ولولا معًا وسط النهار المشمس أمام القبر. لم يحضر أحد سوى الكاهن. لم يكن لدى جوزفين أصدقاء باستثنائهما، بعد أن تعرّفت إليهما منذ بضعة أشهر. مدّت لولا يدها لتمسك بيد نادين، وفوجئت بأن الأخيرة وافقت وأعطتها يدها.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، وجدت نادين أمام بابها باقة من الأزهار، وبطاقة من مساعدتها السابقة تقول: *تعازيّ الحارّة*. حملت نادين الباقة إلى الداخل وأحضرت مزهرية. وكانت أشعة الشمس تخترق نافذة المطبخ المفتوحة، وتنصبّ على المياه المنهمرة من الحنفية فتتلألأ.

وإذا بها فجأة تسمع من الغرفة المجاورة مواء هرّ برّي، فيُسَرّ قلبها.

انتهت القصة. وفسحة البياض المنبسطة بعد السطر الأخير تعطي مهلة لالتقاط الأنفاس والتفكير.

أطلت النظر إلى البياض وشعرت بفراغ داخلي.

هذا ما يصادفني عادةً في كتبي المفضّلة: نادرًا ما أجد النهاية التي أريدها. هناك دائمًا ثمن يترتب دفعه.

لطالما أحبّت أمّي وأختي قصص الحبّ حيث النهايات تكون سعيدة وسهلة المنال. أما أنا فأتساءل لماذا أميل إلى غير ذلك.

كنت أفكّر أن السبب يعود إلى أن الأشخاص مثلي لا يعرفون مثل *تلك* النهايات السعيدة في واقعهم. وأن نطلبها، أو نتمنّى وجودها من دون نيلها، قد يشبه خسارة أمرٍ لم يكن في حوزتنا قطّ.

القصص التي تحاكيني هي تلك التي أجد في سطورها الأخيرة اعترافًا

بأن ليس هناك طريق للعودة؛ وأن لكل أمر جيّد نهايته، ولكلّ أمرٍ سيّئ نهايته أيضًا. *كلّ الأمور تلاقي نهاية.*

هذا ما أبحث عنه كلّما قلّبت صفحات كتاب من أجل قراءة الصفحة الأخيرة. أبحث بحرارة عن دليل يقول بأن في الحياة أمور كثيرة تسير باتجاه غير مستحبّ، لكن لا بدّ أيضًا من وجود الجمال. دليل يؤكّد أن هناك دائمًا نافذة أمل.

بعد خسارة أمي، بتّ أجد في هذه النهايات ملاذًا. تلك النهايات التي تقول: نعم، *لقد خسرتِ أمورًا، ولكنك ستربحين ذات يوم أمورًا أخرى.*

منذ عقد من الأعوام، عرفت أنه لن يتسنّى لي ثانية أن أحظى بكل شيء. وكل ما أردته بالتالي، كان أن أصدّق بأنه ذات يوم جديد، سأحظى بما سيكون كافيًا. لن يبقى الألم مبرّحًا. أمثالي من الناس لا يُكسَرون من غير أمل بالترميم. لا وجود لجليد يتجمّد إلى درجة تمنع ذوبانه، ولا لشوك ينمو كثيرًا إلى درجة تمنع قطعه.

أرهقني هذا الكتاب بثقله، وأبهرتني نقاطه القليلة المضيئة. قد لا تقرأ كل الكتب كأنك تعيش بين سطورها. بعد انتهائي من قراءة بعض هذه الكتب، أشعر أني أصعد من رحلة غوص تدريجيًّا إلى سطح الماء. ويكون الصعود هويدًا - لأني لو فعلت ذلك بسرعة، فقد أتألّم جرّاء التفاوت في مستوى الضغط الجوي.

تمهّلت في صعودي، كأني كنت أنتظر من كل قصف رعدٍ أن يقرّبني أكثر من السطح. وعندما نظرت أخيرًا إلى اليابسة، وجدت شارلي يراقبني:

«هل انتهيتِ؟»، سألني بلطف.

أومأت برأسي إيجابًا.

وأخيرًا، قال بهدوء: «جيّد».

«جيّد»، كرّرت. وتنحنحت محاولةً التفكير بأسلوب نقدي، فيما كل ما كنت أريده هو الاستمتاع في تلك اللحظة. لحظة *الاستقرار.* ولكني سألته:

«هل يعود الهرّ بالفعل؟».

أجاب شارلي بلا تردّد: «نعم».

«الهرّ ليس لها»، قلت. إنها اللازمة التي ردّدتها نادين عبر الصفحات. ولهذا السبب لم تطلق على ذلك الهرّ اسمًا.

«إنها تفهمه»، قال. «كل من ينظر إلى ذلك الهرّ يجد فيه مجرّد كائن شاذّ. إنه لا يعلم كيف يتحوّل إلى هرّ أليف، ولكنها لا تأبه. ولذلك تقول إنه ليس لها. لا يتوقّف الأمر على ما يستطيع الهرّ أن يقدّمه لها. فهو لا يستطيع أن يقدّم لها أيّ شيء».

بدت السماء مكفهرّة عبر زجاج النافذة، وتخال المطر كلّما اخترقه البرق شلالًا هابطًا من السماء. وتابع شارلي: «إنه برّي ولئيم وجائع، وعديم الذكاء الاجتماعي، ولكنّه هرّها. لأنه لم يكن يومًا لغيرها».

انتابني إحساس مؤلم. هذا ما يوحي لي به شارلي أحيانًا. كأنه جملة مفاجئة في عرض النص. كأنه سطر بمعانٍ جارحة لدرجة أنك تضع الكتاب جانبًا لتلتقط أنفاسك.

حرّك شفتيه ليقول شيئًا، لكن دويّ الرعد عاد صاعقًا، فارتجّ بنا المكان وانقطع التيار الكهربائي.

تلمّس شارلي طريقه في الظلام وخرج من وراء مكتبه، وسأل: «هل أنت بخير؟».

بحثت عن يده وأمسكت بها، وأجبت بتمتمة متردّدة.

«يجب أن أقفل الباب الخارجي، ريثما يعود التيار الكهربائي إلى العمل».

أحسست بشيء في صوته دفعني إلى القول: «سأذهب معك».

مشينا بتؤدة إلى خارج المكتب. والظلمة تضاعف برودة الأماكن الخاوية. أحسست بقشعريرة على ذراعيّ فيما انتظرت شارلي ريثما يقفل الباب الخارجي، ويغيّر الإشارة من ´مفتوح´ إلى ´مغلق´. «توجد مصابيح يدوية في المكتب»، قال لي في ما بعد. تلمّسنا الطريق نحو المكتب من جديد. وترك يدي ليفتش في الأدراج. «هل تشعرين بالبرد؟»، سأل.

«قليلًا»، أجبت، وكانت أسناني تصطك ببعضها. ولم أكن متأكّدة من السبب.

أعطاني مصباحًا يدويًّا، وأشعل الضوء المعَدّ للحالات الطارئة بيده الأخرى، وحمله إلى الموقد. لاحظت ما يشبه التشنّج في وجهه وكتفيه، فيما كان يكوّم الحطب في بيت النار، بالطريقة ذاتها كما علّم ليبي وعلّمني في الكوخ في تلك الليلة: كومة من الحطب، وفي الثقوب بينها توضع قصاصات من أوراق الجرائد.

«يبدو لي أنك لا تحبّ العتمة قطّ»، قلت، فيما ركعت على السجادة إلى جانبه.

«ليس العتمة تحديدًا». وفي غضون دقيقة، بدأت عيدان الحطب الصغيرة بالاشتعال، وأذرع الحرارة والنور بدأت تلامسنا. وتابع شارلي: «هذا المكان شديد الهدوء، وفي الظلام...، يجعلني أشعر بنوع من الوحدة...».

كنت على مسافة قريبة جدًّا منه، فتأمّلت في تفاصيل وجهه، وفي الدائرة الداكنة وسط القزحية الذهبية في عينيه. وفي التغضّن تحت شفته السفلى، وفي استدارة كل رمشٍ في جفنيه.

وقفت، ومشيت باتّجاه المكتب، وقلت: «لديّ كلام أريد قوله».

وعندما استدرت، وجدته واقفًا أيضًا، وقد زمّ حاجبيه ووضع يديه في جيبَيّ بنطاله.

قلت: «إنك لا تريد المواعدة في هذه الفترة لسبب معيّن، لا بأس. هذا أمر عادي بالنسبة لجميع الناس. ولكن، إذا كان السبب مختلفًا - إن كنت تخاف أن تكون غير مرِن، أو أي صفة أخرى ربّما نعتتك بها صديقاتك القديمات، فهذا ليس صحيحًا. ربّما يكون العيش معك متشابهًا يومًا بعد يوم، ولكن أين المشكلة؟ بل أجد ذلك بالأحرى أمرًا عظيمًا».

«ربّما أسأت فهم ما يجري؛ ولكني لا أعتقد، لأني لم أقابل في حياتي أحدًا يشبهني إلى هذا الحدّ مثلك أنت. وإذا كان السبب في ذلك، أنّك تظن أني أرغب في كلب من نوع غولدن ريتريفر، عوضًا عن هرّ برّي صغير، فإنك مخطئ».

«الجميع يرغبون في غولدن ريتريفر»، قال بصوت منخفض. وعلى الرغم من البساطة الظاهرة في هذه الجملة، كان يتكلّم بنبرة جدّية وقلقة.

فقلت: «أنا لا أرغب في مثله».

وضع شارلي يديه على حافة المكتب وحولي من الجهتين، وذابت نظراته من جديد في مزيج ألوان العسل والكاراميل وشراب القيقب.

«نورا»، تعثّر قلبي إزاء صوته المتهدّج والمتردّد: صوت رجل يريد أن يخذل شخصًا بتهذيب.

«لا تأبه». قلت، وأردتُ أن أحوّل نظري عنه ولكني لم أستطع الابتعاد بعينيّ عنه كلّيًا؛ خصوصًا وهو على هذه المسافة القريبة جدًّا مني، ويداه تكادان تلامسان جسمي من الجهتين. وأضفت: «أتفهّمك. ولكن كل ما أردته هو أن أقول شيئًا، في حال أن ــ»

قاطعني: «لن أتمكّن من العودة إلى نيويورك». قفزت عيناي مجدّدًا إلى عينيه. وكل تعبير حادّ على وجهه اكتسب معنى جديدًا. «لأنه لا يمكنني...»

«لا يمكنك!»، هززت رأسي. «إلى متى؟».

ابتلع ريقه بصعوبة وظهرت جوزة حلقه. «كان من المنتظر أن تعود أختي في شهر ديسمبر لكي تتسلّم إدارة المكتبة. ولكنها تعرّفت إلى شابّ في إيطاليا وقرّرت البقاء هناك».

وإذا بقلبي الذي كنت أشعر كأنه طائر همينغبيرد (Hummingbird) يرفرف أجنحته بسرعة إضافية تحت تأثير جرعة من الكافيين، ويتحوّل إلى سندان حدّاد ليتحمّل الضربة تلوَ الضربة بألم وصراخ مكتوم.

تابع: «بعثت برسالة إلكترونية إلى ليبي بشأن الشقة. إنها لها إن أرادت. هذا ما كان سيحدث في جميع الأحوال».

شعرت بوخز في عينيّ، وأحسست كأن قلبي مثل دليل الهاتف الذي تبعثرت أوراقه، وكنت أحاول جمعها في ترتيب مفهوم، قد يحمل الحلّ لكل تلك الأمور.

قال شارلي: «في ذلك المساء، عندما التقيت بك مصادفةً في المطعم، كنت قد علمت للتو أن كارينا ستبقى لوقت أطول من المتوقّع. لم أكن على يقين إلى متى. ولكنها... تزوّجت من صديقها في السرّ. ولن تعود لتعيش هنا».

وصلت إلى أذنيّ كلماته كأنها من مكان بعيد.

«حاولت أن أجد مخرجًا، ولكنني لم أنجح. كان أبي ممسكًا بكل الأمور. أما الآن، فبيته قديم ويحتاج لأعمال صيانة باستمرار. إني الآن أفكّر في كيفية إصلاح الأعطال، لأنه يرفض الاستعانة بأيّ كان. أما المكتبة ففي أسوأ حالاتها - تحاول أمي أن تفعل شيئًا ولكنها لا تستطيع».

«بحسب المؤشرات الحاضرة، سنضطر إلى إقفال المكتبة في غضون ستة أشهر لا أكثر. لا بدّ من وجود أحدنا هنا يوميًّا. وأمي لم تنجح في هذا من قبل، حتى قبل أن يكون عليها الاهتمام بأبي ومرافقته في كل الأمور. إنه صعب المراس بشأن الاستعانة بالآخرين. حتى لو كان باستطاعتنا توظيف ممرّضة، فهو لا يوافق. وحتى لو كان بإمكاننا توظيف مدير للمكتبة، فإن أمي لا تسمح بذلك بحجّة أن المكتبة هي إرث عائلي، وسيحزنها جدًّا أن يتسلّم مسؤولية إدارتها شخص غريب».

كان شارلي يتكلّم فيما تهتز عضلات فكّه، وتتراقص الظلال على بشرته. تابع: «على الرغم من بعض الأمور غير المرضية، فإني لا أنسى الكثير الذي قدّمه والداي لكي أتمكّن من الذهاب الى الجامعة التي اخترتها، ولكي أمتهن العمل الذي أردته، والذي لن أتمكّن من المحافظة عليه الآن. دار النشر لوجيا تريد موظّفًا يقيم في نيويورك، وعائلتي تحتاجني هنا. عائلتي تحتاج لمن هو *أفضل* مني، ولكن ليس لديهم سواي. سأستقيل من وظيفتي بعد الانتهاء من فريدجد. إنها الوظيفة الشاغرة التي اقترحت أن تكون لكِ».

وظيفته، وشقته. كأنه يتنازل عن الحياة التي عمل جاهدًا لتأمينها لنفسه. يتنازل عن العيش في المدينة حيث يشعر بالانتماء. وحيث يتلاقى مع نفسه. وحيث لا يشعر بأنه في غير مكانه، أو عديم الفائدة.

«ولكن، ماذا بشأن ما تريده أنت؟»، سألته. نظر إليّ كأنه يقول بأني من

يستطيع إعطاءه ما يريد. ومن جهتي، أريد ذلك من كل قلبي. «من يهتمّ لسعادتك أنت، شارلي؟ ماذا عن قلبك؟».

حاول الابتسام، ولكنه لا يُحسن الكذب. «هل يمتلك من كان مثلنا هذه الأمور؟».

لمست وجهه، وجعلته ينظر في عينيّ. مرّت لحظة طويلة قبل أن أبتلع كتلة العواطف الصعبة التي كانت ترتفع من جوفي؛ وقبل أن أزيح هجمة الأفكار الحادّة جانبًا من أجل القبول بالواقع الجديد. كنت أحاول تصميم قائمة أو خطّة، أو حبكة قادرة لأن تحملنا من النقطة (أ) إلى النقطة (ب). ولكننا أمام قدَرٍ وحيد لا رجوع فيه، كأنه ضرب الرصاص، والسقوط في الهاوية.

سألت: «هل تكون لي هذه الليلة شارلي؟ حتى ولو أن علاقتنا لن تستمر. حتى ولو أننا نعرف النهاية؟».

وضع يده حول وجهي بحنان، كأنه يخاف عليّ من الكسر. أو ربّما يخاف على نفسه من ذلك المصير. كأنما يكفي أن نقوم بخطأ واحد حتى يتسبّب أحدنا في تحطيم الآخر. كان صدري يعتصر بمشاعر الترقّب الموجعة كالتي ترافق قراءة الفصل الأخير. الآن فحسب، ألمس جيّدًا ذلك الشعور. كنت أعيشه ولو أني لم أتمكّن من حمل نفسي على التفكير به. «إني لكِ يا نورا، لم أستطع ألّا أكون كذلك يومًا».

لأوّل مرّة في حياتي، فهمت ما كانت تقصده مديرتي كاثي بقولها إني هيثكليف *Heathcliff*. ليس فحسب لأننا، شارلي وأنا، متشابهان إلى حدّ كبير، بل لأنه أصاب حين قال لي: إننا خُلقنا لنكون معًا؛ (من الطينة نفسها). أؤمن لسبب أجهله أنه لي، وأني له. لا فرق عندي حول ما ستقوله الصفحات الأخيرة. هذه هي الحقيقة الآن وهنا.

لمست شفتاه شفتي بخفّة وعناية ودفء. استجبت له، مع معرفتي بما سأعانيه عندما أقلب هذه الصفحة التي أرفض تمامًا عدم قلبها البتّة.

الفصل التاسع والعشرون

اخترقت أصابعه شعري، وتلمّس لسانه الطريق بين شفتيّ. خرجت تنهيدة منيّ، فساعدني لأرتاح على سطح المكتب. سابقًا، كانت العلاقة بيننا تحدث باندفاع وبلا تفكّر، أما الآن فهو أكثر مداراة وحنانًا لدرجة أوجعتني.

لمست أصابعه رباط فستاني فوق إحدى كتفيّ، ففكّ العقدة وأرخاها، قبل أن ينتقل إلى الجهة الثانية. أما يداي فانسلّتا تحت قميصه تتحسّسان نعومة ودفء جلده إلى أن أيقظتا فيه القشعريرة.

طعم ريقه كطعم القهوة المنكّهة برائحة السنديان؛ كان لسانه ينزلق فوق شفتي السفلى، ويده تنحدر نزولًا فوق جسمي.

شددتُه إليّ، وقرّبني إلى حافّة المنضدة. كان فمه قد أصبح أكثر إلحاحًا الآن، وأسنانه تنغرس قليلًا في شفتي، وتتراجع مع كل حركة اقتراب وابتعادٍ؛ وفي كل مرّة نسمح بفسحةٍ لالتقاط النفس تصبح القبلة التالية أكثر إلحاحًا.

سارت يده صعودًا إلى صدري، وداعبه بإبهامه، فاعترتني ارتجافة لذيذة. كان قلبه يدقّ ويستجيب له قلبي بالوتيرة عينها، كأنّ قلبَينا جهازان يعملان بالتزامن والتناغم.

أضاء البرق السماء، وسمعنا هدير رعدٍ بعيد؛ فخبتت النار قليلًا ثم اشرأبّت ألسنتها من جديد، وكان شارلي يمسح بقبلاته شيئًا فشيئًا أوجاع الأسابيع الثلاثة الأخيرة. مرّت شفتاه فوق خدّي وعنقي، وتحرّكت يداه مجدّدًا لمتابعة فكّ رباط الفستان فوق كتفي من الجهة الأخرى. انحدر الفستان، وتسابقت ضربات قلبي تحت أنفاسه الساخنة فيما كان يدبّ بشفتيه نزولًا فوق صدري.

خرج اسمه من فمي، وعادت شفتانا للالتصاق من جديد بحرارة وعمق وتأكيد أشدّ. أمسكَتْ يده بطرف ثوبي فأزاحه ليكشف عن باطن ساقي. وسّع بين ركبتيّ وسبحت كفّه صعودًا حتى وصلت إلى شريط الدانتيل المطاط فوق ردفي. وفعلت كفّه الثانية ما فعلته الأولى، ورفعت نفسي قليلًا كي يتمكّن من الإمساك بالقماش بين يديه، وإخراجه من حول ساقيّ.

توقّفت عيناه لتنظر في عينيّ، وشدّ قبضتيه حول ردفيّ. تحرّك حوضي تحت إصرار مداعباته، فخرجت من حلقه هدرةٌ، وصعدت يده إلى بطني لتساعدني في الاستلقاء بارتياح فوق سطح المكتب.

فكّرت أن أقترح عليه تغيير المكان. وفكّرت أن أسأله إن كان ما نفعله غير لائق. ولكن قدرتي على التفكير ما لبثت أن توقّفت، كأنّ لسانه وجد فوق جسمي مكان القابس الذي يستطيع تعطيل عمل دماغي كلّيًا.

«نورا»، قال بحشرجة، وإذا بصوت هامسٍ بالامتنان يخرج منّي. «ليتنا لم ننتظر. كان يجب أن نفعل هذا منذ تقابلنا».

كانت يداي تعبثان في شعره، ويداه تحتي ترفعانني، وتقرّبانني لأكون في متناول فمه.

كان شارلي يتصرّف معي بتأنٍّ وجوع وإرادة هادفة. للمرّة الأولى، لم يكن ما يحدث بيننا مصادفة.

ازداد الضغط حتى بتّ أرتجف تحته، ويداي تلتفّان حول شعره فيما كنت أعلو بظهري وأتأوّه. استقام، وشدّني إلى حافّة المكتب، وبقيت شفاهنا تتحرك معًا، ويدا واحدنا في ثياب الآخر. نزعت عنه قميصه، وفتحت زرّ بنطاله. أزال عني فستاني، ثم حملني إلى الأريكة.

قال بنبرة عاطفية: «إنها... الصدرية التي كنت ترتدينها في تلك الليلة عندما سبحنا تحت الشلال».

تلمّست بأصابعي أسفل ظهره، وتحسّست كل انحناءة وخطّ وعضل؛ إنها فرصتي الأولى لأكتنز كل ما أستطيع منه، وربّما فرصتي الأخيرة.

قبّل أسفل عنقي، وقال: «أتذكّر تمامًا كيف كان ملمسك يا نورا، كأنه ملمس الحرير».

لثمت جانب عنقه بنعومة، وخفتت ضربات نبضه تحت لساني. انحدرت يداي إلى أسفل ظهره، وانغرست أظافري في جلده فيما التصقت به. أحسست بانبلاج ضوء ساطع في داخلي، حوّل كل شيء آخر طيلة لحظات إلى نقاط مضيئة وسط الظلام. وهمست: «أتذكّر كيف كان ملمسك أيضًا». مكتبة سُر مَن قرأ

تأوّه عندما تحرّك في قبضتي. فتابع الاقتراب ببطء وبقوّة منّي، أكثر فأكثر. بات جسدي في متناوله مهما تحرّكت.

«ماذا عن منع الحمل؟»، سأل.

«ضروري، ولكن ــ».

«لديّ...»، قال. لديه بالطبع. إنه يشبهني تمامًا: حتى عندما يكون كلانا مهووسًا بالآخر وفي وضع قد يخرج عن السيطرة، يبقى هناك دائمًا عدد من الخيوط السليمة التي تشدّ الأمور لكي تبقى تحت مجهر العقل. قام شارلي عنّي، ووجد محفظته، وعاد بواقٍ ذكوري. لا حاجة لسؤال إضافي، ولا لنفخٍ، أو لتأفّف؛ ولا لتوجّس ضمني، *أو* لشكوى، *أو لضيق أو* ضجر. احتضن وجهي بيده وقبّلني بحنان شعرت به في كل حنايا جسدي. كل الحرارة التي كانت مختبئة في زوايا عظامي، وفي حنايا العضل والغضروف، أخرجها شارلي لتنتشر بتمام زخمها في دمي. وأخيرًا... الولوج.

وببطء وعناية، انسحب شارلي إلى الوراء قبل أن أصل إلى قمّة نشوتي، فخرجت مني أنّة جعلت شارلي يطلق ضحكة مدويّة. «لم يخطر أبدًا في بالي أنكِ تشتهينني بقدر ما أشتهيك».

«وأكثر»، قلت. لم تسمح لي تلك اللحظة الحميمة بالتفكير مرّتين بما قد يترتّب على اعترافي بهذا.

عاد رأسه إلى الوراء، وخرجت من حنجرته آهةً فيما كنّا نتحرّك معًا. أصبح كل ما حولنا ليّنًا ومعتمًا، وينحصر في نقاط تلاصق جسدينا. كانت

يداه تدلّكني، وأظافري تدبّ حول محيط جسمه لكي تشدّه إلى التصاق حتى أعظم ممّا يسمح به جسدانا.

كنت في الأصل حزينة إزاء النهاية المتوقعة لعلاقتنا. لو كان باستطاعتي أن أجعل هذا الإحساس يستمرّ لأيام، لفعلت. لو كانت نهاية العالم ستحدث في غضون عشرين دقيقة، لاخترت الرحيل بهذه الطريقة. ثمّ اقتحمني بشدّة وإلى أعمق.

«*اللعنة، شارلي؟*».

«هل كنت قاسيًا؟»، سأل بعد أن تراجع قليلًا.

هززت رأسي نفيًا. وفهم أنّه لم يعد بيننا حذر ولا قيود.

قال: «كنت أفكّر فيكِ في كل مكان. في كل زوايا هذه البلدة فعلنا ما نفعله الآن».

ضحكت، حتى في ذلك الوضع حيث كنت ملتفّة حوله بنهم. سألته: «وكيف كان ذلك؟».

«يبدو أن مخيّلتي لم تكن جيّدة بقدر ما ظننت».

شعرت بشرارات مضيئة في دماغي كأنها أسهم نارية في سماء الليل. غيّر شارلي وضعيّته، وجلس وشدّني إلى حضنهوازددنا التصاقًا وتداخلًا. ومع كل انحناءة وحركة منّي، كان شارلي لا يخفي نشوته، فيما انغرست إحدى يديه في شعري:.

«أنتِ كل ما أطلبه في المرأة، يا نورا. إنك ممتازة»، قال بصوت مبحوح.

أوه، يا إلهي، أوه، يا إلهي، شارلي، كنت أردّد في رأسي. «*أرجوك*»، قلت.

ثمّ انقطع الكلام. لم أكن في حياتي سعيدة لهذا الحدّ بمن يراني من الداخل، ويقرأني كمن يقرأ في كتاب. كان يحملني إلى سفوح الذروة، ثم يعود بي ليحملني إليها من جديد، ومن جديد، - نعم، آلهة الحبّ ستفخر بنا من جديد.

الفصل الثلاثون

عندما هممت بالوقوف، أمسك شارلي بذراعي، وكانت عيناه ناعستين ودافئتين. «امكثي حيث أنتِ»، همس.

رفّ قلبي. وقلت: «لماذا؟».

أرجعَ خصلة من شعري إلى وراء أذني، وأجاب بشفتين مرتعشتين: «لأسباب عديدة».

«أحتاج إلى سبب واحد»، قلت.

أجلسَ ظهره، وقال فيما كان يضغط فمه بحنان فوق كتفي: «سبب واحد».

«في هذه الحال، ربّما سأطلب سببين»، قلت.

انحنى وقبّلني بحرارة، فيما يده على عنقي وإبهامه يرتاح بلطف عند أسفله. «لأني أريدك أن تفعلي»، قال.

«لا أنام في بيوت الرجال الغرباء»، قلت، وأحسست كأن دمي يئزّ في عروقي.

«لحسن الحظّ إذاً أن هذا المكان ليس لي»، أجاب.

«نعم، لأنه لو كان كذلك، لظنّ أهلك أنك تعرّضت للسرقة، ولحملوا بندقية صيد وركضوا إلى نجدتك»، قلت.

«ولكُنّا قد ركبنا السيارة المعدّة للهروب، واختفينا عن الأنظار»، قال.

ضحكتُ. وابتسم.

«امكثي هنا، نورا، لا تذهبي».

شعرت بتفتح تلك الزهرة في أعماقي من جديد، لتكشف عن الجزء

الطري المختبئ في وسطها؛ ثمّ بخنجر رعبٍ يخترقني، وبوخزة في قلبي غير المحمي.

«لا يمكنني»، همست.

ظهر الإحساس بالخيبة على وجهه للحظة، ثمّ رأيته يتلاشى بينما كان يتقبّل رفضي. شعرت إذ ذاك كأن بعض تلك الجروح في قلبي التي كنت قد خطتها بعناية منذ زمن تنفتح من جديد. استقام في جلوسه، مفتّشًا عن ثيابه المبعثرة، ولمست ذراعه لكي يهدأ. شارلي، أكثر من أي شخص آخر عرفته، يعشق الصدق ولا يقاضي الآخرين الحريصين على التعامل به. إنه يعتبر الصدق أمرًا ثابتًا، وهو حاضر دائمًا لقبوله واستيعابه، ومن جهتي، لا أرغب في أن أتعامل معه كغيري، بغير الحقيقة.

«كنت في بيت صديقي»، قلت. وكان يؤلمني في الواقع أن أتحدّث بهذا الأمر الذي كانت ليبي على معرفة به دون سائر الناس. وكنت قد عاهدت نفسي ألّا أتطرّق إليه أمام أيّ كان، لأني أرفض أن أتحمّل نظرات الشفقة وأن أبدو ضعيفة.

أثبت شارلي عينيه في عينيّ.

تابعت: «إنه جايكوب. كنت معه في تلك الليلة عندما ماتت أمي».

أرخى شارلي حاجبيه، وبدا شديد الإصغاء.

لم أكن قد زنت الحسنات في مقابل السيئات التي تكتنف القرار بالتحدّث عن هذا الأمر إلى شارلي. لكني شعرت برغبة ملحة إلى إخراجه من جوفي. أردت أن أضع بين يديه هذا الأمر الذي لم أتمكّن بعد من معالجته، لأرى ماذا سيحدث.

قلت: «كان الصديق الأول الجدّي في حياتي. ربّما كان الوحيد. كنت قد تواعدت مع رجال غيره من قبل، ولكنه كان الوحيد الذي *اخترته* بهذه الطريقة». فضّلته على كل مَنْ عداه. ربّما لم أختره في الحقيقة، بل وقعت على رأسي وسط لجّة مشاعري نحوه، ومن دون حذر ولا حساب.

«كنت في العشرين، وأقضي معظم أوقاتي معه، ولذلك بدا لنا أنه من

الأفضل أن أنتقل للعيش في بيته. وأمي التي كانت رومنسية جدًّا، لم تحاول ثنيي عن ذلك. كانت ترغب في أن أتزوّج به. وهذا ما أردتُه أنا أيضًا».

لم ينبس شارلي ببنت شفة. كان يصغي إليّ ويراقبني، تاركًا لي حرية اختيار المتابعة أو التوقّف.

«انطفأ هاتفي في الليل»، قلت بصوت متقطع، كأن حنجرتي كانت تحاول الاحتفاظ بالبقية. ولكني قرّرت عدم الاستمرار وحدي مع هذه الذكريات الصعبة، ولا للحظة إضافية واحدة.

وتابعت: «أثناء وجودي معه كنت أسلو عن كل ما عداه. عندما استيقظنا، لم أتذكّر حتى شحن هاتفي، ولم أفعل سوى بعد أن أعددنا طعام الفطور. وبعد أن أكلنا، ومارسنا الجنس، وأعددنا المزيد من القهوة».

أحسست بوخز حارّ في أعلى أنفي. «كانت ليبي تحاول الاتصال بي طوال أربع ساعات من دون جدوى. كانت بمفردها في المستشفى، و...». ما من صوت استطاع الخروج من حلقي بعد ذلك؛ حتى أمسى فمي يتحرّك بلا كلمات.

اقترب شارلي وشدّني إلى صدره. قبّلني فوق قمّة رأسي فيما كان يدلّك بإبهامه كتفي.

«موقف صعب، لا أستطيع تصوّره». قال، وجذب ساقيّ إلى حضنه، وألصقني بصدره من جديد. وراح يداعب شعري ويقبّله.

أغلقت عينيّ وركّزت على أحاسيسي، في *تلك* اللحظة، وقلت في نفسي: *أنا هنا و كل ذلك قد مضى، ولن يتمكّن من إيذائي بعد الآن.*

ثم تكلمت بصوت رفيع: «طيلة أشهر بعد وفاة أمي، كانت ليبي تستيقظ في الليل وتصرخ. وكنت لا أنام البتّة من خوفي ألّا أكون حاضرة لنجدتها عندما تحتاج إليّ».

تعلّمت الانتظار ريثما تستيقظ مرعوبة، لكي أنفض الأغطية عني وأشدّها إليّ وأغطيها جيّدًا باللحاف. كنت ألفّها بذراعيّ حتى يهدهدها النشيج وتنام.

لم أقل لها قطّ إن الأمور ستكون على ما يرام. كنت أعلم أنها لن تكون كذلك. وإنما، أخذت عن أمّي تلك اللازمة المريحة التي طالما لجأت إليها: *أخرجي ما في داخلك، يا حبيبتي.*

«بدايةً كان سلوك جايكوب ممتازًا. لم نلتقِ بعد موت أمي سوى لمامًا، ولكنّه كان متفهّمًا. ثم انفتحت أمامه فرصة الذهاب للإقامة والتدرّب في وايومينغ Wyoming – كان يطمح لأن يصبح كاتبًا».

«هل ذهب وتركك؟».

«أنا طلبت منه الذهاب. شعرت... أني لا أمتلك الوقت، ولا الطاقة لأكون معه، ولم أرِد الوقوف في طريق تقدّمه».

هزّ برأسه، فاصطدم ذقنه بجانب وجهي وقال: «نورا، كان عليه عدم الابتعاد عنك في تلك الفترة».

«لم يكن باستطاعته أن يفعل شيئًا»، تمتمتُ.

«كان حريًّا به البقاء إلى جانبك، كان عليه البقاء».

«قد تكون على حقّ، ولكن لم يكن وحده المسؤول عن الخِذلان. كنت أعده دائمًا بالزيارة ولا أفي بوعودي. لم أستطع أن أترك ليبي بمفردها. إلى أن...».

أزاح عن عينيّ خصلات غرّتي المتعرّقة، وقال: «لستِ مضطرة للمتابعة».

كنت أحسّ في ذلك الوقت أن شبح الحزن والخوف والغضب الذي كنت قد أقفلت عليه في زوايا أعماقي عاد ليكبر، وحبال غضب سوداء مخيفة كانت تخرج منه في كل الاتجاهات جائعة ومجنونة.

شيطان كان يريد التهامي من الداخل إلى الخارج.

تابعت: «قرّرت أن أقوم بزيارة مفاجئة له. اشتريت دواء مهدئًا للأعصاب، وسافرت إليه في الباص، لأني لم أتمكّن من تكبّد كلفة الانتقال بوسيلة أخرى، وتركت ليبي وحيدة. لاحظت منذ أن وقعت عيناي عليه أن ثمّة أمورًا تغيّرت. استيقظت من نومي في الليلة الأولى لوصولي مرعوبة.

لم أعلم أين أنا، ولم أتمكّن من العثور على هاتفي. وكل ما فكّرت به أنّ مكروهًا حلّ بأختي. كنت أهلوس تقريبًا، وأشعر بآلام شديدة في صدري، حتى ظننت أني على وشك أن أموت.

«ظنّ جايكوب أني كنت أعاني من أزمة قلبية، فأخذني إلى مركز الطوارئ، ولكنّهم أعادوني إلى البيت بعد بضع ساعات مع فاتورة ضخمة، وتوصية بأن أمارس بعض تمارين التنفّس. الأمر ذاته حدث في الليلتين الثانية والثالثة. أخبرت جايكوب بأني أريد العودة إلى نيويورك، فابتاع لي بطاقة سفر في الطائرة، وقال إنه قرّر الاستقرار في وايومينغ ولن يعود.

«حاولت التفكير بحلّ ممكن. كان قد بقي أمام ليبي عام واحد في المدرسة الثانوية. فكّرت في إمكان أن أنقلها لمتابعة دراستها في وايومينغ، حيث يمكننا الاستقرار هناك معًا. ولكنّه اعترف لي في الأسبوع التالي بعد عودتي بأنه في علاقة جديدة مع فتاةٍ أخرى».

تصوّرت في ذلك الوقت أن الكون كان يعاقبني لأني فكّرت في تحميل ليبي عبء الانتقال في تلك الفترة العصيبة. ولمّا أزل أشعر بالاشمئزاز من نفسي عندما أتذكّر ذلك.

كانت أصابع شارلي تسرح فوق ذراعي صعودًا ونزولًا، وقال: «آسف لما أصابك».

قلت: «ليس لأنه كان الرجل الذي أريده من دون سائر الرجال، أو ´ضالّتي المنشودة´ مثلًا». أغلقت عينيّ وكانت ضربات قلبي تتسابق، «لأنني منذ ذلك الوقت...، بات من الصعب عليّ أن أسمح لأحد الناس بالاقتراب مني إلى هذا الحدّ. حتى ولو كنت منهارة، لا أستطيع النوم في أيّ مكان آخر سوى في سريري. لا أتمكّن من ذلك حتى هنا، مع وجود ليبي على هذا القرب مني. لم أستطع الوثوق بأيّ كان منذ ذلك الوقت». ضغطتُ وجهي على جسمه الدافئ، فيما شعرت بالوجع يشقّ صدري. «أعتذر...، كنت أريد»، قلت.

رد على الفور: «لا تعتذري، أرجو ألّا تعتذري على السماح لي بالتعرّف إليك».

قلت: «هذا محرج. من المحرج أن أكون مهووسة إلى هذا الحدّ بالبقاء في موقع السيطرة، لدرجة أن النوم يرعبني. إني أعاني من فوضى نفسية مزرية».

أدارني ليَرى وجهي، ويداه تلتفّان حول أسفل ظهري، «كلّ منّا يعيش مثل هذه الفوضى»، قال.

«ولكن ليس أنتَ»، قلت.

لاحت على وجهه ابتسامة شاحبة، واشتعال الجمر في الموقد كان يتمرّى في دوائر عينيه الذهبية، وقال: «ما زلت أنام في غرفة نومي الصبيانية».

«لأنك تقوم بمساعدة عائلتك. بينما أنا كنت سأعرّض عائلتي، في أوّل فرصة، إلى الانتقال وعدم الاستقرار في أصعب الأوقات»، أجبته.

أمسك بذقني ورفع وجهي لأنظر في عينيه وقال: «انتبهي، نورا، حبيبك السابق تركك وحيدة في أصعب الظروف، وتصرّفتِ على أفضل وجه ممكن. لستِ أنت الشخصية السيئة في القصّة، بل هو – ليس لأنه وقع في حبّ فتاة أخرى، بل لأنه خرج من العلاقة في اللحظة التي كنت *أنتِ* بحاجة إلى دعمه».

حرّك رأسي بين يديه بحنان وقال لي: «سأسطحبك إلى البيت عندما تشائين، أما إذا اخترتِ البقاء، وأفقت من نومك تصرخين، فلا بأس، سأهتمّ بك. وإن أردت البقاء، ثمّ تراجعت عن خيارك، فسأكون حاضرًا لأن أصطحبك إلى البيت ولو في الرابعة صباحًا».

قرأت مرّة أن بعض الناس لا يصوغون أفكارهم في كلمات. وصعقني أن أتخيّل هؤلاء الذين لا يستخدمون اللغة في فهم الأشخاص والأمور، هؤلاء الذين لا ينظّمون العالم تلقائيًّا في فصول، وصفحات، وجُمل.

غير أني فهمت ذلك وأنا أنظر إلى وجه شارلي. فهمت أنه يمكن لدفق

من المشاعر والانطباعات اللطيفة أن تسري في جسمك، وتتخطّى حاجز تفكيرك. وكيف أن الشخص قد يعلم بوجود ما يجدر التعبير عنه، حتى وإن لم يكن لديك مفهوم واضح له. كنت أفكّر خارج قيود الألفاظ والمفاهيم.

إنه شعور ليس تمامًا مثل قولي ´شكرًا´، أو مثل ´جعلتني أشعر بالأمان´، وإنما أمرٌ يتراوح بين الاثنين.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«أريد البقاء، ولكن لا أظنّ أني أستطيع».

حنى رأسه. «إذا سأصطحبك إلى البيت».

«ليس الآن»، قلت.

رتّب خصلات شعري وراء أذنيّ. «حسنًا، ليس الآن».

تمدّدنا على الأريكة معًا، ظهري أمام صدره الدافئ. كانت أصابعه تتنقّل بخفّة فوق صدري، وتنزلق بنعومة فوق نتوءاته وتكوّراته، إلى أن استعاد حالة الانتصاب، وسكِرت أنا تحت لمساته. وكان الجماع مجدّدًا ولكنه جرى ببطء، كأنما في الحلم. وعندما انتهينا استرخيت على صدره وشعرت بدقّات قلبه المنتظمة والخافتة تطمئنني، كما تفعل أضواء المدينة وضجيجها في كل مساء فوق زجاج نافذتي، إذ تطمئنني بأن العالم لن يتوقّف عن الدوران أثناء نومي.

إن لم أعبّر عمّا يعتمر في نفسي بصوت عالٍ، فقد لا يعدّ موجودًا. وربّما لن يكون حقيقيًّا.

ولكنّه حقيقيّ ولا أظنّ أني أريد منعه، حتى لو علمت كيف: إني وقعت في حبّ شارلي لاسترا.

***

في الصباح، لم أخرج للركض كعادتي. جلسنا، ليبي وأنا، على بساط فرشناه فوق العشب، وبيد كلّ منا كوب من القهوة، وأخبرتها بكل ما حدث.

لمعت عيناها من الداخل، وقالت بنبرة السؤال: «إنه *باقٍ*؟». وانقبض قلبي على وقع تلك الجملة.

فسألتها: «لما لا تصارحينني بحقيقة شعورك إزاء شارلي؟».

وضعت أنفها فوق البخار الصاعد من كوبها، وأجابت: «أعتذر لم أكن أعني ذلك».

«كأنك لا تحبّين شيئًا في العالم أكثر من رؤية شارلي لاسترا على ظهر سفينة تدور به حول الأرض إلى ما لا نهاية».

«ليس الأمر هكذا...»، وعبثت بشعرها قليلًا كأنّها تفكّر في ما تنوي قوله: «أظنّ أن ذلك يغيّر في مواصفاته الآن. بات شارلي يتطابق مع الشروط المطلوبة على القائمة».

«يا للتقدّم!».

وضعت ليبي كوبها على العشب، وقالت: «نورا، إن كنتِ بالفعل تهتمّين لأمره، يجب أن تفكّري جدّيًا. لم أرَكِ مهتمّة برجل إلى هذا الحدّ منذ زمن طويل. انتظري...، ربّما كانت المرّة الأخيرة منذ عشرة أعوام كاملة، بحسب ما أتذكّر».

لم أشعر بذلك الألم العميق الذي عادةً ما كنت أشعر به لدى التلميح إلى جايكوب، أو ذكر اسمه، ولا بالقسوة عينها هذه المرّة. كنت أعني تمامًا ما قلته لشارلي - إن الألم لم يكن بسبب شوقي إلى حبيبي السابق، إنما بسبب الوحدة التي أجد نفسي أسيرتها، نتيجة عجزي عن الوثوق في شخص آخر.

«لا يهم ما نستكشفه»، قلت لها، «عندما نعلم كيف ستكون النهاية».

ضغطت ليبي على ذراعي، وقالت: «إنك لا تعلمين. لا يمكنك أن تعلمي قبل أن تجرّبي».

«لا نتحدّث هنا عن فيلم سينمائي، ليبي، الحبّ ليس كافيًا ليغيّر تفاصيل حياة الانسان، أو تغيير حاجاته. لا يمكن للحبّ أن يرتّب كل الأمور في مكانها الصحيح. لا أريد التخلّي عن كل شيء».

لن أسمح لنفسي بذلك. ما من نهاية سعيدة لامرأة تريد كل شيء. تلك

التي لا تنام ليلها نتيجة الجوع الذي لا يمكنها إشباعه، والطموح الصّعب الذي يجعل عظامها تقعقع في جسدها.

لن أتخلّى عن شقتي الدافئة بنوافذها الكبيرة في حيّ *ويست فيلدج*. ولا عن محل القهوة عند زاوية الشارع الذي يعرف كيف أحبّ قهوتي. ولا عن النزهة في الفصول الأربعة في مركز *سنترال بارك*.

لن أتخلّى عن *الوظيفة* في *دار* نشر *لوجيا*. صورة مكاتبها ناصعة البياض، وأرضياتها الخشبية من نوع *بالزا* الثمين حاضرة في ذهني.

لن أتخلّى عن شعوري بالاطمئنان بشأن أختي؛ ولا عن يقيني عندما أستيقظ في منتصف الليل بأني في أمان، وأنه لا يمكن لأحد أو لأمر أن يؤذيني.

كيف يمكن لشعور شاسع، وعصيّ عن السيطرة مثل الحبّ، أن يجد له مكانًا بين كلّ ذلك؟

سيكون أشبه بسنّ رخوة في آلة دقيقة.

عندما نظرت من جديد إلى ليبي، كان فمها مفتوحًا، وحاجباها معقودين. ثم سمعتها تردّد بصوت منخفض: «*الحبّ؟*».

حوّلت نظري نحو الكوخ المتألق تحت الشمس، والمحاط بعدد كبير من الفراشات الحائمة بكسل. «أتكلّم من منطلق افتراضي»، قلت، وكذبت على أختي. وتركتني أفعل.

***

بعد منتصف النهار بقليل، ظهرت بيا وتالا تقفزان فوق الدرج صعودًا إلى الكوخ. كانت بيا تزهو بفستان مكشكش وردي اللون، وتالا بقميص وبنطال باللون الكحلي. طار قلبي فرحًا، ولا عجب أن عينيّ ليبي اغرورقتا بالدموع فيما كنت أساعدها على الوقوف عن الأرض. كانتا تناديان «ماما» من دون انقطاع بأصوات عالية جدًّا حتى وصلتا وتمسّكتا بساقيها، فيما زرعت شعرهما المبعثر بالقبل.

«اشتقت إليكما كثيرًا كثيرًا كثيرًا»، قالت لهما. ولكن تالا بدت في مزاج سيّئ عندما أقبلت على أمّها ولفّت ساق ليبي بذراعيها. أما بيا فراحت تبكي على الفور كأنها متعبة وبحاجة ماسّة إلى النوم. ثمّ وصل براندن لاهثًا وراءهما، وكان يبدو عليه التعب أكثر، ربّما بثلاثين مرّة، ممّا بدا على شارلي لاسترا في أيّ وقت.

عندما التقت عيناهما، كانت ابتسامتهما هادئة. لم يطفح وجهاهما بالفرح، ولكن بدا عليهما الارتياح: كأنهما عادا إلى مجرى حياتهما الطبيعي، ولم يعد مطلوبًا أن يبذلا جهودًا إضافية.

وتلك الكميّة من القلق بشأنهما التي كنت أحملها، تبخّرت على الفور. هذان الزوجان تربطهما علاقة حبّ. وعلى الرغم من كل ما فكّرت أنه يدور بينهما، فإنهما بخير.

لسبب غامض إنهما *خلقا ليكونا معًا*. وكلاهما يعلم ذلك.

وفيما كانت ليبي منشغلة بمراضاة الفتاتين، غمرني براندن بذراع واحدة بشدّة وجدّية، وبطريقته الغريبة المعروفة. «هل كانت الرحلة مريحة؟»، سألته.

«لم يخلُ الأمر من بعض الدموع»، قال.

«أوه، هل ما زالوا يعرضون فيلم *ماما ميا* إلى الآن؟»، قلت.

«وتعلمين أنه من الصعب عدم التفاعل مع مريل ستريب Meryl Streep على مثل ذلك الارتفاع»، أجاب.

وفي تلك اللحظة، تخلّصت الفتاتان بصعوبة من حضن ليبي، وانطلقتا نحوي صارختين، كل منهما بنغمتها الخاصّة: «نونو!».

«الفتاتان الأقرب إلى قلبي في الدنيا!»، قلت، وتلقفتهما بين ذراعيّ.

«جئنا في الطائرة!»، قالت تالا بصوتها الطفولي.

«هل فعلتم ذلك حقًّا؟». رفعتها إلى خصري في التوّ، وشددتُ على يد بيا، ثمّ سألتهما: «من قاد الطائرة؟ أنتِ أو بيا؟».

ضحكت بيا، ورنّت ضحكتها مثل رنين الذهب. إنّه على الأرجح الصوت الذي استقبلت به الأرض وجه الشمس للمرّة الأولى!!

«لا...»، قالت تالا وهزّت رأسها غير موافقة على جهلي. صدقًا، عندما تكون تالا في مزاج متعكّر، فإنها تتحوّل إلى أحلى ما يمكن رؤيته في العالم. ليت كل تقلّبات المزاج لدينا بهذه الحلاوة.

سرت بهما فوق المرج بعيدًا عن براندن وليبي، كي يتسنّى للزوجين بضع دقائق على انفراد. بدا على براندن أنّ بإمكانه البكاء لساعات طويلة. أما ليبي فوضعت يدها فوق مؤخرته بطريقة قد توحي بأن هذا ليس *أبدًا* ما تحتاج إليه.

قلت للفتاتين: «نسيت أن أسألكما، هل تحبّان رؤية الفراشات؟». ومشينا باتجاه الجسر الخشبي حيث تكثر الأزهار.

تحدّثنا حول الأمر بحماسة، وكانت لهما أفكار كثيرة، ولكن صراخهما نجح في طرد الفراشات كلّها.

الفصل الحادي والثلاثون

اختارت ليبي مطعمًا في مركز مدينة آشفيل التجاري، وهو مطعم كوبي أنيق فوق سطح أحد المباني الفخمة في المدينة. كانت عاصفة الليلة الماضية قد جعلت نسائم الهواء باردة ومنعشة؛ تغيير مريح بعد الطقس الحار الذي استمرّ طيلة الأسابيع الثلاثة الأخيرة.

كان مشهد المدينة المضيء الممتدّ تحت أنظارنا يوحي بأن آشفيل تقع على درجة متوسطة بين القرية الهادئة والمدينة الصاخبة. أما الطعام فكان شهيًّا. تقاسمت مع براندن زجاجة من النبيذ، وحتى إن ليبي ابتلعت بضع رشفات منه، وأخرجت تأوّهات معبّرة كلّما تلذّذت بطعم النبيذ على لسانها.

قالت ليبي بعينين حالمتين: «كأننا في نيويورك، أليس كذلك؟ أعني أنك قد تشعر بذلك لو أغلقت عينيك... واستمعت إلى أصوات هذا العدد الكبير من الناس، وإلى الإحساس العابق في الجوّ».

زمّ براندن فمه كأنه غير موافق على ما قالته، ولكني أحنيت رأسي إيجابًا. لا يوحي المكان بأجواء نيويورك، ولكن ربما وجودنا معًا يشعرنا كأننا في مدينتنا.

ساورني حنين غريب إزاء فكرة الركض على السلالم صعودًا أو نزولًا من أجل الوصول إلى الرصيف في محطّة القطار. وتذكّرت جلبة الحديد، وتيّار الهواء البارد على الدرج، والتساؤل ما إذا كنت سأصل في اللحظة المناسبة أو سأجد أن قطاري انطلق زاعقًا من جديد وتركني بانتظار القطار التالي.

«ما هو الأمر الأكثر غرابة الذي تشتاق إليه في المدينة؟»، سألت شارلي في رسالة نصّية سريعة.

أجابني: «كنت أشتاق إلى وجود محل دنكن دوناتس على بعد ثلاثة منعطفات لا أكثر مني، في أي وقت».

ابتسمت إلى الهاتف، وكتبت: «نسبة عدد محلات دنكن دوناتس إلى عدد السكان، يجب أن تعادل واحد إلى خمسة. غير ذلك؟».

«أشتاق إلى مطعم *إيتالي* Eataly، ولكني لا أعتبر هذا غريبًا»، كتب.

«إن لم تشتق إلى *إيتالي*، لن يكون لنا كلام بعد ذلك. سيكون السجن مكانك والأقرب إلى ذوقك».

كتب: «من حسن حظّي أني نجوت من الإصابة برصاصك». وأضاف: «أشتاق أيضًا لأمرٍ آخر، ولكنه أيضًا ليس غريبًا. أفكّر كثيرًا باليوم الأول من فصل الربيع عندما يكون الطقس دافئًا بدرجة معيّنة، ويخرج الناس كلّهم دفعة واحدة من بيوتهم، كأننا سكارى بحرارة الشمس. عندما يسرح الناس في الحدائق بالشورت وصداري البيكيني، ويلتهمون المثلجات، علمًا أن حرارة الجوّ لم تتجاوز عشر درجات مئوية».

كتبت: «شارلي، كل هذه الأمور إيجابية ورائعة».

تمهّل لحظات قبل إجابته التالية. «أشتاق إلى عزف فِرَق مارياشي في محطات المترو، أو إلى فِرق مغنّي الأوبرا، أو فرق الغناء الأخرى. أعلم أن كثيرين لا يحبّون ذلك، ولكني في الحقيقة أحبّهم. أحبّ عندما أكون نصف نائم في القطار، وأسمع فجأةً خمسة أشخاص يغنّون بملء حناجرهم.

أحبّ أن أراقب ردود فعل الناس عليهم. بعض الناس يشاركونهم المشاعر، وبعضهم يبدو كأنه يخطّط لاقتراف جريمة؛ وهناك الذي يتجاهل ما يحدث كلّيًا.

«ليس في نظري ما يوحي بالأمل أكثر من شخص مستعدّ لمغادرة دفء سريره في الصباح المبكر، من أجل الغناء بكلّ جوارحه لمجموعة من الغرباء المجبرين على ركوب القطار في تلك الساعة. لا بدّ من مكافأة مثل هذه القدرة المستمرّة على العطاء».

«أحبّ دماغك العجيب»، كتبت.

أجاب: «كنت أظن أنك تحبّين جسمي العجيب».

ثمّ، وبعد مرور دقيقة، كتب: «أحبّ دماغكِ أيضًا، وجسمك وكل ما فيك».

أمضيت السنوات العشر الأخيرة من حياتي في إبعاد نفسي عن هذا الشعور؛ الجوع الملحّ إلى الجنس. وفي المقابل، كانت ثلاثة أسابيع، وشخصية خيالية تدعى نادين وينترز، كافية لتعيدني إلى ذلك.

«لا ترتبطي بأي برنامج لبعد ظهر غد»، قالت لي ليبي، فيما كانت تضرب على حذائي بقدمها تحت الطاولة. «أعدّ لك مفاجأة».

كان براندن يسرح بنظره فوق الطاولة، كأنه يشعر بالذنب. إمّا لأنه غير مقتنع بأني سأحبّ «مفاجأتي»، أو لأن ليبي هدّدته بأنها ستقطع عنقه لو باح بها.

قلت في محاولة لجسّ النبض: «براندن، قل لزوجتك إنها لا تستطيع ممارسة رياضة القفز بالمظلة لأنها حامل».

ضحك ورفع يديه، وما برح يتفادى النظر مباشرةً إلى وجهي، وقال: «من الحكمة ألّا تحاول أن تقول لامرأة من عائلة ستيفنز ما يمكنها أو لا يمكنها أن تفعل».

مرّت فرصة العمل مع دار لوجيا في بالي، وقول شارلي: *لو كان عليّ أن أختار شخصًا واحدًا ليكون في مكاني، فستكونين أنتِ دائمًا.*

***

طلبت ليبي منّي للمرّة الثانية أن أعصب عينيّ طيلة الوقت الذي قضيناه في سيارة التاكسي التي يقودها هاردي. ولكننا وصلنا لحسن الحظّ في غضون خمس دقائق، ثمّ أخرجتني ليبي من السيارة، وهلّلت: «وصلنا!».

«هل *الهدف زيارة استكشاف غير رسمية للبلدة كما جاء في قصّة مرّة في العمر*؟»، حاولت أن أتوقّع.

«كلا»، أجاب هاردي. «مع أني أنصحكم بعدم تفويت هذه الفرصة».

«هل هو مأتم للكلب الخيالي الذي كان لدى العجوز ويتاكر؟»، حاولت ثانيةً.

أغلقت ليبي باب السيارة ورائي، وقالت: «بارد».

«هل هو مأتم الحرباء من نوع الإغوانة التي لعبت دور كلب ويتاكر الخيالي في المسرحية التي قدّمت على مسرح البلدة؟»، حاولت من جديد. ورحت أصغي إلى كل الأصوات من حولي، علّني أسمع ما قد يدّلني إلى طابع المكان. ولكن الصوت الوحيد الذي سمعته كان حفيف أوراق الشجر، وهذا قد يحدث أينما كنّا.

أمسكت ليبي بيدي، وأرشدت خطواتي: «توجد درجتان هنا، وإلى الأمام توجد حافّة صغيرة».

مددت ساقي إلى الأمام وتحسّست بقدمي مكان الحافة. شعرت بتيار هواء بارد يتلقّفني، وإذ سرنا خطوتين أو ثلاثًا، عرفت أننا نسير على أرضية خشبية.

«هنا!»، قالت ليبي وتوقّفت عن المشي. «اضربي على الطبل. جاء وقت الإعلان».

ضربتُ بكفيّ على ساقي، فيما أزالت ليبي العصبة عن عينيّ ورمتها جانبًا. وجدتنا نقف وسط غرفة خالية. لاحظت لون الأرضية الخشبية الداكن، والجدران المصنوعة من ألواح أفقية من الخشب المدهون باللون الأبيض. وفي الغرفة نافذة كبيرة مطلّة على غابة من أشجار الصنوبر شديدة الخضرة. وقفت ليبي أمام النافذة ولم تخلُ من التوتّر على الرغم من وجود ابتسامة كبيرة على وجهها.

«تخيّلي طاولة طعام خشبية ضخمة هنا، ونبتة خضراء تحت هذه النافذة في حوض من القش أو القصب. وثريا على الطراز الاسكندينافي، حديثة الطراز وأنيقة. تعلمين قصدي؟».

قلت «حسنًا»، وتبعتها إلى الغرفة المجاورة. فأكملت: «أريكة بقماش من المخمل الأزرق الداكن، وخيمة صغيرة في إحدى الزوايا للفتاتين،

يمكننا إبقاءها منصوبة في مكانها وإضاءتها بحبل من الأنوار الصغيرة».

ثمّ مشت أمامي عبر ممر ضيّق، وتبعتها عبر باب آخر ينفتح على غرفة حمام كل ما فيه باللون الأصفر الفاتح: السيراميك من طراز خمسينيات القرن الماضي باللون الأصفر. ورق الجدران بالأصفر، والمغطَس أصفر، والمغسلة أيضًا صفراء.

قالت: «هذا يحتاج إلى التجديد. ولكن انظري كم المساحة كبيرة. هنا يوجد مغطس. وهناك حمام آخر مجهّز بمرشّة ومن غير مغطَس. تمّ تجديد ذلك الحمام من قبل».

نظرت إليّ لكي تتأكّد من أني أسمعها.

كنت أسمعها، إنما كان هناك طنين في رأسي كأنه طنين طائفة من النحل، كانت تزداد توتّرًا مع صعود إحساسي بوجود الخطأ في مكان ما.

«وهناك حمام متّصل بغرفة النوم الرئيسية. ثلاثة حمّامات كاملة - هل تتخيّلين؟»، ثمّ أشارت إلى أثر حمرة الشفاه على السجادة، بالإضافة إلى بقعة كبيرة تساوي بحجمها محتوى إبريق من القهوة. «لا تأبهي لهذا. الأرض خشبية أيضًا تحت السجاد. ربّما سيكون هناك بقع على الخشب أيضًا، ولكني لطالما أحببت اختيار سجادة جميلة».

وقفت ليبي في وسط الغرفة وفتحت ذراعيها في الهواء من الجانبين. «ما رأيك؟».

«بالنسبة إلى حبّك للسجاد؟»، قلت.

اهتزّت ابتسامتها، وقالت: «بشأن البيت؟».

أحسست وكأن صوتي يغور نتيجة فورة الدماء الضاغطة في أذنيّ. «هذا البيت؟ في صنشاين فولز؟».

تقلّصت ابتسامتها.

ارتفع الطنين في داخلي، كأنه يقول «كلا». وكأن ملايين نورا مصغّرة تدمدم «كلا»، *هذا* غير حقيقي. لا يمكن *أن* يكون حقيقيًا، *بل* مجرّد سوء *تفاهم*.

احتضنت ليبي بطنها بيديها، وبرز العبوس على جبينها. «قد لا تصدّقين ثمنه الرخيص»، قالت.

لا شكّ أني لن أصدّق. ربّما سأسقط ميتة، وسيخرج شبحي من هذه الأرضيّات الخشبية في كل ليلة ليرعب مالكي البيت، ويسألهم من جديد: *والآن، كم يبلغ عدد الخزائن في البيت؟*

ولكن لا أرى أين توجد الأهمية في ذلك؟

هززت رأسي، وقلت: «ليبي، لا يمكنك العيش في مثل هذا المكان».

«لا يمكنني؟».

«حياتك في نيويورك، وظيفة براندن في نيويورك. مدرسة الفتاتَيْن - مطاعمنا المفضّلة، حدائقنا المفضّلة».

أنا.

أمّنا.

كل جزء أخير منها. كلّ ذكرى. كل مكان شهد خطواتها في تلك الحياة، قبل عشرة أعوام. كل نافذة محلّ وقفنا أمامها، بأيدينا المتشابكة والمحميّة بالقفازات الصوفية، نحن الثلاثة معًا في صفّ واحد، لنرى سانتا مسافرًا في عربته المتحركة فوق أبراج مانهاتن في مشهدٍ سحري مصغّر لسماء المدينة.

كل خطوة مشيناها على جسر بروكلين في أوّل يوم من فصل الربيع، أو في آخر يوم من فصل الصيف.

مكتبة فريمان بوكس، ومكتبة ذي ستراند، ومكتبة بوكس آر ماجيك، وماكنللي جاكسون، ومكتبة بارنز أند نوبل في الجادّة الخامسة The Fifth Avenue.

«ولكنّك أحببت هذه البلدة»، قالت ليبي بصوتٍ متردّد.

وإذا بكل تلك الشرايين الجليدية التي كانت تمسك بقلبي المتصدّع تذوب فجأةً. أجزاء مكسورة تنزلق كالكتل الجليدية الذائبة، تاركةً وراءها مناطق ضعيفة ومكشوفة.

«إنها عطلة جميلة، ليبي، ولكنّي سأعود بعد أسبوع *إلى* بيتي».

أدارت وجهها عنّي. وقبل أن تبدأ بالكلام مجددًا، أحسست بنبض في أحشائي، وبدفق من الحرارة، وباختلاف في الضغط الجوّي حولي. وتوقف الطنين.

كان صوتها واضحًا عندما قالت: «عثر براندن على وظيفة جديدة في آشفيل».

كنت أشعر بأن أمرًا أجهله كان مقبلًا، ولكن الشعور لم يُعدّني إلى مثل هذه السقطة الحرّة؛ إلى هذا الإحساس بالسقوط من مكانٍ شاهق والارتطام بكل صخرة في الهوّة.

كانت ليبي تنتظر ردّ فعلي... لم أعلم لماذا، ولا ماذا أقول.

ما عسى أن تكون خطّة العمل المطلوبة عندما يتلقّى الكوكب صدمةً تخرجه عن محوره؟

لا أملك خطّة، ولا قائمة لإصلاحه؛ بل أقف وسط منزل فارغ، أراقب العالم ينكشف أمامي.

«هذا ما كان يريد براندن معرفته عبر الرسائل المتتالية. كان ينتظر منكِ أن تخبريني». قلت بما يشبه الهمس، وعادت الدماء تنبض في أذنيّ.

لاحظت انقباضًا في فكّي ليبي يشير إلى اعتراف بالذنب.

قلت: «'القائمة'، وهذه 'الرحلة'. هل هذه كانت الغاية؟ كنت تنوين *الابتعاد*، وكل هذه اللعبة المتقدّمة، كانت من أجل الوداع؟».

«ليس كذلك»، تمتمت.

«ماذا عن المحامية؟ ما دورها في كل هذا؟»، سألتها.

«من؟».

أحسست كأن العالم يموج من حولي. «المحامية المتخصّصة بقضايا الطلاق، والتي أعطتك سالي رقم هاتفها؟».

بدا على ليبي أنها فهمت اللّغط الذي حدث. وقالت بصوت متعب: «إنها إحدى صديقات سالي التي تعرف روضة أطفال جيّدة».

ضغطت بيديّ على جانبي رأسي.

إنّهم يفتّشون عن *مدارس*. يفتّشون عن بيوت.

«منذ متى اتّخذتما القرار؟»، سألتها.

«حدث كل شيء بسرعة»، قالت.

«منذ متى يا ليبي؟».

«قبل أيام من قرار قيامنا بالرحلة»، أجابت.

«هل هناك مجال للعودة عنه؟». فركت جبيني، ثمّ أضفت: «إن كانت المسألة تتطلب المال؟».

«لا أريد العودة عنه يا نورا». عقدت ذراعيها فوق صدرها، وأضافت: «أنا التي اتّخذَت هذا القرار».

«ولكنك قلتِ للتوّ إن الأمور حدثت بسرعة».

قالت: «منذ أن قرّرنا أن يتقدّم براندن إلى الوظيفة، شعرنا بأن ما نفعله هو الأفضل لنا. تعبنا من أن نعيش في مكان ضيّق. تعبنا من استخدام حمام واحد. تعبنا من أن نكون متعبين. نريد التوسّع. نريد أن يتسنّى لأولادنا اللعب في الغابات!».

«ربّما لأن '*داء لايم*' يستهويكما؟»، قلت بسخرية.

«أريد أن أشعر أنه لو حدث خطب جلل، لن نكون أسرى على سطح جزيرة مع ملايين آخرين، وكلّنا يحاول الهروب».

«إني موجودة على تلك الجزيرة يا ليبي!».

شحب وجهها، وارتجف صوتها: «أعلم ذلك».

«نيويورك مدينتنا. هؤلاء الملايين من البشر هم عائلتنا. والمتاحف، والمعارض الفنية، وناطحات السحاب، والتزلج في مركز روكفلر- واستعراضات برودواي؟ هل هان عليك التخلّي عن كل هذا؟ التخلّي عنّي؟».

«ليس الأمر هكذا يا نورا. بدأنا بالتفتيش عن بيت مناسب، وكل ذلك حدث معًا».

«اللعنة!»، أدرت ظهري وشعرت بالدوران. أحسست بذراعيّ ثقيلتين

وخدرتين. وكان قلبي يضرب في كل اتجاه كأنه طابة بولينغ على منحدر سريع ومتعرّج في مدينة ألعاب.

«ليبي، هل أنهيتم عقد الشراء؟»، قلت.

لم تُجِب.

واستعدتُ وقوفي وجهًا لوجه أمامها، وسألت: «ليبي، هل اشتريتِ بيتًا حتى من غير أن تخبريني؟».

أجابت بهدوء: «لن يتمّ العقد قبل نهاية الأسبوع».

عدتُ إلى الوراء، وابتلعت ريقي. كأني بذلك أعيد كل ما قلته إلى داخلي. إنه وقت الرجوع إلى الوراء. «عليّ أن أذهب»، قلت.

«إلى أين؟»، سألتني.

«لا أدري... إلى أيّ مكان آخر» قلت.

***

كنت أعرف الشارع: سلسلة من البيوت الصغيرة من طراز خمسينيات القرن الماضي، ذات حدائق مرتّبة، ومشهد خلفي للجبال العالية المغطّاة بأشجار الصنوبر.

كانت الشمس تذوب عند خطّ الأفق كأنها كرة من البوظة بالدراقن، وعبير الورود ينتشر مع النسائم. وعلى مسافة بضعة أمتار، صادفت مجموعة من الأولاد يركضون ويصرخون ويتضاحكون حول إحدى مرشّات المياه.

هذا جميل. ولكنّي أريد أن أكون في أي مكان آخر.

ليبي لم تلحق بي. لم أتوقّع منها ذلك.

ثلاثون سنة من عمرنا معًا، لم أتركها وأبتعد عنها بعد أيّ مواجهة حادّة أو خصام. كان عليّ دائمًا اللحّاق بها ومراضاتها. مثلما كان يحدث بعد مرورها في أزمة معيّنة في المدرسة؛ أو في علاقتها معي؛ أو مع أصدقائها طيلة الفترة الصعبة التي تلت وفاة أمّنا.

أنا التي تتبعها. ولكني لم أفكّر قطعًا أنه سيتوجّب عليّ يومًا اللحاق بها إلى مثل هذا المكان البعيد، أو خسارتها كلّيًا.

ها إني أحسّ من جديد بالوخز في أنفي، وبالانقباض في صدري. وبدأت أشعر بغيمة ضبابية أمام عينيّ إلى أن احتجب مشهد الأزهار عني، واختلطت ضحكات الأولاد وتسارعت.

سرت باتجاه البيت. لا *ليس البيت*. فكّرت.

والفكرة التالية التي ساورتني كانت أكثر سوءًا: *أيّ بيت؟*

تردّدت الفكرة في نفسي، وشعرت بزوابع من الرعب تدور في داخلي لتنفلت إلى الخارج. البيت كان دائمًا بالنسبة لي: أمّي، ليبي، وأنا.

بيتي حيث تنفلش المناشف المخطّطة بالأبيض والأزرق على الرمال الحارّة في جزيرة كوني Coney Island؛ إنه الحانة المتخصّصة بتقديم مشروب التيكيلا، حيث كنت أصطحب ليبي بعد انتهاء الامتحانات لنشرب ونرقص طوال الليل. إنه حيث نشرب القهوة ونأكل كرواسّان في بروسبكت *بارك*.

إنه الغرق في إغفاءة على مقعد القطار على الرغم من فرقة مارياشي التي تعزف وتغنّي على بعد أمتار. إنه شارلي لاسترا الذي يبحث في محفظته عن البقشيش في الجهة المقابلة من العربة.

ولكنه لم يعد كذلك. لأن لا بيت لي في غياب أمّي وليبي.

ولذلك، فإني لا أعدو باتجاه مكانٍ ما، إنما بعيدًا عنه.

إلى أن لاحت أمامي مكتبة غودي بوكس في آخر الشارع، وقد ازدادت إضاءتها ألقًا تحت سماء الغروب الحمراء والبنفسجية.

تراقصت أجراس الرياح عندما مررت تحتها عبر المدخل، ورفع شارلي عينيه من قسم الكتب الأكثر مبيعًا محلّيًا، وتحوّلت تعابير وجهه من المفاجأة إلى القلق.

خرج صوتي متقطّعًا: «أعلم أنك مشغول، ولكني بحاجة لأكون في مكان... » *آمن*؟ *مألوف*؟ مريح؟ «إلى جانبك».

وسرعان ما التهمت قدماه المسافة بيننا بخطوتين واسعتين، وسألني: «ماذا حدث؟».

حاولت الإجابة، ولكني شعرت بما يشبه الانسداد في قصبتي الهوائية. شدّني شارلي إلى صدره وعقد ذراعيه حولي.

«ليبي ستنقل سكنها»، كان عليّ أن أهمس لكي أتمكّن من إيصال كلماتي، «ستنتقل لتعيش هنا. هذا ما كان يشغلها»، ثمّ لفظت بألم «سأكون وحيدة».

«لستِ وحيدة»، قال، وعاد خطوةً إلى الوراء، وكفّه حول خدّي، وفي عينيهّ نظرات حادّة تلامس الشراسة. «لستِ وحيدة، ولن تكوني كذلك».

فكّرت في ليبي وبيا وتالا وبراندن، وشعرت أن الهواء يكاد يفرغ من رئتيّ.

فكّرت في عيدي الميلاد ورأس السنة.

والزيارات إلى متحف التاريخ الطبيعي.

والجلوس أمام لوحة ضخمة للفنان جاكسون بولوك Jackson Pollock في متحف المدينة للفنون «Met»، وممازحة الفتاتَين، ورجائهما بأن تحقّقا ثروة هائلة للعائلة بفضل الرسم بالأصابع.

والضحك في محل البوظة سيرنديبتي حتى تخرج الكريما من أنوفنا. كل الذكريات، وكل اللحظات المستقبلية، وذكرى أمّنا التي تبقى حولنا في كلّ ذلك، ومن مكان قريب.

كل ذلك ينساب من بين أيدينا.

الوخز في أنفي، والثقل في صدري، والضغط وراء عينيّ.

سار بي شارلي إلى غرفة المكتب. قال واعدًا: «إني معك يا نورا، لا تأبهي، ستكونين بخير».

وإذا بي أنهار كما انهيار سدّ مياه مكسور. سمعت صوت القرقعة في حنجرتي، وارتجفت كتفاي، ورأيتني أنفجر في البكاء.

تضاربتني أمواج عاتية، وكل كلمة كانت تختنق في عباب تيّار لا قوّة لي على إيقافه.

وغرقت في بحر الدموع.

«لا بأس»، همس في أذني، فيما كان يضمّني إلى صدره. «أنت لست وحيدة»، قال مؤكّدًا. وعبر كلماته تلك كنت أسمع ما لم يقله: *إني هنا*.

وفكّرت في سرّي: *الآن فحسب*.

لأن ما من أمر - سعيدًا كان أم تعيسًا، إلّا وسيصل إلى نهايته.

الفصل الثاني والثلاثون

أفهم الآن لماذا لم أبكِ طوال تلك السنوات. أردتُ لكل الألم أن يتوقّف. أردته أن يبقى محصورًا في داخلي، لكي أتمكّن من تجزئته إلى أجزاء صغيرة أستطيع السيطرة عليها.

كنت طوال ذلك الوقت أرى أن أسوأ ما يمكن أن يحدث لي هو أن أبدو في عيون الناس بصورة الإنسانة القاسية.

والآن أكتشف أني قد أفضّل أن أكون باردة وجليديّة، على أن أكون ما أنا عليه حقًّا في أعماقي، وفي كل ثانية من كل يوم: ضعيفة، خائفة إلى حدّ الرّعب من أن ينهار كل شيء.

أخاف من خسارة كل شيء. أخاف من البكاء. ومن أني لو بدأت في البكاء فقد لا أتمكّن من التوقّف، وأن كل ما بنيته سيتفتّت تحت ثقل عواطفي المتفلّتة.

بكيت طويلًا قبل أن أتوقّف. بكيت حتى أوجعتني حنجرتي؛ وحتى أوجعتني عيناي؛ وحتى جفّت دموعي، وتحوّلت الجهشات إلى حازوقة.

وحتى شعرت بالإرهاق والخدر. كانت غرفة المكتب قد غرقت في الظلام سوى من نور ذلك المصباح القديم من طراز *بانكر* الموضوع على المكتب.

عندما أغلقت عينيّ، كان الهدير قد صمت، ولم يبقَ في أذني سوى صدى دقّات قلب شارلي المكتومة.

«إنها ستغادر»، همست. كنت ألفظ العبارة كأني أجرّب القبول بهذا الواقع.

«هل قالت لماذا؟»، سألني.

هززت كتفيّ في حضن ذراعيه. «الأسباب التي يغادر الناس الطبيعيّون من أجلها. ولكني - لطالما فكّرت...».

وضع كفّه حول خدّي من جديد، وحرّك وجهي ليشاهد عينيّ.

«كل أصدقائي السابقين، وكل رفاقي، ونصف الأشخاص الذين عملت إلى جانبهم، كلّهم غادروا المدينة. كنت أتعايش مع ذلك، لأني أحبّ المدينة، وأحبّ وظيفتي، ولأن ليبي إلى جانبي». وتابعت بصوتٍ متعثّر: «ها هي تريد المغادرة أيضًا».

عندما ماتت أمّي وخسرنا الشقّة، شعرنا وكأن تاريخنا كلّه كان يجري ابتلاعه. وكلّ ما بقي لدى كل منّا من ذكراها، كانت المدينة وأختها.

هزّ شارلي برأسه مؤكدًا: «إنها أختك يا نورا. ولن تتخلّى عنك البتّة».

لم تكن عيناي قد فرغتا من الدموع كما ظننت؛ ها هما تفيضان بالدمع مجدّدًا.

سرحت يداه على كتفيّ، وشدّت قليلًا وراء عنقي. «لستِ يا نورا منْ تريد ليبي التخلّي عنه».

«بل أنا»، قلت. «لا تريدني، لا تريد حياتنا. لا تريد كل ما حاولت أن أبنيه لها، ولم يكن كافيًا».

قال: «انظري. كلّما جئت إلى هنا، أشعر كأن الجدران ستطبق عليّ. أحبّ عائلتي، نعم أحبّها. ولكني أمضيت خمسة عشر عامًا بعيدًا عنها، وكنت لا أعود إلى هذه البلدة سوى نادرًا، لأن المرء يشعر بالوحدة حيث يشعر بأنه غير ملائم. لم أرغب في حياتي في إدارة هذه المكتبة؛ ولم أرغب قط بالعيش في هذه البلدة. وهذا ما أفكّر به كلّما جئت إلى هنا وتصيبني عقدة الخوف من الأماكن المغلقة بسبب كلّ ذلك. ليس بسبب أهلي. بل لأني لا أدرك كيف أكون أنا نفسي هنا. لأني لا أتوقف عن التفكير بشأن ما يتوقّع الآخرون مني أن أكون؛ وفي نقاط الاختلاف بيني، وبين ما يريدونني أن أكون. ثمّ ظهرتِ أنتِ».

التمعت عيناه، كأنهما مصباحان يكشحان العتمة، وتابع: «واستطعتُ أخيرًا التنفّس».

ارتعش صوته، وتدحرج قلبي كأنه كرة في داخل قفص سحب اليانصيب. «لا خطأ في شخصِك. لا أرى بكِ أي شيء قد يحتاج إلى التغيير»، قال بما يشبه الهمس. وبعد صمت قصير، أضاف: «ما كنتِ يومًا بحاجة إلى تغيير أي شيء؛ ليس من أجل الرجال الأغبياء الذين مرّوا في حياتك، وليس من أجل بليك كارلايل، وبالتأكيد ليس من أجل أختك التي تحبّك أكثر من كل ما في العالم».

صعدت دموع جديدة إلى عينيّ. وتابع شارلي بابتسامة لطيفة: «إني أرى بصدق أنكِ تامّة الأوصاف».

همست دامعة: «مع أني طويلة القامة جدًّا، وأنام وحجم الصوت في هاتفي على أعلى درجاته؟».

صدّقيني، لا أعني بقولي إنك تامّة الأوصاف بالنسبة إلى بليك كارلايل، بل بالنسبة لي.

شعرت وكأن آلة حفر قوية كانت تقوم بإفراغ صدري من أحماله. أمسكت بقميصه، وهمست: «هل استعرت هذه الجملة من كتاب *Love, Actually* (الحبّ، في الواقع)؟».

« عن غير قصد»، أجاب.

«أنتَ كذلك بالنسبة لي»، قلت له. وفكّرت بشقتي الحالمة، وأشعة الشمس على الكنبة تحت النافذة، ونسائم الصيف التي تهبّ وتحمل معها إلى الداخل روائح الخبز الطازج. مرّ في بالي عندما أنزل من القطار في يوم حارّ، محمّلة بشنطة فيها كتب ومناشف، أو مسوّدة كتاب مطبوعة حديثًا، وأقلام حبر ناشف جديدة من نوع Pilot G2.

مدينتي، وأختي، والوظيفة التي أحلم بها، وشارلي؛ كل ذلك يقع في مكانه الصحيح. إنها الحياة التي قد أبنيها لو كان الحصول على كل مَنْ وما نريده ممكنًا.

«إنكَ تلائمني تمامًا بكلّ أوصافك». كان يتأمّلني، وكنت أشعر بقلبي كأنه بيضة نيئة مكسورة، بلا غلاف قادر على حمايتها، أو على الإمساك بها ومنعها من الانزلاق. «يمكنني البقاء هنا الليلة»، قلت.

حوّل عينيه عنّي، وقال بنبرة هادئة: «نورا».

وإذا بدموعي تعود لتفيض من جديد. أزاح شارلي شعري عن خدّي المبلّل. «لا يمكنك اتّخاذ القرار بتغيير مسار حياتك من أجلي أو من أجل ليبي». قال بصوت عميق ومهتزّ.

«ولما لا؟».

«لأنك حرصتِ طوال عمرك على أن يكون لدى ليبي كل ما تحتاج إليه. وحان الوقت ليحرص الآخرون على أن يكون لديك ما تريدينه. تريدين تلك الوظيفة في لوجيا؛ وتعشقين المدينة. وإن رغبتِ في اقتصاد المال، انتقلي إلى شقتي. قد يعادل بدل إيجارها نصف بدل إيجار شقتك. إن كان هذا ما تريدنه فهذا ما يجب أن يكون لك، ولا شيء أقلّ منه».

حاولت أن أرمش لكي أعيد الدموع إلى داخل عينيّ، كي لا أسمح بإراقتها وهدرها.

«يجب أن يكون لديك كل ما تريدينه»، قال مجدّدًا.

«ماذا لو كان ذلك مستحيلًا؟».

رفع ذقني قليلًا بإبهامه، وهمس فوق شفتيّ: «لو كان في الوجود من يستطيع ترتيب نهاية القصّة لتكون سعيدة، فهي نورا ستيفنز».

على الرغم من أني كنت أشعر بصدري منقسمًا بوضوح إلى نصفين، أو بسبب لك، همست: «إحدى تلك النهايات، قد لا تكلّف أكثر من أربعين دولار في مركز الاسترخاء Spaaaahhh».

ضحك وقبّل زاوية فمي، وقال: «يا لهذا الدماغ!».

كلانا لم يغادر المكتبة في تلك الليلة. لا أريد أن أتركه. ولا أريد أن يبقى وحيدًا وسط الظلمة والسكون. حتى لو لن يدوم ذلك؛ حتى لو لهذه

الليلة فحسب، أريد منه أن يعلم بأني أهتمّ لأمره، مثلما اهتم ويهتم لأمري.
وعلى غير عادتي، غرقت في نومٍ عميق.

***

في الصباح، استيقظت من نومي واستعرضت كل ما حدث في الأمس. الخلاف مع ليبي، العثور على شارلي في المكتبة، تجدّد العلاقة بيننا.

بعد ذلك تحدّثنا طويلًا عن مواضيع شتّى. عن الكتب، عن العائلة، أخبرته عن أمّي وعن تغضّن أنفها عندما كانت تضحك، تمامًا مثل ليبي. وكيف أن الاثنتين كانتا تستخدمان العطر ذاته، ولكن رائحته كانت تبدو على أمي مختلفة عمّا هي على ليبي.

أخبرته عن التقليد الذي كنّا نتّبعه يوم عيد ميلاد أمّي. كيف أننا في الثاني عشر من ديسمبر من كل عام، وعند الساعة الثانية عشرة، كنّا نذهب نحن الثلاثة إلى مكتبة فريمان ونقضي ساعات في استعراض الكتب الجديدة كلّها، إلى أن تتوصّل أمّي إلى اختيار الكتاب الذي يعجبها، وتشتريه بثمن غير محسوم.

«ما زلنا ليبي وأنا نذهب، أو كنّا نذهب، في الثاني عشر من ديسمبر ظهرًا - عند الساعة الثانية عشرة، في اليوم الثاني عشر، من الشهر الثاني عشر. كانت أمّي تهتمّ كثيرًا بهذه المصادفة في الأرقام».

«الرقم ´اثنا عشر´، رقم عظيم! ولا بأس لو ذهبت كل الأرقام الأخرى إلى الجحيم»، قال.

«*شكرًا*»، قلت موافقة.

غرقنا في النعاس في لحظة معيّنة، وأفقت من نومي لأكتشف أننا كنّا قد التصقنا ببعضنا من جديد. قبّلته ليصحو، وبتفكير تغشوه الضبابية، استسلمنا إلى بعضنا غير آبهَيْن بمرور الوقت، ولا بستار الظلمة الذي انسدل على العالم حولنا.

أرخيت رأسي على صدره بعد ذلك، ورحت أصغي إلى مرور الدماء

في عروقه، إلى تيّار شارلي، فيما كان يداعب شعري. وإذا به يقول بصوت عريض ومتحشرج: «ربّما ستتوصّل إلى حلّ».

كأنه كان يجيب عن سؤال. أو كأن الحديث لم يتوقّف. الليل بطوله، والفترة الصباحية، وكل لمسة وقبلة، كأن كلّ ذلك كان يشهد على عمليّات أخذٍ وردّ؛ وشدّ ورخي، وعلى تفاوض أو مراجعة. ربّما سيلاقي هذا الأمر حلّه تمامًا مثلما فعلت كل الأمور بيننا. *ربّما سيوجد الحلّ.*

«ربّما»، همستُ موافقة. لم ينظر أحدنا إلى وجه الآخر، ولا بدّ أننا لم نفعل ذلك لهدف مهمّ: إذ إننا لو نظرنا، لما تمكنّا من الاستمرار في لعبة الادّعاء بقبول النهاية، في حين لم نكن حاضرَين للتخلّي عنها.

شبك شارلي أصابعه بأصابعي، ورفع ظهر يدي إلى شفتيه. «كيفما تغيرت الأمور، أشكّ في أني سأحبّ أحدًا في العالم مثلما أحببتك».

وضعت ذراعي حول عنقه، وتسلّقت إلى حضنه، ورحت أقبّل صدغيّ، وخدّيه، وفمه. وقلت في نفسي *إنه الحبّ*، وارتجفت يداي فيما عبثت بشعره وهو يقبّلني.

إنه ألم الصفحة الأخيرة.

ذلك النفَس العميق الذي نتنشّقه بعد أن نضع الكتاب جانبًا.

وعندما سار معي نحو الباب بعد قليل، أخذ وجهي بين يديه وقال: «أنت يا نورا ستيفنز، ستكونين دائمًا بخير».

الفصل الثالث والثلاثون

كانت ليبي تجلس على الدرج الأمامي، ملتفّة بإحدى كنزات براندن القطنية القديمة. وإلى جانبها، وضعت كوبين من القهوة يتصاعد منهما البخار.

وفيما كنت أقترب منها، لم يخرج من فمي أو فمها أي كلمة. ولكن مظهرها أوحى لي بأنها أمضت الليلة باكية، ولا شكّ أن مظهري لم يكن مختلفًا جدًّا.

قدّمت لي كوبًا، وقالت: «ربّما بات باردًا».

أخذت الكوب، وبعد ثوانٍ عسيرة، جلست إلى جانبها، وشعرت برطوبة الأرض تتسرّب إلى داخل بنطالي الجينز.

«هل أبدأ الكلام؟»، سألتني.

هزرت كتفي. لم نكن في حياتنا على هذا القدر من الغضب - لا أعلم إلى أين ستصل بنا الأمور.

«أعتذر أني لم أخبرك من قبل»، قالت، وبدت كأنها تستخرج الكلمات بصعوبة عبر قناةٍ ضيّقة.

طوال الطريق إلى هنا، كنت أفكّر هل المواجهة مع ليبي ستضعني في موقع السيطرة على الوضع. ولكن لا يمكن قطف الثمار عنوةً في هذه الحال. لأن ما أريده انزلق من بين يديّ، ولا يمكنني التقاطه: إنها الأيام حيث كنّا معًا وما من مسافة بيننا. عندما كنا ننتمي إلى بعضنا أكثر من انتمائنا إلى أي جهة أخرى. عندما كنت أشعر بأن لي انتماء.

«منذ متى نخفي أمورنا عن بعضنا؟»، قلت.

ظهرت على وجهها أمارات المفاجأة والألم، وبدت كأنها طفلة إلى

حدّ لا يصدّق، وقالت: «*لطالما* أخفيتِ أمورًا عني يا نورا. أعلم أنكِ كنت تحاولين حمايتي، ولكن ليس سهلًا أن تدّعي أن الأمور على ما يرام عندما لا تكون كذلك. أو عندما تحاولين إصلاح الأمور دون معرفتي».

سألتها: «إذًا هل هذا ما كنت تفعلينه؟ أخفيت أمر انتقالك إلى مكان بعيد عني، حتى - ماذا؟ حتى يتأخر الألم إلى اللحظة الأخيرة؟».

«ليس هذا ما كنت أفعله»، قالت، وانبعثت دموع جديدة من عينيها. ارتجفت كتفاها، ورفعت يديها إلى وجهها لتمسح دمعها.

لمستُ ذراعها، وقلت: «أعتذر، لم أقصد الإساءة إليكِ».

نظرَت إليَّ وما زالت تمسح دموعها: «كنت أحاول أن أربح ثقتك...».

«ليبي، ماذا تقصدين بقولك هذا؟ أعتذر أني جعلتك تشعرين بأنك غير قادرة أحيانًا. كنت أحاول المساعدة، ولكنّي لم أفكّر يومًا أنك تحتاجين إلى الإصلاح في مكان ما، *قطعًا*».

«ليس هذا ما قصدتُه. أردت أن أربح ثقتك وتأييدك بالنسبة إلى...» وأشارت بيدها إلى المرج، وإلى الجسور الخشبية المستلقية تحت الشمس، والأزهار المتمايلة مع النسائم، والغابات الصنوبرية الخضراء الكثيفة التي تغطّي التلال المحيطة.

وفهمت بقيّة الشرح تلقائيًّا. لم يكن المقصود من القائمة أن تجرّب ليبي أسلوب حياة جديدة، ولم ترِد بها طريقة ملفتة للوداع، أو محاولة أخيرة لكي تمنع عني مصير أن أقضي الليالي وحيدة مع حاسوبي.

كان المقصود بالأحرى إغرائي بالعرض الجديد.

تابعَت: «أراد منّي براندن أن أخبرك على الفور، ولكنّي فكّرت أنك لو جئتِ إلى هنا...؛ لو تعرّفت إلى هذا المكان عن قرب...، حتى لو تعرّفت إلى شابّ مناسب، فقد ترغبين في الانتقال أيضًا معنا. ولكنّك، رحتِ تقضين مزيدًا من الاوقات مع شارلي، ورأيتك سعيدة كما لم أرَكِ منذ زمن. حتى إني كنت على وشك التخلّي عن هذا المشروع كلّيًا، إلى أن

أخبرتني بأنه باقٍ هنا... وبدا لي أنك قد تفكرين في البقاء هنا أيضًا. وفي مثل هذه الحال، سيكون لي كل هذا - *وأنتِ*».

شعرت بالفراغ في داخلي، أو بما يشبه الجفاف. طيلة أسابيع، كنت أخبط قدميّ في المياه كي أعوم، حتى أكتشف فجأةً أن تلك المياه لم تكن إلا سرابًا.

هذه ليبي التي لم تطلب مني شيئًا قطّ حتى منذ شهر فحسب، ها هي تعترف بما تريده حقًّا.

تريد منّي أن أتبعها. وسأعطيها ما تريد. أردتُ لها دائمًا أن تحصل على كل ما تريده.

كل الأجزاء المنظّمة في عقلي تهاوت في الليلة الماضية، وللمرّة الأولى رأيت كل الأمور بوضوح. لم أرها في المظهر المرتّب الذي يخضع لإمرتي، بل بفوضاها، عندما تنسكب بلا قيود.

كنّا، ليبي وأنا، نمرّ منذ فترة طويلة عبر مرحلة بطيئة من التغيير. كان مسارنا الواحد ينفصل إلى مسارين. لم ينقص مكانها في قلبي الآن عمّا كان عليه في اليوم الأول عندما خرجت إلى العالم وهي تصرخ.

ولكنّه بات يوجد وقت أقلّ، وفسحة أقلّ في حياة كلّ منا اليومية. ويوجد أشخاص *آخرون*، وأولويّات *أخرى*. بتنا نؤلّف اليوم معًا مجموعة من دوائر متداخلة على مثال مخطّط فين Venn diagram ولم نعد دائرة واحدة. ربّما اتّخذت كل قراراتي على ضوء ما يسعدها، ولكني الآن هنا، *أحبّ حياتي*.

«طُلب منّي مجدّدًا أن أتقدّم لنيل وظيفة في التحرير»، قلت.

رمشت ليبي عينيها الزرقاوين بسرعة، والدموع ترقرقت فيهما وأضافت إلى بريقهما بريقًا. وقالت: «مــــاذا؟».

نظرتُ إلى خطّ الأشجار في البعيد. «إنها وظيفة شارلي في لوجيا. يريدون موظّفًا يسكن في المدينة، وهو باقٍ هنا. أبلغ شارلي المحرّرة التي

تهتمّ بأعمال دَستي عن ذلك. وهكذا سأهتم بأعمال بعض المؤلّفين الذين على قائمته الآن، ريثما تصبح لديّ قائمتي الخاصّة».

«إنه حلمك»، قالت ليبي قبل أن تستعيد أنفاسها.

ثمة شيء في هذه الكلمة يضيء في جسدي ما يشبه الأسهم النارية.

«أنا...»، قلت، ولم أستطع المتابعة.

ومدّت يديها إلى يديّ وشدّت عليهما، وقالت بصوت متكسّر: «يجب أن تلتقطي هذه الفرصة».

انقبض صدري فيما تفحّصت وجهها. هذا الوجه الذي أعرفه أكثر من وجهي.

«يجب أن تفعلي»، قالت بين الدموع. «هذا ما تريدينه. هذا الذي طالما أردتِه، لا تتخلّي عن الفرصة ثانيةً. نورا، إنه حلمك».

«لم أقم بمثل هذا العمل من... »، قلت، وتابعت بإشارة لولبية غير واضحة بيدي.

«تقصدين أنك لم تقومي بمثل هذا العمل من قبل؟»، قالت ليبي.

«وإن لم أنجح في ذلك؟»، قلت.

«أنت قادرة على النجاح، يمكنك النجاح يا نورا، وإن فشلتِ، لا بأس».

قلت. «حسنًا، أنا...». التفّت ذراعاها حول عنقي، واهتزّ جذعها في ما قد يكون مزيجًا بين الضحك والبكاء وصرخت: «ستكون لك أفضل غرفة ضيوف في العالم هنا، ولو حدث أي سوء هناك، فستأتين للعيش معنا، وسأهتم بك، هل توافقين؟ سأهتمّ بك بمثل اهتمامك بي طويلًا يا نورا».

أردت أن أقول لها كم كانت الأسابيع الثلاثة الأخيرة رائعة.

أردت أن أقول لها إن هذا الوقت هو أسعد وقت عشته منذ زمن، وإنه أيضًا الأصعب.

لأن كل تلك الفجوات بيننا اختفت أخيرًا، غير أن قوّة الاصطدام هزّت كل ما بقي من جليد وأذابته، ولم تترك وراءها سوى الحنان الليّن والطري.

ولذلك فإن كل ما يمكنني فعله هو البكاء معها.

لم يخطر في بالي يومًا أن يكون هذا خيارًا ممكنًا: أن يكون مسموحًا لشخصين أن يتعانقا وينهارا في البكاء معًا. ربّما ليس مطلوبًا منا أن نتصرّف كأننا صُنعنا من فولاذ صلب.

وأنه يمكن لكل منّا أن تتحمّل ألمها من غير أن تسرع الأخرى إلى مساندتها في حمله.

«لا أعلم كيف يمكنني أن أكون من دون وجودك معي يا نورا؟»، قالت ليبي بصوت متقطع. «لم أفكّر يومًا بأني سأبتعد عنك. أعلم أن ذلك جيّد بالنسبة لي ولبراندن، ولكن، كنت أظنّ أننا سنكون معًا طوال العمر. كيف يمكن لشخصين، ينتمي *كل منهما إلى الآخر* أن يعيشا في مكانين مختلفين؟».

«ما زال يوجد احتمال ألا أحصل على الوظيفة»، قلت.

ردّت ليبي بقوّة: «كلّا، لا تحاولي تغيير الوضع. لا تفضّليني على نفسك. كنتِ تفعلين ذلك طيلة أعوام، وكاد الأمر يحطمنا. حان الوقت لنكون مجرّد أختين يا نورا، لا تغيّري في الوضع. كوني معي هنا، واكتفي بالقول: يا للمأزق النحس!».

«إنه كذلك»، وتأمّلت في وجهها بعينين مزمومتين، «إنه مأزق النحس!».

لم أعرف قوّة هذه الكلمات. إنها لا تُصلح شيئًا، ولا تغيّر شيئًا، إنما لفظها يشعرك بأنك تضرب عصاك في الأرض، وتجتمع مع من معك حول نقطة واحدة على الأقل في تلك اللحظة.

إنه مأزق بالفعل، ولا يمكنني تغيير ذلك، ولكني هنا مع أختي، وسننجح بطريقة ما في تخطّيه.

قد تتمكن من إبعاد أولاد المدينة عنها، ولكن المدينة تبقى في داخلهم. وأتوقّع أن الأمر مماثلٌ بالنسبة إلى الأخوة. لن نترك بعضنا بغض النظر عن مكان وجودنا. لن نستطيع ذلك حتى ولو أردنا. ونحن لا نريد. ولن نريد ذلك أبدًا.

***

ذهب براندن لمقابلة المفتّش المكلّف بشأن البيت، أمّا ليبي والفتاتَين وأنا، فمكثنا في الكوخ معًا، كي يكون لبراندن فسحة هادئة من الوقت بعد أن لعب دور الأب والأم لأسابيع.

لن تنتقل العائلة قبل شهر نوفمبر، ما يعني قبل موعد ولادة ليبي بشهر واحد. وحتى ذلك التاريخ سيضطّر براندن إلى السفر مرارًا من أجل ترتيب كافّة الأمور.

شهران ونصف. إنها المدّة المتبقية لنا معًا، وستكون غنيّة وقيّمة.

أمضينا الفترة الصباحية في التنزّه عبر الغابة مع الحرص على ألا تبتعد الفتاتان عن الدّرب أبدًا، كما أمضينا معظم الوقت، في محاولة جديدة كل خمس وأربعين ثانية، في البحث على غوغل عن شكل النوع السامّ من النبتة المتسلّقة المسمّاة *آيفي*، من غير الوصول إلى وصف أو صورة واضحة.

بعد ذلك، عدنا إلى الكوخ وأخذنا بعض الآنية وذهبنا إلى أطراف المرج، حيث توجد شجرة توت محمّلة بالثمار. قطفنا وأكلنا ثمار التوت الناضجة حتى انصبغت شفاهنا وأصابعنا باللون البنفسجي، وحتى لسعت أشعة الشمس أكتافنا.

وعندما عدنا، كانت أقدامنا قد تلوّثت بالتراب، ونامت تالا على ذراعي. أحسست بجسمها دافئًا ومتعرّقًا، وما إن وصلنا حتى جعلناها تستلقي على الأريكة، ريثما تكمل قيلولتها. ثمّ تبعنا بيا إلى المطبخ لكي تشرح لنا كيفية صنع الفطيرة المحشوّة بالتوت. في الأسابيع الماضية، كانت بيا تجلس مع والدها أمام التلفاز ويتابعان معًا حلقات خاصّة لتحضير الحلوى. ما زلت أشعر أن حبّ المدينة متجذّر في عظامي، ولكنّي فكّرت في إمكان أن يكون لنا أكثر من انتماء واحد. فكّرت في إمكان أن ننتمي، عبر مئات السبل المختلفة، إلى مئات الناس والأماكن المختلفة.

الفصل الرابع والثلاثون

وضعت ليبي ابنتيها للنوم على الفراش المنفوخ بالهواء في غرفة النوم العلوية. من جهتي، غيّرت مكان نومي إلى الأريكة التي يمكن تحويلها إلى سرير في الطابق السفلي. ولكن براندن وليبي وأنا لم نذهب إلى النوم باكرًا، بل سهرنا نتبادل الأحاديث، ونتسلّى بما تبقّى من فطيرة التوت التي صنعتها بيا.

سمعنا طرقًا على الباب، فنهض براندن ليفتح بعد أن وضع قبلة على جبين ليبي. «نورا»، ناداني، «هنا من يسأل عنك».

كان شارلي واقفًا أمام الباب، شعره رطب، أما ثيابه فخالية من أي شائبة. كان يبدو كالعادة لامعًا وجذّابًا.

«هل أنت جاهزة لنزهة على الأقدام؟»، سألني.

«إنها كذلك بالطبع»، أجابت ليبي فيما حفّزتني على النهوض.

تمشّينا في المرج، وكانت يده تمسك بيدي ولا تفلتها. لم أمسك بيد أحدٍ منذ زمن طويل غير يد ليبي وبيا وتالا. شعرت بأني أصغر سنًّا، ولكن لم أشعر بأني ضعيفة وسط عالم غير مكترث بي... ، بقدر ما شعرت كأن كل ما حولي كان جديدًا، برّاقًا، وبانتظار أن أكتشفه. مثلما كانت أميّ ترى مدينة نيويورك - هكذا كنت أرى شارلي.

عندما وصلنا إلى غرفة الحديقة المشعّة تحت ضوء القمر، نظر إلى وجهي وقال: «أعتقد أن علينا التفكير بنهاية بديلة».

أجبت بتعجّب: «أعتقد أننا أرسلنا ملاحظاتنا، ودَستي ما انفكّت تعمل على ضوئها منذ أسبوع. إنها ــ».

«ليس بالنسبة إلى فرِيدجد»، قال وهو يرفع يدينا معا إلى صدره، حيث

شعرت بتسارع ضربات قلبه. حدّقت عيناه في عينيّ. عيناه، ذلك الفخّ الدبق الآسر. العينان المسكِرتان بحلوهما. وأضاف: «نتبادل الزيارات بين بعضنا، ربّما مرّة في الشهر، وعندما تتمكّنين، تأتين لقضاء عطلة الأعياد هنا. وإن لم تتمكّني، أطلب من أختي وزوجها المجيء للاهتمام بوالديّ، لكي أستطيع قضاء العطلة معك في نيويورك. نتواصل عبر الفيديو، والرسائل النصّية، والبريد الإلكتروني، بقدر ما نستطيع - وإن كان هذا سيتطلّب الكثير من الوقت، لا أعلم، ربّما نتخلّى عنه. عندما تكونين في المدينة تعملين بكلّيتك؛ وعندما نكون معًا، نكون حقًّا معًا».

أحسست كأن معدتي تمتلئ بملايين الفراشات السكرى المضيئة. «هل تعني ما يشبه العلاقات المفتوحة؟».

«كلّا»، قال وهزّ برأسه. «ولكن إن كان هذا ما تفضلينه... لا أعلم. بإمكاننا أن نجرّب. لا أريد ذلك، ولكنّي قد أحاول».

«أنا لا أريد ذلك أيضًا»، قلت مبتسمة.

تنفّس الصعداء. وقال: «أشكرك».

تلوّى قلبي. وقلت: «شارلي...».

«فكّري في الأمر»، أكّد بهدوء.

لم تنجح هذه الطريقة في حالة سالي وكلينت، ولم تنجح بيني وبين جايكوب، ولا بين شارلي وأمايا. حتى ولو استطعت التغلّب على خشيتي من الانتقال بالطائرة، وحتى لو كان شارلي مستعدًّا للاستمرار في التحدّث معي يوميًّا حتى آخر الليل، كيف سأتغلّب على خوفي الدائم من خسارته؟ على القلق الذي سيطاردني كلّما ألغى موعد اتّصال، أو زيارة؟ هل سأنتظر النهاية المتوقّعة؟ سأنتظر اليوم الذي سيقول لي أخيرًا شيئًا مثل:

أريد شيئًا آخر.

أنتِ لستِ السبب.

أريد شخصًا آخر.

سأعيش مع الألم الموجع الذي سينمو ببطء أسبوعًا بعد أسبوع ويكسر قلبي.

سوف يُقطع رأسي شيئًا فشيئًا بآلاف القصاصات الورقية حتى أموت.

«تذكّر أنّك أكّدتَ لي سابقًا أن العلاقة عن بعد لا تنجح»، قلت له.

«أعلم يا نورا، ولكن لم نكن نحن في علاقة».

«إذًا، نحن نشكّل الاستثناء»، قلت بريبة. «نحن اللذين ستنجح علاقتهما حيث لا تنجح علاقة الآخرين».

«نعم. ربّما، لا أدري».

حامت عيناه فوقي فيما كان يجمع أفكاره. «أيّ أفكار أخرى يا نورا؟ إني منفتح على ملاحظاتك. أخبريني أين تقترحين التغيير. أخرجي قلمك اللعين، واشخطي على كل شيء، وأخبريني كيف يجب أن تنتهي القصّة».

حتى الابتسامة كانت مؤلمة. وخرج صوتي مجروحًا كأنه مرّ فوق زجاج مكسور. قلت: «نستمتع بهذا الأسبوع. نقضي كل ما نريده من الوقت معًا، ولا نتحدّث عمّا سيأتي لاحقًا، ثمّ أغادر ولا أقول ´وداعًا´. لأني لا أحسن الوداع. لم أقل ´وداعًا´ لأحدٍ من قبل. ولا أريد أن تكون أنت أوّل من أودّعه. ولذلك، عندما أقبّلك للمرةّ الأخيرة، أي منّا لن يذكر أنها الأخيرة. ثم...، أركب الطائرة وأعود، وكلّي امتنان على الشهر الذي أمضيته ذات مرّة في شمال كارولاينا مع الرجل الأكثر جاذبية في العالم».

كان يحدّق بي ويحاول استيعاب ما كنت أقوله بتركيز ظاهر في العينَين، وتقطيب في الحاجبَين، وبشفتَين مقلوبتَين؛ كما يبدو عادةً عندما يركّز أثناء التحرير. وعندما ارتاحت قسمات وجهه، هزّ رأسه وقال: «كلا».

فاجأني قوله، فقلت ضاحكة: «ماذا؟».

انتصب في وقوفه واقترب منّي، «قلت كلا».

«شارلي، ماذا تعني بهذا؟».

«أعني»، قال وأومضت عيناه: «عليك أن تجدي نهاية أفضل».

ابتسمتُ رغمًا عنّي، وانتفض الأمل في صدري، كأنه فرخ طائر بجناح مكسور يكافح من أجل الحياة.

«سوف أنتظر منكِ تعديلات تحريرية جديدة من هنا حتى يوم الجمعة»، قال.

بقيّة أيام الأسبوع كانت ملأى بالنشاط. انشغلت ليبي في التحضير للحفلة الخيرية الراقصة. وبراندن انشغل في إنهاء اتفاقيّة شراء البيت بالتقسيط. واهتمّ شارلي بالصندوق في المكتبة، وبدَت سالي في ذهاب وإياب مستمرَّين لتجهيز كل ما لزِم لإنجاح نادي الكتاب الافتراضي مع دَستي.

إعلان جديد في نافذة المكتبة يقول بأحرف كبيرة: **قم بخيارات جيّدة واشترِ الكتب الجيّدة من غودي بوكس**. وصورة كبيرة تظهر وجه الكاتبة دَستي وهي تعلن في الآن عينه عن نادي الكتاب الافتراضي، وعن الحفلة الراقصة التي تحمل عنوان ´*مرةّ في العمر تحت ضوء القمر الأزرق*´.

غيَّر المتطوّعون وجه ساحة البلدة. أما أنا، وعلى الرغم من أني كنت في إجازة فعلية لمدّة أسبوع، كنت أحاول إنجاز بعض الأعمال الملحّة بين الأوقات التي قضيتها تارةً في اللعب مع بيا وتالا، وتارةً أخرى في ترتيب أوراق سيرتي الذاتية التي سأقدّمها إلى دار النشر لوجيا.

لطالما تعوّدت التفكير أني ابنة الصراع من أجل البقاء. ولكنّي وجدت نفسي في تلك المدّة الأخيرة غارقة في أحلام اليقظة. أحلم بفرصة العمل الجديدة، وأحلم بشارلي، وأحلم بأن يكون لي كل ما أريده دفعةً واحدة.

ربما غيّرني هذا المكان من هذه الناحية، ولكن ليس إلى فتاة تحبّ الضفائر والقمصان القطنية المخطّطة بالمربّعات.

عندما أكون مع شارلي، فإننا لا نحتفظ بمسافة بيننا، ولا ندور حول بعضنا بحذر، بل نستمتع بكل لحظة، ولا نتحدّث عن المستقبل. وعندما لا نكون معًا، نبقي التواصل قائمًا عبر الرسائل النصيّة والمكالمات:

«تقضين عطلة عيد الميلاد في صنشاين فولز، وأقضي عطلة رأس السنة في نيويورك»، كتب.

«ننهض باكرًا ونتنقّل بين القطارات حتى نجد فرقة مارياشي»، كتبت.

«نحضر جلسات محكمة البلدية ونشارك في حلّ النزاعات العامّة. ثمّ نعود إلى الكوخ ونقضي الليل في ممارسة الحبّ. ونقوم بتذوّق ومقارنة كل شرحات البيتزا التي تباع بدولار واحد في البلدة»، كتَب.

«نأكل السلطة بالجامبون حتى آخر قطعة جامبون في مطعم بوبا سكوات»، كتبت.

«أثق بقدراتك كثيرًا يا نورا، ولكنّك لم تحسني فكّ لغز هذه التسمية حتى الآن».

«أنا في سباقٍ مع الوقت المتبقي لي مع ليبي والفتاتين- سأكون كثيرة الانشغال في الشهرين الأوّلين بعد عودتي. وإن حصلت على الوظيفة في لوجيا، فسوف يترتّب عليَّ التحضير لمغادرة الوكالة، وتسليم عملائي إلى غيري. ثم تأتي مرحلة التدرّب على الدور الجديد».

«لا تخيفني كثرة الأعمال»، قال.

هكذا هو *الحلم*، فكّرت. وها إني أفهم أخيرًا لماذا لم تتراجع أمّي عن حلمها؛ ولماذا لا يتراجع المؤلفون عن أحلامهم. أشعر بالسعادة من أجلهم، لأن في هذا *التوق*، إحساس لذيذ؛ كأنك تضغط على نقطة موجعة على سطح الجلد فترتاح من الألم ولو للحظات. إنها تذكّرك أن في الحياة أمورًا ثمينة جدًّا قد تدفعك إلى المخاطرة وتكبّد الألم من أجل فرح نيلها ولو لفترة وجيزة.

كتبتُ إلى شارلي: «الفصل الأول يكون عادةً الأحلى، ثمّ تصبح الأمور أكثر تعقيدًا».

أجاب: «ستيفنز، بالنسبة لنا ستكون الفصول كلّها هي الأحلى».

أشعر بالألم، ولكني أترك العنان للحلم لفترة أطول.

***

لا يحاول أحد إقناعي بأن الوقت يتقدّم في قفزات متساوية. لا شكّ أن

الساعة تعمل وفق نظام محدّد، ولكنها تخرج الدقائق بحسب السرعة التي تحلو لها. مرّ هذا الأسبوع بلمح البصر، قبل أن يأتي يوم الجمعة.

موجة حرّ جديدة تبدأ كمؤشّر لحلول المناخ الخريفي.

نصبنا الخيمة من جديد، وبسطنا الفراش الهوائي. وفيما ذهب براندن وليبي إلى سوق البلدة للعودة بوجبة بيتزا لنا جميعًا، تمدّدت مع الفتاتين أرضًا لمراقبة تقدّم الظلمة عبر القبّة الزرقاء.

حدّثتني بيا عن جميع الأصناف التي حضّرَتها مع والدها في الأسابيع الماضية. أما تالا فأمتعتنا بقصة قد تكون واحدة من اثنتين. إما أنها من نوع الثرثرة الطفولية غير المفهومة، أو هي إعادة سرد صادقة لبعض مؤلّفات الكاتب المعروف كافكا Kafka.

بعد العشاء اقترحت ليبي على براندن النوم في السرير الكبير بمفرده في تلك الليلة، فأجاب وهو يتثاءب: «يا لها من فكرة جيّدة، شكرًا».

وعندما قبّل الفتاتين وتمنّى لهما ليلة سعيدة، كانتا ناعستين لدرجة أنهما لم تُظهرا أي ردّ فعل، ما عدا أن تالا مدّت ذراعيها الصغيرتين إلى وجهه لحظةً ثم أسقطتهما ثانية فوق بطنها.

قبّل ليبي، ثم حضنني بذراع واحدة (بأسلوبه المتعسّر المعتاد)، وشعرت بفورة من العاطفة نحوه، تتخطّى تلك التي شعرت بها يوم زواجه بليبي.

قالت ليبي ضاحكة: «ما الخطب؟ هل تبكين؟».

ضربتها بوسادة، وقلت: «اصمتي، ثقبتِ جيوب الدّمع في عينيّ، ولم أعد قادرة على حبس دموعي».

قالت محاولةً إغاظتي: «تبكين لأنك تحبّين براندن كثيرًا. اعترفي بذلك».

«أحبّ براندن كثيرًا»، وأضفتُ ضاحكة بين الدموع. «إنه لطيف جدًّا».

تعالت ضحكات ليبي: «يا إلهي، أعلم ذلك».

تململت تالا وتدحرجت، وطوَت ذراعها فوق عينيها.

شبكنا، أختي وأنا، يدينا واستلقينا، ظهرنا إلى الأرض ووجهنا إلى السماء، ورحنا نحاول معرفة عدد الكواكب الذي لا يصدّق.

«تعلمين ماذا؟»، همست ليبي.

«ربّما، ولكن هيّا... قولي ماذا؟».

«حتى لو لم تستطيعي رؤيتها في مانهاتن، فهذه النجوم ستكون موجودة فوقك. ربّما نحاول النظر إلى السماء يوميًّا في الوقت عينه».

«كل ليلة؟»، قلت غير متيقّنة.

قالت ليبي: « أو مرّة في الأسبوع. نتحدّث على الهاتف وننظر إلى السماء، ونعلم أننا سنبقى معًا أينما ذهبنا».

ابتلعت ريقي، ومعه حسرةً كانت تتصاعد إلى حنجرتي. «أمّنا ستكون معكِ أيضًا. أن تكوني خارج نيويورك لا يعني أنك ابتعدتِ عنها»، قلت لها.

اقتربت مني ليبي أكثر، وأسندت رأسها إلى كتفي. وسرعان ما اكتشفت أن رائحة التوت لمّا تزل في شعرها. وقالت بلطف: «شكرًا».

«على ماذا؟»، قلت.

«أقول شكرًا. هذا كل شيء»، أجابت.

وللمرّة الأولى لا أرى أمّي في حلمي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الخامس والثلاثون

ساحة البلدة ترقص بحبال الإنارة والزينة وتمتلئ بصفوف طويلة من الطاولات المغطّاة بالأغطية القطنية الأنيقة والملأى بكل أنواع الفطائر والحلوى. في الوسط ساحة كبيرة للرقص، وشاحنة صغيرة تحمل اسم بيرة كورز Coors متوقّفة وراء الكشك وتبيع البيرة. وليس بعيدًا عن الشاحنة كانت أمايا والسيدة ستروذرز تهتمّان بالترويج للنبيذ الذي قدّم بلا مقابل ليباع في المناسبة، وتسكبان الكؤوس بطريقة غير لبقة أحيانًا. أشكّ في أن كل ما يحدث هنا مرخّص به، ولكن كلام ليبي يوحي بأن كل فعاليات البلدية يشاركون في المناسبة بطريقة أو بأخرى، ولذلك قد لا تكون كل الأمور مطابقة للقوانين تمامًا.

براندن، وليبي، والفتاتان، وأنا، توقّفنا عند غودي بوكس لنرى ماذا يجري في نادي الكتاب الافتراضي مع دَستي. ولكن المكان مزدحم للغاية، ولم نبقَ طويلًا. سالي وشارلي، كانا قد رتّبا كل المقاعد الجديدة والكراسي القديمة القابلة للطيّ في صفوف داخل الكافتيريا لحضور اللقاء الذي تديره دَستي عبر تقنيّة الفيديو. وكان قد جرى عرض الصورة على الحائط المقابل للحضور، وبُثَّ الحوار عبر أجهزة الصوت فكان مسموعًا في أرجاء المكتبة، وباستطاعة العدد الفائض من الزوار سماعه في أثناء اختيار وشراء الكتب.

بيا وتالا كانتا تركضان وتقفزان في كل مكان، ولذلك قرّرنا متابعة طريقنا إلى كشك بيع الصودا والمثلّجات الملحق بمقهى كوب + كأس، لنشتري لهما بوظة الفراولة بالكريما المخفوقة بالقطر والصودا.

«هذا خطأ كبير»، قالت ليبي فيما كانت تعطي الكؤوس المعرّمة بالخليط الأحمر العجيب إلى ابنتيها.

«إنما لذيذ»، قلت.

قال براندن بصوت منخفض: «لكن... سرعان ما يصيبهما النعاس بعد تناول الكثير من السكر».

بعد العودة إلى الساحة، عبئنا بنهم أكياسًا من الفوشار، وقطعًا من فطائر الشوكولاتة والراوند، والتهمتُ أيضًا ما لذّ لي من جوز *البيكان* المرشوش بالسكر الذي ذكّرني بصباح الأيام الباردة في سنترال بارك. وشربنا ما شئنا من النبيذ الذي كان بعضه من أسوأ الأنواع التي اختبرتها في حياتي، وبعضه الآخر جيّدًا.

رقصنا مع بيا وتالا على أنغام موسيقى *البوب*، مع العلم أن بيا أبدت مهارةً أكبر في الرقص من ليبي ومنّي. ومع حلول الليل وانفلاش الظلمة، انخفضت حرارة الجوّ قليلًا، ونامت تالا في حضن براندن فيما كان يتحدّث إلى كلينت لاسترا حول صيد الأسماك في أماكن خاصّة معدّة لصيد الأسماك وإعادتها إلى الماء على الفور.

لم يمارس براندن الصيد في حياته، ولكنه مصرّ على ذلك، وكلينت مستعدّ لمساعدته.

ستكون *ليبي سعيدة هنا*، فكّرت فيما كنت أنظر إليها من بعيد، وهذا سيجعل فراقنا أسهل بعض الشيء. ذهبت ليبي وبيا نحو السيارة التي استأجرها براندن، حيث كانت ليبي تتوقّع وجود سترة أو أغطية، وبقيت أتمشّى بين الناس. راقبت غيرتي وصديقتها اللتان تشاجرتا في ذلك الاجتماع في مركز البلدية. غير أنهما، وعلى غرار عدد كبير من الأزواج والأصدقاء، كانتا تتمايلان معًا كالسكارى في ساحة الرقص.

لمحت شيبرد بين الناس، فبادرني بابتسامة خجولة وحيّاني من بعيد فيما كان يتقدّم بخطوات كبيرة نحوي. «مرحبا»، قال.

«مرحبا»، أجبت. وبعد لحظة صمت محرجة، وما إن بادرت: «إني أعتذر ــ» حتى تكلّم هو أيضًا: «كل ما أردت قوله ــ».

ابتسم مجدّدًا، ابتسامة الرجل الوسيم الرائد. «تكلّمي أوّلًا».

قلت: «أعتذر إن كان تصرّفي مضلّلًا إنك شاب ممتاز».

«إنما لست الشاب الممتاز الذي *تفضّلينه*»، قال. وارتسمت على وجهه من جديد ابتسامة دافئة وإن أوحت بشيء من خيبة الأمل.

«أنت على حقّ»، قلت بلا مواربة. «ولكنك لو ذهبت إلى نيويورك، وكنت بحاجة إلى مرشد سياحي، أو إلى مساعدة في ترتيب العلاقات... ».

«سأبحث عنكِ»، قال، ثم رفع ظاهر يده إلى فمه ليخفي تثاؤبه، وأضاف: «لست معتادًا على السهر حتى هذه الساعة، يجب أن أذهب إلى النوم».

بالطبع، فهو من الناس الذين يبدأون نشاط يومهم باكرًا. في الحياة مع شيبرد ستكون ممارسة الجنس رومنسية وهادئة، مع الكثير من لغة العيون العميقة التي تتبعها جلسات طويلة لمراقبة طلوع الشمس على الوادي. لا بدّ من أن يكون شيبرد جزءًا من نهاية قصّة سعيدة في حياة إحداهن. ربّما ينتمي إلى فتاة معيّنة بطريقة لا يمكن تفسيرها.

بالنسبة إلى فتاة أخرى سيكون الارتباط به سهلًا بالمعنى الإيجابي.

وكأنه سمع نداء أفكاري، ظهر شارلي على مسافة أمتار قليلة وراء شيبرد؛ شعرت بقلبي يرف بسعادة لاستقبال الحبيب القديم الوفي.

انتبه شيبرد إلى تحوّل نظري، كأني زهرة دوّار الشمس التي لا بدّ أن تستدير نحو مصدر نورها. تتبّع اتجاه نظري ورأى شارلي، وابتسم ابتسامة العارف. «أتمنى لكِ رحلة سعيدة يا نورا».

«شكرًا»، قلت، واحمرّت وجنتاي قليلًا بسبب صراحتي. «آمل أن تكون بخير، شيبرد»، قلت.

وسار نحو أطراف الساحة، متوقّفًا خلال لحظات حيث تبادل بضع كلمات مع شارلي. تبادلا الابتسام، وبدا شارلي حذرًا بعض الشيء، ولكن ليس بمستوى الاحتراس الذي ظهر عليه في ذلك اليوم أمام غودي بوكس. ربّت شيبرد على كتفه فيما كان يقول شيئًا. وعندما نظر شارلي باتجاهي انطلق فوران العاطفة في صدري من جديد استجابة لابتسامته.

ما لبث الاثنان أن افترقا، وتابع شيبرد طريقه إلى أطراف الحشد، بينما مشى شارلي نحوي، وابتسامته تزداد وضوحًا.

«علمت أنك قد تشعرين بالبرد»، قال بهدوء. كان يحمل قميصًا قطنيًّا ذا أكمام ومربّعات مطويَّة لم ألحظ وجوده. نظرت إلى حيث ليبي وبيا تقفان مع براندن، فطالعتني ليبي بابتسامة كبيرة.

قلت: «واو!، الأخبار حقًّا تنتشر بسرعة هنا».

أجاب: «ذات مرّة، وقد كنت في المدرسة الثانوية، خطرت ببالي فجأةً فكرة جريئة، وهي أن أحلق شعري كلّيًا. ذهبت للتوّ إلى الحلّاق وكان لي ما أردتُ، ولكن الخبر وصل إلى والديّ حتى قبل وصولي إلى البيت».

«هذا ملفت»، قلت.

«بل جنوني». وفتح القميص وأمسك به، واستدرت لتنزلق ذراعاي في الأكمام بتؤدة، كأني شخصية اجتماعية راقية في فيلم سينمائي قديم بالأبيض والأسود، ثم استدرت ثانيةً، ليبدأ شارلي في تزريرها.

«هل هذا قميصك؟»، سألته.

«كلّا، أبدًا. بل اشتريته لك». وفاجأني بضحكاته. «كانت على القائمة التي أردتما تنفيذ بنودها. اشتريت قميصًا لليبي أيضًا، وصرخت عندما رأتها، حتى اعتقدتُ أنها على وشك الولادة».

ابتسم كلانا وطالت الابتسامة. وطال لقاء أعيننا، ولأوّل مرّة لم أجد في مثل ذلك غرابةً أو حرَجًا. يبدو أن كلينا اختار من بين النشاطات في الحفلة نشاطًا واحدًا، وهو: الوجود في الآخر.

«كيف أبدو؟»، قلت.

«امرأة جذابة جدًّا، في قميص عادي»، قال.

«كل ما همّني من كلامه كلمة ´جذابة´».

افترّت شفتاه عن الابتسامة التي أفضّلها من بين ابتساماته المتنوّعة، وهي التي توحي بأن هناك سرًّا عالقًا في إحدى زوايا فمه. «هل ترغبين في الرقص، ستيفنز؟».

«هل ترغب أنت؟»، قلت بتعجّب.

«كلا، ولكني أريد أن ألمسك. والرقص ذريعة مناسبة».

أمسكت بيده وجذبته إلى ساحة الرقص تحت الأضواء الوامضة فيما كانت الموسيقى تلعب أغنية جايمس تايلور «كارولاينا في فكري»، كأن الكون قَصد الإمعان في إغاظتي.

طوى شارلي يديَّ في باطنَن كفّيه الدافئتين، وأسندت رأسي إلى كنزته، وأغلقت عينيّ لأركّز على هذا الشعور. أردت أن أطبع كل تفصيل من شارلي على أوراق ذهني: عطره، مزيج رائحة **الكتاب** والليمون مع لمسة الأفاويه خاصّته؛ الصوف الناعم وعضلات الصدر المشدودة تحته، ودقّات قلبه التوّاقة المكتومة، وملمس ذقنه على وجهي؛ والشعور بالارتعاش الذي لا يمكنني وصفه عندما يدفن فمه في شعري ويتنفّسني.

«هل اشتقتِ للطعام؟»، قال بهدوء.

فتحت عينيّ لأتفرّس في حاجبَيه الكثيفَين وجدّية ملامحه. «أكلت. لقد تذوّقت بعض أنواع الفطائر»، قلت.

هزّ برأسه هزّة طفيفة، وقال: «أقصد المأكولات في المدينة».

«أوه»، قلت، فيما ضغطت بخدّي على كتفه، وتكوّرت أصابعي حول يده، كأني أحاول الإمساك به، أو بنفسي، في هذا المكان، لوقت أطول ولو بقليل. «يجب ألا نتحدّث عن ذلك».

ازداد ضغط يديه اللطيف للحظات. أغلقت عينيّ، وقلت بعد صمت: «أشتاق للأطباق التايلاندية».

«يوجد مطعم تايلاندي عند المنعطف القريب من شقّتي، سأصطحبك إليه ذات يوم».

تركت لمخيّلتي العنان من جديد: تصوّرت شارلي في شقتي. يجلس على الأريكة، حاسوبه المحمول في حضنه، والجدّية بادية على وجهه ويقرأ. الجليد ملتصق بزوايا النافذة وراءه، ورقعات الثلج المتساقط تنفلش وتذوب فوق الزجاج. وحبال أضواء عيد الميلاد ملتفّة حول أعمدة

الإضاءة في الشارع المحاذي، والناس يمرون محمّلين بأكياس كبيرة ملأى بالأغراض والهدايا.

سمحت لشعوري في هذا الإطار الخيالي بالاستمرار قليلًا. تخيّلت عالمًا لشارلي ولي وحدنا داخل العالم. دفعت بجدران هذا العالم أمتارًا قليلة لتوسعتها، ولكي تحتويني مع شارلي، عوضًا عن تمضية كل ثانية في النظر إلى الشقوق الكئيبة.

هكذا يكون العيش في الحلم. فكّرت.

ولكن ما لبثت الحقيقة أن حلّت مكان الحلم، لأن لا أحد يستحقّ الصّدق أكثر من شارلي.

رأيت نفسي أعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم، لكي أحوّل ملفات عملائي إلى وكلاء جدد، ثم أعمل على الاستقرار في الوظيفة الجديدة. تصوّرت شارلي مرهَقًا بعد ساعات عمل طويلة في المكتبة. تصوّرته يرافق كلينت إلى جلسات إعادة التأهيل الفيزيائي في نهاية الأسبوع، ويصرف الساعات في البحث على الإنترنت لكي يتعلّم كيفيّة إصلاح مشكلة تسرّب المياه من المراحيض، وتغيير مفصّلات الأبواب المخلّعة.

تصوّرت الاتصالات بيننا التي لا نتمكّن من الإجابة عليها. الرسائل النصّية المتراكمة. الألم. الحزن. الشوق لنكون معًا. الزيارات التي قد نلغيها تحت ضغوط العمل أو لحالة طارئة في نطاق العائلة. سنضطرّ إلى شدّ حبل احتمالنا إلى أقصى الحدود. ستتمزّق قلوبنا على مساحة رقعة كبيرة...، على مسافة ولايات عدّة بيننا.

اعتصر قلبي بقوّة وبدرجة موجعة. قال لي شارلي مرّةً إن على غيري أن يتيقّن من حصولي على ما أحتاج إليه، وفكرت أنه يستحقّ هو أيضًا بالتأكيد.

تسارعت دقّات قلبي، فأحسست كأن جسدي على شفا الانهيار. «شارلي».

وقع صمت طويل. وبرز نتوء حنجرته عندما بلع ريقه، وتكلّم بصوت مبحوح وهمس متحشرج: «أعلم. ولكن لا تقولي ذلك الآن».

لم ننظر إلى بعضنا. نعلم أنّنا لو فعلنا فإن هذه التمثيلية التي نلعبها ستنتهي. ولذلك تمهّلنا وتمسّك واحدنا بالآخر.

تجربته مع العلاقة العاطفية عن بعد لمدّة سنة، جعلت تلك السنة الأسوأ في حياته. وتجربتي كادت تقضي عليّ. ما قاله بأن الأمور مختلفة هذه المرّة، لأننا ´نحن´، ونفهم بعضنا. ولكن، ولهذا السبب تحديدًا، لن أوافق على ذلك.

«في الأسبوع الماضي، ومن منطلق مَيْلي الشديد إليكَ، كنت على استعداد للمضيّ في المحاولة»، قلت، وابتلعت ريقي كأنه كتلة مسنَّنة بحجم قبضة اليد، وكان لا بدّ لصوتي أن يتخدّش قبل الخروج. وتابعت: «ولكني أفكّر الآن أني ربّما أحبّك كثيرًا لدرجة تمنعني من ذلك».

فاجأني سماع نفسي أتلفّظ بهذه الكلمات، ليس لأني كنت على غير وعي بحقيقة شعوري، وإنما لأنها المرّة الأولى التي أكون فيها البادئة في الاعتراف بالحبّ. لم أفعلها حتى مع جايكوب. «ليس عليك أن تقول شيئًا»، أضفت بسرعة.

شعرت بفكّه ينقبض على طول خطّ تلامسه مع خدّي: «أحبّك يا نورا. لو لم أحبّك بهذا القدر الكبير، لحاولت إقناعك بأنّك قد تكونين أكثر سعادة هنا. لا تتصوّري كم أتمنّى لو كنت كافيًا».

«شارلي...»، بدأت في القول.

«ما أقوله ليس من باب التواضع، أو التقليل من أهميّة نفسي»، أكّد لي هامسًا في أذني. «لكني أظنّ أن في الحياة الواقعية أكثر من ذلك».

«لو كان في الحياة شخص واحد كافٍ، فلسوف يكون أنتَ»، قلت.

شدّ ذراعيه حولي، وتحوّل صوته إلى ذبذبات خفيضة: «أنا سعيد باللحظات التي عشناها، حتى لو أنها لم تستمرّ بالقدر الذي أردناه».

علقت الدموع في عينيّ، وكانت كثيفة للغاية حتى تحوّل مشهد ساحة الرقص إلى مجرّد خطوط متداخلة من الضوء والألوان.

«ولكنّها...»، أغلقت عينيّ بشدّة وأضفت: «كانت لحظات خارقة بالفعل».

«ستكونين بخير يا نورا»، همس إلى جانب خدّي، مرخيًا ذراعيه من حولي. «ستكونين في حال أحسن من الحسن».

وكما اتّفقنا، لا لزوم للوداع. عندما انتهت الأغنية، طبع قبلةً أخيرة عند أسفل خدّي، ورفّت رموشي وأغلقتُ عينيّ.

وعندما فتحتهما، كان قد ذهب.

ولكنّي ما زلت أشعر بحضوره في كل مكان.

أنا هي هيثكليف[1].

***

وفيما هربت للتوّ إلى أحد الأطراف غير المضاءة من الساحة، بعثت برسالة سريعة إلى ليبي وبراندن لأقول لهما إني سألقاهما في البيت.

«ستغادرين؟».

لم أصرخ فحسب على وقع الصوت المفاجئ، بل رميت حقيبتي من يدي فحطّت في حوض الأزهار.

«لم أقصد إجفالك»، قال كلينت لاسترا الذي كان يجلس على مقعد خشبي، وإلى جانبه الجهاز الذي يساعده على المشي، وفوق رأسه تحوم بضع بعوضات خارج سربها.

التقطتُ حقيبتي ومسحت عينيّ بأسلوب غير ملفت بقدر الإمكان، وقلت: «موعد طائرتي غدًا في الصباح الباكر».

قال: «كنت أحبّذ الذهاب الآن إلى النوم أيضًا، ولكن سالي ترفض أن أبتعد عن نظرها». ثم رماني بنظرة تختلط فيها المرارة بالسخرية: «الشيخوخة صعبة، لأن الناس يعاملون المسنّ كأنه طفل».

---

(1) شخصية توصف بمظهر القسوة الخارجية على الرغم من احتدام العواطف في داخلها.

«كان بوسعي أن أعطي أيّ شيء في مقابل أن أجد أمّي مسنّة». خرج الكلام من فمي قبل أن ألاحظ أن ما قلته لم يكن مجرّد فكرة شاحبة في زوايا دماغي.

«أنتِ على حقّ»، قال كلينت. «أنا محظوظ، ولكن لا يسعني سوى الشعور بأني مقصّر معه».

أحسست بحاجبَيّ يرتفعان تعجّبًا. «من تقصد؟ شارلي؟».

قال: «ما كان يجب أن تكون الأمور كذلك. ما كان يجب أن يكون هنا».

أحبطني قوله. ووجدتني في حيرة حول ما أستطيع التفوّه به، أو إلى أي مدى يمكنني التعبير عن رأيي. لم أتكلّم إلى كلينت سوى لمامًا في الأسابيع التي أمضيتها هنا.

قلت بتحفظ: «قد يكون هذا صحيحًا، ولكن يهمّ شارلي أن يكون هنا من أجلك. هذا الأمر يعنيه كثيرًا».

التفت كلينت بسرعة نحو الحشد الموجود على ساحة الرقص وتحديدًا إلى حيث وقفنا شارلي وأنا منذ دقائق. «لن يكون سعيدًا»، قال.

لا أظنّ أن الأمر بهذه السهولة. ليس لأني، مثلًا، لن أكون سعيدة لو كنت هنا إلى جانب ليبي. بل سأشعر كالتي استعارت جينز غيرها؛ أو كأني أخذت عطلة من حياتي. أو كأنها مرحلة زمنية أخرج فيها عن مساري الطبيعي لفترة معيّنة.

فعلتُ ذلك من قبل، ولم أندم أبدًا بمعنى الندم. بل كانت هناك دائمًا أمور شعرت بالامتنان عليها.

إنها الحياة. نقف دائمًا أمام لزوم الاختيار واتّخاذ القرار. تختار لنفسك مسارًا قبل أن تعرف أنه سيؤدّي بك إلى مكان بعيدٍ عن البقيّة. وربّما لهذا نحن البشر نهوى القصص. لأنها تحمل لنا الفرص لنعيش الأمور بطريقة أخرى، أو لنعيش بين سطورها الحياة التي لم نختبرها قطّ.

قلت: «يريد البقاء هنا من أجلكما أنت وسالي. إنه يعمل جاهدًا ليكون من يعتقد أنكما تريدانه أن يكون».

لا شك أن كلينت لاسترا رجل طيّب. مسح دمعةً عن خدّه. وارتجفت يداه قليلًا عندما أعادهما لتستريحا فوق ساقيه. وقال: «لولدي شخصيته الخاصّة. إنه مثل أمّه. ولكن سالي أحيانًا، بل دائمًا، كانت سعيدة لتمايزها قليلًا عن الآخرين. أعتقد أن ولدي أمضى معظم عمره شاعرًا بالوحدة ــ»، ورمقني بنظرة جانبية متفحّصة؛ تلك النظرة التي تخال أنها تخترقك مثل التصوير الشعاعي، والتي يتْقنها ولده إلى حدّ كبير. وتابع: «ولكنّه بدا مختلفًا في الأسابيع القليلة الماضية».

ثمّ ضحك، كأنه يضحك مع نفسه، وأضاف: «كنت أحاول أن أقرأ معه كتابًا كل شهر. قمت بذلك حتى سنوات دراسته الثانوية، وحتى أثناء دراسته الجامعية. كنت أطلب اقتراحاته، أسأله عن الكتاب الأخير الذي قرأه وأحبّه، لكي يكون لدينا مادّة يمكننا أن نتبادل الآراء حولها وتكون محطّ اهتمامه. كان ربّما في الرابعة عشرة عندما قرأت أحد كتبه وقلت في نفسي: *تبًّا لي، يبدو أن هذا الولد تخطّاني*».

عندما حاولتُ الاعتراض، رفع كلينت يده، وقال: «لم أقل هذا تواضعًا، أو لأقلّل من قيمتي الذاتية. إني رجل ذكي بقدر كافٍ وبطريقتي. ولكنّي معجب بابني. يمكنني الاستماع إلى ذلك الولد يتكلّم طويلًا، وأطول ممّا تعوّد أن يفعل، حول شتّى الأمور. عندما زرناه، سالي وأنا في نيويورك لأوّل مرّة، وجدناه في المكان الملائم له. بدا لنا أنه كان يعيش بنصف قدراته قبل انتقاله إلى هناك. وهذا ليس ما يريده الأهل لأبنائهم».

نصف قدراته. فكّرت.

«كان شارلي مختلفًا في الأسابيع القليلة الماضية وأكثر ارتياحًا؛ كان أقرب إلى ذاته»، قال كلينت. ولاحظت في حركة فمه ظلالًا من ابنه؛ أكان ابنه البيولوجي أو غير ذلك.

كنت مختلفة أيضًا. تُرى هل كنت أعيش بنصف قدراتي أيضًا؟ في عملي كوكيلة؟ وفي مواعداتي؟ هل كنت أحصر نفسي في إطار ثابت وآمن، ولكنه غير إطاري الصحيح؟

«هل تعلم؟»، قلت بحذر لأني لم أرد إفشاء أسرار شارلي، ولكنّي شعرت بحافزٍ يدفعني إلى الكلام. ولم أرغب في مراعاة أصول التهذيب والملاطفة لكي أكسب ودّ أحد الناس على حسابه. «ربّما تحاول أن تبرهن له بأنك لست بحاجة إليه، لأنك مقتنع بأنه لا يريد حقًّا البقاء هنا. ولكن لا تتصرّف كأن وجوده لا يجدي نفعًا؛ أو كأنه عاجز عن تقديم المساعدة. لعلّ هذا المكان أعطاه الأسباب الكافية ليظن بأنه ليس بالمستوى المطلوب، ولكن آخر من ينتظر منه تأكيد هذه الصورة المشوّهة هو أنت».

فتح فمه ليعترض. فأضفت: «لا فرق إن كان هذا ما تشعر به نحوه أو لا، ولكن هذا ما توحي به إليه. وإن أتحتَ له المجال لكي يساعدك، فسوف يفعل، وعلى وجهٍ أفضل ممّا تتوقّع».

وبقولي ذلك، أنهيت كلامي واستدرت لأنطلق في طريقي، قبل أن يفيض الدمع مجدّدًا من عينيّ.

الفصل السادس والثلاثون

عندما خرجت من المبنى بعد ظهر ذلك اليوم من شهر أيلول، تلقفتني برودة الهواء المنعشة وألوان الخرف الزاهية بالبرتقالي والأرجواني وتدرّجاتهما. وإذا بليبي تلفّني بغمرةٍ وبسحابةٍ من عطر الليمون والخزامى، وتزعق قائلة: «وأخيرًا فعلتِها!».

«إن كنتِ تقصدين أني أتممت المقابلة الأولى من سلسلة من المقابلات التي قد لا تؤدّي إلى مكان، فإني فعلت ذلك بالتأكيد».

رجعت ليبي خطوةً إلى الوراء ووجهها يشعّ ابتسامًا. كان شعرها كلّه قد استعاد تقريبًا لونه الأشقر الطبيعي، غير أن ثيابها كانت تعجّ بالألوان. «ماذا قالوا لك؟».

أجبت: «قالوا إنهم سيتّصلون بي لاحقًا».

شبكت ذراعها بذراعي وسرنا على الرصيف. «أعتقد أن الوظيفة باتت في جيبِك».

احتشدت الأعصاب في معدتي. قلت: «أشعر كأني في اليوم الأول من العام الدراسي، وقد أتيت عارية، ونسيت الأرقام السرّية لخزانة كتبي. أو، كأنه اليوم الأخير من العام الدراسي، وفاتني حضور أي من دروس الرياضيّات، بالإضافة إلى كل تلك الأمور الأخرى».

«حالة الشك التي تعتريك دليل إيجابي. أنت تريدين هذه الوظيفة بالفعل، وهذا جيّد. أما الآن فلنذهب لتناول الطعام؛ أكاد أموت من الجوع. هل القائمة معك؟».

«أوه، هل تعنين هذه القائمة؟»، وأخرجت من حقيبتي الورقة المغلفّة بغشاء بلاستيكي لاصق وشفّاف، والتي ذكرت عليها ليبي كل ما نريد أن نتناوله من أطباق، ومن مشروبات، وكل ما نريد القيام به قبل مغادرتهم.

كنت أراها كل يوم تقريبًا حول وجبة الغداء. أو نتمشى معًا إلى حديقة الأطفال القريبة من شقّتها، أو نجلس على الأرض في غرفة الجلوس، وأساعدها في توضيب ثياب بيا وتالا وألعابهما. (كنت أبكي أحيانًا عندما أمسك بثياب صغيرة كانت ترتديها بيا في عمر السنة، ثمّ ارتدتها تالا بعدها، وستكون للطفل التالي بعدهما).

في أحد أيّام السبت، اصطحبنا الفتاتين إلى متحف التاريخ الطبيعي، وقضينا ساعتين ونصف الساعة في غرفة واحدة قبالة الحوت الضخم. وذات مساء التقينا، براندن وليبي وأنا، في أحد مطاعم البيتزا المفضّلة لدينا في حيّ دامبو الراقي في بروكلين. جلسنا في الفناء الخارجي نتبادل أطراف الحديث، حتى اقتربت ساعة الإقفال وبدأ الموظّفون في أعمال التنظيف.

دفعنا مبلغًا إضافيًّا في سنترال بارك لقاء رسوم كاريكاتورية لوجوهنا. وطلبنا من أحد السواح أن يلتقط لنا صورة عائلية حول نافورة بدشيزدا Bedshesda. كنّا نلتقي كل يوم أحد لتناول الفطائر المحضّرة على الطريقة الفرنسية، وفي المكان المتخصّص المفضّل لدى ليبي في ويليامسبرغ.

ثمّ جاء شهر نوفمبر. وغادروا في ساعة مبكرة من يوم جمعة، وكان الطقس مشمسًا. كانت الفتاتان شديدتي النعاس، فتمكنّا من وضعهما في مقعديهما في سيارة النقل من شركة U-Haul بلا ضجّة ولا عناء. غير أني، في سرّي، شعرت بما يشبه الخيبة. كانت أصواتهما الباكية ومناداتهما خالتي نونو ستجرحني بلا شكّ في الصميم، ولكن عدم سماعهما تنبسان بأي كلمة بتاتًا، كان وقعه على الأرجح أصعب عليَّ.

ضمّني براندن مودّعًا، واعتلى مقعده في الشاحنة لكي يتيح لليبي ولي بضع لحظات خاصّة.

«هيّا، أسرعي!»، قلت لها بما يشبه الهمس المسرحي، فرماني بابتسامة، قبل أن يغلق الباب. كانت ليبي تبكي. أخبرتني بأنها أفاقت من نومها باكية. من جهتي لا يمكنني القول إنني نمت في تلك الليلة بالفعل.

عندما استيقظتُ مرعوبة للمرّة الثالثة، فتحت الإنترنت، وحجزت

لنفسي موعدًا مع معالج متخصّص بالنوم. ثمّ ابتعت عبر الشبكة أربعة كتب تؤكّد أنها نجحت في مساعدة أشخاص كانوا يعانون من مثل حالتي تمامًا.

كان مفيدًا لي إلى حدّ معيّن أن أركّز على أمرٍ آخر في منتصف الليل (غير موعد سفر ليبي وعائلتها في الصباح).

«سوف نتهاتف دائمًا، ستشعرين بالملل منّي»، قالت. كان الهواء باردًا، فرفعتُ يدها إليّ، ونفخَت نفسًا دافئًا على أطراف أصابعها.

أدارت عينيها، وضحكت بين الدموع قائلة: «ما زلتِ الأمّ الحنون».

«من التي تتكلّم؟»، انحنيت لأقبّل بطنها. «كن حسن السلوك، أيها الرقم الثالث، وخالتك نونو ستعطيك هديّة عندما تحضر للزيارة. درّاجة نارية، أو بعض الحبوب المخدّرة...».

«لا أعلم ماذا أقول»، قالت ليبي بصوت متقطّع.

احتضنتها بين ذراعي، وقلت: «تبًّا لهذا الأمر».

استرخت بين ذراعي، وقالت: «تبًّا لهذا الأمر حقًّا».

قلت: «ولكنّه خيار جيّد. سوف يكون لكِ منزل كبير، ونوافذ لا تنفتح على مشهد ذلك الرجل العجوز الذي يبقى نصف عارٍ طوال اليوم. وسيكون لديك حديقة، وسترتدين مثل تلك الأثواب المزركشة وغالية الثمن عندما تقيمين حفلات العشاء وتستقبلين الزوار، وتزيّنين البيت بباقات منسّقة من الأزهار الطبيعية. وأولادك سيلعبون حتى ساعة متأخرة في الخارج، ويركضون لالتقاط الفراشات المضيئة مع أولاد الجيران. وربّما سيتعلّم براندن كيف يقطع الحطب، وكيف يقطّع عضل معدته، ليحملك ويتنقّل بك كأنكما في قصة رومنسية».

قاطعتني: «ثمّ تأتين لزيارتنا. وسوف نسهر حتى آخر الليل ونتبادل الأحاديث. سنشرب الكثير، وسأقنعك لتغنّي معي أغاني شيريل كرو Sheryl Crow في سهرة الكارَأوكي في مطعم بوبا سكوات. وسنذهب إلى مزرعة حقيقية لشراء شجرة عيد الميلاد، وليس إلى خيمة في ممرّ ضيّق. وسنأخذ بيا وتالا لمشاهدة فيلم *حكاية فيلادلفيا*، وستقولان: *هل*

نحن على خطأ، أم إن غاري غرانت شخص تافه حقًّا؟ لماذا لا تتزوّج البطلة من جيمي ستيوارت؟».

«وسنقول لهما إن بعض الناس لا يتمتّعون بذوق رفيع»، قلت بجدّية.

«أو نقول إنه قد يكون هناك رجلان وسيمان يتنافسان على قلبك، ويكون عليك أن تديري دولاب الحظّ لتختاري أحدهما عشوائيًّا؛ ثمّ تدفعي الآخر إلى الزواج بزميلته في العمل»، أجابت.

«حبيبتي»، نادى براندن من الشاحنة، واعتذر بتعبير من وجهه على المقاطعة.

هزّت ليبي رأسها إيجابًا، وابتعدنا من غير أن تفلت إحدانا ساعد أختها؛ كأننا كنّا نستعدّ للدوران معًا ككتلة واحدة، وبأقصى سرعة، من غير أن نسمح لأي عامل خارجي من التدخّل وفصلنا عن بعض. هكذا كنّا نشعر بالفعل.

«هذا ليس وداعًا»، قالت.

«كلّا بالطبع. نادين وينترز لا تتذكّر أبدًا التفوّه بعبارات الترحيب ولا الوداع»، قلت.

«نحن أختان، ولا يمكن أن نفكّ ارتباطنا»، قالت.

«إنها الحقيقة»، قلت.

تركت ساعدي وصعدَت إلى الشاحنة.

امتلأت عيناي دموعًا لحظة انطلاق الشاحنة. كان يحق لي أخيرًا ذرف تلك الدموع التي نجحتُ في احتباسها طويلًا أمام ليبي.

اختلطت ألوان الشاحنة البرتقالي والأبيض في البعيد حتى بدا لي كأني أنظر إلى لوحة مائية تُركت تحت المطر. هذه عائلتي تتحلّل وتتحوّل إلى مجرّد لطخات ملوّنة. راقبت الصورة تزداد ضبابية كلّما ابتعدت في أفق الشارع الطويل، حتى انعطفت الشاحنة إلى الشارع الرئيسي وتوارت عن بصري. شعرت في تلك اللحظة كأنّي قالب من الإسمنت انكسر للتوّ ليجد أن داخله ما برح طريًّا.

كنت مثل عصيدة غير متماسكة.

رحت أبكي بقوّة. ليس بدموع صامتة، إنما بجهشات عالية ونشاز. رآني المارّة، فحاول بعضهم الابتعاد عني، ورماني بعضهم الآخر بنظرات شفقة. غير أن امرأةً في مثل سنّي تقريبًا مرّت بمحاذاتي، وأعطتني منديلًا ورقيًّا من غير أن تتمهّل في خطواتها، فالتقطت المنديل كما يلتقط الطفل بطانيته، عاجزة عن فعل أي شيء سوى الاستمرار في البكاء بحدّة، ثم مزج البكاء بالضحك. وكان بطني ينقبض ويسترخي على وقع كليهما.

كانت أمي تقول إن الشخص لا يبرهن على أنه نيويوركي حقيقي حتى يسمح لعواطفه بأن تنفلت وتخرج منه أمام عيون الناس. والآن، وقد توصّلت أخيرًا إلى اتّخاذ قراري بالبقاء في المدينة، فإني أؤكّد على اجتيازي هذه العتبة الأخيرة.

سرت إلى مدخل بيت ليبي، الذي *كان* بيتها، ورحت أتسلّق الدرجات الأمامية صعودًا ونزولًا بين هستيريا الضحك والبكاء، كأني لم أعد أميّز بينهما. وما برحت على هذه الحال حتى رنّ هاتفي، واستطعت أن ألملم شتات نفسي لأتمكّن من الكلام.

نظّفت السوائل من أنفي ومعها حفنة من دموع ما زالت محتقنة، فيما استخرجتُ هاتفي ونظرت إلى الشاشة. «ليبي؟ هل كل شيء على ما يرام؟».

«ماذا يجري من ناحيتك؟»، قالت.

أجبت: «لا شيء. وماذا عنك؟». ومسحت عينيّ بظاهر يدي.

«لا شيء، ولكنّي اشتقت إليك. وفكّرت أن أكلّمك، وأسلّم عليكِ».

امتلأ قلبي حرارة. وامتدّت الحرارة إلى جسدي. إني ممتلئة حتى الشّفة. لا يجب أن يكون لدى شخص كل هذه الكميّة من الحبّ في جسده مرّة واحدة.

«كيف تبدو نيويورك الآن؟»، سألتني.

لم يمضِ على ذهابهم أكثر من ثماني دقائق.

«هل ابتعدتم كثيرًا؟ هل ضغط براندن على دوّاسة البنزين كثيرًا؟».

«كلّا طبعًا. ولكنّي أريد أن أسمعكِ تصفينها».

وصفت لها ما كنت أراه حولي من الحركة المستمرّة، إلى الضجيج المنبعث من كل مكان، وإلى الأشجار التي بدأت ترسل عبر أوراقها الخضراء رسائل مشتعلة بالأحمر والأصفر. هنا رجل يُنزل من شاحنة صغيرة إلى محلّه في الجهة المقابلة صناديق ملأى بالفاكهة. وهناك امرأة متقدّمة في السنّ، تعتمر قبّعة كاوبوي بيضاء مزيّنة بأحجار ملوّنة فوق شعرها الأسود الداكن، وقفت أمام بائع جوّال لتختار من بين الأفلام المسجّلة على أقراص DVD، والمعروضة على طاولة صغيرة قابلة للطي. (سبق وتوقّفنا مرّةً، ليبي وأنا، أمام تلك الطاولة ولم نجد عليها سوى أفلام للممثل كيانو ريفز؛ فتساءلنا بلا تردّد: هل بين هذا الرجل وكيانو ريفز علاقة خاصّة، أو ماذا؟)

أشم رائحة طهو كباب قادمة من آخر الشارع، وأسمع أبواق سيارات في البعيد، ثمّ أرى امرأة تضع نظارات كبيرة، قد تكون ممثلة سبق وشاهدتها في إحدى حلقات مسلسل *SVU*، أو لا تكون. إنها تسير على الرصيف بسرعة مع كلبها الصغير الذي يمشي بقفزات صغيرة ويبدو من نوع بوسطن تيرير.

فقالت ليبي: «حسنًا، إنها الصورة التي نشأتُ عليها. لا شيء جديدًا».

«كنت أعلم أنكِ ستقولين هذا». قلت، وأحسست كأني أراها تبتسم.

كانت ترغب في أن أذهب معها، ولكنها مسرورة لأني اخترت الاتجاه الذي أريده.

كنت أرغب في أن تبقى هنا، ولكن لديّ أمل في أنها ستجد هناك كل ما تحتاج إليه وأكثر.

ربّما لا يجب أن يُبنى الحبّ على التنازلات. وربّما أيضًا، لا يمكن وجوده من غيرها.

ولكن ليس تلك التنازلات التي تدفع الناس إلى العيش في قوالب غريبة عنهم، إنما تلك التي ترخي قبضتها، وتترك للآخر المجال كي يكبر ويتطوّر. التنازلات التي تقول بأنه سيكون هناك دائمًا مكان يناسب شكلك في قلبي. وإذا تغيّر شكلك فسأكون مستعدًا للتأقلم معه.

لا فرق إلى أين نذهب، فإن حبّنا سيتمدّد ليبقى ممسكًا بنا، وهذا يجعلني أشعر بأن...، بأن الأمور ستكون جيّدة.

الفصل السابع والثلاثون

في الثاني عشر من شهر ديسمبر، عند الحادية والعشرين دقيقة، توجّهت إلى مكتبة فريمان.

إنه اليوم الوحيد في السنة الذي حدّدته ليكون يوم عطلة بالنسبة لي. لطالما كان كذلك أثناء عملي في الوكالة، وحرصت على أن أحدّده كيوم عطلة في اتفاقيتي مع دار نشر لوجيا.

بعد سنوات عديدة من الأداء المتقن في عملي كوكيلة، كان التحوّل إلى تعلّم أصول مهنتي الجديدة تحدّيًا، ولكنّه تحدٍّ مثير. أتمعّن في مسوّدات المؤلّفين الذين ´ورثتهم´ مؤخّرًا (عن شارلي) كأنّي عالمة آثار في موقع تمّ اكتشافه حديثًا.

هل يمكن أن يذهب أحد الناس في شغف تحرير الكتب إلى حدّ العشق؟

إذا كان هذا ممكنًا، فإنّه حالي.

أكاد أشعر بالحسرة لأني لم أذهب إلى عملي. ولكنّي سأكون محاطة بالسطور أيضًا.

تمهّلت في سيري لأستمتع بفسحة الدفء التي فاجأتنا بها الشمس اليوم. ذاب الثلج على الرصيف وتحوّل إلى كتل متوحّلة، وكانت الحرارة قد وجدت طريقها إلى داخل معطفي المفضّل وهو من طراز هرّينغبون الذي أحبّه.

اشتريت كوبًا من القهوة، وقطعة من الخبز المحلّى بالمربّى من المطعم حيث كانت تعمل أمّي. تغيّرت الوجوه منذ زمن، ولم يبقَ من يتعرّف إليّ هنا سوى موظّف الصندوق الذي، بحسب ما أذكر تمامًا، تكلّم عبر الهاتف

مع ليبي ومعي في مثل هذا اليوم من شهر ديسمبر الماضي، وهذا كافٍ ليملأني بإحساس مريح بالانتماء.

ثمّ شعرت بألم حادّ؛ كأني لمست عن غير قصد مكان هذا الجرح في قلبي: *شارلي، يجب أن يكون هنا*. لا أتفادى التفكير به، مثلما كنت أفعل بالنسبة إلى جايكوب. عندما يلمع اسمه في ذهني، حتى ولو كان الشعور الذي يوقظه مؤلمًا، فهو أشبه بالحنين إلى كتابٍ مفضّل. الكتاب الذي ترك في نفسك فراغًا، ولكنّه غيّرك إلى الأبد.

مررت من أمام محل لبيع الأزهار وفوق بابه الأمامي توجد خيمة بلاستيكية تؤمّن جوًّا دافئًا للنباتات. دخلت واخترت باقةً جرى تنسيقها من أزهار حمراء داكنة، وأغصان صغيرة ذات وريقات خضراء مائلة إلى الفضّي، وأخرى تحمل أزهارًا صغيرة بيضاء. لا أعرف الكثير بشأن أنواع النبات، ولكن لا بدّ لهذه الأزهار القادرة على التفتّح في الشتاء، أن تكون مقاوِمة، ولهذا وجدتُها تستحقّ الاحترام.

في الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة، كنت لم أزل على مسافة منعطفين من المكتبة. ارتجّ هاتفي في جيب معطفي، فوضعت الباقة في تجويف كوعي، واستخرجت الهاتف، ثمّ سحبت القفاز بأسناني لأتمكّن من فتح الشاشة وقراءة الرسالة التي جاءت من ليبي.

«عيد ميلاد سعيد!»، كتبت كأنها تتوجّه إلى أمّي مباشرة.

«عيد ميلاد سعيد»، أجبت، وشعرت بوخز في صدري. من الصعب عليَّ أن أكون بمفردي اليوم. أحتفل بهذه الذكرى للمرّة الأولى من غير وجود ليبي معي.

«نتحدّث على تطبيق *فايستايم* في ما بعد»، كتبت ليبي.

«طبعًا»، قلت.

وفيما كنت أسرع لأقطع المسافة المتبقية، كانت ليبي تكتب: «هل وصلتك هدّيتي أم بعد؟».

«منذ متى نتبادل الهدايا في مناسبة عيد ميلاد أمّي؟»، أجبت.

«منذ أن افترقنا ولم نعد معًا في هذه الذكرى»، كتبَتْ.

«حسنًا، ولكنّي لم أعدّ لك أيّ هديّة».

«لا بأس، ستعوّضينني لاحقًا. هل تلقّيتِ هديّتك أم بعد؟».

«كلّا، أنا خارج بيتي».

«آه، هل وصلتِ إلى مكتبة فريمان؟».

«سأصل في غضون ثوانٍ»، ودفعت الباب بكتفي ودخلت إلى جوّ هذا المكان المألوف بغباره ودفئه.

«سأدعك وشأنك الآن»، كتبت ليبي. «ولكن ابعثي لي بصورة عندما تصل الهديّة. لا تنسي».

أجبت برمز الإبهام المرفوع وبالقلب الوردي، وأسقطت الهاتف والقفازات داخل جيبي، كي أحرّر يديّ وأتمكّن من البحث بين الكتب.

توجّهت في الحال إلى قسم القصص الرومنسية. سوف أبتاع هذه السنة نسختين من الكتاب الذي سأختاره، وأرسل واحدة عبر البريد إلى ليبي. أو ربّما من الأفضل أن أحملها إليها عندما أزورها لقضاء عطلة الأعياد، والتعرّف إلى الطفل الجديد.

سرت بين مئات الكتب الجديدة. كان الوقت يمضي، ولكنّي في غير عجلة من أمري. لم أخطّط للذهاب إلى أيّ مكان آخر. ليس أمامي ما أقوم به سوى التمعّن في قراءة الفقرات التلخيصية لبعض الكتب أو المقتطفات القصيرة المدرجة على غلافاتها التي لا تخلو من الغبار. قرأت بسرعة الصفحات الأخيرة في بعض الكتب، ولم أفعل ذلك في أخرى. وكنت أردّد من وقتٍ إلى آخر: *ماذا يا أمّي، هل يعجبك هذا الكتاب؟*

ثم أسأل نفسي، *هل أحبّ أنا هذا الكتاب؟* لأن لهذا أهميّة أيضًا.

كلّما أكون أمام رفٍّ من الكتب، أشعر كأني أسمع صيحة أمّي الضاحكة، وأشمّ عطر الخزامى والليمون المنبعث منها. ذات مرّة، كنت مع ليبي غارقتين بين الكتب في مناسبة الثاني عشر من ديسمبر، لدرجة أننا

لم نتنبّه إلى رجل كان يرتدي معطفًا واسعًا ويحوم حولنا طوال عشر دقائق تقريبًا محاولًا الكشف عن أعضائه الحميمة أمامنا.

(وعندما فعل، وتنبّهت إليه أخيرًا، سمعت نفسي أقول بهدوء، وبلا اهتمام: كلا، وما زلت أنظر إلى الكتاب الذي بين يديّ. أما التعبير الذي ظهر على وجهه فولّد في داخلي أكبر فورة من القوّة كنت قد اختبرتها حتى تلك اللحظة. ضحكنا ليبي وأنا طيلة أسابيع بشأن ما كان من الممكن أن يترك فينا أثرًا مرعبًا ومدمّرًا).

مع أنّي كنت أشعر بوجود بضعة أشخاص يتحرّكون في محيطي، لم أعطِ اهتمامًا لأي منهم، إلى أن مددت يدي لأسحب القصة التي تحمل عنوان *الرجل الفظّ Curmudgeon*، للمؤلفة جانيوري آندروز January Andrews، لأجد يدًا أخرى تمتدّ لسحبه في اللحظة عينها.

أظنّ أن معظم الناس يسرعون في هكذا موقف إلى لفظ كلمة «عذرًا!»، ولكن اللفظة التي خرجت على لساني كانت «غير ممكن!».

لم يتنازل أحد منّا عن الكتاب -كما هو معروف عن سكّان المدن- واستدرت للتوّ لمواجهة منافسي غير مستعدّة للتراجع قطّ.

توقّف قلبي.

حسنًا، لم يتوقّف حقًّا. ما زلت حيّة.

ولكني عرفت في تلك اللحظة ما يعنيه مئات المؤلفين بهذه العبارة. إنهم يصفون الشعور الذي يعتريك عندما تكون في حالة من الاستقرار ومتابعة مسارك لسنوات، وتصطدم فجأة بطارئ يغيّر حياتك إلى الأبد.

إنهم يصفون الطريقة التي ينتشر بها الشعور في كيانك من الداخل إلى الخارج. كيف تشعر به في فمك وفي أصابع قدميك في اللحظة ذاتها، كأنك تشهد على انفجارات صغيرة لا تحصى في كل نقاط جسمك.

ثم تتولد موجة الدفء وتسافر من كتفيك إلى قفصك الصدري، وإلى ساقَيك وكفّيك، كأن مجرّد رؤيته حرّك عمليّة تحوّل اليرقة إلى فراشة.

انتقل جسمي من الشتاء إلى الربيع. كأن كل تلك البذور المتفتّحة

تشرئب بأعناقها وتخترق الثلج لتلاقي وجه الشمس. إنه الربيع يستيقظ ويحيا فجأةً في عروقي.

«ستيفنز»، قال شارلي بهدوء، كأنه يلفظ قسَمًا، أو صلاة، أو مانترا.

«ماذا تفعل هنا؟»، تنفّستُ وقلت.

«لا أعلم من أين أبدأ»، قال.

وخطرت في بالي ليبي، وعرفت للتوّ الحقيقة: «إنكَ... إنك هديتي؟».

تلوّت شفتاه ممازحًا ليغيظني، ولكنّ نظرة عينيه بقيت هادئة، وربّما متردّدة. «قد يكون كذلك»، أجابني.

«كيف؟».

«انتقلت الإدارة في مكتبة غودي بوكس إلى أيدٍ جديدة».

نفضت رأسي في محاولة لأزيل ضبابية الموقف. «هل عادت أختكَ؟»، سألته.

هزّ برأسه وأجاب: «بل أختكِ».

انفتح فمي ولم يخرج منه صوت. وعندما أغلقته من جديد، امتلأت عيناي بالدموع. «لا أفهم»، قلت.

ولكن جزءًا مني كان يفهم. أو يريد التصديق بأنه يفهم.

إنه *يأمل*. وهذا الأمل كأنه عقدة من خيوط ذهبية مشتعلة ومتوهّجة، ولكنّها لا ترسم صورة واضحة لشدّة تداخلها.

أعاد شارلي الكتاب من بين يدينا إلى مكانه على الرفّ، ثمّ اقترب مني أكثر، وأخذ يديّ بين يديه.

قال شارلي: «منذ ثلاثة أسابيع، كنتُ في المكتبة عندما حضرت عائلتنا».

«عائلتنا؟».

«سالي، كلينت، ليبي»، قال. جاؤوا بعمل أعدّوه على برنامج Power Point.

« باور بوينت؟ »، سألت بعجب.

تدلّت زاوية فمه، وتابع: «كان العمل منظّمًا للغاية؛ كنتِ ستحبّينه بلا شك. أتوقّع أنهم سيرسلون إليك نسخة عنه».

«لم أفهم. كيف استطعتَ أن تأتي؟».

قال شارلي: «وضعوا قائمة عنوانها: إثنتا عشرة خطوة لجمع العاشقين. وهي تتضمّن مقتطفات عديدة من جاين أوستن. لا أعلم من الذي فعل ذلك؛ هل هي ليبي، أو والدي. ولكن النتيجة أنهم توصّلوا إلى عدد من النقاط المقنعة».

فاضت الدموع في عينيّ، وفي أنفي، وفي صدري. وقلت: «أيّ نقاط مثلًا؟».

رأيت ابتسامة عريضة تشرق على وجهه؛ وعاصفة كهربائية كأنها تشتعل وراء عينيه. «مثل أني متشوّق لرؤية دراجتك الرياضية الممتازة على أرض الواقع. وأريد أن أتأكّد إذا كان فراشك يستحقّ بالفعل كل ذلك الإطراء. والأهم من كل شيء، هو أني مجنون في حبّك يا نورا».

«ولكن... ولكن ماذا عن والدك...؟».

«تخرّج من جلسات التأهيل الفيزيائي باكرًا، بحسب قوله. وتقول شاشة *باور بوينت* إنه تخرّج بنتائج مشرّفة. ولكنّي متأكد بنسبة تسعين بالمئة أنها ليست الحقيقة. تسلّمت ليبي إدارة المكتبة. والفتاتان تركضان وتلعبان ما يحلو لهما يوميًا هناك؛ وتالا تعترض كل من يحاول الخروج من المكتبة من غير أن يشتري شيئًا. الأمور رائعة هناك. أوصتني ليبي أن أخبرك بأنها وبراندن 'فقراء في مانهاتن، وأغنياء في نورث كارولاينا'. بعد ولادة الطفل، سوف تحلّ السيدة شرويدر مكان ليبي ريثما تعود من عطلة الأمومة. وعندما تعود ليبي إلى العمل، فسوف تستعين بمربّية للاهتمام بالطفل. ولذلك عليك أن تتوقّفي عن القلق بشأنها قبل أن تبدأي».

ضحكت حتى انهمرت دموعي، وسألته: «ولكن أمّك قالت إنها لا تسمح بأن يتسلّم أحد من خارج العائلة إدارة المكتبة».

أثبت عينيه على وجهي، وتكلّم بتعبير جدّي قائلًا: «أعتقد أنها تأمل بألّا تبقى ليبي من خارج العائلة إلى زمن طويل».

تلك الكلمات كانت كافية لكي ينفجر السدّ، وتفيض دموع الفرح بينما احتضن شارلي وجهي في راحتيه. «قلت لوالديّ إني لن أتركهما وهما بحاجة إليّ. فهل تعلمين ما كان جوابهما؟».

«ماذا؟»، سألت بعد أن تقطّع صوتي مرّات عدّة قبل أن أنطق بهذه الكلمة الصغيرة.

«قالا إنهما الأهل»، واختنق صوت شارلي وتابع: «يبدو أنهما لا يحتاجان منّي سوى أن أكون سعيدًا. وأنهما لن يعترضا على أن يصبح لهما كنّة جميلة ومثيرة».

لا أعلم، هل أضحك، أو أبكي، أو أصرخ بملء صوتي، صرخة حماسة وليس صرخة خوف.

«هل هي كلمات سالي تحديدًا؟»، قلت.

ضحك، وقال: «منقولة بالمعاني نفسها».

شعرت بالعقدة تتسرّح في داخلي، وتعلو صعودًا إلى حنجرتي، ثمّ تنشر خيوطها المشرقة في معدتي، فيما تابع شارلي كلامه.

«نورا ستيفنز، لقد بحثت في دماغي، وهذا أفضل ما استطعت الخروج به. أرجو أن يكون مرضيًا لك؟».

رفع عينيه إليّ. أحبّ كل ما فيهما، وأحبّ وجهه وقامته. كل ما يتّصل به من تفاصيل حادّة، ونقاط غير مستوية، وظلال. كلّها أعرفها، وكلّها رائعة. ربّما ليست رائعة بنظر امرأة أخرى، ولكنّها كذلك بنظري.

«سأعود للعيش في نيويورك. سأجد وظيفة جديدة في التحرير، أو أتحوّل إلى العمل كوكيل، أو أعود إلى محاولات الكتابة من جديد. تتقدّمين أنتِ في عملك في لوجيا، وسيكون لدى كلينا انشغالات كثيرة دائمًا. وفي صانشاين فولز، ستهتمّ ليبي بإدارة المكتبة (المشروع المحلّي) التي أزاحت عنها خطر الإفلاس. وسيدلّل والدايَ بنات أختك كأنهما

الحفيدتان اللتان يتوقان إليهما. قد لا يصبح براندن ماهرًا في صيد السمك، ولكن سيكون لديه وقت للاسترخاء، وحتى إنه سيتمكّن من السفر من وقتٍ لأخر في عطلة، مصاريفها مدفوعة، مع أختك والأولاد. أما أنت وأنا، فسنخرج لتناول طعام العشاء في أحد المطاعم.

«سنذهب إلى حيث نريد، ساعة نريد. سنفرح ونسعد بحياتنا في المدينة. ستسمحين لي بأن أحبّك كثيرًا وبقدر ما أعلم أني أستطيع أن أحبّك، أنت المرأة التي لديها كل ما أحبّه في النساء. هذا كل شيء. هذا أفضل ما يمكنني أن أقدّمه، وإني أتمنّى حقًّا أن تقولي».

قبّلته في تلك اللحظة، كما لو لم يكن هناك شخص يقرأ في إحدى قصص بريدجرتون[1] على بعد ثلاثة أمتار؛ كأننا وجدنا بعضنا للتوّ على جزيرة خالية بعد أشهر من الفراق. وضعت يدي في شعره، ولمس لساني أسنانه، وانزلقت يداه فوق ظهري، لتشدّني إليه في المشهد الأكثر جرأةً على مرأى الناس.

عندما ابتعدنا قليلًا لنتنفّس، قال: «أحبّك يا نورا. أظنّ أني أحبّ كل ما يتعلّق بك».

«حتى دراجة بيلوتون خاصّتي؟»، سألته.

«إنه جهاز متقدّم وعظيم».

«حتى مسألة أني أتفحّص بريدي الإلكتروني بعد ساعات الدوام؟»، قلت.

«هذا يسهّل عليَّ مشاركتك في قصص بيغفوت إروتيكا من غير أن أغادر مقعدي»، قال.

«أنتعل أحيانًا أحذية غير عمليّة»، قلت.

«لا أهميّة لذلك بالمقارنة مع أهميّة المظهر الجذّاب»، قال.

«وماذا عن شهيتي لسفك الدماء؟».

(1) Bridgerton: قصص رومنسية في إطار تاريخي.

أخفض جفنيه وابتسم ليقول: «قد يكون هذا الأحبّ إلى قلبي. كوني سمكة القرش في حياتي، ستيفنز».

«هكذا كنتُ دائمًا».

«أحبّكِ»، قال مجدّدًا.

«أحبّكَ أيضًا»، قلت.

لم أجد أني قلت العبارة بصعوبة أو أني استخرجتها من حنجرة ضيّقة. إنها ببساطة الحقيقة، ورأيتني أتنفسها مع أنفاسي. كأنها نفحة من دخان، وتنهيدة صادقة، وبرعم زهر آخر عائم إلى جانب ملايين مثله على سطح النهر الجاري.

قال: «أعلم هذا، فأنا أستطيع قراءتك كما لو كنتِ كتابًا مفتوحًا».

الخاتمة

بعد مرور ستّة أشهر

في نافذة غودي بوكس يتهادى عدد من بالونات الزينة، وفي الخارج لوح طبشور صغير كتبت عليه بضع عبارات. وعلى الرغم من وهج الضوء على الزجاج، يمكن للمراقب من الخارج ملاحظة وجود أشخاص يتحرّكون في الداخل، ويتبادلون الأنخاب وفي أيديهم كؤوس شمبانيا، فيما يتحدّثون ويضحكون ويستكشفون الكتب المعروضة على الرفوف.

قد يبدو المشهد لغير العارف حفلة عيد ميلاد. وهناك على كلّ حال فتاة صغيرة بلغت الرابعة منذ أيّام، تركض بين الحاضرين بعد أن خطفت قرص حلوى من الطبق الكبير الذي رُصفت عليه تلك الأقراص على شكل هرمٍ مرتفع في الجهة الخلفية من المكتبة. كانت تدور حول أقدام البالغين وترسم دوائر بكلّ الأشكال، فتصطدم بكرسيّ هنا، وبرفّ كتب هناك، وحول فمها ألوان بنفسجيّة من سكاكر التزيين.

أو إن المجموعة تحتفل بأختها النحيلة ذات القامة الطويلة والشعر الأشقر الرمادي الناعم، إذ نجحت أخيرًا وبصعوبة في تعلّم القراءة؟ (إنها الآن تمضي معظم الأيام متكوّمة حول نفسها وبيدها كتاب، في المقعد الطري الأخضر المحشو بكرات الستيروفوم في قسم كتب الأطفال). أو قد تكون المناسبة للاحتفاء بالطفلة المحمولة على خصر السيدة ذات الشعر الوردي، لأنها في الواقع دبّت على الأرض للمرّة الأولى منذ تسعة أيّام (مع أنها دبّت إلى الوراء ولثانية واحدة لا أكثر)، ولكنّك لو سمعتَ

صرخات أمّها وخالتها الحماسية في الفيديو، لظننت أن الطفلة ربحت جائزة نوبل. («هيّا، افعليها من جديد، كيتي، دعي خالتك نونو ترى أنك الطفلة الأكثر مرونة في العالم»).

وهناك أيضًا سبب محتمل للاحتفال بزوج المرأة ذات الشعر الوردي. فبعد أسابيع طويلة من التدرّب مع نادي صيد السمك المسمّى «اصطد السمكة وحرّرها على الفور»، نجح أخيرًا في صيد شيء ما هذا الصباح، فيما كان الضباب كثيفًا فوق مياه النهر - ولو أن صيده كان حمّالة صدر من المقاسٍ الكبير.

كانت سارقة الحلوى ابنة الرابعة تمرّ مرور السهم بين ساقَيه، ثم تركض لترتطم بالرجل المسنّ المستند إلى عصاه، وتقهقه كلّما داعب شعرها. ربّت أحدهم على ساعد هذا الرجل، وهنّأه لكونه تقاعد أخيرًا، فأجاب: «بات لديّ الآن الوقت الكافي لتنظيف قنوات المياه المحتقنة حول البيت».

ربّما حضر الجميع إلى هنا من أجل الاحتفال بالمرأة ذات العينين المتغضّنتين، التي تتحرّك وسط سحابة من عطر الليمون المذيّل برائحة الحشيش - وكان قد جرى قبول اثنتين من لوحاتها للاشتراك في معرضٍ فنّي جماعي.

أو ربّما حضروا للاحتفاء بمكتبة غودي بوكس نفسها التي كانت قد حصدت نتائج مربحة في ذلك الشهر، أكثر ممّا فعلته في أيّ شهر مضى منذ ثمانية أعوام.

ومن المحتمل أن السبب هو أن الشاب ذي الحاجبين الكثيفين، والذي غالبًا ما يبتسم ملوّيًا شفتيه، تلقى عرضًا لتبوّء مركز في دار نشر ´وارتون بوك هاوس´ العريقة. والمركز الجديد أعلى بدرجات من مركزه السابق في الدار عينها. أو ربّما يتّصل الاحتفال بتلك العلبة المغلفة بقماش مخمليّ، والتي لا يكفّ عن تقليبها في جيبه. (لا شيء داخل تلك العلبة، خصوصًا وأنّ حبيبته قالت مرّةً إلى إنّها تفضّل اختيار خاتم زواجها بنفسها). أما حبيبته، تلك المرأة ذات الشعر الأشقر الجليدي المتكئة إلى كتفه، فكانت

تعلم منذ أسابيع ماذا ستقول. (أعدّت قائمة بالنقاط الإيجابية والسلبية، ولكنها لم تكتب شيئًا سوى اسمه في عمود الإيجابيات. أما في العمود الآخر، فكتبت: *ربّما ألبس على امتداد العمر قطعة مصاغٍ لم أخترها بنفسي؟؟؟*).

وربّما كان الاجتماع من أجل الاحتفاء بالمرأة التي تضع على عينيها نظارات بعدسات سميكة لعلها بسماكة قعر زجاجة الكولا. كانت تمسك كأس شمبانيا، فيما تقدّمت إلى حيث المايكروفون في وسط القاعة. وقفت، وإلى جانبها طاولة رتّبت عليها كدسة من كتب ذات غلاف رمادي غامق، وكان قد جلس قبالتها عدد كبير من الناس صامتين ومأخوذين، بانتظار ما ستقوله في تقديم كتابها الجديد.

استهلّت قائلة: «إلى الذين يريدون كلّ ما يمكن لكتاب تقديمه، أرجو أن تجدوا في هذه القصّة أكثر ممّا تتوقّعون».

ثمّ تساءلت إذا كان من الممكن أبدًا لما سيأتي، أن يرتفع إلى مستوى التطلّعات.

وقالت إنها لا تعلم. ولا يمكن قطّ معرفة ذلك.

ولكنها تقلب الصفحة في جميع الأحوال.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أميلي هنري

عشّاق وكتب

"ربّما لا يجب أن يُبنى الحبّ على التنازلات.
وربّما أيضًا، لا يمكن وجوده من غيرها".

حياة نورا ستيفنز عبارة عن حياة بين الكتب، ولكنها لا تجد نفسها تشبه أي من بطلات تلك الكتب التي قرأتها... كانت الوقائع التي عاشتها بعيدة عن صورة الحب الرومانسي الذي تجده في الكتب. في الواقع، الأشخاص الوحيدون الذين تُعتبر نورا بطلتهم هم عملاؤها، الذين تعقد لهم صفقات مربحة كوكيلة أدبية شرسة؛ وأختها الأصغر والوحيدة ليبي التي تشكل عائلتها، والتي تمنحها الشعور بالحب.

يدفعها حبها لليبي للموافقة على اقتراحها بالذهاب إلى قرية صانشاين فولز للقيام برحلة للأختين بمفردهما. هناك ستصطدم بمفاجأة وجود محرر الكتب تشارلي لاسترا، في تلك القرية. وبسبب الانطباع السيئ عن لقائها الأول به في نيويورك في إطار العمل، وعلى الرغم مما بدا من اهتمام تشارلي بها، فإنّ نورا كانت تتردّد... لكن سلسلة من الحوادث ستجمعهما وستقلب حياتهما...

***

"هو مزيج مسكر من الرغبة والتوق... إنها تثير مواضيعها بأكثر الطرق متعة".

Entertainment Weekly

"كتُب أميلي هنري هدية. إنها التوازن المثالي بين ما هو متّقد وما هو هادئ... الأسلوب سهل، والشخصيات ساحرة. تتمنى ألّا تنتهي الرواية".

V. E. Schwab

"من خلال اللعب على الاستعارات والنماذج الرومانسية وتخريبها... تقدم هذه الرواية تأملًا كوميديًا ذكيًا عن الحب والحياة العائلية".

NPR

470 يوم غزة

مكتبة
t.me/soramnqraa

التنوير
daraltanweer.com